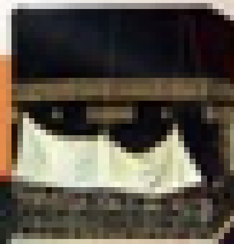
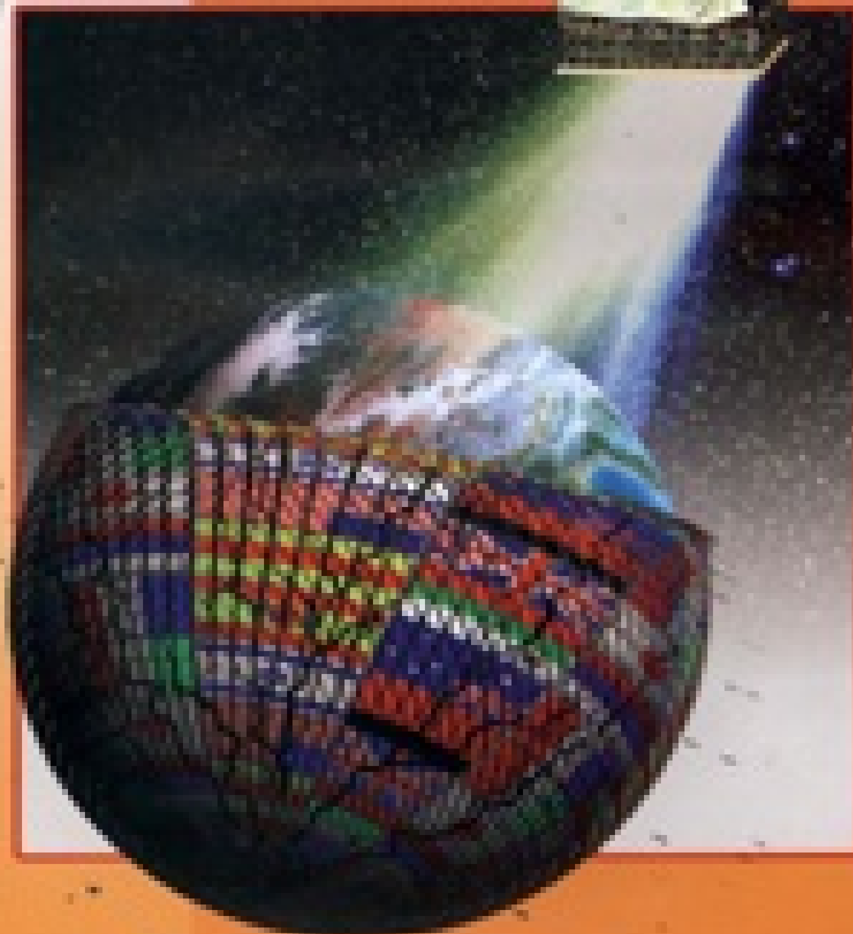
ميقات الحج





٢١

محرم - جمادى الثانية

١٤٢٥هـ

السنة الحادية عشرة

▪ الطواف من الطابق الأول ▪ فقه التظليل في الحج ▪ ومسجداً ضراراً

▪ مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية

▪ فلسفة الحج في مدرسة أهل البيت (ع) ▪ من معالم التراث: رسالتان وقصيدة

بسم الله الرحمن الرحیم

دو فصلنامه « میقات الحج »

کاتب:

محمدی ری شهری

نشرت فی الطباعهٔ:

مشعر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیهٔ باصفهان للتحریات الکمبیوتریهٔ

الفهرس

میقات حج-المجلد واحد والعشرون

اشارة

نام کتاب: دو فصلنامه« میقات الحج»

نویسنده: مرکز تحقیقات حج

ص: ۱

الحج فى كلام الإمام الخمينى قدّس سرّه

ص: ۲

لقد جاء الحجاج لضيافة اللَّه، ولكى يزيلوا بماء زمزم ما علق بوجوههم من تراب رحلتهم وغبارها، ويطفئوا بزلال مناسك الحجّ عطشهم، ويتحملوا المسؤولية بجدارة أكبر، ويخلعوا عن أبدانهم فى‌سيرتهم وصيرورتهم الأبدية؛ رداء التبعية وحجابها، والتعلق القلبى بالدنيا، ليس فى

«ميقات»

الحج فحسب، بل فى

«ميقات»

العمل أيضاً...

لقد شرّع الحج لاقتراب الإنسان وارتباطه بصاحب البيت، ولم يكن مجموعة من الحركات والأعمال والالفاظ فحسب، لأنّ الإنسان لا يصل إلى اللَّه تعالى بالكلام والألفاظ والحركات الميتة.

إنّ الحج مركز للمعارف الإلهية، الذى يجب أن يستلهم منه مضامين السياسة الإسلامية فى مختلف مناحى الحياة.

الحجّ دعوة لإيجاد مجتمع بعيد عن الرذائل المادّية والمعنويّة.

الحجّ تجسيد وتجلّى لكافّة المشاهد البديعة لحياة الإنسان والمجتمع المتكامل فى الدنيا. وإنّ مناسكه لهى مناسك للحياة، وبما أنّ الأمّة الإسلامية مزيجٌ من كلّ عنصر وشعب، فلابدّ وأن يكون إبراهيمياً حتّى يتسنّى له الالتحاق بقافلة أمّة محمّد صلى الله عليه و آله ويصبح جزءاً منها، ويداً واحدةً، فإنّ الحجّ هو العامل الذى يهيّئ ويوجد وينظّم مثل هذه الحياة التوحيديّة.

من نداء الإمام الخمينى إلى حجّاج بيت اللَّه الحرام

ص: ۳

الحج فی کلام الإمام الخامنئی مدّظلّه العالی

الحجّ فرصة فریدة استثنائیة، لأنّها- من جهة- تصقل القلوب والنفوس، فیتمتع الحجیج- کلٌّ علی قدر همّته وطاقته- ببرکات هذه الرحمة الشاملة؛ ومن جهة أخری تتمکن فیها شخصیة الأمّة الإسلامیة العامة- والتی تتألف من مختلف الشعوب والأعراق والأقطار والثقافات- من أن تحقّق مزیداً من التلاحم والانسجام، والشجاعة والصحوة والوعی بالذات.

وهذا، ما یمثل الحاجة الضروریة الکبری للعالم الإسلامی فی عصرنا الحالی...

إنّ امریکا تعتبر نفسها- وبشکل صریح- محقّة فی الاعتداء علی الدول والشعوب. وإنّ الدولة الصهیونیة تهدّد الشخصیات الفلسطینیة بالاغتیال، وذلک بشکل صارخ وصریح... وهکذا نلاحظ أنّ أمریکا وبریطانیا فی العراق تهاجمان المواطنین العزّل المشارکین فی المظاهرات، وتنتهکان حریم منازل الناس وحرمة أعراضهم. ویتوعّد هؤلاء العالم الإسلامی ویهدّدونه بتأجیج نیران جدیدة فیه، ولمّا یخمد لهب النیران التی اندلعت من قبلُ بأیدیهم...

إنّ النخب السیاسیة والفکریة فی عالمنا الإسلامی تتحمل الیوم مسؤولیة جسیمة.

علی المفکرین المسلمین أن ینقلوا رسالة الإسلام التحرّریة إلی مسامع مواطنیهم وقلوبهم، وأن یبیّنوا للشعوب المسلمة هویتها الإسلامیة بوجهٍ صحیح.

من نداء الإمام الخامنئی (مدّظلّهالعالی)

موسم الحج، عام ۱۴۲۴ ه.

ص: ۴

ص: ۵

الطواف من الطابق الأوّل دراسة فقهية استدلالية

اشارة

الشيخ محمّدجواد الفاضل اللنكرانى

وقع الخلاف فى عصرنا هذا فى صحّة الطواف من الطابق الأوّل وعدمها، كما اختلفت وجهات النظر فى جواز الطواف تحت الأرض بحذاء الكعبة فيما إذا بنيت أبنية تحت أرض المسجد.

وبناءً على الجواز، هل يكون الترخّص منحصراً بما إذا لم يقدر على الطواف فى صحن المسجد، كما إذا كان الزحام كثيراً أو لم يكن قادراً على المشى فى الصحن لعدم التمكّن والاحتياج إلى الإطافة بالآلات الموجودة أو لوجود المانع العرضى عن ذلك، أم لا يكون منحصراً بذلك، بمعنى أن الطائف يتخيّر- بدواً- بين الطواف فيه والطواف فى الطابق الأول؟

والتحقيق حول هذا البحث يقع ضمن محاور:

علاقة البحث بفكرة حدّ الطواف

الأوّل: من الواضح دخول من ذهب إلى عدم وجود حدّ للمطاف فى هذا النزاع، لكن هل يدخل فيه من ذهب إلى وجود حدّ له كالمشهور أم لا؟

الظاهر دخولهم فى محلّ البحث، وذلك بأن يفرض فيما إذا بنى فى نفس الحدّ الطابق الأوّل والثانى حال كونهما مرتفعين عن البيت أو مساويين، إلّاأنّ المشكلة

ص: ۶

أنّه لا واقع لهذا الفرض فی زماننا هذا.

علاقة البحث بمسألة الزيادة على البناء

الثانی: وقع الخلاف فی جواز الإضافة- من جهة الارتفاع- علی البیت الشریف، وذلک بعد المفروغیة عن أنّه لا یجوز التنقیص أو التخریب فیه، فبناءً علی جواز الإضافة، إذا تحقّقت الإضافة- مثلًا- إلی حدّ یصیر ضعف الموجود الآن أو أكثر فلاشکّ فی جواز الطواف حوله، وإن علا، لكنّه- بناءً علی الجواز وعدم تحقّق الإضافة- وقع النزاع فی جواز الطواف بالنسبة إلی محلّ یكون أعلی من البیت، وأمّا إذا ذهبنا إلی عدم جواز الإضافة إلی البیت، فالظاهر عدم الخلاف فی عدم الجواز بالنسبة إلی ما یكون فوق الكعبة.

والظاهر جواز الإضافة، فإنّه مضافاً إلی الأصل- فإنّ البیت كسائر الأمكنة والأبنیة، فكما تجوز الإضافة مثلًا إلی نفس المسجد كذلک تجوز إلی نفس البیت، ولاینبغی توهّم أنّه من الامور التوقیفیّة كالأحكام التعبّدیة- یدلّ علیه بعض الروایات، منها:

ما ذكره جماعة عن أحمد بن محمّد عن سعید بن جناح عن عدّة من أصحابنا عن أبی عبداللَّه علیه السلام قال: «كانت الكعبة علی عهد إبراهیم علیه السلام تسعة أذرع، وكان لها بابان، فبناها عبداللَّه بن زبیر فرفعها ثمانیة عشر ذراعاً، فهدمها الحجّاج وبناها سبعة وعشرین ذراعاً» (۱).

وتقریب الاستدلال بها أن یقال: إنّ عدم ردع الإمام علیه السلام یدلّ علی جواز الإضافة من جهة الارتفاع إلی البیت.

إلّا أنّ الروایة غیر معتبرة من جهة اشتمالها علی أحمد بن محمّد، وهو مشترک بین جماعة، وسعید بن جناح فإنّه وإن كان مورداً لتوثیق النجاشی و موجوداً فی أسناد كامل الزیارات إلّا أنّه لم یعلم الراوی عنه، ومعه لایصحّ الاستناد إلی الروایة المذكورة.

۱- وسائل الشیعة، الباب ۱۱، باب وجوب بناء الكعبة إن انهدمت، ح ۷، ۱۳: ۲۱۳، وأیضاً ح ۸.

ص: ۷

جریان البحث فی الطواف الواجب والمندوب

الثالث: الظاهر عدم اختصاص النزاع بالطواف الواجب، بل یجری فی الطواف المندوب أیضاً، کما أنّه علی القول بوجود حدّ للمطاف، وهو ما بین البیت والمقام، لاشکّ فی لزوم مراعاته فی الطواف المندوب.

ویدلّ علیه إطلاق ما دلّ علی الحدّ وأنّ الطائف خارج هذا الحدّ لیس بطائف، والانصراف إلی الواجب لا وجه له أصلًا، کما أنّه لا دلیل علی تقیید الإطلاق فی المقام.

إنّ البیت کسائر الأمکنة والأبنیة، فکما تجوز الإضافة مثلًا إلی نفس المسجد کذلک تجوز إلی نفس البیت، ولاینبغی توهّم أنّه من الامور التوقیفیّة

نعم، دلَّ الدلیل علی عدم اعتبار الطهارة فی الطواف المندوب، ویدلّ علیه الروایات المعتبرة (۱)، خلافاً لأبی الصلاح فإنّه ذهب إلی وجوبها فیه أیضاً لإطلاق

بعض النصوص، وأیضاً دلّ الدلیل علی جواز قطع الطواف المندوب عمداً علی قول جمع، کما دلّ علی کراهة الزیادة علی السبع فی الطواف المندوب.

لزوم دخول جمیع أجزاءالبدن فی الطواف وعدمه

الرابع: هل یجب دخول جمیع أجزاء بدن الطائف فی المطاف، وهل یکفی دخول معظم أجزائه بحیث یصدق عرفاً أنّه یطوف أم لا؟

الظاهر کفایة الصدق العرفی فی ذلک، والعرف یحکم بأنّه إذا کان معظم أجزائه داخلًا فی المطاف، یصحّ طوافه وإن کان رأسه مثلًا أعلی من البیت، ولا دلیل علی لزوم کون جمیع الأجزاء داخلة فیه، وقد صرّح صاحب الجواهر فی مسألة

۱- صحیح ابن مسلم: «سألت أحدهما علیهما السلام عن رجل طاف طواف الفریضة وهو علی غیر طهر؟ قال: یتوضّأ ویعیدطوافه، وإن کان تطوّعاً توضّأ وصلّی رکعتین»، الوسائل، کتاب الحج، الباب ۳۸ من أبواب الطواف، ۲ ح ۳.

ص: ۸

الاستقبال بأنّه یکفی صدق الاستقبال وإن خرج بعض أجزاء البدن عن جهة الکعبة، ولا یلزم فی صدقه کون جمیع أجزاء البدن داخلًا فی جهة القبلة، وهذا معناه أنّ المولی إذا أمر بالاستقبال کفی فی الامتثال تحقّق هذا العنوان عرفاً وصدقه فی الخارج کذلک.

قال صاحب الجواهر: «وکیفیّة استقبال القبلة أمر عرفی لا مدخلیة للشرع فیه، والظاهر تحقّق الصدق وإن خرج بعض أجزاء البدن التی لا مدخلیة لها فی صدق کون الشخص مستقبلًا وحالته استقبالًا من غیر فرق فی ذلک بین القریب والبعید، لکن فی القواعد: أنّه لو خرج بعض بدنه عن جهة الکعبة بطلت صلاته، بل قیل: إنّه کذلک، فی نهایة الاحکام والتحریر والتذکرة والذکری والبیان والموجز وکشف الالتباس وجامع المقاصد وفوائد القواعد، والتحقیق عدم اشتراط ما یزید علی صدق الاستقبال، ودعوی توقّف الصدق المزبور علی الاستقبال بجمیع أجزاء البدن یکذّبها الوجدان فیما لم یذکر فیه متعلّق الأمر بالاستقبال جمیع البدن بل اقتصر علی قوله استقبل» (۱).

والظاهر أنّ الطواف کالاستقبال، فإنّ امتثال قوله تعالی:

«وَلْیَطَّوَّفُوا»

یکفی فیه صدق الطواف العرفی، ولا یعتبر فیه أن یکون جمیع أجزاء الطائف داخلًا فی المطاف بحیث لو کان رأسه أو یده مثلًا خارجاً عن حدّ المطاف لکان مخلّاً بطوافه، ومن الواضح عدم ثبوت حقیقة شرعیة لهذا المفهوم، کما أنّه لیس من الموضوعات التی تصرّف فیها الشارع المقدّس، کما أنّ الشارع لیس عنده کیفیّة خاصّة من جهة أصل العمل فیه وإن أضاف إلیه بعض الشرائط کالطهارة والبدو من الحجر الأسود والختم به.

نعم، لا ثمرة لهذا البحث بعد الذهاب إلی التوسعة والقول بأنّ ما علا الکعبة محکوم بحکم البیت یجوز الطواف حوله، إذ علیه تکون أجزاء الطائف داخلةً علی الدوام، لا معنی لخروج بعضها.

۱- جواهر الکلام ۷: ۳۲۹.

ص: ۹

حکم البناء فی مکّة مرتفعاً عن البیت

الخامس: ورد النهی فی الروایات عن البناء فی مکّة مرتفعاً عن الکعبة.

منها: ما ذکره محمّد بن یعقوب عن محمّد بن یحیی العطّار عن محمّد بن الحسین عن علی بن الحکم عن صفوان، عن العلاء عن محمّد بن مسلم عن أبی جعفر علیه السلام فی حدیث قال: «نهی علیه السلام أن یرفع الإنسان بمکّة بناءً فوق الکعبة» (۱).

والروایة معتبرة من جهة السند، فإنّ المراد من محمّد بن الحسین هو محمّد بن الحسین بن أبی الخطّاب علی ما استظهره السیّد الخوئی (۲)، وهو ثقة جلیل،

وعلی بن حکم أیضاً ثقة، وصفوان وإن کان مشترکاً بین صفوان بن مهران وصفوان بن یحیی إلّاأنّ کلیهما ثقتان، والمراد من العلاء هو علاء بن رزین وهو ثقة جلیل القدر.

والظاهر أنّ الطواف کالاستقبال، فإنّ امتثال قوله تعالی: «وَلْیَطَّوَّفُوا» یکفی فیه صدق الطواف العرفی، ولا- یعتبر فیه أن یکون جمیع أجزاء الطائف داخلًا فی المطاف بحیث لو کان رأسه أو یده مثلًا خارجاً عن حدّ المطاف لکان مخلّاً بطوافه

ومنها: ما ذکره المفید فی المقنعة قال: «نهی علیه السلام أن یرفع الإنسان بمکّة بناءً فوق الکعبة».

وبعد الاختلاف فی أنّه هل هو محمول علی الحرمة أو دالّ علی الکراهة کما یستفاد من عنوان الباب الموجود فی الوسائل، یوجد سؤال آخر وهو: هل النهی فی هذا النصّ شامل لجمیع الأبنیة الواقعة فی مکّة حتّی المسجد الحرام بمعنی أنّ الشارع نهی أن یرفع بناء فوق الکعبة لشرافتها، فلایجوز البناء حتّی داخل المسجد

۱- وسائل الشیعة، باب کراهة رفع البناء بمکّة فوق الکعبة، باب ۱۷.

۲- معجم رجال الحدیث ۱۵: ۲۹۰.

ص: ١٠

بحيث يصير مرتفعاً عنها، أو أنّ النهى مختصّ بالأبنية التى يصطنعها الناس لأنفسهم، ومن ثمّ تكون الروايات منصرفة عن نفس المسجد؟

الظاهر عدم الانصراف؛ لعدم وجه له، والإنصاف ظهور الكلام فى الإطلاق سيما بالنسبة إلى كون لفظ البناء نكرة فى سياق النفى أو النهى، ويؤيّده قرينة مناسبة الحكم والموضوع، فإنّ شرافة الكعبة وعظمتها يجب أن تحفظ بالنسبة إلى كلّ شىء حتّى بلحاظ البناء الموجود داخل المسجد.

فبناءً على الإطلاق يمكن أن يقال بعدم صحّة الطواف من الطابق الأوّل الموجود فعلًا، فإنّه- بعد التحقيق والسؤال- ظهر فى زماننا هذا كونه مرتفعاً عن البيت بمقدار سبعة وعشرين سانتيمتراً.

والدليل على ذلك أنّ الشارع إذا نهى عن البناء نفهم بالملازمة العرفية عدم صحّة الطواف منه أو نفهم عدم جواز كون الإنسان أيضاً مرتفعاً عن الكعبة.

هذا، والإنصاف أنّ هذه الروايات لا تشمل صورة ما إذا كان نفس الإنسان مرتفعاً عن البيت حال الطواف، فإنّ موردها الأبنية الثابتة لا المتحركة، فلا تشمل الإنسان نفسه فى دورانه حوله مرتفعاً عنه.

كما أنّ شرافة البيت- والتى هى الحكمة الأصلية لهذا الحكم- لا تشمل ما يتعلّق بهذا البيت من الأبنية الموجودة فى المسجد ممّا هو من شؤونه.

ص: ۱۱

الطواف من الطابق الأعلى

السادس- وهو المهمّ فی المقام وحاصله: أنّه قد اشتهر فی ألسنة الفقهاء، بل صار أمراً مجمعاً علیه بینهم، بل بین المسلمین کما صرّح به کاشف اللثام؛ أنّ القبلة تمتدّ محاذیة للکعبة علواً وسفلًا من عنان السماء إلی تخوم الأرض، وأنّه لا عبرة بالبناء الموجود المحسوس، والظاهر أنّ أوّل من صرّح به هو الشهید الثانی فی المسالک ثمّ تبعه صاحب المدارک، وتبعهما جمیع من تأخّر عنهما إلی زماننا هذا، إلی أن صار أمراً مسلّماً عند الجمیع (۱).

لکنّ السؤال یکمن فی أنّ الطواف هل هو ملحق بالاستقبال، بحیث یکون الفضاء الموجود فوق البیت أو تحت الأرض ملحقاً به، فیجوز الطواف حوله أم لا؟

وبعبارة اخری هل أنّ الطواف حول الفضاء طواف حول البیت أم لا؟ ومن ثمّ لا یکون ملحقاً، بل ذاک الحکم مختصّ بالاستقبال؟

والإنصاف أنّ هذه الروایات لا تشمل صورة ما إذا کان نفس الإنسان مرتفعاً عن البیت حال الطواف

الظاهر أنّ المستفاد من الروایات عدم اختصاصه بالاستقبال، فإنّ بعضها یدلّ بالإطلاق علی جواز الطواف حول الفضاء أیضاً، فقد روی الصدوق- إرسالًا- قال الصادق علیه السلام: «أساس البیت من الأرض السابعة السفلی إلی الأرض السابعة العلیا».

وهذه الروایة وإن کانت مرسلة إلّاأنّ هذا النوع من الإرسال غیر مضرّ کما حقّق فی محلّه.

کما أنّ الدلالة واضحة، فإنّ قوله: «أساس البیت» لا یختصّ بالاستقبال، بل یشمل الطواف أیضاً، ولا قرینة فی الروایة علی اختصاصه بالاستقبال. نعم،

۱- المسالک ۱: ۱۵۲؛ المدارک ۳: ۱۲۱؛ الحبل المتین ص ۱۹۰؛ ذخیرة المعاد ۲: ۲۱۵؛ الحدائق الناضرة ۴: ۳۷۷؛ کشف الغطاء ۱: ۲۱۷؛ غنائم الأیّام ۲: ۳۶۷؛ جواهر الکلام ۷: ۳۲۰؛ مصباح الفقیه ۲: ۹۰؛ المستمسک ۵: ۱۷۴.

ص: ۱۲

لا یـدلّ علی کون الفوق ملحقاً بالبیت، وإنّما یـدلّ علی أنّ ما تحت البیت من الأرض السـفلی إلی الأرض العلیا من البیت، إلّاأن یقال: إنّ کلمـۀ الأرض لا یراد بها الأرض فی قبال السـماء، بل یراد من الأرض السـفلی والعلیا الامتداد من جهۀ الفوق والتحت، ومعه فیکون التعبیر کنایۀ عن هذا الأمر.

وقد جاء فی بعض الروایات الواردۀ فی ذیل الآیۀ الشریفۀ:

«أَللَّهُ الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ»

، أنّ المراد من الأرض العلیا هی الأرض السابعۀ فوق السـماء السادسۀ، فقد روی العیاشی بإسناده عن الحسین بن خالد عن أبی الحسن علیه السـلام قال: «بسط کفّه ثمّ وضع الیمنی علیها فقال: هذه الأرض الدُّنیا والسـماء الدُّنیا علیها قبّۀ، والأرض الثانیۀ فوق السماء الدُّنیا، والسـماء الثانیـۀ فوقها قبّـۀ، والأرض الثالثـۀ فوق السـماء الثانیـۀ، والسـماء الثالثـۀ فوقها قبّۀ، حتّی ذکر الرابعۀ والخامسۀ والسادسۀ، فقال: والأرض السابعۀ فوق السماء السادسۀ، والسماء السابعۀ فوقها قبّۀ، وعرش الرحمن فوق السماء السابعۀ، وهو قوله:

«سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ»

. فهذه الروایۀ صریحۀ فی الامتداد والتوسعۀ من جهۀ الفوق والتحت معاً.

وکیف کان، فلاشکّ فی أنّ هذا التعبیر إنّما هو کنایۀ عن الامتداد.

وفی بعض الروایات الواردۀ فی القبلۀ إشارۀ إلی الفوق أیضاً کما فی خبر عبداللَّه ابن سنان عن أبی عبداللَّه علیه السلام قال:

«سأله رجل قال: صلّیت فوق جبل أبی قبیس العصر فهل یجزی ذلک والقبلۀ تحتی؟ قال: نعم، إنّها قبلۀ من موضعها إلی السماء» (۱).

وبعد انضـمام هذه الروایۀ إلی المرسلۀ- مع قطع النظر عن الروایۀ المذکورۀ عن العیاشی- نفهم أنّ البیت ممتدّ من الجانبین ولا یختصّ بالبناء الموجود هذا.

بل یمکن أن نضیف بأنّ التوسعۀ من جانب التحت فقط دون الفوق، ووجود

۱- الوسائل، کتاب الصلاۀ، الباب ۱۸ من أبواب القبلۀ ح ۱.

ص: ۱۳

الفرق بينهما من هذه الجهة بعيد جدّاً وغريب حقّاً، ولا يكون الخبر قرينة على كون المراد من المرسلة القبلة والاستقبال فقط؛ لعدم جريان التقييد فی المثبتين.

مناقشات وإجابات

إن قلت: إنّ أدلّة الطواف ظاهرة فی وجوب كون الطواف محاذياً لنفس البيت، فإنّ قوله تعالى:

«وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» (۱)

ظاهر فی لزوم كون الطواف بنفس

البيت لا بفضائه، والعودة إلى اللغة سيما بالنسبة إلى التعبير بكلمة الحول فی بعض الروايات تؤيّد ذلك، فقوله «طاف بالمكان» يعنی أنّه جعل المكان فی وسطه لا فوقه ولا تحته.

قلت: نعم، وإن كان الظاهر كذلك، إلّاأنّ الرواية حاكمة ومفسِّرة الأمر الذی يوجب التوسعة، كما أنّ الأدلّة الواردة فی الاستقبال ظاهرة فی لزوم كون الصلاة محاذية لنفس البيت، ولا أقل لمن كان فی المسجد، والرواية توجب التوسعة فی ذلك، ومن البعيد جدّاً وجود الفرق بين الاستقبال والطواف مع كون التكليف فيهما إلى البيت.

إن قلت: يستفاد من بعض الآيات الشريفة أنّ الواجب على المصلّی أن يجعل وجهه شطر المسجد الحرام، كقوله تعالى:

«فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ» (۲)

، ومعنى ذلك أنّه لا مدخلية لنفس

البيت، مع أنّ التكليف فی الطواف لا يكون إلى المسجد بل بالبيت، لقوله تعالى:

«وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» (۳)

، وقوله تعالى:

«وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِیَ لِلطَّائِفِينَ» (۴)

، ومن الواضح أنّ المراد من البيت فی الآية الكعبة لا

المسجد.

۱- الحج: ۲۹.

۲- البقرة: ۱۴۴.

۳- الحج: ۲۹.

۴- البقرة: ۱۲۵.

ص: ۱۴

قلت: مضافاً إلى أنّ هـذا التعبير إنّما جاء في قبال بيت المقدس ولزوم الانصـراف عنه والتوجّه إلى المسـجد الحرام، لاشكّ في أنّه من كان داخلًا في المسـجد يجب عليه أن يتوجّه إلى البيت، ولايجوز أن يصـلّي إلى المسـجد، وعنوان المسـجد الحرام في الآيات الشريفة إشارة إلى البيت، ولا مدخلية لنفس المسجد.

نعم، ذهب الكثير أو الأكثر بل حكى عن مجمع البيان نسـبته إلى أصحابنا وادّعى الشيخ في الخلاف الإجماع عليه، وهو أنّ الكعبة قبلة لمن كان في المسـجد، والمسـجد قبلـة لمن كان في الحرم، والحرم قبلة لمن خرج عنه، ولكن لا ترديد في أنّ البيت قبلة لمن كان في المسجد.

وكيف كـان، فالظـاهر عـدم الفرق بين الاسـتقبال والطواف من هـذه الجهـة، والشاهـد على ذلك أنّه لو أزيل البناء تصـحّ الصـلاة إلى الفضاء، ولا تصحّ إلى البناء الزايل، وأيضاً يجوز الطواف حول الفضاء الموجود ولايسقط وجوبه في هذا الفرض.

نعم، هـذه التوسـعة إنّمـا هي في الطواف، ولاـ تجري في السـعي، فلا يتوهّم أنّه كما يجوز الطواف فوق الكعبـة يجوز السـعي أيضاً من الفوق، فإنّ السعي لابدّ وأن يكون بين الجبلين لا فوقهما، ولا دليل على أنّ الفوق فيه ملحق بالبين، إلّاأن يقال:

إنّ البين ليس مقابلًا للفوق، بل المراد كون السعي في هذا الحدّ بدواً وختماً، وهو كما ترى.

إن قلت: ورد في بعض الروايات أنّ الملائكة ينزلون إلى الأرض ويطوفون حول البيت، أليس هذا شاهداً على أنّ الملاك في الطواف نفس البيت وإلّا لما احتاجوا إلى النزول؟

قلت: كلّا، لا يثبت بهـذا ذاك، بل يمكن أن يكون نزولهم لاشتراكهم مع المؤمنين وجعل أنفسـهم في صـفّهم هـذا أوّلًا، وثانياً لا ينكر رجحان الطواف بنفس البيت من باب أنّ الأقرب إليه يكون أكثر ثواباً، وأيضاً من جهة أنّ الموجود والمحسوس هو الطواف حول هذا البيت، وربما يكون هذا موجباً لكون القرب إليه

ص: ۱۵

أكثر ثواباً.

إن قلت: إذا كان البيت ممتدّاً حتّى من جهة الطواف، فما معنى استلام الحجر أو الركن اليمانى؟!

قلت: يمكن استلام الحجر بالإشارة من محاذيه، وكذا الحال فى الركن اليمانى، وكيف كان، فنحن نلتزم بصحّة الطواف من الفوق، وهذه الامور لا توجب رفع اليد عنه.

إن قلت: إنّ العرف يساعدنا فى ذلك بالنسبة إلى الاستقبال، لكنّه لا يوافقنا فى الطواف، بمعنى أنّ الاستقبال إلى الفضاء لا نقص فيه عند العرف بل هو مقبول عندهم، بخلاف الطواف فيه، إذ لا يعدّ عنده طوافاً.

قلت أوّلًا: نحن لا نوافق فى ذلك، بل ندّعى أنّ العرف لا يفرق بينهما من هذه الجهة فيصدق الطواف على الطائف من الفوق عرفاً، والظاهر عدم وجود مسامحة عرفية فى هذا الصدق، وإن كان الصدق- ولو بالمسامحة العرفية- كافياً فى حكم العقل بامتثال الأمر، ألاترى أنّه إذا أمر المولى بإتيان الماء فأتاه العبد بالمائع المسمّى عند العرف ماءً مسامحةً وإن لم يكن بالدقّة العقلية ماءً؛ تحقّق الامتثال وكفى؟!

ثانياً: بعد التسليم نقول: إنّ الشارع قد خالف العرف فى هذه الجهة فجعل البيت فوقاً وتحتاً بيتاً يجوز الصلاة والطواف نحوه مطلقاً دون أن يكون للبناء مدخلية فيه عند الشارع.

نعم، الظاهر انعقاد الإجماع بين الفريقين على عدم جواز الطواف خارج المسجد بخلاف الاستقبال، فالفرق بينهما من هذه الجهة ممّا لا ينكر، بمعنى أنّه يجب أن يكون الطواف داخلًا فى المسجد، إمّا فى ما بين البيت والمقام كما ذهب إليه المشهور، أو فى المسجد مطلقاً، وقد صرّح العامّة بأنّه كلّما اتّسع المسجد اتّسع المطاف، ولكن رعاية الحدّ وعدمها أمر آخر غير ما نحن فيه.

والنتيجة التى يمكن الخروج بها أنّه مع قطع النظر عن الراوية المرسلة الدالّة بالإطلاق على صحّة الطواف والصلاة حول الفضاء وتحت الأرض، يمكن أن يقال:

ص: ۱۶

إنّ المستفاد من أدلّة القبلة والطواف ووحدة التعبير فی كليهما- حيث جعل الملاك فی كلّ واحد منهما البيت- أنّه كما يكون الفوق صالحاً للاستقبال يكون صالحاً للطواف أيضاً، ولولا هذه الروايهٔ لأمكن أن يقال بأنّ هذا أمر عرفی لا ريب فيه، ومراجعهٔ الأسئلهٔ الواردهٔ فی الروايات تشعر بذلك، فإنّ الناس كانوا يصلّون- ارتكازاً- فوق جبل أبی قبيس، فهم وإن سألوا بعد العمل إلّاأنّ عملهم هذا كان مطابقاً لارتكازهم.

هذا كلّه، مضافاً إلى عموم التنزيل المستفاد من قول النبیّ صلى الله عليه و آله: «الطواف بالبيت صلاة»، فإنّه دالّ على أنّه كما يمتدّ البيت فی الصلاة علوّاً وسفلًا فكذلك فی الطواف.

والدليل على عموم التنزيل أنّه قد استثنى فی الرواية مورداً واحداً قال:

«الطواف بالبيت صلاة إلّاأنّ اللَّه تعالى أحلَّ فيه النطق»، وهذه الرواية وإن كانت غير مسندة من طرقنا سوى ما عن عوالی اللئالی (۱)، إلّاأنّ جمعاً من كبار الفقهاء قد

استند إليها واستدلّ بها:

فقد استدلّ الشيخ (۲) بها، كما استدلّ العلّامة على وجوب القيام فی الطواف

وقال: «قد ثبت وجوب القيام فی الصلاة فكذا فيه» (۳)، وكذا على شرطية الستر

فقال: «ستر العورة شرط فی الطواف» (۴).

واستدلّ بها الشهيد الثانی، مصرّحاً بالإطلاق حيث قال: «مستند ذلك إطلاق قوله صلى الله عليه و آله الطواف بالبيت صلاة خرج منه ما أجمع على عدم مشاركته لها فيه فيبقى الباقی» (۵).

۱- عوالی اللئالی ۲: ۱۶۷.

۲- الخلاف ۲: ۳۲۳.

۳- مختلف الشيعة ۴: ۱۸۵.

۴- تذكرة الفقهاء ۸: ۸۵.

۵- مسالك الأفهام ۲: ۳۲۸ و ۳۳۹.

ص: ۱۷

وقال المحقّق الأردبیلی: «الطواف بالبیت صلاة فیشترط فیه ما یشترط فیها إلّا ما أخرجه الدلیل» (۱).

وذهب السیّد الطباطبائی إلی أنّ التشبیه یقتضی الشرکة فی جمیع الأحکام، ومنها الطهارة عن النجاسة (۲).

نعم، خالفهم سیّد المدارک، حیث ذهب إلی أنّ سند الروایة قاصر ومتنها مجمل (۳).

وکیف کان، لا ریب فی استناد المشهور إلی الروایة، وعلیه ینجبر ضعفها، فما ورد من السیّد الخوئی من أنّه لم یعلم استناد المشهور إلیه (۴) غیر تامّ، وقد صرّح

السیّد الحکیم بالانجبار (۵).

هذا، وقد ورد من طرق الإمامیة عن معاویة بن عمّار عن الصادق علیه السلام:

«ولا بأس أن تقضی المناسک کلّها علی غیر وضوء إلّاالطواف بالبیت فإنّ فیه

۱- مجمع الفائدة والبرهان ۱: ۶۵.

۲- ریاض المسائل ۶: ۵۲۳.

۳- مدارک الأحکام ۱: ۱۲.

۴- کتاب الحج ج ۴.

۵- دلیل الناسک: ۲۴۵.

ص: ۱۸

صلاة» (۱).

وقد استشعر صاحب الجواهر من هذا الخبر أنّ أصل المرسل المشهور عن النبی هکذا: فی الطواف بالبیت صلاة، وقد أسقط من أوّله لفظ (فی) فظنّ أنّه من التشبیه.

وفی الاستشعار إشکال بل منع، لأنّه فی بعض الروایات قد استثنی منه النطق، وقال: «إلّا أنّه أحلّ فیه النطق»، ولعلّه من هذه الجهة استدلّ هو نفسه بهذه الروایة فی مواضع عدیدة من کتابه (۲) من دون کلمة «فی» فتدبّر.

والظاهر ذهاب صاحب الجواهر أیضاً إلی صحّة الطواف من السطح وإن کان أعلی من البیت

هذا کلّه، مضافاً إلی أنّه لو کان الطواف مرتفعاً عن الکعبة غیر جائز لصار هذا أیضاً حدّاً من جهة الارتفاع، ولکان اللّازم علی الشارع ذکره کما ذکر الحدّ فی جهة المساحة ومحیط الدائرة الأرضیة، فمن عدم البیان بالنسبة إلی هذه الجهة نستکشف صحّة العمل.

اللهمّ إلّاأن یقال: إنّ عدم البیان إنّما کان من جهة عدم الموضوع الخارجی فی ذلک الزمان، وهو کما تری.

وممّا ذکرنا یظهر ضعف ما حکی عن الشافعی فإنّه قال: «فإن جعل سقف المسجد أعلی لم یجز الطواف علی سطحه»، ویستفاد من صاحب الجواهر مخالفته له

۱- وسائل الشیعة، أبواب الوضوء، باب ۵، ح ۱.

۲- جواهر الکلام ۲: ۸، ۱۸: ۵۸، ۱۹: ۲۷۰، ۳۵: ۳۶۰.

ص: ۱۹

فی ذلک، وقال: «مقتضاه کما عن التذکرة أنّه لو انهدمت الکعبة- والعیاذ باللّه- لم یصحّ الطواف حول عرصتها، وهو بعید بل باطل» (۱).

والظاهر ذهاب صاحب الجواهر أیضاً إلی صحّة الطواف من السطح وإن کان أعلی من البیت.

والذی یبدو أنّ أکثر العامّة قائلون بصحّة الطواف فیما إذا کان مرتفعاً عن البیت، فقد قال النووی: «قالوا: ویجوز (أی الطواف) علی سطوح المسجد إذا کان البیت أرفع بناءً من المسجد کما هو الیوم، قال الرافعی: فإن جعل سقف المسجد أعلی من سطح الکعبة فقد ذکر صاحب العدّة: أنّه لا یجوز الطواف علی سطح المسجد، وأنکره علیه الرافعی وقال: لو صحّ قوله لزم منه أن یقال: لو انهدمت الکعبة- والعیاذ باللّه- لم یصح الطواف حول عرصتها وهو بعید، وهذا الذی قاله الرافعی هو الصواب، وقد جزم القاضی حسین فی تعلیقه: بأنّه لو طاف علی سطح المسجد صحّ وإن ارتفع عن محاذاة الکعبة، ثمّ أضاف قاعدةً کلیّةً وهی: أنّه لو وسع المسجد اتّسع المطاف، وقال: اتّفق أصحابنا علی ذلک» (۲).

وقال الزحیلی: «ویصحّ علی سطح المسجد وإن کان سقف المسجد أعلی من البیت» (۳).

فروع ملحقة:

الفرع الأوّل: حکم الارتفاع القلیل

ثمّ إنّه مع قطع النظر عن التوسعة وبنائنا علی عدمها ولزوم الاقتصار علی البیت یمکن أن یقال: الظاهر عند العرف أنّ الارتفاع القلیل بمقدار متر أو مترین لا یخرجه عن الطواف حول البیت، فیصحّ الطواف انطلاقاً من الصدق العرفی.

الفرع الثانی: شمول الحکم لحال الاضطرار وعدمه

ثمّ إنّه یظهر أیضاً أنّ صحّة الطواف فیما إذا کان أعلی من الکعبة لیست مختصّةً بحال الاضطرار، بل من یقول بعدم وجود حدّ للطائف یصحّ له القول بذلک مطلقاً واللّه العالم.

۱- جواهر الکلام ۱۹: ۲۹۸.

۲- المجموع فی شرح المهذب ۸: ۴۳.

۳- الفقه الإسلامی وأدلّته ۳: ۱۵۹.

ص: ۲۰

الفرع الثالث: الاستنابة ومشروعيّتها

الظاهر أنّه لا تصل النوبة إلى الاستنابة إلّاعلى قول من يذهب إلى وجود حدّ للمطاف، إذ يلزمه طبعاً الافتاء بلزوم الاستنابة وعدم صحّة الطواف من الطابق الأوّل، لا من جهة كونه أعلى من البيت بل من جهة كونه خارجاً عن حدّ المطاف.

ويأتى هنا بحث وهو أنّه على القول بوجود الحدّ إذا أمكنت الاستنابة وجبت عليه، وأمّا إذا لم تمكن وعلم الحاج- ابتداءً قبل الشروع فى الإحرام- أنّه غير قادر على الطواف لا بنفسه ولا بالاستنابة، فهل يكون إحرامه صحيحاً أم لا؟

يمكن أن يقال بعدم وجوب الحجّ فى هذا الفرض؛ إمّا من جهة أنّ عدم القدرة على الجزء أو الشرط موجب لعدم القدرة على المركب والمشروط، فيسقط وجوب الحجّ لأجل عدم توجّه التكليف والخطاب نحو المخاطب، بناءً على ما أسّسه المحقّق النائينى من أنّ شرطية القدرة تستفاد من اقتضاء الخطاب لا من حكم العقل، أو أنّ عدم القدرة موجب لكون توجّه التكليف إليه قبيحاً على مبنى المشهور القاضى بحكم العقل بقبح تكليف العاجز، كلّ ذلک بناءً على شرطية القدرة فى التكليف؛ إمّا من اقتضاء نفس الخطاب أو من حكم العقل.

وأمّا بناءً على عدم شرطية القدرة فيه والقول بأنّ الخطاب يشمل العاجز كما أنّه يشمل القادر، غايته أنّ العاجز معذور فى ترک الامتثال، وهو ما ذهب إليه السيّد الإمام الخمينى والسيّد الخوئى ٠... فيكون العجز عن الجزء مساوقاً للعجز عن المركب، فيكون معذوراً فى ترک الامتثال.

وبعبارة اخرى، الوجوب الواحد فى المركب يسقط بتعذّر جزء من الأجزاء، فإذا تعذّر أحد الأجزاء يسقط الوجوب عن الباقى بمقتضى القاعدة الأوّلية، نعم قد يدلّ الدليل الخاص على بقاء الوجوب فى الباقى كما فى باب الصلاة.

إن قلت: قد حقّق فى محلّه أنّ الجامع بين المقدور وغير المقدور مقدور، فإذا كان بعض أفراد الطبيعة المأمور بها مقدوراً ولكن بعضها الآخر غير مقدور يصحّ التكليف بالطبيعة من هذه الجهة.

ص: ۲۱

قلت: نعم، ولكن هـذا الكلام إنّما يجرى فى الكلّى والفرد لا ـ فى الكلّ والجزء، والكلام هنا إنّما هو فى الثانى، فإنّ العاجز عن الجزء يكون – قهراً – عاجزاً عن الكلّ، فتدبّر.

إن قلت: لا ملازمة بين عدم وجوب الحجّ وعدم صحّة الإحرام، فيمكن أن يقال بصحّة إحرامه دون وجوب الحجّ عليه، والخروج من الإحرام له أسباب يمكن الإتيان بها، ولم يشترط أحد فى صحّة الإحرام إمكان الإتيان ببقيّة الأجزاء فى الحجّ.

قلت: إنّ الإحرام أيضاً من أجزاء الحجّ، فبعد عدم القدرة على جزء من أجزائه تكون بقيّة الأجزاء فى حكم غير المقدور، ولا أقلّ لا تكون مشمولةً للطلب المتوجّه إلى المركب، والمفروض عدم المطلوبية الاستقلالية لكلّ من الأجزاء فلايصحّ الإحرام أيضاً.

وبهذا ظهر ممّا أسلفناه أنّ العاجز عن الطواف الصحيح المشروع مع عدم إمكان الاستنابة أيضاً يسقط عنه الوجوب، فلا يجب عليه الحجّ كما لا يصحّ منه الإحرام.

نستنتج صحّة الطواف من الطابق الأوّل وإن كان أعلى من البيت، وهو المستفاد أيضاً من كلمات صاحب الجواهر

نعم، لا ـ يخفى أنّ القدرة على العمل كافية ولو من طريق الاستنابة، فإنّ القادر على الاستنابة فى العمل الذى يقبل النيابة قادر على العمل أيضاً، وعلى هذا يتّضح أنّه لو لم يكن الحاج قادراً على الطواف والسعى مثلًا لكنّه كان قادراً على الاستنابة فيهما وعلى المباشرة فى الصلاة والتقصير لكان إحرامه وعمرته صحيحين.

خلاصة البحث ونتيجة الدراسة

۱– أنّه بناءً على جواز الإضافة فى جهة الارتفاع إلى البيت.

۲– وبناءً على عدم شمول النهى الوارد فى الروايات عن البناء فوق الكعبة

ص: ۲۲

للأبنية المتعلِّقة بالمسجد.

۳- وبناءً على عدم اختصاص التوسعة- علواً وسفلًا- بالاستقبال، بل تجرى فى الطواف أيضاً بمقتضى إطلاق الرواية المرسلة الواردة فى المقام أوّلًا، وانضمام الروايات الدالّة على أنّ البيت قبلة من جهة الفوق ثانياً، فإنّ الانضمام يدلّ على التوسعة من جهة الفوق أيضاً، ومن جهة الصدق العرفى كالاستقبال ثالثاً، ووحدة السياق والتعبير فى أدلّة الطواف وأدلّة القبلة من جهة أنّ الملاك فيهما هو البيت رابعاً.

۴- وبناءً على عدم وجود حدّ للمطاف.

نستنتج صحّة الطواف من الطابق الأوّل وإن كان أعلى من البيت، وهو المستفاد أيضاً من كلمات صاحب الجواهر.

كما نستنتج- مع قطع النظر عن التوسعة- صحّة الطواف وإن كان أعلى من البيت بمقدار متر أو مترين، فإنّ هذا المقدار لا يضرّ فى صدق الطواف عرفاً حول البيت، واللّه العالم.

وبما أنّ هذا البحث جديد، ولم أرَ من تعرّض له سابقاً حتّى بنحو الإشارة، احتاج- طبعاً- إلى دقّة كثيرة، وعلى المحقّقين والفقهاء أن يبحثوا حوله وينظروا إلى ما قلناه نظراً جامعاً وافياً.

ص: ۲۳

فقه التظليل فى الحج (۲)

مدخل

حيدر حبّ اللَّه

حاولنا فى القسم الأوّل من هذه الدراسة، و الّذى نشر فى العدد ۲۰ من مجلّة «ميقات‌الحج» الميمونة، أن نؤسّس المبادئ الفقهيّة الأوّلية فى هـذا الموضـوع، لكى نتمكّن- على ضوئهـا- من الولوج فى تفصـيلات التظليـل، والفروع و الفرضـيات و الصور المتعلّقـة به، حتّى تكون استنتاجاتنا فى الفروع اللاحقة قائمةً على أسس موضوعية و منطقية.

و قد أشرنا إلى وجود نظريتين رئيستين فى حكم التظليل من حيث المبدأ هما:

النظرية الأولى:

وتـذهب إلى القول بحرمـة التظليل بعنوانه حرمـةً مطلقـةً، ممتـدّاً إطلاق هذا الحكم فى الزمان و غيره، فالتظليل- بوصـفه تظليلًا- يكون محرّماً على المحرم، بلا فرق بين أنواعه كالكون فى القبّة أو غيرها.

و قـد رجّحنا فى القسم الأوّل هـذا الرأى، الـذى حقّقنا أنّه المشـهور بين فقهاء الشـيعة، و هذا يعنى أننا سـنركّز دراسـتنا للفروع الفقهية المتصلة بالتظليل وفقاً لهذا الرأى.

النظرية الثانية:

وهى النظرية التى لاحظنا أنّها لا تعتقد بالحرمة بشكلها المثار فى النظرية الأولى، و إنّما تحاول تضييق دائرة التحريم وتحديدها.

ص: ۲۴

والشىء الذى شاهدناه هو أنّ أنصار هذه النظرية لم نجدهم على رأى واحد من حيث طبيعة التحديد والتضييق الذى افترضوه، فقد لاحظنا عبارة الشيخ الصدوق (۳۸۱ ه. ق) تشرف على التدليل على حرمة الركوب فى القبّة، و كأن القبّة أو ما قاربها كانت ذات موضوعيّة فى مسألة التحريم هنا، و الملاحظ- كما أشرنا سابقاً- أنّ بعض الروايات توحى بهذا التضييق من حيث ورودها ضمن عنوان القبّة أو ما شابه، ولعلّ الشيخ الصدوق، قد لاحظ مثل هذا النوع من الروايات و اعتمد عليه.

وهكذا وجدنا فريقاً من المعاصرين، يسعى لتضييق دائرة التحريم بلحاظٍ آخر، يحاول أن ينطلق فيه من خصوصية الزمان والمكان الحافّين بالحكم الصادر عن المعصومين عليهم السلام، فيرى أنّ هذا الحكم كان يعنى فى ضمن ظرفه التاريخى تعبيراً عن رفض مظاهر الدعة و الفخر و الترف فى سفر الحج، لا مجرّد التظليل للحاج و لو لم تكن هناك ملابسات تتصل بهذا الأمر فى تظليله.

و قد حاولنا فى القسم السابق تحليل هذين القولين ضمن النظرية الثانية، و لاحظنا وجود نصوص صحيحة السند تعلّق الحرمة على ما هو أوسع من مجرّد القبّة، ولم نخف إعجابنا بالقراءة التاريخية التى حاول أن يمارسها الفريق الثانى المعاصر، إلّاأننا مع ذلك لم نجد على وجهة نظره شواهد أو مؤيّدات تدعم احتماله بما يحصل حالة الوثوق المعتبر.

هنا، خرجنا بالقول بحرمة التظليل بعنوانه مطلقاً على المشهور المعروف بين الفقهاء.

وقد شرعنا بفرعين اثنين: كان الأوّل منهما حول اختصاص حكم التظليل بالرجال وعدم شموله للنساء، وأثبتنا ذلك على ما هو المعروف بين

ص: ۲۵

الفقهاء أیضاً، وکان الثانی منهما حول اختصاص هذا الحکم- أی حرمة التظلیل للمحرم- بالقادر غیر المضطرّ، و قلنا بالاختصاص علی ماهو المعروف بینهم أیضاً.

و قد بقیت لدینا فروع أخری، لابد من بحثها، أحببنا تقدیم هذه المقدّمة لها، لکی ترتبط الأبحاث و یأنس الذهن بالتناسق و الانسجام.

المبحث الثالث: شرطیة السیر فی حرمة التظلیل

الظاهر أنّ المشهور بین الفقهاء اشتراط حال السیر فی حرمة التظلیل علی المحرم، بمعنی أنّ المحرم لو کان نازلًا- کما لو کان فی عرفة أو مکّة أو غیرهما- لیس فی حال سفر و انتقال من منطقةً إلی أخری، کما بین المیقات للبعید و بین مکّة... لم یحرم علیه التظلیل، بل جازله مطلقاً سواء التظلیل باللیل أو النهار، و من الشمس أو المطر أو غیرهما، و بالثابت و المتحرّک و...

قال ابن إدریس الحلّی (۵۹۸ ه) فی السرائر: «لا یجوز التظلیل سائراً إلّاإذا خاف الضرر العظیم» (۱).

الظاهر أنّ المشهور بین الفقهاء اشتراط حال السیر فی حرمة التظلیل علی المحرم

وقال المحقّق نجم‌الدین الحلّی (۶۷۶ ه) فی کتاب الشرائع: «التظلیل محرّم سائراً، ولو اضطرّ لم یحرم» (۲).

و قد ذکر العلامة الحلّی (۷۲۶ ه) فی مختلف الشیعة أنّ: «المشهور تحریم الظلال حال السیر» (۳).

۱- السرائر الحاوی لتحریر الفتاوی ۱: ۵۴۷.

۲- شرائع الإسلام ۱: ۱۸۶.

۳- مختلف الشیعة ۴: ۱۰۸، م ۷۱.

ص: ۲۶

وقد كان الشيخ الطوسى (۴۶۰ ه) صرّح من قبل فى الخلاف بأنّه: «لا يجوز فوقه سائراً لا نازلًا، وبه قال مالك وأحمد» (۱).

بل فى التذكرة أن حرمة الاستظلال حال السير ثابتة عند علمائنا أجمع، بل قال بذلك ابن عمر، ومالك وسفيان بن عيينة وأهل المدينة وأبو حنيفة، وأحمد، ونصّ العلامة على جواز التظليل مطلقاً حال النزول عند العلماء كافّة (۲).

وقد ذكر قيد السير العديد من الفقهاء منهم الشهيد الأوّل فى الدروس، (۳) و اللمعة، (۴) و الشهيد الثانى فى الروضة مدّعياً الإجماع على جوازه حال النزول، (۵) و فى المسالك أيضاً، (۶) و العلامة المجلسى فى ملاذالأخيار مدّعياً عليه الإجماع أيضاً عند العلماء كافّة، (۷) و هو صريح ابن زهرة الحلبى فى كتابه غنية النزوع إلى علمى الأصول و الفروع، (۸) و ذهب إليه أيضاً العلامة الحلّى فى قواعد الأحكام، (۹) والتذكرة، (۱۰) و المختلف، (۱۱) و تحريرالأحكام الشرعيّة، (۱۲) و إرشادالأذهان، (۱۳) كما

۱- الخلاف: ۲: ۳۱۸.

۲- التذكره ۷: ۳۴۰- ۳۴۲.

۳- الدروس ۱: ۳۷۷.

۴- اللمعة الدمشقية: ۶۹.

۵- الروضة البهيّة ۲۴۴.

۶- مسالك الأفهام ۲: ۲۶۵.

۷- ملاذالأخيار ۸: ۲۰۹.

۸- غنية النزوع، إلى علمى الأصول والفروع، قسم الفروع، ص ۱۵۹.

۹- قواعد الأحكام ۱: ۴۲۵- ۴۲۴.

۱۰- التذكرة ۷: ۳۴۰ و ۳۴۲.

۱۱- مختلف الشيعة ۴: ۱۰۸.

۱۲- تحريرالأحكام ۲: ۳۲.

۱۳- إرشادالأذهان ۱: ۳۱۷.

ص: ۲۷

ذهب إليه الكيدرى فى إصباح الشيعة، (۱) و الشيخ البهائى فى الإثناعشريات، (۲)
والإمام الخمينى فى تحرير الوسيلة، (۳) والحرّ العاملى فى بداية الهداية، (۴) و السيّد
الطباطبائى فى رياض المسائل مدّعياً عليه الإجماع، (۵) ويحيى بن سعيد الحلّى فى
الجامع للشرائع، (۶) وابن فهد الحلّى فى المهذب البارع، (۷) و المحقق السبزوارى فى
كفايته وذخيرته، (۸) والسيد العاملى فى مدارك الأحكام، (۹) والمحقق النجفى فى جواهره مدّعياً عليه الإجماع بقسميه (۱۰).
حرمة الاستظلال حال السير ثابتة عند علمائنا أجمع، بل قال بذلك ابن عمر، ومالك وسفيان بن عيينة وأهل المدينة وأبو حنيفة، وأحمد
وقبل ذكر الأدلّة المقامة أو التى يمكن إقامتها، لا بأس بالإشارة- توضيحاً-

---

۱- إصباح الشيعة: ۱۵۳.

۲- الإثنا عشريات: ۲۸۳.

۳- تحريرالوسيلة ۱: ۳۹۱.

۴- بدايةالهداية ۱: ۳۲۳.

۵- رياض‌المسائل ۶: ۳۰۵.

۶- الجامع للشرائع: ۱۸۴.

۷- المهذب البارع ۲: ۱۸۶.

۸- كفاية الفقه الأحكام ۱: ۳۰۴، و ذخيرةالمعاد: ۵۹۷.

۹- مدارك الأحكام ۷: ۳۶۳.

۱۰- جواهرالكلام ۱۸: ۴۰۵.

ص: ۲۸

إلى أنّ هنا فرعين داخل هـذه المسألـة، فتارةً نبحث عن التظليل للنازل بمعنى الدخول فى البيوت والاستقرار فيها أو فى الأخبية، وتارة أخرى نبحث عن التظليل داخل الأماكن التى ينزلها الحاجّ مثل مكّة وعرفة ومنى، لكن لا فى البيوت بل حال التنقّل داخلها، فإذن تارةً البحث فى التظليل داخل البيوت مقابل التظليل حال التنقل بينها، وأخرى أيضاً فى اختصاص التظليل بحال الوصول لا النزول أثناء الطريق ممّا سنشير إليه فى المبحث الرابع (أيضاً) فانتظر.

والذى يمكن الاستدلال له فى المقام هنا هو:

الوجه الأوّل:

الإجماع المدّعى فى كلمات جماعة، منهم العلامة الحلّى فى التذكرة، والشهيد الثانى فى الروضة، والمحقّق النجفى فى الجواهر، والعلامة المجلسى فى ملاذ الأخيار، والسيّد الطباطبائى فى رياض المسائل مما أسلفنا ذكره، ولا يظهر فى ذلك خلاف من أحد، إذ لم نجد من ذكر حرمة التظليل للنازل صريحاً أو ظهوراً واضحاً، من حيث المبدأ.

إلا أنّ الاستدلال بالإجماع مناقش فيه:

أولًا:

إن احتمال مدركيته واضح، سيما و أنّ بعض من نقل ادّعاء الإجماع- وهو السيد العاملى صاحب المدارك- قد أقام الدليل- كما سيأتى- على الحكم هنا، فالاستناد إلى الإجماع فى هذا الوضع فى غير محلّه.

ثانياً:

إنّه من غير المعلوم ماذا يريد الفقهاء السابقون من عبارتى سائراً ونازلًا، على وجه الدقّة، فإنّه لا يحرز هل يكون التنقّل داخل مكّة وعرفة والمزدلفة، مندرجاً فى حال السير أو النزول؟ ومعه يؤخذ بالقدر المتيقّن من معقد الإجماع، وهو- كما سنرى فى مطاوى البحث- الكون فى الأبنية والأخبية عند النزول والاستقرار بعد السفر، فلا يكون الإجماع حجّةً فى غير ذلك ولا يصحّ تكميل الإجماع بعدم القول بالفصل، لأنّ الفصل قد تحقّق فى كلمات بعضهم كما سيظهر لاحقاً، وإن كان هذا البعض من المتأخرين من أمثال صاحب الجواهر.

الوجه الثانى:

ما ذكره صاحب المدارك (۱) من الاستناد إلى رواية جعفر بن

المثنّى فى المقام، حيث ذكر دلالتها على اختصاص الحكم بحرمة التظليل بحال السير.

و الروايـة هى: «... كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله يركب راحلته فلا يستظل عليها، و تؤذيه الشمس فيستر بعض جسده ببعض، و ربما يستر وجهه بيده، و إذا نزل استظلّ بالخباء و فى البيت و بالجدار» (۲).

۱- مدارك الأحكام ۷: ۳۶۳.

۲- وسائل الشيعة، ج ۱۲، أبواب تروك الإحرام، باب ۶۶، ح ۱.

ص: ۲۹

والرواية من حيث الدلالة جيّدة مع حمل الخباء و البيت و الجدار على التمثيل لمطلق ما يستظلّ به، لا لخصوص الثابت و ما فی حكمه، إلّاأنّ المشكلة فی الرواية ضعفها السندی، فهی- فی التهذيب و الكافی- مرويةٌ عن محمد بن الفضيل و بشير بن إسماعيل لعدم توثيقهما، إلا على ما احتمله السيد الخوئی من كون البشير بن إسماعيل هو ابن عمار الذی وصفه النجاشی- كما تقدّم- بأنّه وجه من وجوه من روی الحديث.

الوجه الثالث:

ما ذكره السيد السبزواری رحمه الله فی مهذّبه من أنّ هذا هو ما تقتضيه قاعدة العسر و الحرج فی الجملة (۱).

و هذا الوجه غير ظاهر، فإن أريد به وجود حالة عسر و حرج فی بعض الحالات لدی بعض الناس أمكن إجراء القاعدة عليهم لا الحكم بالجواز مطلقاً حتی فی حقّ غيرهم، و إن أريد أن العسر و الحرج فی الجملة كاشف عن عدم جعل هذا الحكم، فإنّه يقال: لا إشكال فی أن تروك الإحرام بجملتها يلزم منها- فی الجملة- عسر و حرج، فهل يقال بسقوطها أو يقال بسقوط موارد الحرج؟!

نعم، يمكن أن يكون مراده السقوط فی الجملة لا أنّ العسر فی الجملة موجب للسقوط مطلقاً فی موارد النزول، و معنی السقوط فی الجملة هو تلك الأفراد الملازمة عادةً للعسر و الحرج مثل الكون فی البيت و مكان النوم فإنّه يقال: إنّ الإلزام بعدمه يلزم منه العسر نوعاً و هذا جيّد.

الوجه الرابع:

ما ذكره صاحب المدارك قدس سره أيضاً، من التّمسك بالأصل، (۲)

والظاهر أنّ مراده أصالة الجواز، مما يعنی أن الحرمة حال النزول ليست مدلولًا لأی من روايات الباب ولو بالإطلاق.

۱- مهذّب الأحكام ۱۳: ۲۰۱.

۲- مدارك الأحكام ۷: ۳۶۳.

ص: ۳۰

والذى لاحظناه من الروايات أنّها على طوائف:

الطائفة الأولى:

ما هو صريح أو ظاهر فى خصوص الركوب كصحيحة محمد ابن مسلم (رقم ۱) الّتى نصّت على السؤال عمّن يركب القبّة الظاهر فى حال السير، و مثلها صحيحة هشام بن سالم (رقم ۳)، و صحيحة حريز (رقم ۱۲)، و هذه الطائفة لما لم تكن تدلّ على الحرمة لغير الراكب فى حال سفر، لأنّ القبّة لا تستعمل إلّا فى الأسفار لا داخل المدن عادةً، كان يمكن الرجوع حينئذ إلى أصالة البراءة، كما فعل صاحب المدارك، و معه فيكون التمسّك بالأصل صحيحاً.

الطائفة الثانية:

ما كان عامّاً يشمل بإطلاقه السائر و النازل، مثل صحيحة عبداللّه بن المغيرة (رقم ۲)، و صحيحة عبدالرحمن بن الحجّاج (رقم ۴)، وصحيحة إسحاق بن عمّار (رقم ۵)، و خبر محمد بن منصور (رقم ۶)، و صحيحة إسماعيل بن عبدالخالق (رقم ۷)، و صحيحة عبداللّه بن المغيرة الثانية (رقم ۸)، و صحيحة عثمان بن عيسى الكلابى (رقم ۱۰)، و خبر المعلّى بن خنيس (رقم ۱۵)، و صحيحة سعيد الأعرج (رقم ۱۶)، و خبر بكر بن صالح (رقم ۱۷).

و هذه الطائفة لا يمكن الاستناد فى قبال إطلاقها إلى الأصل، كما فعل صاحب المدارك، بل تكون حاكمةً عليه و مقدّمة، و من ثم تقتضى حرمة الاستظلال مطلقاً، سائراً أو نازلًا.

الطائفة الثالثة:

ما دلّ على التفصيل بين السائر و النازل وهى:

۱- خبر البزنطى: «أيش الفرق ما بين ظلال المحرم و الخباء؟ فقال أبوعبداللّه عليه السلام: إنّ السنّة لا تقاس» (۱).

والرواية من حيث السند بهذا المقدار من الدلالة تامة، كما جاءت فى قرب الاسناد للحميرى، بتقريب أنّ التظلّل للمحرم حرام، لكن ضرب الخباء، وهو البناء كما نصّ اللغويّون (۲) ليس بمحرّم كما تساعد عليه بقية روايات هذا النص. فمن

۱- وردت الرواية بعدة أسانيد، فراجع الوسائل ۱۲، كتاب الحج، أبواب تروك الإحرام، باب ۶۶، ح ۱ و ۲ و ۴ و ۵ و ۶، و النص الذى نقلناه هو الثابت بسند صحيح.

۲- ابن منظور، لسان العرب ۴: ۶، والفيروز آبادى، القاموس المحيط، دارالمعرفة ۱: ۱۳، والفيّومى فى المصباح‌المنير: ۱۶۳، والزبيدى فى تاج العروس، ۱: ۲۰۶.

ص: ۳۱

حيث الدلالـة تدلّ على التفريق سائراً و نازلًا، نعم، مقدار دلالتها الكون داخل الخباء و أمثاله، فقد يقال: لا تدلّ على جواز التظليل عند التنقل داخل المكان الذى نزل المحرِم فيه كالقرية أو المحلّة أو ما شابه.

۲- خبر الحسـين بن مسـلم عن أبى جعفر الثانى عليه السـلام: «أنّه سـئل: ما الفرق بين الفسـطاط و بين ظلّ المحمل؟ فقال: لا ينبغى أن يستظل فى المحمل...» (۱).

و تقريب الاسـتدلال بها أنّها فصِّلت بين المحمل و الفسـطاط، فحتّى لو لم تكن فيها لوحدها دلالة على حرمة الاسـتظلال- كما قوّيناه سابقاً- لكنها على أىّ حال تقيم الفرق بين المحمل و الفسطاط.

والمراد بالفسـطاط- كما تذكره مصادر اللغة- إمّا المدينة، حيث يطلق عليها الفسطاط، ومن هنا قيل: فسطاط مصر، أو ضربٌ من الأبنية فى السفر دون السّرادق و... (۲).

فإذا أريد من الفسـطاط فيها المدينة، كانت دالّةً على أن النزول فى المدن و أمثالها موجب لسقوط الحرمة مطلقاً تنقّل فى داخلها أو لم يتنقّل، نعم تكون فيها مشـكلة من ناحيـة النزول و الاسـتقرار لا فى مدينـة، بل وسط الطريق، فإن الروايـة على هذا لا تكون شاملةً لهذه الصورة، فيرجع فيها إلى إطلاقات الحرمة.

و أمّا إذا أريد من الفسطاط مطلق البناء، فتكون دالّةً

۱- وسائل الشيعة، مصدر سابق، باب ۶۶، ح ۳.

۲- ابن منظور، لسـان العرب ۱۰: ۲۶۲، والفيروزآبـادى، القاموس المحيط ۲: ۳۷۸، والفيّومى، المصـباح المنير: ۴۷۲- ۴۷۳، والزبيدى، تاج العروس ۱۹: ۵۴۳- ۵۴۳.

ص: ۳۲

على جواز التظليل مطلقاً فى أىّ بناء، إذ لا خصوصـية لنوع الفسطاط، نعم، لا تدلّ على صورة التنقل داخل المكان أو المدينة التى نزل فيها الحاج أو المعتمر.

و عليه، لا تكون دلالة الرواية مطلقةً من ناحية الجواز مطلقاً لكلّ من لم يكن فى حال السير، سواء أخذنا بتقريبها الأوّل أو الثانى.

هذا من ناحية الدلالة، وأمّا من ناحية السـند، فالرواية فى «الفقيه» ضـعيفة بجهالة الحسـين بن مسلم، و فى «المقنع» ضعيفة بالإرسال، فلا يحتج بها، و لا يحرز أن الفقهاء اعتمدوا عليها فى الحكم بالجواز حتى يجبر ذلك ضـعف السـند فيها، بناءً على كبرى انجبار الضـعف بعمل الأصـحاب، لأن الأقرب أنّهم عملوا بروايـة البزنطى وحوار الإمام الطويل الـذى ذكرناه سابقاً، و معه فلا يمكن الاعتماد عليها فى الحكم هنا.

و المتحصّل من مراجعـة طوائف النصوص: أنّه لا يوجـد مقيّد فيها للطائفة الثانية المطلقة إلّارواية البزنطى و ما ساندها من خبر الفضـيل المتقـدّم الضـعيف السـند، غير أنّها لا تـدل- كما قلنا- إلّاعلى جواز التظليل فى البيوت و الأبنيـة، دون دلالـةٍ على التظليل بمثل اليـد أو أدوات النقل أو المظلّة المتعارفة داخل أماكن النزول حال التنقل فيها.

الوجه الخامس:

مـا يمكننـا ذكره فى المقـام، و هو أنّ مـا يحرز كونه محلّا للابتلاء، و مورداً للسؤال و الاسـتفهام عنـد المسـلمين فى تلك الفترات هو التظلّل فى الطريق حال السـير، لأنّ عـدمه هو الموجب لأذيتهم أحياناً، أو وجوده هو الموجب لراحتهم، و لم يكن التظلّل داخل المـدن أو القرى أو عنـد النزول مورداً لابتلاـئهم من هـذا الحيث، فـإنّ دخولهم فى الظلّ كان لحاجتهم لـدخول البيوت أو الأخبيـة أو ما شابه ذلك، ومعنى هذا أنّ ظاهرة التظلّل- بوصفها فعلًا وجودياً يعمد الإنسان لتحقيقه- أمرٌ وجيه ومتصوّر منهم فى تلك المرحلة فى السفر، أمّـا عنـد النزول فـإنّهم مـا كان يعمـدون لتظليل أنفسـهم غير دخول بيوتهم و الاستيطان فى أخبيتهم وفساطيطهم، وهـذا معناه أنّ تلك الحال الاجتماعية التى كانوا عليها، وهم من

ص: ۳۳

یعیش بلاد الحرّ فی الحجاز و الیمن و العراق و البحرین و... تشکّل قرینة تصرف إطلاق الطائفة العامّة إلی الحال الغالب المتعارف، وهو التظلیل حال السیر لا عند الوقوف المعتدّ به، فضلًا عن دخول البیوت والمبیت فیها.

ولا نرید بذلک دعوی الانصراف نتیجة غلبة الوجود، مما هو ممنوع عندهم علی ما هو المقرّر فی مباحث علم الأصول، بل نرید أن نلحظ النصوص فی مناخها التاریخی و الاجتماعی، مما یشکّل لدینا قرینة تجعل الإطلاق فی غیر حال السیر بمثابة الإشعار فحسب جموداً علی شکل النص لا بمثابة الظهور الحجّة.

وهذا هو ما یفسّر عدم وجود تساؤلات عن صورة التظلّل داخل أماکن النزول، ویُفْهِمَنا السیرة المتشرعیة المنعقدة یقیناً علی السکن فی البیوت والأخبیة أیضاً فی مکة و عرفات، کما هذا هو الذی یفسِّر أیضاً إجماع الفقهاء علی الجواز علی تقدیر أن یفهم منه إطلاقه کما تقدّم احتماله، فلاحظ جیّداً.

والمتحصّل أنّ حرمة التظلیل ثابتة فی حال السیر خاصّة، أمّا حال النزول فلا دلیل یطمأن له یمکن علی أساسه الحکم بالحرمة، فالجواز مطلقاً هو الأقوی.

هذا، و قد احتاط بعض الفقهاء استحباباً فی صورة التردد (۱)، و بعضهم احتاط وجوباً، و فی الجواهر الأقوی الاجتناب، (۲) و ظاهر الفاضل الهندی احتمال الوجوب (۳) کما فهمه منه صاحب الجواهر أیضاً (۴).

۱- رسالة مناسک الحجّ، الشیخ الأنصاری ووافقه المعلّقون، ویبلغ عددهم أکثر من عشرین من کبار الفقهاء المتأخرین، أنظر: ۱۷۲، وقد احتاط استحباباً أیضاً السیّد السبزواری فی مهذّب الأحکام ۱۳: ۲۰۱، والفاضل اللنکرانی فی تفصیل الشریعة ۳: ۲۹۲.

۲- جواهرالکلام ۱۸: ۴۰۶.

۳- کشف اللثام ۵: ۴۰۳.

۴- جواهر الکلام ۱۸: ۴۰۶.

ص: ۳۴

المبحث الرابع: حکم السفینهٔ و القطار و...

بعد الفراغ عن حرمهٔ التظلیل حال السیر، و جوازه حال النزول، وقع الکلام فی بعض الصور التی تردّد الأمر فیها بین اندراجها فی عنوان السیر أو النزول، مثل السفینهٔ التی ربما یقضی فیها الإنسان أیاماً بلیالیها یبیت فیها و... أو کالقطار الذی یمضی مسافاتٍ بعیدهٔ بحیث یواصل سیره أیاماً و لیالی عدّهٔ حتّی یصل المیقات أو ما شابه ذلک، فهل یقال هنا: إن المحرم فی حال مَسیرٍ فیحرم علیه التظلیل أم یقال: إنّه فی حال نزولٍ؟ فالسفینهٔ والقطار و... صارا بالنسبهٔ إلیه أشبه بالمنزل الذی یستقرّ فیه؟

والمتحصّل أنّ حرمهٔ التظلیل ثابتهٔ فی حال السیر خاصّهٔ، أمّا حال النزول فلا دلیل یطمأن له یمکن علی أساسه الحکم بالحرمهٔ، فالجواز مطلقاً هو الأقوی

لم أجد هذا الفرع فی الکتب الفقهیّهٔ قبل المیرزا النائینی، حیث أشار له فی مباحث حجّه المدرج متناً لکتاب «دلیل الناسک» للسیّد محسن الحکیم رحمه الله (۱)،

۱- دلیل الناسک، نشر مؤسسهٔ المنار، المتن: ۱۷۰.

ص: ۳۵

والسيّد الخوئی ينقل عن شيخه، والظاهر أنّه يريد به الميرزا النائينی رحمه الله فی مباحثه المشار إليها، أنّه قوّی لحوق مثل السفينة بالمنزل، و من هنا يناقشه الخوئی بأن مقتضی الإطلاق حرمة التظليل فی جميع الحالات، خرج من هذا الإطلاق خصوص حال النزول فی الخباء و الوصول إلی المنزل، أما غيره كالسفينة فيبقی داخلًا تحت الإطلاق؛ الأمر الذی يقتضی الحرمة (۱).

و النتيجة التی خرج بها السيّد الخوئی مقبولةً، لكن لا لما قاله، إذ لا دليل علی أنّ جواز التظليل خاص بحال الوصول إلی المنزل، بل ظاهر صحيحة البزنطی مطلق الخباء حتی لو كان فی الطريق، و تؤيّدها رواية الفسطاط إذا فسّرناه بأنّه ضرب من البناء فی السفر كما تقدّمت الإشارة إليه عند اللغويين، وهذا معناه أنّ العبرة بحال النزول لا الوصول كما قد توهمه عبارة السيد الخوئی، و من هنا نقول:

إن صحّة كلام الخوئی لا لما قاله، بل لأن العبرة فی الجواز بحال النزول و لا يصدق علی من فی السفينة و القطار هذا العنوان قطعاً، فالمفترض تطبيق أحكام السائر عليهم، و الحكم بحرمة التظليل، و لعلّ ما قلناه هو مراد السيّد الخوئی رحمه الله، وإن كان فی عبارته ما يوحی بتفسيرنا المتقدم.

والنتيجة:

حرمة التظليل فی مثل القطار أو السفينة أو... إذا لم يلزم منه العسر والحرج أو الاضطرار علی ما تقدّم.

۱- السيد الخوئی، المعتمد فی شرح المناسک، ۴: ۲۳۶- ۲۳۵.

ص: ۳۶

«.. مسجداً ضراراً...»

اشارهٔ

حسن محمّد

«وَالَّذِینَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَکُفْراً وَتَفْرِیقاً بَیْنَ الْمُؤْمِنِینَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَیَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَی وَاللَّهُ یَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَکَاذِبُونَا ۱۰۷ لَاتَقُمْ فِیهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَی التَّقْوَی مِنْ أَوَّلِ یَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِیهِ فِیهِ رِجَالٌ یُحِبُّونَ أَنْ یَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ یُحِبُّ الْمُطَّهِّرِینَ ا ۱۰۸ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْیَانَهُ عَلَی تَقْوَی مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَیْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْیَانَهُ عَلَی شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِی نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَایَهْدِی الْقَوْمَ الظَّالِمِینَ ا ۱۰۹ لَایَزَالُ بُنْیَانُهُمُ الَّذِی بَنَوْا رِیبَهً فِی قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ» (۱)

. هناک فی تأریخنا الإسلامی، العبادی والسیاسی والاجتماعی، ظهر مسجدان، کلاهما یستمدّان وجودهما ممّا للمسجد من دور کبیر فی تحقیق الأهداف، وممّا یشکّله هذا الدور الخطیر الموکل له من وسیلهٔ إعلامیهٔ بکلّ ما تحمله هذه الوسیلهٔ من وظیفهٔ متمیزهٔ فی هدایهٔ الأمّهٔ، أو فی إضلالها، وإبعادها عن الطریق المستقیم، فالمسجد سیف ذو حدّین إن صحّ التعبیر، یمکننا من خلاله توعیهٔ المجتمع ودعوته إلی اللّه تعالی والالتزام بأحکامه وتطبیق مفاهیمه ومبادئه،

۱- التوبهٔ: ۱۰۷- ۱۱۱.

ص: ۳۷

ویمکننا من خلاله إبعادها عن هذه الدعوة، وبالتالی صرف مسیرتها، إلی حیث الضلال، وفی هذه المرّة تکون خطورة المسجد أعظم وأکثر بلاءً؛ لأنّ الانحراف هذا یتمّ تحت سقفه، ویکون- بما یحمله من أهداف علیا ومبادیء سامیة- غطاءً لأعمالهم وعلی رأسها الکید للجماعة المسلمة؛ لهذا راح المنافقون یتسترون بهذه الوسیلة وبغیرها، فأسس جمع منهم، ممّن عاصر رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وتظاهر بالإیمان والتقوی والحرص علی المؤمنین، وکاد تظاهرهم هذا ومؤامرتهم هذه تنطلی علی مؤمنی المدینة، لولا تدخل السماء، التی راحت تکشف زیفهم وتمیط اللثام عن خطّتهم الخبیثة وما حاکته أیدیهم للنیل من الصف المسلم یومذاک.

القراءة

ذکر المفسّرون اختلافاً فی القراءة:

* فقد قرأ کلّ من نافع وابن عامر بل وأهل المدینة

«الذین اتخذوا»

بغیر واو، فیما قرأها الباقون بالواو، فالأول: علی أنّه بدل من قوله:

«وآخرون مرجون»

والثانی: علی تقدیر ومنهم الذین اتخذوا مسجداً ضراراً.

فالمسجد سیف ذو حدّین إن صحّ التعبیر، یمکننا من خلاله توعیة المجتمع ودعوته إلی اللَّه تعالی والالتزام بأحکامه وتطبیق مفاهیمه ومبادئه، ویمکننا من خلاله إبعادها عن هذه الدعوة، وبالتالی صرف مسیرتها، إلی حیث الضلال

* وقرأ نافع وابن عامر أُسّس بضم الألف، وبنیانُه بالرفع فی الموضعین المذکورین: أُسِّس بنیانهُ علی تقوی... أُسِّس بنیانهُ علی شفا...

فیما قرأ الباقون أَسّس بنیانَه فیهما، وفی الشواذ قراءة نصر بن عاصم أُسُسُ بُنیانِه علی وزن فُعُل، وقراءة نصر بن علی أساس بُنیانه.

* وقرأ ابن عامر وحمزة وحماد ویحیی عن أبی بکر وخلف جُرف بالتخفیف،

ص: ۳۸

فيما قرأه الباقون جُرُف بالتثقيل.

* وقرأ يعقوب وسهل «إلى أنْ» على أنّه حرف الجر، وهو قراءة الحسن وقتادة والجحدرى وجماعة، ورواه البرقى عن أبى عبداللَّه، فيما قرأ الباقون «إلّا أنْ» مشدّدة اللام.

* وقرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة وجعفر وسهل وروس عن يعقوب تَقَطَّع بفتح التاء والتشديد، فيما قرأ روح تُقطع بضم التاء مخففاً، وقرأ الباقون تُقَطّع بضم التاء مشدداً (۱).

معانٍ

إرصاداً: إعداداً وارتقاباً وانتظاراً، تقول: أرصدت كذا إذا أعددته مرتقباً له به، قال أبو زيد: يقال رصدته وأرصدته فى الخيرة وأرصدت له فى الشر، وقال ابن الأعرابى: لا يقال إلّاأرصدت ومعناه ارتقبت.

شفا: طرف وحرف.

جرف: بضم الراء وسكونها جانب البئر التى لم تطو، وقيل: الهوة وما يجرفه السيل من الأودية. أو هو المكان الذى يأكله الماء فيجرفه أى يذهب به.

هار: متداع وساقط ومنهال.

۱- أنظر القراءات، ومجمع البيان، والتفسير الكبير للرازى، وأحكام القرآن للقرطبى.

ص: ۳۹

البلاغة

وفى الآيات استعارة، ففى قوله تعالى:

«أفمن أسس بنيانه على تقوى من اللَّه»

أى أسس على قاعدة راسخة قويّة ثابتة وطيبة ألا وهى التقوى تقوى اللَّه تعالى، فشبّه التقوى والرضوان بقاعدة يعتمد عليها البناء تشبيهاً مضمراً فى النفس، وأسس بنيانه تخييل على قاعدة الاستعارة التصريحية.

وهناك استعارة أخرى وهى الاستعارة التمثيلية فى انهيار البناء القائم على شفا جرف هار، فقد شبهت الآية عدم القيام بأمور الدين بمن بنى بنيانه على شفا فهو يسقط به، فالمشبّه به البناء على محل آيل للسقوط، والمشبه هو ترتيب أحكام الدين وأعماله على الكفر والنفاق.

قصة مسجد الضرار

ذكر المفسّرون فى سبب نزول هذه الآيات الأربع أنّ بنى عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قُبَاء، وبعثوا إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن يأتيهم، فأتاهم فصلّى فيه، فحسدهم جماعة من المنافقين من بنى غُنم بن عوف، وقالوا: نبنى مسجداً فنصلى فيه ولا نحضر جماعة محمد، وكانوا اثنى عشر رجلًا، وقيل: خمسة عشر رجلًا، منهم ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير ونبتل بن الحرث، فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء، فلما فرغوا منه أتوا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، وهو يتجهّز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول اللَّه إنا قد بنينا مسجداً لذى العلّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلّى فيه لنا وتدعو بالبركة.

فقال صلى الله عليه و آله: إنى على جناح سفر، ولو قدمنا أتيناكم إن شاء اللَّه، فصلينا لكم فيه.

فلما انصرف رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من تبوك، نزلت عليه الآية فى شأن المسجد (۱).

فيما ذكر الواحدى فى أسبابه ما قاله المفسّرون: إنّ بنى عمرو بن عوف، اتخذوا

۱- مجمع البيان للشيخ الطبرسى، الآيات.

ص: ۴۰

مسجد قُباء وبعثوا إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن يأتيهم، فأتاهم فصلّى فيه، فحسدهم إخوتهم بنو غُنم بن عوف، وقالوا: نبنى مسجداً، ونرسل إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ليصلى فيه كما صلّى فى مسجد إخواننا، وليصل فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام، وكان أبو عامر قد ترهب فى الجاهلية وتنصّر ولبس المسُوح، وأنكر دين الحنيفية لمّا قدم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله المدينة وعاداه، وسمّاه النبى عليه السلام: أبا عامر الفاسق، وخرج إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين: أن

[أعدو

] استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، وابنوا لى مسجداً فإنى ذاهب إلى قيصر، فآتى بجند الروم، فأُخرج محمداً وأصحابه.

فقالوا: إنا [قد] بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلّى لنا فيه، فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم، فنزل عليه القرآن، وأخبره اللَّه عزّ وجلّ خبر مسجد الضرار وما هموا به

فبنوا له مسجداً إلى جنب مسجد قُباء، وكان الذين بنوه اثنى عشر رجلًا:

خِذام بن خالد، ومن داره أخرج مسجد الشقاق، وثعلبة بن حاطب، ومُعتب بن قُشير، وأبو حبيبة بن الأزعر، وعبّاد بن حنيف، وجارية بن عامر، وابناه مجمع وزيد، ونبتل بن حارث

[وبخرج

] وبجاد بن عثمان، ووديعة بن ثابت.

فلما فرغوا منه، أتوا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقالوا: إنا

[قد

] بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلّى لنا فيه، فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم، فنزل عليه القرآن، وأخبره اللَّه عزّ وجلّ خبر مسجد الضرار وما هموا به.

فدعا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مالك بن الدُّخشم وأخا بنى سالم بن عوف، ومعن بن عُدىّ، أو أخاه عاصماً، وعامر بن السكن، ووحشياً قاتل حمزة، وهذا أمر مستبعد لأنه صلى الله عليه و آله أمره بأن لايراه حتى بعد أن أسلم، فقال له رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وبعد أن سمع حديثه عن كيفية قتله لحمزة رضوان اللَّه عليه: ويحك! غيّب عنى وجهك، فلا أُرينّك.

ص: ۴۱

قال وحشی: فکنت أتنکّب رسول اللّه صلی الله علیه و آله حیث کان، لئلا یرانی، حتی قبضه اللّه (۱).

وعلی أیّة حال، فقد قال لهم رسول اللّه صلی الله علیه و آله: انطلقوا إلی هذا المسجد الظالم أهله، فاهدموه وأحرقوه، فخرجوا، وانطلق مالک، وأخذ سعفاً من النخل، فأشعل فیه ناراً، ثمّ دخلوا المسجد وفیه أهله، فحرقوه وهدموه، وتفرّق عنه أهله، وأمر النبیّ صلی الله علیه و آله أن یتخذ ذلک کناسة تلقی فیها الجیف والنتن والقمامة، ومات أبوعامر بالشک وحیداً غریباً.

وفی خبر مختصر ینقله الواحدی أیضاً عن جماعة: أنّ المنافقین عرضوا المسجد یبنونه لیضاهئوا به مسجد قُباء، وهو قریب منه لأبی عامر الراهب، یرصدونه إذا قدم لیکون إمامهم فیه، فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول اللّه صلی الله علیه و آله فقالوا:

یا رسول اللّه إنا قد بنینا مسجداً فصلِ فیه حتی نتخذه مصلی، فأخذ ثوبه لیقوم معهم، فنزلت هذه الآیة:

«لا تقم فیه أبداً» (۲)

. وأبوعامر الراهب کان قد خرج إلی قیصر وتنصّر، ووعدهم قیصر أنّه سیأتیهم، فبنوا مسجد الضرار یرصدون مجیئه فیه.

ویذکر سعید بن المسیّب: أنّ

«واتل علیهم نبأ الذی آتیناه آیاتنا فانسلخ منها فأتبعه الشیطان فکان من الغاوین» (۳)

. نزلت فی أبی عامر هذا- وهو واحد من عدّة أقوال- وهو أبو عامر بن صیفی، وکان یلبس المسوح فی الجاهلیة، فکفر بالنبی صلی الله علیه و آله، وذلک أنّه دخل علی النبی صلی الله علیه و آله المدینة، فقال: یا محمد، ما هذا الذی جئتَ به؟

قال: جئتُ بالحنیفیة دین إبراهیم.

قال: فإنّی علیها.

۱- أنظر السیرة النبویة لابن هشام ۳: ۷۶.

۲- أسباب نزول القرآن للواحدی، والقرطبی فی تفسیره وغیرهما.

۳- الأعراف: ۱۷۵.

ص: ۴۲

فقال النبی صلی الله علیه و آله: لستَ علیها لأنک أدخلت فیها مالیس منها.

فقال أبو عامر: أمات اللَّه الکاذب منا طریداً وحیداً.

فقال النبی صلی الله علیه و آله: نعم أمات اللَّه الکاذب منا کذلک.

وإنما قال هذا یُعرّض برسول اللَّه صلی الله علیه و آله حیث خرج من مکهٔ.

فقد قال لهم رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: انطلقوا إلی هذا المسجد الظالم أهله، فاهدموه وأحرقوه

فخرج أبو عامر إلی الشام ومرّ إلی قیصر وکتب إلی المنافقین: استعدوا فإنی آتیکم من عند قیصر بجند لنخرج محمداً من المدینهٔ، فمات بالشام وحیداً، وفیه نزل:

«وإرصاداً لمن حارب اللَّه ورسوله من قبل» (۱)

. إذن، ومن خلال الاستعانهٔ بأسباب النزول المختصّهٔ بهذه الآیات الأربع، نری أنّ مسجد ضرار حرکهٔ نفاقیهٔ خطیرهٔ وسیئهٔ کادت أن تؤدی بوحدهٔ الصف المسلم، خطط لها أعداء الإسلام والتوحید، وراحت أیدٍ تتظاهر بالإسلام داخل المجتمع المسلم تنفذها تحت أغطیهٔ ذی العلّهٔ والحاجهٔ واللیلهٔ المطیرهٔ واللیلهٔ الشاتیهٔ... یحاولون بهذا إخفاء نوایاهم الحقیقیهٔ وهی التی بینتها الآیات المذکورهٔ: ضراراً وکفراً وتفریقاً... وهی مقاطع سیأتی شرحها.

المفاسد الأربع

وراحت هذه الآیات القرآنیهٔ تصف هذا المسجد الذی أسسته أیاد منافقهٔ ترید الکید بالإسلام والمسلمین، تصفه بصفات أو مفاسد أربع، وبالتالی تصف القائمین به وعلیه أیضاً بهذه الصفات، وهی کونه:

-۱

ضراراً.

-۲

کفراً.

۱- أنظر القرطبی فی تفسیره للآیهٔ ۱۷۵ من سورهٔ الأعراف.

ص: ۴۳

-۳

تفريقاً بين المؤمنين.

-۴

إرصاداً لمن حارب اللَّه ورسوله من قبل.

فالصفة الأولى:

هى أنه كان ضراراً، والضرار لغةً، ضرّه، وضرّ به، يضرّه ضرّاً وضرراً: ألحق به مكروهاً أو أذىً، وضارّه مُضارةً وضراراً: ضرّه وضامه وضايقهُ، وضاره أى خالفه، وتضارّا: ضارَّ أحدهما الآخر، وتضارّاً: لحقهما ضرر وضيم (۱).

وقال الرازى والطبرسى أيضاً: إنّ الضرار محاولة الضرّ، كما أنّ الشقاق محاولة ما يشق، يقال: ضاره مضارة وضرار.

وقال الزجاج: وانتصب قوله (ضراراً) لأنّه مفعول له.

والمعنى: اتخذوه للضرار، ولسائر الأمور المذكورة بعده، فلما حذفت اللام اقتضاه الفعل فنصب.

ثم قال: وجائز أن يكون مصدراً محمولًا على المعنى والتقدير: اتخذوا مسجداً ضرراً به ضراراً.

إذن، فلاـ يُراد به إلّاالإضرار بالمسلمين وبوحدتهم كما لا يُراد به إلّاالكفر باللَّه تعالى وترك عبادته وتوحيده، ولا يُراد به أيضاً إلّاأن يكون مركزاً للفتنة والتآمر على الساحة الإسلامية والكيد لها بالتعاون مع أعداء هذه الدعوة المباركة التى حملها نبىّ الرحمة محمد صلى الله عليه و آله، متسترين بعناوين متعدّدة منها: مساعدة ضعفائنا، ومرضانا، خاصة فى الليالى الباردة، التى لاـ يستطيعون فيها الذهاب إلى مسجد قُباء، كما أرادوا أن يصلّى فيه الرسول صلى الله عليه و آله لكى يضفى على بنائهم هذا وعملهم الشرعية، ولكن سعيهم هذا خاب بعد أن تدخلت السماء فكشفت مؤآمرتهم.

هذا، وقال أهل التأويل: ضراراً بالمسجد، وليس للمسجد ضرار، إنّما هو

۱- مصادر اللغة.

ص: ۴۴

لأهله، وروى الدارقُطنى عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: لا ضرر ولا ضرار مَن ضارّ ضارّ اللَّه به، ومن شاقّ شاقّ اللَّه عليه.

قال بعض العلماء: الضرر: الذى لك به منفعة وعلى جارك فيه مضرة.

والضرار: الذى ليس لك فيه منفعة وعلى جارك فيه المضرة، وقد قيل: هما بمعنى واحد، تكلّم بهما جميعاً على جهة التأكيد. وراح القرطبى يذكر بعض الأحكام التى منها أنّه لا يجوز أن يبنى مسجد إلى جنب مسجد ويجب هدمه، والمنع من بنائه لئلا ينصرف أهله عن المسجد الأول فيبقى شاغراً، إلّاأن تكون المحلة كبيرة فلا يكفى أهلها مسجدٌ واحد فيبنى حينئذ... (۱).

الصفة الثانية: «وكفراً»

اختلفت أقوالهم فى معنى

«وكفراً»

، فبعض ذهب إلى أنّ المقصود إقامة الكفر فيه، أو أنّ اتخاذهم هذا المكان واختيارهم هذا العمل بإنشاء هذا المسجد كان كفراً باللَّه، أو أنّ المراد هو أنّهم يكفرون فيه بالطعن على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله والإسلام، فعن ابن عباس أنّه قال: يريد به ضراراً للمؤمنين، وكفراً بالنبىّ صلى الله عليه و آله وبما جاء به.

فيما ذهب غيرهم إلى أنّ المراد ب

«وكفراً»

هو أنهم لما كان إعتقادهم أنّه

۱- أنظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ۸: ۲۵۵- ۲۵۶.

ص: ۴۵

لا حرمـة لمسـجد قُباء ولا لمسـجد النبیّ صـلی الله علیه و آله کفروا بهـذا الاعتقاد، هـذا ما قاله ابن العربی (۱). ولا ـ مانع من أن یکون المراد منها کلّ ما تعنیه کلمة الکفر من معان.

الصفة الثالثة:

«وتفریقاً بین المؤمنین»

وهو هـدف خطیر تحمله حرکـة النفاق ویقصـده المنافقون فی کلّ تصـرفاتهم ضـد الدعوة الجدیدة، فبنی هدفهم، إذا ما تمّ إنشاء هذا المسـجد، مسـتغلّین قدسـیة المسـجد وانشداد المؤمنین له، بما یحمله من مکانة فی قلوبهم، وبما تضفی علیه صلاة رسول اللّه صلی الله علیه و آله فیه لو تمّت، بنی هدفهم علی تفریق الأمّة المسلمة تمهیداً لتضعیفها فالاستحواذ علیها.

یقول الرازی: أی یفرقون بواسـطته جماعة المؤمنین، وذلک لأنّ المنافقین قالوا: نبنی مسـجداً فنصـلی فیه، ولا نصلی خلف محمد، فإن أتانا فیه صلینا معه، وفرّقنا بینه وبین الذین یصلون فی مسجده، فیؤدی ذلک إلی اختلاف الکلمة وبطلان الألفة.

وهـذا یـدلک- کما یـذکر القرطبی- علی أنّ المقصـد الأکبر والغرضَ الأظهر من وضع الجماعـة تألیف القلوب والکلمـة علی الطاعة، وعقد الذمام والحرمة یفصل

۱- أنظر تفسیر الرازی ومجمع البیان للطبرسی وجامع الأحکام للقرطبی.

ص: ۴۶

الدیانهٔ حتی یقع الأنس بالمخالطهٔ، وتصفو القلوب من وضر الأحقاد (۱).

إذن، فالمنافقون یحاولون النیل من الجماعهٔ المسلمهٔ من داخلها وبالوسائل نفسها التی تمتلکها هذه الجماعهٔ، والتی منها المسجد وماله من دور خطیر ومهم فی حیاتها الإیمانیهٔ.

الصفهٔ الرابعهٔ:

«وإرصاداً لمن حارب اللَّه ورسوله»

إن المفسّرین اتفقوا علی أنّ المراد بهذا المقطع من الآیات هو رجل من قبیلهٔ الخزرج، یُقال له أبو عامر الراهب، والد حنظلهٔ الذی غسلته الملائکهٔ، کما ورد ذلک عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فیه بعد أن استشهد فی معرکهٔ أحد حیث قال صلی الله علیه و آله: إنّ صاحبکم، یعنی حنظلهٔ لتُغسّله الملائکهٔ، فسألوا أهله ما شأنه؟

فسئلت صاحبته عنه، فقالت: خرج وهو جُنب حین سمع الهاتفهٔ أی الصیحهٔ، وقد قتله شدّاد بن الأسود وهو ابن شعوب بعد أن رآه قد علا أبا سفیان، فضربه شداد فقتله (۲)، فشتان شتان بین هذا العبد الصالح، وأبیه الراهب، الذی

تنصر فی الجاهلیهٔ، وقرأ علم أهل الکتاب، ولبس المسوح، وکان له شرف فی قبیلته الخزرج کبیر، فلما قدم النبی صلی الله علیه و آله المدینهٔ حسده وحزّب علیه الأحزاب، فسمّاه النبی صلی الله علیه و آله الفاسق، وظهرت نوایاه الخبیثهٔ هذه ضد رسول اللَّه صلی الله علیه و آله خصوصاً بعد أن صارت للإسلام کلمهٔ عالیهٔ، وأظهر اللَّه المسلمین فی معرکهٔ بدر، فشرِق هذا اللعین بریقه وبارز بالعداوهٔ وظاهر بها ثمّ خرج فاراً إلی کفار مکهٔ من مشرکی قریش یمالئهم علی حرب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فاجتمعوا بمن وافقهم من أحیاء العرب، وقدموا عام أحد فکان من أمر المسلمین ما کان، وامتحنهم اللَّه عزّ وجلّ، وکانت العاقبهٔ للمتقین، وکان لعامر هذا دور قذر فقد حفر حفائر بین الصفین، فوقع فی إحداهن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، وأصیب فی ذلک الیوم، فجرح وجهه، وکسرت رباعیته

۱- أنظر الرازی فی تفسیره والطبری فی مجمعه والقرطبی فی جامعه فی تفسیر الآیات المذکورهٔ: سورهٔ التوبهٔ.

۲- أنظر السیرهٔ النبویهٔ لابن هشام ۳: ۷۹- ۸۰.

ص: ۴۷

اليمنى السفلى، وشج رأسه- صلوات اللّه وسلامه عليه- ثمّ راح أبو عامر، وقد تقدّم فى أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، يخاطبهم ويستميلهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه، قالوا: لا أنعم اللّه بك عيناً يا فاسق يا عدو اللّه! ونالوا منه وسبوه، فرجع وهو يقول: واللّه لقد أصاب قومى بعدى شر!

وكان رسول اللّه صلى الله عليه و آله قد دعاه إلى اللّه قبل فراره، وقرأ عليه القرآن، فأبى أن يسلم وتمرّد، فدعا عليه رسول اللّه صلى الله عليه و آله أن يموت بعيداً طريداً، فنالته هذه الدعوة، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبىّ صلى الله عليه و آله فوعده ومنّاه وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول اللّه صلى الله عليه و آله ويغلبه، ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلًا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج رسول اللّه صلى الله عليه و آله إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول اللّه صلى الله عليه و آله أن يأتى إليهم فيصلى فى مسجدهم، فيحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنّهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة فى الليلة الشاتية! فعصمه اللّه من الصلاة فيه، فقال صلى الله عليه و آله:

«أنا على سفر، ولكن إذا رجعنا، إن شاء اللّه»

. فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبقَ بينه وبينها إلّايوم أو بعض يوم، بذى أوان، وهو بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار، نزل جبريل بخبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين فى مسجدهم- مسجد قباء- الذى أسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول اللّه صلى الله عليه و آله إلى ذلك المسجد من هَدَمَه قبل مقدمه المدينة.

أما أبو عامر فكان مصيره أن مات قبل أن يبلغ ملك الروم الذى خرج إليه بعد أن انهزمت هوازن فى معركة حنين حيث ظلّ أبو عامر يُقاتل رسول اللّه صلى الله عليه و آله إلى

ص: ۴۸

أن حلّت الهزيمة بهم فى هذه الواقعة، فمات وحيداً غريباً بقرين دون أن تتحقق أمانيه الخبيثة ضد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وأمانة السماء التى حملها بشيراً ونذيراً، ورحمةً للعالمين (۱).

ثمّ إن اللَّه تعالى بعد أن وصف هذا المسجد الذى اتخذه المنافقون بهذه الصفات أو المفاسد قال سبحانه وتعالى:

«وليحلفن إن أردنا إلّاالحسنى»

وهو ردّ طبيعى متوقع منهم، أن يحلفوا بأنهم لم يريدوا من عملهم هذا إلّا الفعلة الحسنى، وهو الرفق بالمسلمين فى التوسعة على أهل الضعف والعلة والعجز، وهو ما تعللوا به حينما جاءوا إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ليطلبوا منه الصلاة فى مسجدهم بأنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة الممطرة، والليلة الشاتية، وهو غطاء تستّر به المنافقون فى خططهم، لكنّ الرد السماوى لم يتأخر فقد جاء بقوة

«واللَّه يشهد إنّهم لكاذبون»

فيما ادعوه، واللَّه يعلم حيث ضمائرهم وكذبهم فيما يحلفون عليه. وكفى لمن يشهد اللَّه سبحانه بكذبه خزياً فى الدنيا والآخرة.

«لا تقم فيه أبداً»

وهو نهى لرسول اللَّه أن يقوم به للصلاة، وقد يعبّر عن الصلاة بالقيام، قد قامت الصلاة، ويقال: فلان يقوم الليل أى يصلّى، ومنه الحديث:

«من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه».

وقد روى عن الحسن أنّه قال: همّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن يذهب إلى ذلك المسجد، فنادى جبريل عليه السلام لا تقم فيه أبداً.

بعد أن طلبوا منه أن يصلى فيه ويدعو لهم بالبركة، إلّاأنّه صلى الله عليه و آله وبعد أن كشفت له السماء نواياهم وفضحت سرائرهم وما يحيكونه من وراء هذا البناء، وبعد نهى السماء أن يلبى لهم طلبهم، فيتخذوا قيامه فى مسجدهم غطاء وإمضاء

۱- أنظر ابن كثير فى تفسيره للآية، وتأريخ المدينة لابن شبّة ۱: ۵۳- ۵۴ ومعالم التنزيل للبغوى ۴: ۲۳۹، وغيرها.

ص: ۴۹

شرعیاً لعملهم.

قال صلی الله علیه و آله لجماعهٔ عیّنهم: انطلقوا إلی هـذا المسجد الظالم أهله، فاهدموه وخربوه، ففعلوا ذلک، ولم یکتف رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بتهدیمه وتخریبه، بل أمر أن یتخذ مکانه کناسهٔ یلقی فیها الجیف والقمامهٔ، ولم یدم عُمر هذا المسجد إلّاثلاثهٔ أیام، وانتهی فی الیوم الرابع، یقول ابن جریح: فرغوا من إتمام ذلک المسجد یوم الجمعهٔ، فصلّوا فیه ذلک الیوم ویوم السبت والأحد، وانهار فی یوم الاثنین.

«لمسجد أسس علی التقوی من أول یوم»

اللام فی قوله تعالی:

«لمسجد»

هی لام القسم، وقیل لام الابتداء کما تقول:

لزَید أحسن الناس فعلًا، وهی مقتضیهٔ تأکیداً، والتقوی أی الخصال التی تتقی بها العقوبهٔ، أی واللَّه لمسجد أسس علی التقوی، أی بنی أصله وجذره ورفعت قواعده علی تقوی اللَّه تعالی وطاعته منذ أول یوم.

وإنّما تمّ هذا التفریق بین المسجدین؛ مسجد أسس علی الشر والکید والنوایا السیئهٔ، ومسجد أسس علی تقوی اللَّه وطاعته، لیمیزَ اللَّهُ الخبیث من الطیب. وقد اختلف فی هذا المسجد (مسجد التقوی)، فذهب بعض المفسّرین إلی أنّه:

مسجد قُباء، یروی عن ابن عباس وعروهٔ بن الزبیر والضحاک والحسن، وتعلقوا بقوله:

«من أول یوم»

، ومسجد قباء کان أسس بالمدینهٔ أول یوم، فإنّه بنی قبل مسجد النبی صلی الله علیه و آله، قاله ابن عمر وابن المسیب، ومالک فیما رواه عنه ابن وهب وأشهب وابن القاسم.

ولقوله تعالی: «فیه» وضمیر الظرف تقتضی الرجال المتطهرین، فهو مسجد قباء.

وأنّ الآیهٔ نزلت فی أهل قباء:

«فیه رجال یحبون أن یتطهّروا واللَّه یحب المطهرین»

فقد کانوا یستنجدون بالماء فنزلت فیهم هذه الآیهٔ، وقال الشعبی: هم أهل قباء. أنزل اللَّه فیهم هذا، وقال قتادهٔ: لما نزلت هذه الآیهٔ، قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله

ص: ۵۰

لأهل قباء: إنّ اللَّه سبحانه قد أحسن عليكم الثناء فى التطهر فما تصنعون؟ قالوا: إنّا نغسل أثر الغائط والبول بالماء، وهذا ما رواه أبو داود، فيما روى الدارقطنى عن طلحة بن نافع أنّه قال: حدثنى أبو أيوب وجابر بن عبداللَّه وأنس بن مالك الأنصاريون عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى هذه الآية

«فيه رجال يحبون أن يتطهروا واللَّه يحب المطهرين»

فقال: يا معشر الأنصار إنّ اللَّه قد أثنى عليكم خيراً فى الطهور، فما طهوركم هذا؟ قالوا: يا رسول اللَّه، نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: فهل مع ذلك من غيره؟

فقالوا: لا غير، إنّ أحدنا إذا خرج إلى الغائط أحبّ أن يستنجى بالماء، قال:

هو ذاك فعليكموه.

وقيل- كما هو المروى عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام فى مجمع البيان- يحبون أن يتطهروا بالماء عن الغائط والبول، إضافة إلى ذكره كما روى عن النبى صلى الله عليه و آله أنه قال لأهل قباء: ماذا تفعلون فى طهركم فإنّ اللَّه قد أحسن عليكم الثناء؟ قالوا: نغسل أثر الغائط، فقال: أنزل اللَّه فيكم

«واللَّه يحب المطهرين»

أى المتطهرين.

فيما ذهب فريق آخر منهم إلى أنّه مسجد النبى صلى الله عليه و آله مستندين إلى ما رواه أبوسعيد الخدرى كما فى الترمذى، قال: تمارى رجلان فى المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء؛ وقال آخر: هو مسجد النبى صلى الله عليه و آله، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: هو مسجدى هذا.

فمن عدّ هذا الحديث صحيحاً الذى نصّ فيه النبى صلى الله عليه و آله على أنّه مسجده، قال:

فلا نظر معه، وقد روى أنه مسجد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عن زيد بن ثابت وابن عمرو الخدرى، ورد عن الرسول صلى الله عليه و آله.

فيما ذهب فريق ثالث الى أنّ المسجد الذى أسس على التقوى هو كل من مسجد المدينة ومسجد قباء، فقد روى أبو كُريب قال: حدثنا أبو أسامة، قال:

حدثنا صالح بن حيان، قال: حدثنا عبداللَّه بن بريدة فى قوله عزّ وجلّ:

«فى بيوت أذن اللَّه أن ترفع ويُذكر فيها اسمه»

ص: ۵۱

قال: إنما هی أربعهٔ مساجد لم ینهنّ إلّانبیّ: الکعبهٔ بناها إبراهیم وإسماعیل علیهما السلام ومسجد المدینهٔ ومسجد قُباء اللذان أسسا علی التقوی، بناهما رسول اللّه صلی الله علیه و آله. وقال القاضی: لا یمنع دخولهما جمیعاً تحت هذا الذکر؛ لأنّ قوله

«لمسجد أسس علی التقوی»

هو کقول القائل لرجل صالح أحق أن تجالسه، فلا یکون ذلک مقصوراً علی أحد.

وقیل: هو کلّ مسجد بنی للإسلام وأرید به وجه اللّه عن أبی مسلم.

«أفمن أسس بنیانه علی تقوی من اللّه ورضوان خیرٌ أم من أسس بنیانه علی شفا جرف هار فانهار به فی نار جهنم واللّه لا یهدی القوم الظالمین»

. ثم راحت السماء تمیّز بین ذلک البنیان الذی أسس علی الکید وبین بنیان کان أساسه التقوی ورضا اللّه سبحانه وتعالی، وراحت تجری مقارنهً بین المسجدین عبر تساؤل کبیر وخطیر یحمل تحذیراً وتنبیهاً، وبالتالی تهذیباً وتربیهٔ للنفوس فی أن تمیّز بین ما یعرض لها من أمور، فتتبع منها ما یتفق مع الخیر وتترک کل شیء یتناغم والشر، إنّها التربیهٔ القرآنیهٔ المتواصلهٔ للمؤمنین وعلی رأسهم رسولاللّه صلی الله علیه و آله.

ویذکر صاحب تفسیر فی ظلال القرآن، وهو یقف عند هذه الآیهٔ لیحلق بها بتعبیر فنی رائع حیث یقول: فلنقف بتطلع لحظهٔ إلی بناء التقوی الراسی الراسخ المطمئن... ثمّ لنتطلع بعد إلی الجانب الآخر! لنشهد الحرکهٔ السریعهٔ العنیفهٔ فی بناء الضرار... إنّه قائم علی شفا جرف هار... قائم علی حافهٔ جرف منهار... قائم علی تربهٔ مخلخلهٔ مستعدهٔ للانهیار... إننا نبصره اللحظهٔ یتأرجح ویترحلق وینزلق!... إنّه ینهار! إنه ینزلق! إنه یهوی! إنّ الهوه تلتهمه! یا للهول! إنها نار جهنم

«واللّه لا یهدی القوم الظالمین»

الکافرین المشرکین.

الذین بنوا هذه البنیهٔ؛ لیکیدوا بها هذا الدین!

ثم یواصل کلامه: إنّه مشهد عجیب، حافل بالحرکهٔ المثیرهٔ ترسمه وتحرکه بضع کلمات!... ذلک لیطمئن دعاهٔ الحق علی مصیر دعوتهم، فی مواجههٔ دعوات

ص: ۵۲

الكيد والكفر والنفاق وليطمئن البناة على أساس من التقوى كلما واجهوا البناة على الكيد والضرار! (۱).

حقّاً إنّه لمشهد رائع هذا الذى يصوره كتاب اللّه تعالى وهو يحكى هذين البناءين ودوافعهما وما آلت إليه أسس بناء الشر من نهاية تعيسة، فيما راح بناء الخير تعلو كلمته، ويرتفع رصيده عند اللّه تعالى وعند المؤمنين، ففرق كبير بين من أسس بنيانه متقياً وبين من أسس بنيانه غير متق، فالأول مثابٌ على عمله فيما يكون الآخر معاقباً عليه رغم ما بذله من جهد ومال... فانهار به فى نار جهنم لأنه معصية وفعل لما كرهه اللّه تعالى من الضرار والكفر والتفريق بين المؤمنين، هذا وأنّ من أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة وهو الحقّ الذى هو تقوى اللّه

ورضوانه خير- كما يقول الرازى- أمن أسس على قاعدة هى أضعف القواعد وأقلها بقاء، وهو الباطل والنفاق الذى مثله مثل شفا جرف هار من أودية جهنم؟

فلكونه

«شفا جرف هار»

كان مشرفاً على السقوط، ولكونه على طرق جهنم، كان إذا انهار فإنّما ينهار فى قعر جهنم.

۱- فى ظلال القرآن لسيّد قطب فى تفسير الآية.

ص: ۵۳

ثم يقول الرازی: ولا نری فی العالم مثالًا أحسن مطابقةً لأمر المنافقین من هذا المثال!

وحاصل الکلام أنّ أحد البناءین قصد بانیه ببنائه تقوی اللّه ورضوانه، والبناء الثانی قصد بانیه ببنائه المعصیة والکفر، فکان البناء الأول شریفاً واجب الإبقاء، وکان الثانی خسیساً واجب الهدم (۱).

هذا ولا بد لنا من الإشارة الی أنّ العلماء اختلفوا فی

«فانهار به فی نار جهنم»

هل هذا حقیقة أو مجاز علی قولین:

الأول:

أنّه حقیقة، فقد أرسل إلیه رسول اللّه صلی الله علیه و آله من یهدمه، وفعلًا هدم وخرب ورؤی الدخان یخرج منه، کما فی روایة سعید بن جُبیر، وقال بعضهم: کان الرجل یُدخل فیه سعفة من سعف النخل فیخرجها سوداء محترقة، فیما ذکر أهل التفسیر أنّه کان یُحفر ذلک الموضوع الذی انهار فیخرج منه دخان، وروی عاصم بن أبی النجود عن زرّ بن حبیش عن ابن مسعود أنّه قال: جهنم فی الأرض، ثمّ تلا

«فانهار به فی نار جهنم»

أما جابر بن عبداللّه فیقول: أنا رأیت الدخان یخرج منه علی عهد رسول اللّه صلی الله علیه و آله.

حاصل الکلام أنّ أحد البناءین قصد بانیه ببنائه تقوی اللّه ورضوانه، والبناء الثانی قصد بانیه ببنائه المعصیة والکفر، فکان البناء الأول شریفاً واجب الإبقاء، وکان الثانی خسیساً واجب الهدم

الثانی:

أنّه مجاز، ومعناه: صار البناء فی نار جهنم، فکأنه انهار إلیه وهوی فیه وهذا کقوله تعالی:

«فأمُّه هاویة»

، یقول القرطبی: والظاهر الأول، إذ لا إحالة فی ذلک واللّه أعلم (۲).

۱- التفسیر الکبیر الرازی، تفسیر الآیة.

۲- أنظر أحکام القرآن للقرطبی فی تفسیر الآیة.

ص: ۵۴

«لا یزال بنیانُهم الذی بنوا ریبة فی قلوبهم إلّاأن تقطّع قلوبهم واللَّه علیم حکیم»

. تحمل هذه الآیة مشهداً آخر راح التعبیر القرآنی یرسمه فی نفوس بُناته الأشرار، وبناة کل مساجد الضرار.

لقد انهار الجرف المنهار... انهار ببناء الضرار الذی أقیم علیه، انهار به فی نار جهنم وبئس القرار! ولکن رکام البناء بقی فی قلوب بناته. بقی فیها «ریبة» وشکاً وقلقاً وحیرة. وسیبقی کذلک لا یدع تلک القلوب تطمئن أو تثبت أو تستقر. إلّاأن تتقطع وتسقط هی الأخری من الصدور!

وإن صورة البناء المنهار- کما یقول صاحب تفسیر فی ظلال القرآن- هی صورة الریبة والقلق وعدم الاستقرار... تلک صورة مادیة وهذه صورة شعوریة وهما تتقابلان فی الواقع البشری المتکرر فی کل زمان. فما یزال صاحب الکید الخادع مزعزع العقیدة، حائر الوجدان، لا یطمئن ولا یستقر، وهو من انکشاف ستره فی قلق دائم، وریبة لا طمأنینة معها ولا استقرار.

ثم یقول سید قطب: وهذا هو الإعجاز الذی یرسم الواقع النفسی بریشة الجمال الفنی، فی مثل هذا التناسق؛ بمثل هذا الیسر فی التعبیر والتصویر علی السواء «۱».

فیما ذکر القرطبی فی أحکامه فی قوله تعالی:

«لا یزال بنیانهم الذی بنوا»

: یعنی مسجد الضرار.

«ریبة»

أی شکاً فی قلوبهم ونفاقاً؛ قاله ابن عباس وقتادة والضحاک.

وقال النابغة:

حلفتُ فلم أترک لنفسک ریبةً ولیس وراء اللَّه للمرء مَذهَبُ

وقال الکلبی: حسرة وندامة؛ لأنهم ندموا علی بنیانه.

وقال السُّدّی وحبیب والمبرّد: «ریبة» أی حزازة وغیظاً أو أن تتصدع قلوبهم کقوله:

«لقطعنا منه الوتین»

لأنّ الحیاة تنقطع بانقطاع الوتین، قاله الضحاک وقتادة ومجاهد، وقال سفیان: إلّاأن یتوبوا، وعکرمة: إلّاأن تقطع قلوبهم فی قبورهم، وکان أصحاب عبداللَّه بن مسعود یقرؤونها: ریبة فی قلوبهم ولو تقطعت قلوبهم، وقرأ الحسن ویعقوب وأبو حاتم «إلی أن تقطع» کل الغایة، أی لا یزالون فی شک منه إلی أن یموتوا فیستیقنوا ویتبینوا (۱)، فالبناء الذی بنوه کان وظلّ

شکاً فی قلوب مؤسسیه ومخططیه فیما کان من إظهار إسلامهم وثباتاً علی النفاق، وبقی حزازةً کما یقول بعض المفسّرین، وحسرة کما یقول بعض آخر، فی قلوب أصحابه یترددون فیها.

هذا وأنّ الرازی یذهب إلی أنّ بناء ذلک البنیان صار سبباً لحصول الریبة فی قلوبهم، فجعل نفس ذلک البنیان ریبة لکونه سبباً لریبة.

وفی کونه سبباً للریبة ذکر الرازی وجوهاً:

الأول:

إنّ المنافقین عظم فرحهم ببناء مسجد الضرار، فلما أمر الرسول صلی الله علیه و آله بتخریبه، ثقل ذلک علیهم وازداد بغضهم له وازداد ارتیابهم فی نبوته.

الثانی:

إنّ الرسول علیه الصلاة والسلام لما أمر بتخریب ذلک المسجد ظنوا أنّه إنما أمر بتخریبه لأجل الحسد، فارتفع أمانهم عنه وعظم

خوفهم منه فی کل الأوقات، وصاروا مرتابین فی أنه هل یترکهم علی ماهم فیه، أو یأمر بقتلهم ونهب أموالهم؟

الثالث:

إنّهم اعتقـدوا أنهم کانوا محسـنین فی بناء ذلک المسـجد، فلما أمر الرسول علیه الصـلاة والسـلام بتخریبه، بقوا شاکین مرتابین فی أنّه لأیسبب أمر بتخریبه؟

الرابع:

بقوا شاکین مرتابین فی أنّ اللَّه تعالی هل یغفر تلک المعصیة؟ أعنی

۱- أنظر أحکام القرآن للقرطبی فی تفسیر الآیة.

ص: ۵۵

ص: ۵۶

سعيهم في بناء ذلك المسجد.

ثم يقول الرازي بعد ذكر هذه الوجوه الأربعة: والصحيح هو الوجه الأول.

أما بخصوص المقطع الثاني من الآية المذكورة وهو

«إلّاأن تقطّع قلوبهم»

فيقول الرازي- بعد أن يذكر الاختلاف في قراءته- أن تقطع بفتح التاء والطاء مشدّدة بمعنى تنقطع، فحذفت إحدى التاءين، والباقون بضم التاء وتشديد الطاء على مالم يسم فاعله، وعن ابن كثير (تقطع) بفتح الطاء وتسكين القاف (قلوبهم) بالنصب أي تفعل أنت بقلوبهم هذا القطع، وقوله (تقطع قلوبهم) أي تجعل قلوبهم قطعاً، وتفرق أجزاءها إما بالسيف وإما بالحزن والبكاء، فحينئذ تزول تلك الريبة، والمقصود أنّ هذه الريبة باقية في قلوبهم أبداً ويموتون على هذا النفاق، وقيل: معناه إلّاأن يتوبوا توبة تنقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم، وقيل:

حتى تنشق قلوبهم غماً وحسرة.

وقرأ الحسن (إلى أن)، وفي قراءة عبداللّه (ولو قطعت قلوبهم)، وعن طلحة (ولو قطعت قلوبهم) على خطاب الرسول صلى الله عليه و آله أو كل خطاب.

إذن، فهم لا ينزعون عن الخطيئة ولا يتوبون حتى يموتوا على نفاقهم وكفرهم، فإذا ماتوا- كما يقول الشيخ الطبرسي- عرفوا بالموت ما كانوا تركوه من الإيمان وأخذوا من الكفر، ويحتمل أنّ معناه إلّاأن يتوبوا توبة تنقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم، كما يذهب إليه الزجاج.

والريبة المذكورة في الآية- إذن- تحتمل الأقوال الثلاثة في معناها:

* أنّ هذا البنيان الذي بنوه لايزال شكاً في قلوبهم.

* أن هذا البنيان الذي بنوه سيبقى حزازةً في قلوبهم.

* وقيل: إنه سيبقى حسرة في قلوبهم يترددون فيها.

وأما معنى (إلّا) ها هنا فهو (حتى)، لأنّ إلّااستثناء من الزمان المستقبل، والاستثناء منه منته إليه فاجتمعت إلّامع حتى في هذا الموضع على هذا المعنى.

ص: ۵۷

المقطع الأخير

«واللَّه عليم حكيم»

عليم بنياتهم فى تشييد هذا البناء، والدعوة إليه، وعليم بمخططاتهم الخبيثة، التى كان أهمها ما ذكرته وصرحت به الآيات السابقة ذاكرةً سيئات عملهم هذا:

«ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب اللَّه ورسوله من قبل»

. وحكيم فيما حكم به عليهم، وعلى بنيانهم هـذا، وفى منعه رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله من أن يلبى دعوتهم للصـلاة فيه، وكشـف حقيقة أمرهم له، ليكون على بيّنةٍ من مشـروعهم التآمرى هذا، فكان أمره بنقضه ليمنع الفساد أن يقع فى الساحة المسـلمة ويمنع كل ما يحمله من أذى وضرر وتفريق وتشتيت للجماعة المؤمنة، وبالتالى يبقى المشروع الإيمانى الذى بنى على أسس من التقوى محكماً ثابتاً بلا منازع، ويترك ما أُسس على فساد الطوية وخبث النية مهدّماً وعبرةً لكلّ من أراد بذر الفتنة.

وتبقى وراء ذلك كله حكمة المنهج القرآنى فى كشف هذا المسـجد وأهله، وفى تصنيف المجتمع الى تلك المستويات التى أشارت إليها الآيات الأخرى التى سبقت آية مسجد الضرار (۱).

وفى كشف الطريق للحركـة الإسـلامية، ورسم طبيعـة المجـال الـذى تتحرك فيه من كـلّ جوانبه- كمـا يقول صـاحب الظلال والـذى يواصل حديثه قائلًا-:

لقـد كـان القرآن الكريم يعمـل فى قيـادة المجتمع المسـلم، وفى توجيهه، وفى توعيته، وفى إعـداده لمهمته الضـخمة.. ولن يفهم هـذا القرآن إلّاوهو يدرس فى مجاله الحركى الهائل ولن يفهمه إلّاأناس يتحركون به من مثل هذه الحركة الضخمة فى مثل هذا المجال.

ونختم حـديثنا عن هـذه الآيـات بكلاـم مـا أجمله وأعظمه عن آثـار هـذا المسـجد ومـاهو على شـاكلته فى واقـع المسـلم، وأنّ ظـاهرة المسجدية الضارة التى يمثلها

۱- التوبة: ۹۷- ۱۰۶.

ص: ۵۸

مسجد الضرار فی ذلک الوقت قد تتکرر بل تکررت فی عصور الإسلام المختلفهٔ وبأشکال ووسائل متعددهٔ.

فمسجد الضرار- کما یذکر سید قطب فی تفسیره- یُتخذ فی صور شتی تلائم ارتقاء الوسائل الخبیثهٔ، التی یتخذها أعداء هذا الدین، تتخذ فی صورهٔ نشاط ظاهره الإسلام، وباطنه لسحق الإسلام، أو تشویهه وتمویهه وتمییعه

فمسجد الضرار- کما یذکر سید قطب فی تفسیره- یُتخذ فی صور شتی تلائم ارتقاء الوسائل الخبیثهٔ، التی یتخذها أعداء هذا الدین، تتخذ فی صورهٔ نشاط ظاهره الإسلام، وباطنه لسحق الإسلام، أو تشویهه وتمویهه وتمییعه، وتتخذ فی صورهٔ أوضاع ترفع لافتهٔ الدین علیها لتترّس وراءها وهی ترمی هذا الدین! وتتخذ فی صورهٔ تشکیلات وتنظیمات وکتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدّر القلقین الذین یرون الإسلام یذبح ویمحق، فتخدّرهم هذه التشکیلات وتلک الکتب إلی أنّ الإسلام بخیر لا خوف علیه ولا قلق!... وتتخذ فی صور شتی کثیرهٔ...

ویواصل حدیثه فیقول: ومن أجل مساجد الضرار الکثیرهٔ هذه یتحتم کشفها وإنزال اللافتات الخادعهٔ عنها، وبیان حقیقتها للناس وما تخفیه وراءها، ولنا أسوهٔ فی کشف مسجد الضرار علی عهد رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بذلک البیان القوی الصریح:

«والذین اتخذوا مسجداً ضراراً... واللَّه علیم حکیم» (۱).

۱- فی ظلال القرآن، الآیات.

ص: ۵۹

مکة المکرمة عاصمة الثقافة الإسلامیة

اشارة

السیّد علی قاضیعسکر

تمتاز مکّة عن سائر المدن والبلدان بخصائص فذّة ومیزات فریدة؛ وذلک لما حباها اللَّه تعالی به من موقع متمیّز ودور فعّال فی تاریخ البشریّة وتاریخ المسلمین علی وجه الخصوص. من هنا أودّ الإشارة إلی بعض تلک الخصائص التی ذکرها اللَّه سبحانه فی کتابه الکریم، وهی کما یلی:

۱- مکة أُمّ القری:

فقد ورد عن المؤرخین أنّه عندما کان الماء مشتملًا الکرة الأرضیّة برمّتها، ظهرت فیها بقعة من الیابسة، ثمّ توسعت شیئاً فشیئاً، وقد سمّی یوم ظهور الیابسة

(دَحْو الأرض)

وهو یعادل فی السنة القمریة الخامس والعشرین من شهر ذی القعدة.

وقد أشارت المصادر الدینیّة إلی هذه المسألة، واعتبرت البقعة الظاهرة من الیابسة هی محل الکعبة المشرفة، وأنّ الأرض توسّعت من ذلک المکان (۱). وجاء

فی بعض الأدعیة ما یدلّ علی ذلک ومنه:

«أللَّهمّ داحی الکعبة» (۲).

کما یؤید ذلک نظریات علم الأرض الحدیثة

(الجیولوجیا)

التی تقول: إن

۱- من لایحضره الفقیه: ۲: ۱۲۴، تاریخ مکة المشرفة، لمحمد بن محمد بن أحمد بن الضیاء المکی: ۳۴.

۲- مفاتیح الجنان، دعاء الصباح.

ص: ۶۰

قارّات العالم انفصلت من نقطة تقع فی حدود أفريقيا وشبه الجزيرة العربية (۱).

وممّا يجدر ذكره أنّ مكان الكعبة الحالی يقع فی مقابل (الضـراح) أو البيت المعمور الذی عند العرش، وهذا الأمر- وما سـبقه- يدلّان على أنّ للكعبة محوريّةً فی عالم الخلق والوجود وفی الأرض (۲). وقد جاء فی الرواية

«... وَوُضِعَ الْبَيْتُ فِی وَسَطِ الْأَرْضِ لِأَنَّهُ الْمَوْضِعُ الَّذِی مِنْ تَحْتِهِ دُحِيَتِ الْأَرْضُ، وَلِيَكُونَ الْفَرْضُ لِأَهْلِ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ فِی ذَلِكَ سَوَاءً...» (۳).

۲-مكة تحظى بدعاء إبراهيم الخليل عليه السلام:

أسهمت مكة خلال تاريخها العتيق فی عطاء حضاری كبير، وذلك فی أعقاب دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام، فقد أصبحت مدينةً أو بلداً يؤسّس لحضارة دينيّة فی بقعةٍ جبليّة وواد غير ذیزرع، وهو الذی أراده إبراهيم عليه السلام فی دعائه حيث قال:

«... ربّ اجعل هذا بلداً...» (۴).

۳- البلد الأمين:

تمتاز هذه المدينة المقدّسة وحدود الحرم فی أطرافها بالأمن،

۱- الحجّ من وجهة نظر الحقوق الدوليّة: ۲۰۱. باللغة الفارسية.

۲- تاريخ مكّة المشرفة: ۳۵.

۳- من لايحضره الفقيه ۲: ۱۹۱.

۴- البقرة: ۱۲۶.

ص: ۶۱

فليس لأحد الحقّ أن يدنّس المكان بالظلم والجور، وكلّ من التجأ إليه فسيكون في كامل الأمن والأمان، ويشمل ذلك الحيوان والنبات، فلا يجوز لأحد أن يتعرّض لها بالإساءة والأذى، فلا يقتل حيواناً أو يؤذيه، ولا يقطع نباتاً فيسلب منه الحياة، قال تعالى:

«... رَبِّ اجْعَلْ هَذا بَلَداً آمِناً...» (۱)

، وقال أيضاً في آية

اخرى:

«وَهَذا البَلَدِ الأمين» (۲)

. ويؤكّد في آية ثالثة أنّ من انتهك حرمة الحرم؛ سيواجه بانتقام إلهي أليم، قال تعالى:

«... وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بإلحاد بِظُلْم نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أليم» (۳)

. أسهمت مكة خلال تاريخها العتيق في عطاء حضاري كبير، وذلك في أعقاب دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام، فقد أصبحت مدينةً أو بلداً يؤسّس لحضارة دينيّة في بقعةٍ جبليّة ووادٍ غير ذي‌زرع

۴- سلامة الاقتصاد والموارد:

ومن الخصائص الاخرى التي تتميّز بها هذه المدينة المقدّسة، أنّ سكانها يتمتّعون باقتصاد سالم وموارد طيّبة، أعطاهم اللَّه تعالى هذه النعمة المباركة، قال تعالى:

«... وارزقْ أهلَهُ مِنَ الثَمَرات...» (۴)، وقال تعالى في آية اخرى:

«... يجبى إليه ثَمراتُ كُلّ شيء رِزقاً مِن لَدُنّا ...» (۵).

۵- اشتياق القلوب إليها:

ومن خصائصها أنّ قلوب ملايين المسلمين تهفو إليها، وفي كلّ عام يحظى بعضهم بالتوفيق لحضور المشاعر المقدّسة فيها، قال تعالى:

«... فاجْعَلْ أفئدةً مِنَ النْاسِ تَهْوِى إليْهِم...» (۶).

۱- البقرة: ۱۲۶.

۲- التين: ۳.

۳- الحج: ۲۵.

۴- البقرة: ۱۲۶.

۵- القصص: ۵۷.

۶- إبراهيم: ۳۷.

ص: ۶۲

۶- تساوى الناس فيها:

فالذين يَرِدون مكة المشرفة لأداء المشاعر من غير أهلها، لا فرق بينهم وبين المقيمين فيها، قال تعالى:

«سَوَاءً العَاكِفُ فِيهِ وَالبَادِ...» (۱)

، وقد جاء فى الرواية:

«فالعاكف المقيم به، والبادى الذى يحجّ إليه من غير أهله» (۲).

۷- أولياؤها من المتّقين:

وجاء فى الكتاب الكريم أنّ المتولّين لهذه المدينة يجب أن يكونوا من المتّقين الصالحين، قال تعالى:

«... وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إنْ أَوْلِيَاؤُهُ إلّاالمتّقُونْ» (۳)

، وسرّ هذه المسألة هو أن مكّة والمسجد الحرام والكعبة

ليست مجرّد مدينة أو أثرٍ تاريخى يتوجب على المتصدّين له أن يبذلوا الجهد لحفظه وصيانته وحسب، بل هى قاعدة الهداية والتربية، ومركز إشعاع للعلم والثقافة، ومنه ينتقلان عن طريق الحجيج إلى كافّة أنحاء العالم.

۸- فيها أوّل بيت وضع للناس:

فمن خصائص هذه المدينة المقدّسة وقوع الكعبة فيها، وهى أوّل بيت وضع للناس، ونتيجة ذلك هو أنّ كلّ مسلم له تعلّق خاصّ ببيته الذى هو بيت اللّه سبحانه، فلا يشعر بالغربة فيه، قال تعالى:

«إنَّ أوّلَ بيتٍ وُضِعَ للنَاسِ لَلذِى بِبكّة مبارَكاً...» (۴).

۹- هدىً للعالمين:

فالكعبة منار هدىً ومركز إشعاع للهداية الدينيّة إلى أرجاء العالم

«إنَّ أوّلَ بيتٍ... وَهُدىً لِلعالَمِين»

. والرّسول صلى الله عليه و آله رسالته عالمية هى:

«تبَارَكَ الذى نَزَّلَ الفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعالَمِين نَذِيراً» (۵) «وَمَا أرْسَلْنَاكَ إلّاكافَةً لِلنَاسِ بَشِيْرَاً وَنَذِيراً» (۶).

۱- الحج: ۲۵.

۲- مجمع البيان فى تفسير القرآن ۷: ۱۲۷.

۳- الأنفال: ۳۴.

۴- آل عمران: ۹۶.

۵- الفرقان: ۱.

۶- سبأ: ۲۸

ص: ۶۳

والقرآن الكريم أنزله اللّه تعالى لهداية عموم البشر

«شَهْرُ رَمَضانَ الَذِی أُنْزِلَ فِیْهِ القُرْآنُ هُدَیً لِلنَاسِ...» (۱)، «... إنْ هُوَ إلّاذِکْری لِلعَالَمِین» (۲). وبناءاً على ما تقدّم فإنّ الإسلام دين عالمی، والرسول صلى الله عليه و آله إنّما بعث لهداية الناس كافّة، ومثل هذا الدين يحتاج إلى مركز ثابت وغير قابل للتحوّل والتغيير، كی يستطيع محِبّو هذا الدين ومؤيّدوه أن يجتمعوا فی هذا المركز، ويتحدّثوا فی المسائل العلميّة والسياسيّة والاقتصاديّة والدينيّة، ويتبادلوا الخبرات ووجهات النظر المختلفة التی تسهم فی حلّ مشكلاتهم والصعوبات التی تعترى حياتهم، قال تعالى:

«وَأذِّنْ فِی النّاسِ بِالحَجِ يأتُوکَ رِجَالًا وَعَلی کلّ ضَامِرٍ يَأتِينَ مِنْ کُلّ فجّ عَمِيق* لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْکُروا اسْمَ اللَّهِ فِی أيّامٍ مَعْلُومَات» (۳)

. من هنا، جعل اللّه سبحانه رابطة تشدّ المسلمين إلى هذا المركز، فهم يتوجّهون إليه كلّ يوم خمس مرّات عند إقامة الصلاة، ويجعلون وجوه موتاهم إليه عند الدفن.

۱۰- الكعبة طاهرة مطهرة:

فالكعبة والمسجد الحرام مطهّران بأمرِ اللّه تعالى من كلّ دنسٍ ورجس، ومن يدخل البيت الحرام فإنّه يطهّر من الذنوب، ويردّ إلى أهله وهو

«مغفورٌ له كلّ ذنب» (۴)

كما ورد فی الحديث.

والأمر فی هذه الطهارة هو من عند اللّه تعالى:

«وَعَهِدْنا إلی إبْرَاهِيمَ وَإسْمَاعِيل أنْ طَهّرا بَيْتِی لِلطائِفِين وَالعَاکِفِين وَالرّکَّعِ السُجُود» (۵)

. ولو أردنا أن نستلهم من الكتاب الكريم لندرك دور المسجد فی تطهير المؤمن، فإنّنا سنجد أنّه يقول حول بناء مسجد قبا:

«لَمَسْجِد أسّس علی التّقْوی مِنْ أوَّل يَوْمٍ أحَقّ أنْ تَقُومَ فِيه»

، ثم يقول:

«... فِيهِ رجالٌ يُحِبُّونَ أنْ

۱- البقرة: ۱۸۶.

۲- الأنعام: ۹۰.

۳- الحج: ۲۷.

۴- تهذيب الأحكام ۶: ۱۲۱.

۵- البقرة: ۱۲۵.

ص: ۶۴

يتطهّرُوا...»

، وفى النتيجة

«واللَّهُ يُحِبُّ المُطَّهِّرين» (۱)

، ومنه نستنتج أنّ هذا

البيت بُنى حتى يدخله المسلمون ويطهروا أنفسهم من أدران الشرك والذنوب لينالوا محبّة خالقهم.

۱۱- الكعبة قيام للنّاس:

فقد جعل القرآن الكريم بقاء المجتمع الإسلامى رهناً ببقاء الكعبة، قال تعالى:

«جَعَلَ اللَّهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرامَ قِياماً لِلنّاسِ والشَّهْرَ الحَرام...» (۲)

. هذه الآية تبيّن أنّ الناس إذا اهتمّوا بالحجّ والكعبة

واستفادوا من هذا التجمّع الدينى الكبير على طريق تحقّق أهداف الرّسول الأعظم صلى الله عليه و آله، فإنّ حياتهم الماديّة والاجتماعيّة والسياسيّة ستصان من التفرّق والاختلاف، وتحفظ من التشتّت والانفصال، وقد عبّر الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن هذه الحقيقة القرآنيّة بقوله:

«لايزال الدين قائماً ما قامت الكعبة» (۳)

. ويقول أمير المؤمنين عليه السلام فى وصيته لأولاده وأصحابه:

«اللَّه اللَّه فى بيت ربّكم لا تخلّوه ما بقيتم فإنّه إن ترك لم تُناظروا...» (۴)

، وجاء أيضاً فى حديث

آخر:

«أما إنّ الناس لو تركوا حجّ هذا البيت لنزل بهم العذاب وما نوظروا» (۵)

. نستخلص مما تقدّم أنّ عدم الاعتناء بالكعبة وإهمال الحجّ نقض للعهد مع اللَّه سبحانه وإهمال لأحد أركان ديننا المهمّة، ولا ريب أنّ لإهماله دوراً تخريبيّاً كبيراً فى إضعاف قواعد الإسلام وتبديد قواه، لذلك اتّخذت العقوبات القاسية فى هذا المجال.

كما أنّه على الدول الإسلاميّة فى حال عدم الاعتناء بالحج وترك زيارة بيت اللَّه الحرام أن يرسلوا المسلمين إلى الحج ويُنفقوا عليهم من بيت المال، كى

۱- التوبة: ۱۰۸.

۲- المائدة: ۹۷.

۳- الكافى ۴: ۲۷۱، بحار الأنوار ۹۹: ۵۷.

۴- نهج البلاغة، بتحقيق صبحى الصالح: ۴۲۲، بحار الأنوار ۹۹: ۱۶.

۵- بحار الأنوار ۹۹: ۱۶، وسائل الشيعة ۱۱: ۲۲.

ص: ۶۵

لا یبقی بیت اللَّه مهجوراً (١).

١٢- الکعبهٔ بیت عتیق:

فهی بیت حُرّ، وهی محور الحریّهٔ، قال تعالی:

«... وَلیُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْیَطَّوَّفُوا بِالبَیْتِ العَتِیق» (٢)

. ویقول الإمام الباقر علیه السلام

حول سبب تسمیهٔ الکعبهٔ بالبیت العتیق:

«هو بیت حُرّ عتیق من النّاس لم یملکه أحد» (٣)

. وبما أنّ الکعبهٔ محور التوحید. والتوحید ینطوی علی التخلّص من کلّ أنواع العبودیّهٔ إلّااللَّه‌تعالی، لذا یمکن القول: إنّ الکعبهٔ محور الحریّهٔ، یقول الإمام علی علیه السلام:

«ولا تکن عبد غیرک وقد جعلک اللَّه حرّاً» (۴).

١٣- الکعبهٔ مثابهٔ للناس:

إذ هی مرجع ومأمن للناس کافّهٔ، قال تعالی:

«وَإذْ جَعَلْنا البَیْتَ مَثابَهً لِلنّاسِ وَأمناً...» (۵)

، فالذی یتوجه إلی البیت ویزوره

فکأنّما عاد إلی وطنه الأصلی وبالنتیجهٔ عاد إلی أصله.

ولو أمعنّا النظر فی الخصوصیات التی تتمتّع بها مکّهٔ المکرّمهٔ، ندرک بوضوح أنّه لیس ثمهٔ مدینهٔ فی الدنیا تمتلک مثل هذه الخصوصیات، أو أن تکون نِدّاً لها فی هذا الإطار، وعلیه فإنّ مکّهٔ ألیق مکان لتبیین الدین ونشر الثقافهٔ الإسلامیّهٔ.

عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله مخاطباً لمکهٔ:

«إنّی لأعلم أنّک حرم اللَّه وأمنه وأحبّ البلدان إلی اللَّه تعالی» (۶)

. وعنه صلی الله علیه و آله وکان واقفاً بالحزورهٔ (٧) فی سوق مکّهٔ:

«واللَّه إنّک لخیر أرض اللَّه،

١- علل الشرائع: ٣٩۶.

٢- الحج: ٢٩.

٣- الکافی ۴: ١٨٩، علل الشرائع: ٣٩٩.

۴- نهج البلاغهٔ، بتحقیق صبحی الصالح: ۴٠١.

۵- البقرهٔ: ١٢۵.

۶- أخبار مكّة للفاكهى ۲۶۱، ۱۴۷۱، كنز العمّال ۱۴: ۹۷/ ۳۸۰۳۹.

۷- الحزورة: موضع بمكة عند باب الحنّاطين. النهاية ۱: ۳۸۰.

ص: ۶۶

وأحبّ الأرض إلى اللَّه عزّ وجلّ، ولولا أنّى اخرجتُ منك ما خرجت» (۱)

. ويقول الإمام الصادق عليه السلام:

«أحبّ الأرض إلى اللَّه تعالى مكّة، وما تربة أحبّ إلى اللَّه عزّ وجلّ من تربتها، ولا حجر أحبّ إلى اللَّه عزّ وجلّ من حجرها، ولا شجر أحبّ إلى اللَّه عزّ وجلّ من شجرها، ولا جبال أحبّ إلى اللَّه عزّ وجلّ من جبالها، ولا ماء أحبّ إلى اللَّه عزّ وجلّ من مائها...» (۲).

مكّة موضع لإقامة الحج ومحور لنشر الثقافة الدينيّة:

تمتلك مكّة المقدّسة خصائص الشرف ومقومات العظمة من جهة، كما حظيت من جهة اخرى بأهمية أكثر لإقامة مراسم الحج فيها، فالحج هو الذى جعل من هذه المدينة محوراً وعمّق أثرها الثقافى والأخلاقى فى العالم الإسلامى، وأهّلها لأداء هذا الدور على أحسن وجه.

لقد أوجب اللَّه تعالى الحجّ على المستطيع من الناس فى قوله:

«... وللَّه عَلَى النّاس حجّ البَيْتِ مَن استَطاعَ إليهِ سبيلًا...» (۳)

، لكى يجتمع المسلمون فى موسم

الحجّ كلّ عام وفى أيام خاصّة من كلّ أرجاء العالم عند هذه البقعة المقدّسة، فيؤدّوا مناسك فريضة الحجّ، وتلك الفريضة واجبة على كلّ مسلم مستطيع مرّة واحدة فى حياته، ولهذا قيل لها: (عبادة العمر).

تمتلك مكّة المقدّسة خصائص الشرف ومقومات

۱- مسند أحمد ۶: ۴۴۹/ ۱۸۷۴۰.

۲- من لا يحضره الفقيه ۲: ۲۴۳.

۳- آل عمران: ۹۷.

ص: ۶۷

العظمة من جهة، كما حظيت من جهة اخرى بأهمية أكثر لإقامة مراسم الحج فيها، فالحج هو الذى جعل من هذه المدينة محوراً وعمّق أثرها الثقافى والأخلاقى فى العالم الإسلامى، وأهّلها لأداء هذا الدور على أحسن وجه

إنّ الروايات والأخبار الواردة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وأهل البيت عليهم السلام والمتعلّقة بثمرات وبركات الحجّ، تبيّن أنّ الحجّ قاعدة أساسيّة للتحوّل الروحى والأخلاقى للمسلمين.

ففى كلّ عام يجب على من تتوفّر فيهم شروط الاستطاعة أن يؤدّوا المناسك المقدّسة، ويطهّروا أنفسهم من الذنوب ويبتعدوا عن الخطايا التى اقترفوها ويختاروا النهج الصحيح فى الحياة، ثم يعودوا فينقلوا هذا التحوّل إلى عوائلهم وأصدقائهم ومعارفهم فى أماكن مختلفة من العالم، وبذلك يسهم الحجّ فى بسط التهذيب الخلقى والروحى للمسلمين.

وممّا يجدر ذكره فى هذا المقام، هو أنّه لا ترصد أيّة ميزانيّة لإنجاز هذا العمل، ولا ينفق شىء من بيوت أموال المسلمين، لأنّ كلّ حاجّ إنّما يتوجب عليه الحجّ عندما يكتسب الاستطاعة أو المقدرة الماليه، وبالنتيجة يتحمّل جميع النفقات المترتبة عليه.

وفيما يلى نذكر أنموذجاً مناسباً لكى يدرك القرّاء الأعزّاء هذه الحقيقة بشكل جلىّ: أرسلت الجمهورية الإسلاميّة الإيرانيّة فى سنة ۱۴۲۴ ه نحو ستمائة ألف حاج و معتمر لأداء مراسم الحجّ والعمرة، وأمضوا فى الحرمين الشريفين نحو خمسة عشر يوماً خلال العمرة، ونحو سبعة وعشرين يوماً خلال موسم الحج، ويحضر الحجيج فى إيران جلسات تعليميّة خاصّة قبل تشرّفهم لأداء مراسم الحجّ بنحو ثلاثة أشهر، وقبل العمرة بنحو شهرين، وتطرح فى تلك الجلسات عدّة مسائل مثل؛

-۱

الأحكام الفقهيّة العامّة

-۲

مناسك الحجّ

-۳

أسرار و معارف الحج

-۴

تاريخ الإسلام ۵- الأماكن

ص: ۶۸

والآثار الإسلامیهٔ فی مکّهٔ والمدینهٔ

-۶

آداب سفر الحجّ

-۷

آداب المعاشرهٔ والتأکید علی الأخلاق الإسلامیّهٔ

-۸

مراعاهٔ الصحّهٔ فی السفر

-۹

التعریف بقوانین الدولهٔ المضیفهٔ وضوابطها.

-۱۰

توصیات وإرشادات وغیرها.

أرسلت الجمهوریهٔ الإسلامیّهٔ الإیرانیّهٔ فی سنهٔ ۱۴۲۴ ه نحو ستمائهٔ ألف حاج و معتمر لأداء مراسم الحجّ والعمرهٔ، وأمضوا فی الحرمین الشریفین نحو خمسهٔ عشر یوماً خلال العمرهٔ، ونحو سبعهٔ وعشرین یوماً خلال موسم الحج

وحینما یتشرّفون بزیارهٔ الحرمین الشریفین فإنّهم یقعون تحت تأثیر قوّهٔ الجذب المعنوی والروحی التی تثیرها فیهم مشاهد مکّهٔ والمدینهٔ سیما فی أیّام التشریق وعرفات والمشعر ومنی والطواف والسعی وغیرها من المشاعر المقدّسهٔ. فلو فرضنا أنّ معدّل عدد عائلهٔ کلّ حاج هو أربعهٔ، فإنّ کلّ حاج حینما یعود من المشاهد المقدّسهٔ بعد أن یتأثّر بها وتحدث فی وجوده تحوّلًا روحیّاً وأخلاقیّاً، یستطیع أن یؤثر أیضاً علی أعضاء عائلته علی الأقل، فینقل إلیهم تأثّرات نفسه الروحیهٔ والأخلاقیّهٔ بتلک المشاهد والدیار المقدّسهٔ، وبهذا ینتفع من هذا الإشعاع الروحی والثقافی نحو ملیونین وأربعمائهٔ ألف إنسان فی کلّ سنهٔ وفقاً لمثالنا الذی ذکرناه، وهو أمر یستحقّ الاهتمام سیّما فی وقتنا الحاضر الذی یسعی فیه أعداء الإسلام إلی سلب الهویّهٔ الإسلامیّهٔ من أبناء الإسلام، ویستخدمون شتی الوسائل المتقدّمهٔ لفرض ثقافاتهم وقوانینهم ونماذجهم غیر الإسلامیّهٔ.

ولأجل توضیح الموضوع لابدّ من الإشارهٔ إلی بعض الثمرات والنتائج المترتّبهٔ علی الحجّ والواردهٔ فی الأحادیث والروایات المنقولهٔ عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وأهل البیت علیهم السلام.

ص: ۶۹

برکات الحج

إذا أنجز الحـاج حجّه إلی بیت اللَّه بشـکل صـحیح تُراعی فیه الآـداب الخاصّـهٔ بالحـجّ والمشـاعر، وبعبـارهٔ اخری إذا أدّی مشاعر الحجّ بشرطها وشروطها، فسوف تترتّب عدّهٔ آثار وثمرات مهمّهٔ یستفید منها الحاج فی دنیاه وآخرته، وفیما یلی نذکر بعضها:

۱- غفران الذنوب:

إنّ الحـاج حینما یؤدّی المناسک ویعیشـها یشـطب علی ماضـیّه غیر الصـحیح بخطّ البطلان، ویمهـد الطریق لحیاهٔ صـحیحهٔ یراعی فیها الدین ومبادؤه الحقّهٔ.

قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله:

«أیُّ رَجُلٍ خَرَجَ مِنْ مَنزِلِهِ حاجّاً أو مُعْتَمِراً، فَکُلَّما رَفَعَ قَدَماً وَوَضَعَ قَدَماً تناثَرَتِ الذُّنوبُ مِنْ بَدَنِهِ کَما یَتَناثَرُ الوَرَقُ مِنَ الشَّجَرِ، فَإذا وَرَدَ المَدینَهَ وَصافَحَنی بالسَّلامِ صافَحَتْهُ المَلائِکَهُ بالسَّلامِ، فإذا وَرَدَ ذا الحُلَیْفَهِ، واغْتَسَلَ طَهَّرَهُ مِنَ الذُّنوبِ، وإذا لَبِسَ ثَوبَینِ جَدِیدَینِ جَدَّدَ اللَّهُ لَهُ» (۱)

. وقال الإمام الصادق علیه السلام:

«من حجّ یرید اللَّه عزّ وجلّ و لا یرید به ریاءً ولا سمعهً غفر اللَّه له البتّهٔ» (۲)

. وقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله:

«من حجّ البیت فلم یرفث ولم یفسق رجع کما ولدته أُمّه» (۳)

. ویقول أیضاً فی حدیث آخر:

«معاشِرَ النّاسِ، ما وَقَفَ بِالمَوْقِفِ مُؤمِنٌ إلّا غَفَرَ لَهُ ما سَلَفَ مِنْ ذَنْبِهِ إلی وَقْتِهِ ذلِکَ فإذا انقَضَتْ حَجَّتُهُ استُؤنِفَ عَمَلُهُ» (۴)

. وممّا تقدّم نسـتنتج أنّ أداء الحجّ بشـکله الصحیح الذی یقبله اللَّه تعالی، یکون ثوابه غفران الذنوب والدخول فی حیاهٔ جدیدهٔ ومنهج جدید.

۱- الحجّ فی الکتاب والسنهٔ: ۱۴۸/ ۳۲۵.

۲- وسائل الشیعهٔ ۱۱: ۱۰۹.

۳- الحجّ فی الکتاب والسنّهٔ: ۱۶۳/ ۳۹۲.

۴- سنن الدارقطنی ۲: ۲۸۴.

ص: ۷۰

۲- دخول الجنّة:

جعل تعالى ثواب الحجّ المبرور والمقبول دخولَ الجنّة، ولعلّ السبب فى ذلك هو أنّ صاحب البيت حينما يحلّ عليه أحدٌ ضيفاً، يسعى إلى أن يُقريه بأحسن ما لـديه من الغـذاء وأن يوفّر له أحسن الامكانات المتاحـة لـديه، والحاج هو ضـيف اللّه القاصـد بيته، وهو تعالى العفوّ الكريم الذى لا يخيب من دعاه ولا يردّ من رجاه، ونحن نخاطبه تعالى فى الدعاء فنقول:

«يا أكرم الأكرمين»

. والجنّة التى وعد اللّه تعالى بها عباده المؤمنين والمحسنين، هى خير ما يحبو به ضيوف بيته، قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله:

«الحجّ المبرور ليس له جزاء إلّاالجنّة» (۱).

۳- النورانيّة:

لا ريب أنّ كلّ إنسان يولـد على الفطرة الخالصـة، وحينما يكون طفلًا فإنّ قلبه يحفل بالنورانيّـة البعيـدة عن الكـدورة، لكن بعد مرحلة البلوغ والاختلاط مع أفراد المجتمع قد يتلوّن بشكل تدريجى بأدران الذنوب ودنس المعاصى، وأحياناً يتسافل إلى حدّ القسوة، فتغطّى الكدورة قلبه، ويفقد الأمل فى إصلاحه ونجاته.

والحاج هو ضـيف اللّه القاصـد بيته، وهو تعالى العفوّ الكريم الذى لا يخيب من دعاه ولا يردّ من رجاه، ونحن نخاطبه تعالى فى الدعاء فنقول: «يا أكرم الأكرمين»

لكن الأفراد الـذين لم يبلغوا هذه المرحلة الخطيرة، وتوفّقوا لأداء فريضة الحجّ، يسـتطيعون أنّ يطهّروا نفوسـهم ويغسـلوا أرواحهم ببحر الحجّ الصافى الزلال، ويعودوا ثانية إلى الحياة وقد اسـتعادوا فطرتهم الأوليّة واكتسبوا نورانيّة قلوبهم، تلك النورانيّة هى أجرهم من اللّه تعالى، ويمكنهم المحافظة عليها بالعمل وفق مبادىء الاسلام ومنهجه القويم، ومن الواضح أن اقتراف الذنوب يقلّل من

۱- مستدرك وسائل الشيعة ۲: ۸.

ص: ۷۱

تلک النورانیّة، والاستمرار فیها یزیلها إلی الأبد، یقول الإمام الصادق علیه السلام:

«الحاج لایزال علیه نور الحجّ ما لم یلمّ بذنب» (۱).

۴- الحصول علی خیر الدارین:

قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله:

«من أراد الدنیا والآخرة فلیؤم هذا البیت، فما أتاه عبد یسأل اللَّه دنیا إلّاأعطاه اللَّه منها، ولا یسأله آخرة إلّاادّخر له منها» (۲)

. وفی حدیث آخر قال صلی الله علیه و آله لعثمان بن أبی العاص:

«واعلم أنّ العمرة هی الحجّ الأصغر، وأن عمرة خیر من الدنیا وما فیها، وحجّة خیر من عمرة» (۳).

۵- طمأنینة القلب:

من فلسفة تشریع فریضة الحجّ إقامة ذکر اللَّه تعالی، فقد جاء عن رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله فی حدیث:

«إنّما جعل الطواف بالبیت وبین الصفا والمروة ورمی الجمار لإقامة ذکر اللَّه» (۴)

. وجاء فی القرآن الکریم أنّ ذکر اللَّه تعالی باعث علی طمأنینة القلب

«ألا بِذِکْرِ اللَّه تَطْمَئِنُّ القُلوُب» (۵)

، ومع النظر إلی هذه المقدّمة وإلی ما قاله الإمام

الباقر علیه السلام:

«الحجّ تسکین القلوب» (۶)

یتبیّن أن إحدی ثمرات الحجّ طمأنینة القلب،

التی تعدّ من أهمّ ما یحتاجه أبناء البشریّة فی هذا الیوم.

۶- مجالسة النبیین والصالحین:

قال الإمام الصادق علیه السلام:

«لما حجّ موسی علیه السلام نزل علیه جبرئیل فقال له موسی: یا جبرئیل، ما لمن حجّ هذا البیت بنیّة صادقة ونفقة طیبة؟

قال: فرجع إلی اللَّه تعالی، فأوحی اللَّه إلیه: قل له: أجعله فی الرفیق الأعلی

۱- الکافی ۴: ۲۵۵.

۲- مسند الإمام زید: ۱۹۷.

۳- المعجم الکبیر للطبرانی ۹: ۴۴.

۴- الحجّ فی الکتاب والسنّة: ۱۳۳/ ۲۸۰.

۵- الرعد: ۲۸.

۶- بحار الأنوار ۷۵: ۱۸۳.

ص: ٧٢

مع النَّبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أُولئك رفيقاً» (١).

٧- الأمن من العذاب:

روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال:

«من دخل هذا البيت عارفاً بجميع ما أوجبه اللَّه عليه، كان آمناً فى الآخرة من العذاب الدائم» (٢)

. وعن الإمام الصادق عليه السلام فى قوله تعالى:

«ومَنْ دَخَلَهُ كَان آمِنَاً»

قال:

«من دخل الحرم من الناس مستجيراً به فهو آمن من سخط اللَّه...» (٣)

. ويقول الإمام الصادق عليه السلام:

«... وعليكم بحجّ هذا البيت فأدمنوه، فإنّ فى إدمانكم الحجّ دفع مكاره الدنيا عنكم، وأهوال يوم القيامة» (۴).

٨- علوّ الدرجات فى الجنّة:

يقول رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

«الحاج فى ضمان اللَّه مقبلًا ومدبراً، فإن أصابه فى سفره تعب أو نصب غفر اللَّه له بذلك سيئاته، وكان له بكلّ قدم يرفعه ألف درجة فى الجنّة، وبكلّ قطرة تصيبه من مطر أجر شهيد» (۵).

٩- استجابة الدعاء:

ومن ثمرات الحجّ استجابة الدعاء، قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

«ثَلاثُ دَعَواتٍ مُسْتَجابَةٌ: دُعاءُ الحاجِّ فى تَخَلُّفِ أهلِهِ، ودُعاءُ المَريضِ فلا تؤذوهُ ولا تُضجِروهُ، ودُعاءُ المَظْلومِ» (۶)

. وقال فى حديث آخر:

«الحُجّاجُ والعُمّارُ وَفْدُ اللَّهِ، دَعاهُمْ فَأَجابوهُ، وسَأَلُوهُ فَأعطاهُم» (٧)

١- من لا يحضره الفقيه ٢: ٢٣٥.

٢- عوالى اللآلى ٢: ٨۴/ ٢٧٧.

٣- الكافى ۴: ٢٢۶، والآية من سورة آل عمران: ٩۶.

۴- أمالى الطوسى: ۶۶٨.

۵- كنز العمّال ح ١١٨١٢ و ١١٨۴٠.

۶- الحجّ فى الكتاب والسنة: ١۶٢/ ٣٨۶.

٧- نفس المصدر، ح ٣٨٧.

ص: ۷۳

۱۰- نفی الفقر:

قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله:

«حُجّوا لَن تَفتَقِروا» (۱)

. وقال أمیر المؤمنین علی علیه السلام:

«إنَّ أفضَلَ ما تَوَسَّلَ بِهِ المُتَوَسِّلونَ إلی اللَّهِ سُبحانَهُ وتَعالی: الإیمانُ بِهِ وبِرَسولِهِ،... وَحَجُّ البَیْتِ واعتِمارُهُ، فإنَّهُما یَنفِیانِ الفَقْرَ ویَرْحَضانِ الذَّنْب» (۲).

۱۱- سلامة الأبدان:

عن الإمام الصادق علیه السلام قال: قال علی بن الحسین علیهما السلام:

«حجّوا واعتمروا تصحّ أبدانکم وتتسع أرزاقکم وتکفون مؤونات عیالکم...» (۳).

۱۲- الوقایة من الهلاک والعذاب:

عن الصادق علیه السلام قال:

«کان فی وصیّة علی علیه السلام: لا تدعوا حجّ بیت ربّکم فتهلکوا» (۴)

. وعن الإمام الصادق علیه السلام أیضاً أنّه قال:

«لو ترک الناس الحجّ لما نوظروا العذاب»

أو قال:

«أنزل علیهم العذاب» (۵)

. إنّ مکّة هی عاصمة الثقافة فی العالم الإسلامی، وهی قاعدة قویّة ومحکمة لتطهیر الروح وسموّ الأخلاق، فإذا أحسنّا الاستفادة من هذه

۱- نفس المصدر، ح ۳۹۸.

۲- نفس المصدر، ح ۴۰۲.

۳- الکافی ۴: ۲۵۲.

۴- المحاسن: ۱: ۱۷۰.

۵- الکافی ۴: ۲۷۱.

ص: ۷۴

الفریضهٔ العظیمهٔ أمکننا بلوغ الأهداف المذکورهٔ بکلّ یسر

وممّا تقدّم ذکره وما یستفاد من الروایات المتعلّقهٔ بفلسفهٔ الحجّ وأسرار أعماله المختلفهٔ، مثل: التوبهٔ قبل السفر، ودفع الحقوق المالیّهٔ، وتطهیر الأموال، وتحصیل الإخلاص وإنجاز الأعمال للّه، والتزوّد من أطیب الزاد، وإعانهٔ الأصحاب، والاحتراز من العجلهٔ، ومراعاهٔ المرضی، واحترام الکبار، وحسن الخلق مع الصاحب فی السفر، وعدم الإساءهٔ إلی الآخرین، والتصدّق، وقراءهٔ الدعاء عندالخروج من المنزل وعلی طول السفر وغیره... نستخلص أنّ الحجّ أحد القواعد المهمّهٔ فی تغییر الذات وإحداث التحوّل الروحی والأخلاقی للفرد المسلم، وأنّ مناسک الحجّ هی فی الحقیقهٔ مناسک الحیاهٔ الإسلامیّهٔ الصحیحهٔ، ففی الحجّ تتمثّل الحیاهٔ الدنیا والآخرهٔ جنباً إلی جنب، فهو تربیهٔ وتهذیب للنفس، وتربیهٔ اجتماعیهٔ وسیاسیّهٔ، وهو باعث للشعور بالأخوّهٔ، وتعلّم النظم والترتیب، وهو مجمع لتوحید الآراء والقلوب فی مجالات متعدّدهٔ، وهو محور للقرب من الخالق والزلفی لدیه تعالی، ولکلّ ذلک وغیره جعل اللّه تعالی الحجّ مرکزاً لاجتماع المسلمین:

«لِیَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ...»

. ومن مجمل ما ذکرناه یمکن القول: إنّ مکّهٔ هی عاصمهٔ الثقافهٔ فی العالم الإسلامی، وهی قاعدهٔ قویّهٔ ومحکمهٔ لتطهیر الروح وسموّ الأخلاق، فإذا أحسنّا الاستفادهٔ من هذه الفریضهٔ العظیمهٔ أمکننا بلوغ الأهداف المذکورهٔ بکلّ یسر.

أخیراً، ولأجل حسن الختام لهذا المقال المتواضع، أذکر حدیثین للإمام علی بن الحسین زین العابدین علیهم السلام والإمام جعفر بن محمد الصادق علیهم السلام یبیّنان طریق وأُسلوب الحجّ الصحیح، أو الحجّ المبرور، راجیاً من اللّه العزیز أن یوفّق الجمیع للاستفادهٔ من هذه الفریضهٔ المعنویهٔ الإلهیّهٔ علی النحو الأحسن والأفضل.

ص: ۷۵

۱- قال الإمام زین العابدین علیه السلام حینما التقی الشبلی بعد أداء مشاعر الحجّ:

حَجَجْتَ یَا شَبْلِیُّ؟

قَالَ: نَعَمْ یَا ابْنَ رَسُولِ اللَّه فَقَالَ علیه السلام: أَ نَزَلْتَ الْمِیقَاتَ وَ تَجَرَّدْتَ عَنْ مَخِیطِ الثِّیَابِ وَ اغْتَسَلْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: فَحِینَ نَزَلْتَ الْمِیقَاتَ نَوَیْتَ أَنَّکَ خَلَعْتَ ثَوْبَ الْمَعْصِیَةِ وَلَبِسْتَ ثَوْبَ الطَّاعَةِ؟ قَالَ: لا.

قَالَ: فَحِینَ تَجَرَّدْتَ عَنْ مَخِیطِ ثِیَابِکَ نَوَیْتَ أَنَّکَ تَجَرَّدْتَ مِنَ الرِّیَاءِ وَ النِّفَاقِ وَ الدُّخُولِ فِی الشُّبُهَاتِ؟ قَالَ: لا.

قَالَ: فَحِینَ اغْتَسَلْتَ نَوَیْتَ أَنَّکَ اغْتَسَلْتَ مِنَ الْخَطَایَا وَ الذُّنُوبِ؟ قَالَ: لا.

قَالَ: فَمَا نَزَلْتَ الْمِیقَاتَ وَلا تَجَرَّدْتَ عَنْ مَخِیطِ الثِّیَابِ وَلا اغْتَسَلْتَ،

ثُمَّ قَالَ: تَنَظَّفْتَ وَ أَحْرَمْتَ وَ عَقَدْتَ بِالْحَجِّ، قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: فَحِینَ تَنَظَّفْتَ وَ أَحْرَمْتَ وَ عَقَدْتَ الْحَجَّ نَوَیْتَ أَنَّکَ تَنَظَّفْتَ بِنُورَةِ التَّوْبَةِ الْخَالِصَةِ للّه‌تَعَالَی؟ قَالَ: لا.

قَالَ: فَحِینَ أَحْرَمْتَ نَوَیْتَ أَنَّکَ حَرَّمْتَ عَلَی نَفْسِکَ کُلَ مُحَرَّم حَرَّمَهُ اللَّه عَزَّوَجَلَّ؟ قَالَ: لا.

قَالَ: فَحِینَ عَقَدْتَ الْحَجَّ نَوَیْتَ أَنَّکَ قَدْ حَلَلْتَ کُلَّ عَقْدٍ لِغَیْرِ اللَّه؟ قَالَ: لا،

قَالَ لَهُ علیه السلام: مَا تَنَظَّفْتَ وَ لا أَحْرَمْتَ وَ لا عَقَدْتَ الْحَجَّ،

قَالَ لَهُ: أَدَخَلْتَ الْمِیقَاتَ وَ صَلَّیْتَ رَکْعَتَی الْإِحْرَامِ وَ لَبَّیْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: فَحِینَ دَخَلْتَ الْمِیقَاتَ نَوَیْتَ أَنَّکَ بِنِیَّةِ الزِّیَارَةِ؟ قَالَ: لا.

قَالَ: فَحِینَ صَلَّیْتَ الرَّکْعَتَیْنِ نَوَیْتَ أَنَّکَ تَقَرَّبْتَ إِلَی اللَّه بِخَیْرِ الْأَعْمَالِ مِنَ الصَّلاةِ وَ أَکْبَرِ حَسَنَاتِ الْعِبَادِ؟ قَالَ: لا.

قَالَ: فَحِینَ لَبَّیْتَ نَوَیْتَ أَنَّکَ نَطَقْتَ للّه‌سُبْحَانَهُ بِکُلِّ طَاعَةٍ وَ صُمْتَ عَنْ کُلِّ مَعْصِیَةٍ؟ قَالَ: لا.

قَالَ لَهُ علیه السلام: مَا دَخَلْتَ الْمِیقَاتَ وَ لا صَلَّیْتَ وَلا لَبَّیْتَ.

ص: ۷۶

ثُمَّ قَالَ لَهُ: أ دَخَلْتَ الْحَرَمَ وَ رَأَیْتَ الْکَعْبَةَ وَصَلَّیْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: فَحِینَ دَخَلْتَ الْحَرَمَ نَوَیْتَ أَنَّکَ حَرَّمْتَ عَلَی نَفْسِکَ کُلَّ غِیبَةٍ تَسْتَغِیبُهَا الْمُسْلِمِینَ مِنْ أَهْلِ مِلَّةِ الْإِسْلام؟ قَالَ: لا.

قَالَ: فَحِینَ وَصَلْتَ مَکَّةَ نَوَیْتَ بِقَلْبِکَ أَنَّکَ قَصَدْتَ اللَّه؟ قَالَ: لا.

قَالَ علیه السلام: فَمَا دَخَلْتَ الْحَرَمَ وَ لا رَأَیْتَ الْکَعْبَةَ وَ لا صَلَّیْتَ.

ثُمَّ قَالَ: طُفْتَ بِالْبَیْتِ وَ مَسَسْتَ الْأَرْکَانَ وَسَعَیْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ علیه السلام: فَحِینَ سَعَیْتَ نَوَیْتَ أَنَّکَ هَرَبْتَ إِلَی اللَّه، وَعَرَفَ مِنْکَ ذَلِکَ عَلَّامُ الْغُیُوبِ؟ قَالَ: لا.

قَالَ: فَمَا طُفْتَ بِالْبَیْتِ وَلا مَسَسْتَ الْأَرْکَانَ وَلا سَعَیْتَ.

ثُمَّ قَالَ لَهُ: صَافَحْتَ الْحَجَرَ وَ وَقَفْتَ بِمَقَامِ إِبْرَاهِیمَ علیه السلام وَ صَلَّیْتَ بِهِ رَکْعَتَیْنِ؟

قَالَ: نَعَمْ، فَصَاحَ علیه السلام صَیْحَةً کَادَ یُفَارِقُ الدُّنْیَا ثُمَّ قَالَ:

آه آه

ثُمَّ قَالَ علیه السلام: مَنْ صَافَحَ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ فَقَدْ صَافَحَ اللَّه تَعَالَی، فَانْظُرْ یَا مِسْکِینُ لا تُضَیِّعْ أَجْرَ مَا عَظُمَ حُرْمَتُهُ، وَتَنْقُض الْمُصَافَحَةِ، بِالْمُخَالَفَةِ، وَ قَبْضِ الْحَرَامِ نَظِیرَ أَهْلِ الْآثَام.

ثُمَّ قَالَ علیه السلام: نَوَیْتَ حِینَ وَقَفْتَ عِنْدَ مَقَامِ إِبْرَاهِیمَ علیه السلام أَنَّکَ وَقَفْتَ عَلَی کُلِّ طَاعَةٍ وَتَخَلَّفْتَ عَنْ کُلِّ مَعْصِیَةٍ؟ قَال: لا.

قَالَ: فَحِینَ صَلَّیْتَ فِیهِ رَکْعَتَیْنِ نَوَیْتَ أَنَّکَ صَلَّیْتَ بِصَلاةِ إِبْرَاهِیمَ علیه السلام، وَ أَرْغَمْتَ بِصَلاتِکَ أَنْفَ الشَّیْطَانِ؟ قَالَ: لا.

قَالَ لَهُ: فَمَا صَافَحْتَ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ وَ لا وَقَفْتَ عِنْدَ الْمَقَام وَ لا صَلَّیْتَ فِیهِ رَکْعَتَیْنِ.

ثُمَّ قَالَ علیه السلام لَهُ: أَشْرَفْتَ عَلَی بِئْرِ زَمْزَمَ وَ شَرِبْتَ مِنْ مَائِهَا؟ قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: نَوَیْتَ أَنَّکَ أَشْرَفْتَ عَلَی الطَّاعَةِ، وَغَضَضْتَ طَرْفَکَ عَنِ الْمَعْصِیَةِ؟

قَالَ: لا.

ص: ۷۷

قَالَ علیه السلام: فَمَا أَشْرَفْتَ عَلَیْهَا وَ لا شَرِبْتَ مِنْ مَائِهَا.

ثُمَّ قَالَ لَهُ علیه السلام: أَسَعَیْتَ بَیْنَ الصَّفَا وَ الْمَرْوَةِ وَ مَشَیْتَ وَ تَرَدَّدْتَ بَیْنَهُمَا؟ قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ لَهُ: نَوَیْتَ أَنَّکَ بَیْنَ الرَّجَاءِ وَ الْخَوْفِ؟ قَالَ: لا.

قَالَ: فَمَا سَعَیْتَ وَ لا مَشَیْتَ وَ لا تَرَدَّدْتَ بَیْنَ الصَّفَا وَ الْمَرْوَةِ...»

فَطَفِقَ الشِّبْلِیُّ یَبْکِی عَلَی ما فَرَّطَهُ فِی حَجِّهِ، وَما زَالَ یَتَعَلَّمُ حَتَّی حَجَّ مِنْ قابِلٍ بِمَعْرِفَةٍ وَیَقِینٍ (۱)

۲- قال الصادق علیه السلام:

«إِذَا أَرَدْتَ الْحَجَّ فَجَرِّدْ قَلْبَکَ لِلَّهِ تَعَالَی مِنْ کُلِّ شَاغِلٍ وَ حِجَابٍ وَ فَوِّضْ أُمُورَکَ إِلَی خَالِقِهَا، وَتَوَکَّلْ عَلَیْهِ فِی جَمِیعِ حَرَکَاتِکَ وَ سَکَنَاتِکَ، وَسَلِّمْ لِقَضَائِهِ وَحُکْمِهِ وَقَدَرِهِ، وَدَعِ الدُّنْیَا وَ الرَّاحَةَ وَ الْخَلْقَ وَ اخْرُجْ مِنْ حُقُوقٍ تَلْزَمُکَ مِنْ جِهَةِ الْمَخْلُوقِینَ، وَلا تَعْتَمِدْ عَلَی زَادِکَ وَ رَاحِلَتِکَ وَ أَصْحَابِکَ وَ قُوَّتِکَ وَ شَبَابِکَ وَ مَالِکَ مَخَافَةَ أَنْ یَصِیرَ ذَلِکَ عَدُوّاً وَوَبَالًا، فَإِنَّ مَنِ ادَّعَی رِضَی اللَّهِ وَ اعْتَمَدَ عَلَی مَا سِوَاهُ صَیَّرَهُ عَلَیْهِ وَبَالًا وَ عَدُوّاً لِیَعْلَمَ أَنَّهُ لَیْسَ لَهُ قُوَّةٌ وَ لا حِیلَةٌ وَ لا لِأَحَدٍ إِلَّا بِعِصْمَةِ اللَّهِ وَ تَوْفِیقِهِ، فَاسْتَعِدَّ اسْتِعْدَادَ مَنْ لا یَرْجُو الرُّجُوعَ وَ أَحْسِنِ الصُّحْبَةَ وَ رَاعِ أَوْقَاتَ فَرَائِضِ اللَّهِ وَ سُنَنِ نَبِیِّهِ صلی الله علیه و آله وَ مَا یَجِبُ عَلَیْکَ مِنَ الْأَدَبِ وَ الِاحْتِمَالِ وَالصَّبْرِ وَ الشُّکْرِ وَ الشَّفَقَةِ وَ السَّخَاوَةِ وَ إِیثَارِ الزَّادِ عَلَی دَوَامِ الْأَوْقَاتِ، ثُمَّ اغْسِلْ بِمَاءِ التَّوْبَةِ الْخَالِصَةِ ذُنُوبَکَ، وَالْبَسْ کِسْوَةَ الصِّدْقِ وَ الصَّفَا وَ الْخُضُوعِ وَالْخُشُوعِ، وَأَحْرِمْ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ یَمْنَعُکَ عَنْ ذِکْرِ اللَّهِ وَ یَحْجُبُکَ عَنْ طَاعَتِهِ، وَلَبِّ بِمَعْنَی إِجَابَةٍ صَادِقَةٍ صَافِیَةٍ خَالِصَةٍ زَاکِیَةٍ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ فِی دَعْوَتِکَ مُتَمَسِّکاً بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَی، وَطُفْ بِقَلْبِکَ مَعَ الْمَلائِکَةِ حَوْلَ الْعَرْشِ کَطَوَافِکَ مَعَ الْمُسْلِمِینَ بِنَفْسِکَ حَوْلَ الْبَیْتِ، وَهَرْوِلْ هَرَباً مِنْ هَوَاکَ وَ تَبَرَّأْ مِنْ حَوْلِکَ وَ قُوَّتِکَ وَ اخْرُجْ مِنْ

۱- مستدرک الوسائل ۱۰: ۱۶۶.

ص: ۷۸

غَفْلَتِکَ وَ زَلَّاتِکَ بِخُرُوجِکَ إِلَی مِنًی، وَ لا تَتَمَنَّ مَا لا یَحِلُّ لَکَ وَ لا تَسْتَحِقُّهُ، وَاعْتَرِفْ بِالْخَطَایَا بِعَرَفَاتٍ، وَجَدِّدْ عَهْدَکَ عِنْدَ اللَّه بِوَحْدَانِیَّتِهِ وَ تَقَرَّبْ إِلَیْهِ وَاتَّقِهِ بِمُزْدَلِفَةَ، وَاصْعَدْ بِرُوحِکَ إِلَی الْمَلَإِ الْأَعْلَی بِصُعُودِکَ إِلَی الْجَبَلِ، وَاذْبَحْ حَنْجَرَةَ الْهَوَی وَ الطَّمَعِ عَنْکَ عِنْدَ الذَّبِیحَةِ، وَارْمِ الشَّهَوَاتِ وَالخَسَاسَةَ وَالدَّنَاءَةَ وَالذَّمِیمَةَ عِنْدَ رَمْیِ الْجِمَارِ، وَ احْلِقِ الْعُیُوبَ الظَّاهِرَةَ وَ الْبَاطِنَةَ بِحَلْقِ شَعْرِکَ، وَادْخُلْ فِی أَمَانِ اللَّه وَ کَنَفِهِ وَ سَتْرِهِ وَ کِلاءَتِهِ مِنْ مُتَابَعَةِ مُرَادِکَ بِدُخُولِ الْحَرَمِ وَ دُخُولِ الْبَیْتِ مُتَحَقِّقاً لِتَعْظِیمِ صَاحِبِهِ وَ مَعْرِفَةِ جَلالِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَاسْتَلِمِ الْحَجَرَ رِضًی بِقِسْمَتِهِ وَخُضُوعاً لِعِزَّتِهِ، وَدَعْ مَا سِوَاهُ بِطَوَافِ الْوَدَاعِ، وَأَصْفِ رُوحَکَ وَ سِرَّکَ لِلِقَائِهِ یَوْمَ تَلْقَاهُ بِوُقُوفِکَ عَلَی الصَّفَا، وَکُنْ بِمَرْأًی مِنَ اللَّه نَقِیّاً عِنْدَ الْمَرْوَةِ، وَاسْتَقِمْ عَلَی شَرْطِ حَجَّتِکَ هَذِهِ وَ وَفَاءِ عَهْدِکَ الَّذِی عُوهِدْتَ بِهِ مَعَ رَبِّکَ وَأُوجِبْتَ لَهُ إِلَی یَوْمِ الْقِیَامَةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّه لَمْ یَفْرِضِ الْحَجَّ وَ لَمْ یَخُصَّهُ مِنْ جَمِیعِ الطَّاعَاتِ بِالْإِضَافَةِ إِلَی نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَی: «وَللَّه عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَیْهِ سَبِیلًا» وَ لا شَرَعَ نَبِیُّهُ صلی الله علیه و آله سُنَّةً فِی خِلالِ الْمَنَاسِکِ عَلَی تَرْتِیبِ مَا شَرَعَهُ إِلّا لِلاسْتِعْدَادِ وَ الْإِشَارَةِ إِلَی الْمَوْتِ وَ الْقَبْرِ وَ الْبَعْثِ وَ الْقِیَامَةِ وَ فَضْلِ بَیَانِ السَّبْقِ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ أَهْلُهَا وَ دُخُولِ النَّارِ أَهْلُهَا بِمُشَاهَدَةِ مَنَاسِکِ الْحَجِّ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَی آخِرِهَا لِأُولِی الْأَلْبَابِ وَأُولِی النُّهَی» (۱).

۱- مصباح الشریعة: ۱۴۲، بحار الأنوار ۹۹: ۱۲۴.

ص: ۷۹

فلسفة الحج موقعاً وعبادة فى مدرسة أهل البيت عليهم السلام

اشارة

محسن الأسدى

الحج فريضة سماوية مباركة، وتكليف إلهى عظيم، وركن عبادى متين، وضيافة للتائبين، وفرصة للمذنبين، وتذكير للغافلين، ودعوة مفتوحة مباركة لهم ولغيرهم من الناس أجمعين، ومؤتمر إسلامى مهم، وتجمع إيمانى مهيب، وحشد اقتصادى تجارى كبير، ومدرسة تعارفية اجتماعية ثقافية كبرى، تتسم بمعان عالية وقيم شامخة ومبادئ رفيعة، وهى بالتالى مدرسة ميدانية واسعة واعدة واعية، ضمت شعوباً وقبائل وفدت إليها من كل حدب وصوب، وقد قيضت لها السماء مكاناً واحداً، موسماً واحداً، هدفاً واحداً، منسكاً واحداً، نراهم ينتظمون لأداء مفاصله المتعددة، و يتسابقون إلى إحراز مغفرة من اللّه ورضوان، وإذا ما نظرنا إليها وجدناها جموعاً من شتى البقاع والأجناس والألوان رجالًا ونساءاً شيباً وشباناً، محتشدةً كأنها بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً، وقد ذاب كل ما يميزهم من حطام الدنيا ومعالمها، ومن حب الذات وعناوينها، ويترك هذا التجمع العظيم الرائد المهيب فى قلوب الآخرين مهابة وإعجاباً... وفى نفوس وقلوب أبنائه سكينة وطمأنينة و ثقة وقوة وعزة... وحتى يتحقق هذا والكثير غيره، فقد حظيت فريضة الحج بأهمية بالغة ومكانة كبيرة فى الشريعة الإسلامية سواء أكانت تلك الأهمية وهذه المكانة فى أحكامها أم فى مناسكها أم فى أهدافها ومقاصدها. وكل

ص: ٨٠

هـذا يـدل على رعاية الشريعة لها وتأكيدها الدائم على استمرارها وإقامتها بشكل يتناسب مع روحها وجوهرها ومع الحكمة من وراء تشريعها. ولـذا ينبغى لنا بل يجب علينا ونحن نؤدى هـذا الفرض المبارك أن نعى معانيه و أهدافه ونعى مسؤولياتنا إزاءه، ويجب علينا أن نتعرف على ما يترتب على أداء مناسك الحج من التزامات سواء أكانت التزامات روحية أم أخلاقية، اجتماعية أم سياسية، وسواء أكانت مردوداتها لنفس الشخص الحاج أم للآخرين، وسواء أكانت ثمارها لمجتمع الحج وحده الذى شارك فى أداء مناسكه أم للمجتمعات الأخرى، وعلينا أن لا نكتفى بمعرفة أحكام الحج الفقهية وكيفية أداء مناسكه وفق تلك الأحكام، وهو وإن كان أمراً مهماً وضرورياً، إلّاأن الاكتفاء به دون معرفة ودون إلمام بما ترمى إليه وبما تبتغيه هـذه الفريضة يعد نقصاً صارخاً فى التفاعل معها روحاً وأهدافاً ومقاصد، وفشلًا واضحاً يلحقنا فى الاستفادة من خيراتها والاستزادة من بركاتها.

ويترك هـذا التجمع العظيم الرائد المهيب فى قلوب الآخرين مهابة وإعجاباً... وفى نفوس وقلوب أبنائه سكينة وطمأنينة و ثقة وقوة وعزة...

وإذا ما تمت هذه المعرفة وتعمقت آثارها فى النفوس وتجذرت ثمارها فى السلوك، فسيجسد هذا الركن القويم من الشريعة الإيمان فى سلوكنا عبادةً وعملًا وسلوكاً وقولًا، وسيصبح صورة رائعة من صور الجمال المعنوى والروحى ينبغى أن لا تفوتنا وأن لا نخسرها، وميداناً للكدح والجهاد، ينبغى أن تلاحق الحاج فى أيامه وهو يؤدى هـذه الفريضة، وفى أيامه التالية وهو يعيش حياته بين أهله وأحبائه، و هو يعيش مع أبناء مجتمعه الآخرين فى عيشه وكسبه وأنشطته المتعددة هنا وهناك.

إذن كم هو عظيم موسم الحج! فقد غدا هذا الموسم- ومنذ أن دوى أذان

ص: ۸۱

نبی اللّه إبراهیم الخلیل علیه السلام «

وَ أَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ یَأْتُوکَ رِجالًا وَ عَلی کُلِّ ضامِرٍ یَأْتِینَ مِنْ کُلِّ فَجٍّ عَمِیقٍ» (۱)

- غدا موسماً عبادیاً ما أعظم برکاته علی تربیهٔ

النفوس و تزکیهٔ الأرواح! وموسماً تجاریاً ما أعظم منافعه التی یدرها علی المسلمین عامهٔ والحجاج خاصهٔ! ما أعظمه من موسم بأیامه المعلومات امتزجت فیه العبادهٔ والتجارهٔ، فهی منافع فی الدنیا ومنافع فی الآخرهٔ حقاً «

لِیَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَیَذْکُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِی أَیَّامٍ مَعْلُوماتٍ...» (۲)

! وکم هی جمیلهٔ تلک العبادهٔ التی

تلاحق آثارها الإنسان وتترک بصماتها علیه! حقاً إنّها ولادهٔ جدیدهٔ وحیاهٔ أخری غیر تلک التی عاشها إن استطاع أن یحیا معانی الحج و یقتطف ثماره...

کلّ هذا وغیره هو ما نراه مجسداً فی خطب وأحادیث وأدعیهٔ أئمهٔ مدرسهٔ أهل البیت علیهم السلام، وفی رؤاهم لمفاهیم هذه الفریضهٔ ولحکمها وأهدافها، وفیما کتبه علماؤها وفقهاؤها، مکتفین من ذلک کله- وهو الکثیر الذی ضمته مجلدات عدیدهٔ- بما یسمح به مجال هذه المقالهٔ.

***

۱- سورهٔ الحج: ۲۷.

۲- سورهٔ الحج: ۲۸.

ص: ۸۲

إنّنا هنا بصدد الحديث عما تراه وتتبناه مدرسة أهل البيت عليهم السلام من نظرات وآراء ومواقف تتعلق بفريضة الحج من حيث ظرفها المكانی ومحورها العبادی بكل ما يحمله الأول من موقع جغرافی معروف بوعورة الأرض وصعوبتها وقسوة الطبيعة وشدتها... وبكل ما يحمله الثانی من مفاهيم عاليـة، ومضـامين رفيعـة، وقيم نـادرة... وبكـل مـا يحملانه من ابتلاء شديـد وامتحان أشـد، وفرصـة للمغفرة والرحمة ما أعظمها! ومناسبة لنيل رضا الله ما أوسعها! عبر أيام قدرت لها السماء:

* أن تكون معدودات «

واذكروا اللّه فی أيّام معدودات» (۱)

وهی أيام

التشريق، اليوم الحادی عشر والثانی عشر والثالث عشر من شهر ذی‌الحجة.

يقول السيـد الطباطبائی فی ميزانه: والـدليل على أن هـذه الأيام بعـد العشـرة من ذی الحجة ذكر الحكم بعد الفراغ عن ذكر أيام الحج، والدليل على كونها ثلاثة أيام قوله تعالى: «

فمن تعجل فی يومين...»

، فـإن التعجيـل فی يومين إنمـا يكون إذا كـانت الأيام ثلاثـة: يوم ينفر فيه، ويومان يتعجل فيهما فهی ثلاثـة، وقـد فسـرت فی الروايات بذلك أيضاً (۲).

إنّنا هنا بصدد الحديث عما تراه وتتبناه مدرسة أهل البيت عليهم السلام من نظرات وآراء ومواقف تتعلق بفريضة الحج من حيث ظرفها المكانی ومحورها العبادی بكل ما يحمله الأول من موقع جغرافی معروف بوعورة الأرض وصعوبتها وقسوة الطبيعة وشدتها...

وبكل ما يحمله الثانی من مفاهيم عالية، ومضامين رفيعة

* وأن تكون معلومات «

وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِی أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ» (۳)

. وقد

اختلفت الروايات فی المراد منها كما اختلفت فی الأيام المعدودات أيضاً، ولكننا نكتفی بما ذكره العلامة فی تفسيره الميزان.

يقول العلامـة: وفی هـذا المعنى روايـات أخر عن البـاقر والصـادق عليهمـا السـلام، فعن الإمـام الصادق عليه السـلام أنّه قال: «هی أيام التشـريق». وهنـاك ما يعارضـها، كما يـدل على أن الأيام المعلومات عشـر ذی‌الحجـة، والمعدودات أيام التشـريق. وينتهی إلى أن الآية أشد ملائمة لما يدل على أن المراد بالمعلومات أيام التشريق (۴). إذن فالأيام المعدودات و الأيام

المعلومات عند العلامة هی أيام التشريق (۵)۵».

وهذه الأيام المعدودات أو المعلومات هی بالتالی أيام اللّه تعالى، كما سماها أمير المؤمنين على عليه السلام، وهو ما جاء فی كتابه إلى عامله على مكة قثم بن العباس:

«أما بعد... فأقم للناس الحج، وذكّرهم بأيام اللّه...» (۶).

تعد هذه المدرسة مدرسة الإسلام الأولى علماً ومعرفةً بدين اللّه تعالى وأحكامه ومعارفه ومقاصده... فقد راحت- مع عظيم مسؤولياتها وانشـغالها فی مكافحـة الأفكـار المنحرفـة الوافـدة من هنـا وهنـاك، وخطورة مـا تعرضت له من ظلم وتعسف ومؤامرات حكـام الجور والسـائرين بركـابهم، لإبعادهـا عن خطهـا ومنهجهـا الـذی اختطته لهـا السـماء- راحت ترعى هـذه الفريضـة وتتبناهـا، وتوضـح معانيها ومقاصدها وأهدافها وحكمها بوعی كامل وحرص أكيد على استمرارها حيةً فاعلةً مؤثرةً، لهذا لم يترك أئمة هذه المدرسة الحج وهو يؤدی محتفظاً بإطاره الشـكلی، الـذی يكتفی به البسـطاء من الناس، والذين قلّت معرفتهم بأهدافه ومقاصده قصوراً منهم أو تقصـيراً، و

الذی یرکن إلیه المنحرفون من حکام ومن مستفیدین ویشجعون علیه بل ویثقفون الرعیهٔ علیه، بعیداً عن روحه ومنهجه الذی انطلق مع أول نداء وجّهه اللّه تعالی علی لسان نبیه إبراهیم الخلیل علیه السلام، یدعو الناس فیه إلی الحج: «
وَ أَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ یَأْتُوکَ رِجالًا وَ عَلی کُلِّ ضامِرٍ یَأْتِینَ مِنْ کُلِّ فَجٍّ عَمِیقٍ لِیَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ یَذْکُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِی أَیَّامٍ مَعْلُوماتٍ

۱- سورهٔ البقرهٔ: ۲۰۳.

۲- راجع تفسیر المیزان ۲: ۸۳.

۳- سورهٔ الحج: ۲۸.

۴- المیزان ۱۴: ۳۷۹.

۵- أنظر تفسیره للآیتین: ۲۰۳ من سورهٔ البقرهٔ و ۲۸ من سورهٔ الحج.

۶- نهج البلاغهٔ، الکتاب رقم ۶۷.

ص: ٨٣

ص: ۸۴

عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعام فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ»

، وغدا وجوبه من ضروريات الإسلام بنص الآية الكريمة: «

وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ» (۱)

وفی تأكيد وجوبه

والتحذير من عواقب تركه، جاء فی الخبر النبوی بطريق أهل البيت عليهم السلام فيمن وجب عليه الحج ولم يحج:

«فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً» (۲)

ويقول

رسول‌اللّه صلی الله عليه و آله مخاطباً الإمام علياً عليه السلام:

«يا علی تارک الحج وهو مستطيع كافر»

، ويستدل بالآية الكريمة لتأكيد ذلك: «

وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ»

، ولم يكتف بهذا، بل واصل خطابه قائلًا:

«يا علی من سوّف الحج حتی يموت، بعثه اللّه يوم القيامة يهودياً أو نصرانياً» (۳)

. أما الإمام زين العابدين عليه السـلام وهو المعروف بكثرة حججه بيت اللّه الحرام، فقد راح يبين أثر هذه الفريضة المباشر على الإيمان، فكان يوصی أصحابه بقوله:

«حجوا واعتمروا... يصلح إيمانكم» (۴)

. إن هـذا التشديـد على أداء هـذه الفريضـة والترغيب فيها، وهـذا النكير على من تعمد تركها، أدلة واضـحة على أهميتها وعلو مكانتها وقدسيتها، فهی تتوفر على جميع العبادات الأخرى، وهناک مصالح وغايات عالية المضامين تترتب على أدائها فی بناء شخصية الإنسان المؤمن نفسه وتكامل إيمانه ورقيه فی سلم التقوى، التی هی أساس كل شیء، وما يترتب على ذلک من كون الإنسان المؤمن شخصية مطلوبة للّه‌سبحانه وتعالی، يمكن أن تؤدی دورها المرسوم لها فی الحياة الدنيا، ويتجلی هذا الدور فی كونه خليفة اللّه تعالی فی أرضه بكل ما تعنيه هذه الخلافة من

۱- آل عمران: ۹۷.

۲- التهذيب ۵: ۱۶۱۰/ ۴۶۲.

۳- وسائل الشيعة ۸: ۲۱.

۴- وسائل الشيعة ۸: ۲۱.

ص: ۸۵

دور إيجابی وعمل فاعل مغير فی واقع الحياة علی جميع أصعدتها الإيمانية والأخلاقية والاجتماعية... فالهدف الأسمی للشرائع السماوية عامة والشريعة الإسلامية خاصة هو خلق إنسان اجتماعی مؤمن ملتزم يألف الآخرين ويتآلف معهم، يودهم ويودونه يحبهم ويحبونه، مبشراً بالخير منذراً الذين فی قلوبهم مرض، فيكون بذلك مثالًا طيباً ونموذجاً رائعاً لما تريده السماء وتهدف إليه، ويكون جديراً بتحمل أعباء الأمانة ومسؤوليات الخلافة، التی أعدته السماء لها ويحسن أداءها والحفاظ عليها..

فهناك الأحاديث المنقولة بطرق مختلفة عن رسول اللَّه صلی الله عليه و آله وعن أئمة أهل البيت عليهم السلام، التی أضافت عنصراً عظيماً لهذه الفريضة، حيث جعلتها ميداناً تدريبياً تربوياً، لخوض الميادين الكبری فی الحياة

من هنا، راحت جهود أئمة هذه المدرسة تنصب علی تحريك مضامينه ومقاصده هذه- والأخری غيرها- فی الأمة، فضلًا عن توضيح أحكامه عبر مواقفهم و نصوصهم الكثيرة جداً، فهناك الأحاديث المنقولة بطرق مختلفة عن رسول اللَّه صلی الله عليه و آله وعن أئمة أهل البيت عليهم السلام، التی أضافت عنصراً عظيماً لهذه الفريضة، حيث جعلتها ميداناً تدريبياً تربوياً، لخوض الميادين الكبری فی الحياة، فی العبادة وفی الكدح والجهاد، والتی منها جهاد النفس، بل جعلته الجهاد بعينه، أو ساوت بينه وبين الجهاد القتالی دفاعاً عن الإسلام وبيضته.

ومن تلك الأحاديث ما جاء عن رسول اللَّه صلی الله عليه و آله أنه قال:

«نعم الجهاد الحج»

. «الغازی فی سبيل اللَّه والحاج والمعتمر وفد اللَّه دعاهم

». وعن الإمام علی عليه السلام أنّه قال:

«والصلاة قربان كل تقی، والحج جهاد كل ضعيف» (۱)

. «الحج جهاد الضعفاء» (۲)

. «الحج جهاد»

. وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«من اتخذ محملًا

۱- نهج البلاغة: ۱۳۶، الحكم.

۲- من لا يحضره الفقيه ۲: ۱۴۹.

ص: ۸۶

للحج كان كمن ارتبط فرساً فی سبيل اللَّه»

. فالـذی لاـ يقوی علی الجهـاد يكون الحـج جهاده عوضاً له عن ذلك الجهاد الـذی ينوء به، لضـعفٍ اعتراه، أو لمانعٍ يقف حائلًا دون خوضه وأدائه، والـذی لاـ تصبر أو تتصـابر نفسه علی تحمـل أعبـاء الجهاد ومسـتلزماته وهو أعظم درجـة عنـد اللَّه، فإن الحـج له دورة تمهيدية تدريبية علی تعويد النفس وتدريبها علی التحمل والصبر والمثابرة والبذل والعطاء...

وهنـاك أحاديث أخری راحت تميز بين حجين: حـج يراد به وجه اللَّه تعالی وبالتالی الفوز برضاه وأجره وثوابه، وحـج آخر بعيـد عن حكمة تشريع الحج وأهدافه، التی أولها وأهمها وأساسها أن يؤدی قربة إلی اللَّه سبحانه وتعالی بكامل ما تعنيه هذه القربة من التزامات وواجبات... يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«الحـج حجان: حـج للَّه. وحـج للناس. فمن حـج للَّه، كان ثوابه علی اللَّه الجنة، ومن حج للناس، كان ثوابه علی الناس يوم القيامة» (۱)

فالحج بذاته يجب أن تتحقق رسالته الإنسانية فی حياتنا. ويجب أن يتحقق دوره فی وجودنا بصدق توكلنا عليه تعالی، وإخلاصنا

وقـد فرقت مدرسة أهل البيت بين حجين آخرين أيضاً: الحج الهدف. والحج الوسـيلة، فعن عبد الرحمن بن كثير أنه قال: «حججت مع أبی عبد اللَّه عليه السلام، فلما

۱- ثواب الأعمال ۱۶: ۷۴.

ص: ۸۷

صرنا فى بعض الطريق، صعد على جبل فأشرف فنظر إلى الناس فقال: ما أكثر الضجيج وأقل الحجيج» (۱). إنها فئة كثيرة، ولكن ليس لها من حجها إلا الصياح

والصراخ والتعب والتزاحم. فالأعداد الكثيرة والحشود الكبيرة والتدافع و الضجيج والصراخ شيء، والفئة القليلة الواعية المتمتمة ألسنتها الصادقة بالدعاء، والملبية تلبية نابعة من سلامة القلوب وإخلاص النوايا شيء آخر، فأولئك هم الخاسرون، وهؤلاء هم الفائزون قال تعالى: «

إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ»

. فالحج بذاته يجب أن تتحقق رسالته الإنسانية فى حياتنا. ويجب أن يتحقق دوره فى وجودنا بصدق توكلنا عليه تعالى، وإخلاصنا ونحن نؤدى مناسكه ونرتل قرآنه ونقرأ دعاءه، وهكذا العبادات الأخرى، فهى والحج وسائل و دورات تدريبية، الهدف منها بناء الشخصية الإيمانية وتكاملها.

وقد ورد فى هذا الكثير من الروايات عن هذه المدرسة بدءاً برسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فعن النبى صلى الله عليه و آله بطريق الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنّه قال:

«من حج هذا البيت بنية صادقة، جعله اللَّه تعالى من الرفيق الأعلى من النبيين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً» (۲).

وعن النبى صلى الله عليه و آله بالطريق نفسه:

«الحجة ثوابها الجنة، والعمرة كفارة كل ذنب» (۳)

. وعن النبى صلى الله عليه و آله:

«إنك إذا توجهت إلى سبيل الحج، ثم ركبت راحلتك وقلت: بسم اللَّه الرحمن الرحيم ومضت بك الراحلة، لم تضع راحلتك خفاً ولم ترفع خفاً إلا كتب اللَّه لك بكل خطوة حسنة، ومحا عنك سيئة، فإذا أحرمت ولبيت، كتب اللَّه لك بكل تلبية عشر حسنات، ومحا عنك عشر سيئات، فإذا طفت أسبوعاً كان لك بذلك عند اللَّه عهد وذكر يستحى أن يعذبك بعده، فإذا صليت ركعتين عند المقام كتب اللَّه لك بهما ألف ركعة مقبولة، وإذا سعيت بين الصفا والمروة سبعة أشواط كان لك عند اللَّه عز وجل مثل أجر من حج ماشياً من بلاده ومثل أجر من أعتق سبعين رقبة مؤمنة، وإذا وقفت بعرفات إلى غروب الشمس فلو كان عليك من الذنوب مثل رمل عالج وزبد البحر لغفرها اللَّه لك. فإذا رميت الجمار كتب اللَّه لك بكل حصاة عشر حسنات. فإذا ذبحت هديك كتب اللَّه لك بكل قطرة من دمها حسنة. فإذا طفت بالبيت أسبوعاً للزيارة، وصليت عند المقام ركعتين، ضرب ملك كريم بين كتفيك: أما ما مضى فقد غفر لك، فاستأنف العمل فيما بينك وبين عشرين ومائة

۱- بحار الأنوار ۳۰: ۱۸۱.

۲- بحار الأنوار ۳۰: ۱۸۱.

۳- من لا يحضره الفقيه ۲: ۱۴۶.

ص: ۸۸

یوم» (۱)

. وعن الإمام الصادق علیه السلام:

«إذا أردت الحج، فجرد قلبک من قبل عزمک من کل شاغل وحجاب حاجب، وفوض أمورک کلها إلی خالقک، وتوکل علیه فی جمیع ما یظهر من حرکاتک وسکناتک، وسلم لقضائه وحکمه وقدره، ودع الدنیا والراحة» (۲)

. والحوار الـذی دار بین الإمام زین العابدین علیه السـلام والشـبلی ملیئ بأسـرار هذه الفریضة المبارکة، وبعلو مضامینها، ودور کل من النیة الصادقة والجهد المخلص الدؤوب والتفکر الواعی العارف فی اکتساب مقاصدها الرفیعة فی کل منسک وفی کل موقف تتضـمنه هـذه الفریضـة المبارکـة. ومن أراد الاطلاع علی هـذا الحوار القیم بتفاصـیله الواضـحة، فما علیه إلا الرجوع إلی ما کتبه أخونا الأسـتاذ سماحة الشیخ محمد علی المقدادی فی العدد الرابع من هذه المجلة (میقات الحجّ)، الصفحة ۸۹- ۸۱.

کما راحت هذه المدرسة تؤکد مضامین الحج وما یتوفر علیه من معان جمیلة وآداب جلیلة وقیم رفیعة، ینبغی للحجیج بل یجب علیهم التحلی بها والالتزام بها وتحویلها إلی سـلوک متحرک وفاعل فی حیاتهم الفردیـة والاجتماعیـة، وتسـتنکر علی أولئک الـذین انحصـر همّهم بشـکل الحج دون الاهتمام بمحتواه، وإطار الحج دون رعایة مضامینه، ودون التأثر بآثاره والتقید بأحکامه، وتغییر مسیرة حیاتهم علی ضوء أهداف هذه الفریضة المبارکة. یقول الإمام الباقر علیه السلام:

«لئن أعـول أهـل بیت من المسـلمین أشـبع جوعتهم و أکسو عریهم وأکف وجوههم عن النـاس، أحب إلیّ من أن أحـج حجـة وحجة وحجة حتی انتهی إلی عشرة ومثلها حتی انتهی إلی

۱- من لا یحضره الفقیه ۲: ۶۲۰.

۲- من لا یحضره الفقیه ۲: ۱۵۳.

ص: ۸۹

سبعين» (۱)

. إنّه الوعى الأكمل للعبادة ومفاهيمها العالية، وإنّه الإحساس

الأعمق بآلام الآخرين والاهتمام الأمثل بشؤونهم، وإنه التربية الأخلاقية الرفيعة للعبادات ومنها تكليف الحج، التى تؤكدها هذه المدرسة الطاهرة بخلق إنسان اجتماعى عبر أدائه لمناسك الحج، يكون همه الإحسان للناس واللطف بهم بتفقد حاجاتهم وقضائها أو على الأقل السعى لقضائها، وإشباع ضروريا تهم وإغاثة ملهوفهم وحفظ حرمتهم وكرامتهم ومصالحهم... وإلا ما فائدة العبادة إن كانت لا تتعدى أنشطة تؤدى وفعاليات رتيبة اعتدنا على فعلها، ولا تتجاوزها إلى سلوك عملى نافع، و فعل اجتماعى طيب مؤثر، وإلى فضيلة متحركة مغيرة، وإلى أمر بمعروف ونهى عن منكر؟!

الإمتحان أرضاً وبناءً

إن الحج، مع كونه شرع رحمة للناس، ومكان دعاء لا يقنط العباد من استجابة اللَّه تعالى لهم فيه، ودار ضيافة موائدها كلها خير وعطاء، إلا أنّه، مع ذلك كله، امتحان شاق للعباد، واختبار دقيق للمؤمنين، راحت تعد له السماء- ولحكمة بالغة قد لا تدرك العقول جل مقاصدها وإن جهدت- موضعاً وصفته الآية الكريمة «

بِوادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ»

، ووصفه أمير المؤمنين على عليه السلام بهذا النص الرائع:

«ألا ترون أن اللَّه سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم- صلوات اللَّه عليه

إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الذى جعله للناس قياماً».

هذا وصف للبناء وما يتكون منه: أحجار صماء خالية من كل شعور وإحساس. أما موقع هذه الأحجار فهو بقعة أرض وعرة...، كما عبر عنها أمير المؤمنين سلام اللَّه عليه:

«ثمّ وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقل نتائق الدنيا مدراً، وأضيق بطون الأودية قطراً، بين جبال خشنة، ورمال دمثة، وعيون وشلة، وقرى

۱- بحار الأنوار ۳۰: ۱۸۱.

ص: ۹۰

منقطعة، لا يزكو بها خف، ولا حافر ولا ظلف».

إذن البيت- كما صورت الآية وكلمات أمير المؤمنين- مكانه لا- يعدو كون أرضه أرضاً جرداء موحشة، وبنيته من طوب ومدر، وبالتالى فالبيت موقعاً وبناء لا يرى من حوله ممن يطوفون به، ولا يسمع دعاءً منهم ولا قراءةً ولا تكبيراً ولا تلبيةً، ولا توسلًا منهم ولا بكاءً... وبالتالى- أيضاً- لا يمنع ضرراً قد ينزل بهم،

إن الحج، مع كونه شرع رحمة للناس، ومكان دعاء لا يقنط العباد من استجابة اللَّه تعالى لهم فيه، ودار ضيافة موائدها كلها خير وعطاء، إلا أنّه، مع ذلك كله، امتحان شاق للعباد، واختبار دقيق للمؤمنين

ولا يدفع سوءاً قد يلم بهم، ولا يقدم لهم نفعاً ولا يمنحهم أجراً... فيما كانوا يعبدون أصناماً صنعت أيضاً من طوب ومدر و... ولكنهم اعتقدوا أنها تسمع وترى، وتضر وتنفع... فالفرق كبير جداً بين عبادة الأصنام، التى يعبدونها وظلوا لها عاكفين فى جاهليتهم، والتى لا تضر ولا- تنفع، ولا- تميت ولا- تحيى... وبين عبادة اللَّه تعالى وهو الحى القيوم، فيما أمرهم به من مناسك وشعائر، شاءت إرادته وحكمته تعالى أن تؤدى فى هذا الوادى وبين جبال صماء وأرض صحراءٍ ملتهبة، فكان طوافهم وكان سعيهم وكانت مناسكهم الأخرى، التى راحوا يؤدونها وهم بكامل وعيهم وإرادتهم، وبشوق لا- ينطفئ، ولهفة لا تخبو، وقد هجروا الأهل والأحبة والأموال، وعيونهم مشرئبة نحو السماء تنتظر منها العوض بالعفو والمغفرة والرضا، يكتنفهم الحب للَّه‌تعالى وحده، وهم يعيشون أجواء التوحيد الخالص، والعبودية الخالصة والانقياد التام لخالق السموات والأرض وما بينهما، وإن نفوسهم- مع أنها تعيش فى هكذا محيط مبنى من الأحجار ومن الطين وسعف النخيل- لقادرة على أن تكون منقادة إلى اللَّه سبحانه وحده، كافرة بكل ما يدعى من أنداد له.

تقول الرواية عن أبى جعفر عليه السلام: «إذا دخلت المسجد الحرام، وحاذيت الحجر الأسود فقل: أشهد أن لا اله إلا اللَّه وحده لا شريك له، واشهد أن محمداً

ص: ۹۱

عبده ورسوله، آمنت باللَّه وكفرت بالطاغوت وباللات والعزى وبعبادة الشيطان وبعبادة كل ند يدعى من دون اللَّه...»

. نعم، مجسدةً ما تردده فى أغلب أوقاتها فى موسم الحج وهى تؤدى شعائره المباركة:

لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك. إذا ما خلصت فى انقيادها له جل اسمه وفى طاعتها وفى استسلامها لأوامره.... انه اختبار عظيم، وابتلاء خطير، وتمحيص شديد وفتنة تتصف بالدقة حتى يعلم اللَّه تعالى الذين صدقوا ويعلم الكاذبين.

*** وهذا شرح مختصر لما ورد فى المقطع الأول الذى ذكرناه أعلاه من خطبة الإمام على عليه السلام، وقد وصف فيه الكعبة أرضاً وبناءً:

... «وجعله للناس قياماً»

، وهذا اقتباس من الآية المباركة: «

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ...» (۱)

. والقيام هنا يحتمل أن يكون مصدر

«قام يقوم»

والمعنى: إن اللَّه جعل الكعبة سبباً لقيام الناس إليها، أى لزيارتها والحج إليها، أو لأنها يصلح عندها أمر دين الناس ودنياهم فهم فيها يقومون.

يقول الشيخ الطبرسى فى تفسيره: قياماً للناس، «أى جعل اللَّه حج الكعبة أو نصب الكعبة قياماً للناس، أى لمعايش الناس ومكاسبهم، لأنّه مصدر قاموا كأن المعنى: قاموا بنصبه ذلك لهم، فاستثبتت معايشهم بذلك، واستقامت أحوالهم به لما يحصل لهم فى زيارتها من التجارة وأنواع البركة».

ثمّ نقل الطبرسى رواية عن سعيد بن جبير: «من أتى هذا البيت يريد شيئاً للدنيا والآخرة أصابه». ثمّ قال عمّا ورد فيها: «وهو المروى عن أبى عبد اللَّه عليه السلام».

ثمّ أردفها برواية رواها على بن إبراهيم عنهم عليهم السلام، قال: «ما دامت الكعبة يحج

۱- المائدة: ۹۷.

ص: ۹۲

الناس إليها، لم يهلكوا، فإذا هدمت، فتركوا الحج هلكوا» (۱).

أما السيد الطباطبائی فقد قال عن ذلک: «ظاهر تعليق الكلام بالكعبة ثم بيانه بالبيت بأنه حرام، وكذا توصيف الشهر بالحرام ثم ذكر الهدی والقلائد اللذين يرتبط شأنهما بحرمة البيت، كل ذلک يدل على أن الملاک فيما يبين اللّه سبحانه فی هذه الآية من الأمر إنما هو الحرمة».

عن سعيد بن جبير: «من أتی هذا البيت يريد شيئاً للدنيا والآخرة أصابه»

ثمّ بعد هذا يقول: «والقيام ما يقوم به الشیء، قال الراغب: والقيام والقوام اسم لما يقوم به الشیء، أی يثبت كالعماد والسناد لما يعمد ويسند به كقوله: «

وَ لا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ الَّتِی جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِياماً»

، أی جعلها مما يمسككم، وقوله: «

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ»

، أی قواماً لهم يقوم به معاشهم ومعادهم... فيرجع معنی قوله: «

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ»

، إلى أنّه تعالى- والكلام ما زال للسيد الطباطبائی- جعل الكعبة بيتاً حراماً احترمه، وجعل بعض الشهور حراماً، ووصل بينهما حكماً كالحج فی ذی‌الحجة الحرام، وجعل هناک أموراً تناسب الحرمة كالهدی والقلائد، كل ذلک لتعتمد عليه حياة الناس الاجتماعية السعيدة، فإنه جعل البيت الحرام قبلةً يوجه إليه الناس وجوههم فی صلواتهم ويوجهون إليه ذبائحهم وأمواتهم، ويدوم به دينهم، ويحجّون إليه من مختلف الأقطار وأقاصی الآفاق، فيشهدون منافع لهم، ويسلكون به طرق العبودية. ويهدی باسمه وبذكره والنظر إليه والتقرب به والتوجه إليه العالمون. وقد بينه اللّه تعالى بوجه آخر قريب من هذا بقوله: «

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدیً لِلْعالَمِينَ» (۲)

۱- مجمع البيان فی ذيل تفسير الآية ۹۷ من سورة المائدة.

۲- آل عمران: ۹۶؛ تفسير الميزان، عند الآية ۹۷ من المائدة.

ص: ۹۳

إذن، فالكعبة موضوع مهم بما يحمله من آثار طيبة ومعان جميلة في دنيا المؤمنين وفي أخراهم، تتكامل من خلالها عباداتهم، وتسمو بأجوائها نفوسهم، وتقوى بها شوكتهم، وتتآزر بسببها أواصرهم، وتتعمق علاقاتهم بكل مفاصلها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والإعلامية، لهذا ولغيره صارت الكعبة قياماً وعلماً ورايةً خفاقةً تحمل كل مجد وعزة للإسلام وللمسلمين، وهو قول علي عليه السلام عن بيت اللَّه الحرام:

«جعله اللَّه سبحانه وتعالى للإسلام علماً»

. وفي كلمة أخرى له عليه السلام: «فرض اللَّه... والحج تقربة للدين» حقاً إنه مكان لتقريب الآخرين للإسلام، ومكان دعوة إليه بعرض أفكاره ومبادئه وأحكامه. فيما قال الإمام الصادق عليه السلام:

«لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة»

. قال علي عليه السلام:

«ألا ترون أنّ اللَّه اختبر الأوّلين من لدن آدم...».

من اللافت أن هذا المقطع وبالذات السطر الأول منه يقرر شيئاً تاريخياً مهماً، وهو أن إبراهيم عليه السلام لم يكن هو المؤسس الأول للكعبة المشرفة، وإنما كانت في زمن آدم عليه السلام وربما كانت سابقة عليه، ولم يبق منها إلا قواعدها أو أسسها، وكل ما قام به نبي اللَّه إبراهيم عليه السلام أن رفع تلك القواعد بأن بنى عليها بناءه الذي شيده وابنه إسماعيل عليهما السلام. والأدلة على هذا كثيرة: آيات قرآنية وأخرى روائية، جاءت بها كتب الفريقين، وما دامت مقالتنا تختص بما تراه مدرسة أهل البيت عليهم السلام، نذكر بعض رواياتهم، بعد الآيات الكريمة التالية: «

رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ»

. عند: تدل على وجود شيء سابق، وهي اسم مكان الحضور حقيقة كما تقول جلست عند زيد، ومجازاً نحو عند زيد علم ... وهذا وجه من وجهين ذكرهما الشيخ الطبرسي في تفسيره للآية حيث يقول «... ويسأل فيقال: كيف سماه بيتاً ولم يبنه إبراهيم عليه السلام بعد؟ والجواب من وجهين: أحدهما: أنه لما كان من المعلوم أنه يبنيه، سماه بيتاً، والمراد عند بيتك الذي مضى في سابق علمك كونه. والثاني: إن البيت قد كان قبل ذلك وإنما خربه طسم وجديس (۱)، وقيل: إنه

۱- وهما قبيلتان من سكان مكّة انقرضتا، وقيل: هيان بن عياد.

ص: ۹۴

رفعه اللّه إلى السماء أيام الطوفان...» (۱).

«وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» (۲)

. والقواعد: جمع قاعدة، وهى الأساس والأصل لما فوق. يرفع

القواعـد: أى البناء عليها، لأنها إذا بنى عليها نقلت من هيئـة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع. إذن القاعدة من البناء: أساسه وجمعها قواعد.

وتأتى القاعدة بمعنى الضابط أو الأمر الكلى ينطبق على جزئياته وهذا ليس محل كلامنا (۳)...

فالقواعد كانت موجودة، وهو ما يفهم من الآية، وأن كلًا من إبراهيم وإسماعيل عملا على رفعها. وقد يكون قوله تعالى: «

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ»

شاهداً على ذلك.

والذى يراه العلامة أن ما ورد من الروايات من أن الكعبة أول بيت بمعنى أول بقعة من الأرض، وأنّه يستظهر من قوله تعالى: «

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً...» (۴)

ما تشتمل عليه الروايات التى تقول:

«قد كان قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس»

أو «كانت البيوت قبله، ولكنه كان أول بيت وضع للعبادة للعالمين».

وبدلالة ذيل الرواية، فإن الحطيم وبالتالى الكعبة

۱- مجمع البيان، عند سورة إبراهيم: ۳۷.

۲- البقرة: ۱۲۷.

۳- أنظر المعجم الوسيط: ۷۴۸.

۴- آل عمران: ۹۶.

ص: ۹۵

كانت موجودة فی عهد آدم علیه السلام

وعن الإمـام الصادق علیه السـلام حیث سـئل عن الحطیم- وهو ما بین الحجر الأسود والباب- لم سـمی الحطیم؟ قال علیه السـلام: لأن الناس یحطم بعضهم بعضاً، وهو الموضع الذی تاب فیه اللّه علی آدم علیه السلام» (۱). وبدلالهٔ ذیل الروایهٔ، فإن الحطیم وبالتالی الکعبهٔ کانت موجودهٔ فی عهد آدم علیه السلام.

قدم الكعبة ودحو الأرض:

والدحو لغهً من دحا الشیء أی بسطه ووسعه وبابه عدا، ومنه قوله تعالی:

«وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِکَ دَحاها» (۲)

. أی بسطها و أوسعها أو مدها لسکنی أهلها أو

جعلها دحیهٔ وهی البیضهٔ (۳). ویقول کل من شیخ الطائفهٔ الطوسی وتبعه الشیخ

الطبرسـی فی تفسـیرهما: والـدحو أی البسط ومعنی دحاها أی بسـطها، وهی لغتان دحا یـدحو دحواً ودحیت أدحی دحیاً، قال أمیـهٔ بن الصلت: دار دحاها ثم أعمر بابها وأقام بالأخری التی هی أمجد وقال أوس:

ینفی الحصی عن جدید الأرض مبترک کأنه فاحص أو لاعب داح (۴)

فیما ذکر العلامهٔ السید الطباطبائی: أنّ دحاها «أی بسطها ومدّها: أن الدحو بمعنی الدحرجهٔ». ناسباً هذا القول إلی بعضهم (۵).

والذی یراه العلامهٔ أن «الأخبار فی دحو الأرض من

۱- مجمع البیان ۱- ۲: ۷۹۷.

۲- النازعات: ۳۰.

۳- أنظر مختار الصحاح والمعجم الوسیط، مادّهٔ: دحا.

۴- راجع مجمع البیان والتبیان، الآیهٔ.

۵- المیزان: الآیهٔ.

ص: ٩٦

تحت الكعبة كثيرة وليست مخالفة للكتاب ولا أن هناك برهاناً يدفع ذلك».

أما الروايات التى نقلت لنا عن أهل البيت عليهم السلام فهى كثيرة، والتى تتحدث عن دحو الأرض فى ٢٥ من شهر ذى القعدة الحرام من تحت الكعبة.

منها: عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «لما أراد اللّه أن يخلق الأرض، أمر الرياح فضربن متن الماء حتى صار موجاً، ثم أزبد فصار زبداً واحداً فجمعه فى موضع البيت، ثم جعله جبلًا من زبد، ثم دحا الأرض من تحته، وهو قول اللّه: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً»، فأول بقعة خلقت من الأرض الكعبة، ثم مدت الأرض منها» (١).

ويرى العلامة الطبرسى فى تفسيره: أن الآية فيها دلالة على أنه «لم يكن قبله بيت مبنى، وإنما دحيت الأرض من تحتها، وهو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق اللّه تعالى السماء والأرض من تحتها» (٢)...

من هذا يتضح لنا أن الكعبة تاريخياً لها عمق بعيد جداً قد يتجاوز وجود الإنسان الأول المتمثل بآدم عليه السلام قليلًا أو كثيراً، وقد يتزامن معه، فالأمر متروك للبحث التاريخى ودقة أدواته، ولكن الذى يبدو ثابتاً ومن خلال فهم المتيسر من الأدلة أن الكعبة كان لها وجودها المبارك قبل نبى اللّه إبراهيم عليه السلام، وأن المتيقن من النصوص القرآنية أنه قام وابنه إسماعيل ببنائها بأمر من اللّه تعالى.

هذا وإن الذى يبدو من روايات مدرسة أهل البيت عليهم السلام أن جبريل عليه السلام هو أول من بنى البيت الحرام، وأن الملائكة هى أول من طاف بهذا البيت، وهكذا صار الطواف حول البيت سنة الأنبياء بدءاً بآدم عليه وعليهم السلام، وفى رواية أخرى: أن الملائكة بنى لها بيت فى السماء يسمى الضراح بإزاء العرش فهى تطوف به، وأن هذا البيت أى البيت الحرام، بناه آدم بإزاء ذلك. واما إبراهيم وابنه

١- راجع البحث الروائى حول الآية فى تفسير الميزان.

٢- مجمع البيان ١- ٢: ٧٩٧.

ص: ۹۷

إسماعيل عليهما السلام فهما اللذان عمرا البيت، بأن رفعا قواعده بعد ذلک (۱).

أما الأرض التی اختيرت للكعبة وأنشأت عليها، فيصفها الإمام علی عليه السلام بأنها: أوعر بقاع الأرض حجراً: أی أصعبها، ومكان وعر بالتسكين، صعب المسلک أو المقام.

أقل نتائق الأرض مدراً:

أصل هذه اللفظة من قولهم

«امرأة منتاق»

أی كثيرة الحبل والولادة، ويقال: ضيعة منتاق أی كثيرة الريع، فجعل عليه السلام الضياع ذوات المدر التی للحرث نتائق، فكان معنی قوله: إن مكة أقلها صلاحاً للزرع، لأن أرضها حجرية. وقيل: إن النتائق جمع نتيقة وهی البقاع المرتفعة، ومكة مرتفعة بالنسبة لما انحط عنها من البلدان.

والمدر: قطع الطين اليابس، وأقل الأرض مدراً، لا ينبت إلا قليلًا.

القطر: الجانب. رمال دمثة: سهلة، وكلما كان الرمل أسهل، كان أبعد عن أن ينبت، أو أنها تكون لينة فيصعب السير فيها والاستنبات منها.

إن الذی يبدو من روايات مدرسة أهل البيت عليهم السلام أن جبريل عليه السلام هو أول من بنی البيت الحرام، وأن الملائكة هی أول من طاف بهذا البيت، وهكذا صار الطواف حول البيت سنة الأنبياء

وعيون وشلة:

أی أنها قليلة الماء. والوشل بفتح الشين هو الماء القليل، ويقال: وشل الماء وشلاناً أی قطر.

لا يزكو بها خف ولا ظلف:

لا تزيد الإبل فيها أی لا تسمن. والخف ههنا هو الإبل. أما الحافر فهو الخيل والحمير. والظلف الشاة، فيكون المعنی: ليس مرعی يرعاه الغنم فتسمن. وكل هذا (الخف والحافر والظلف) تعبير عن الحيوان بما ركبت عليه قوائمه.

۱- وسائل الشيعة ۹: ۳۸۶.

ص: ۹۸

الأحب إلى اللَّه تعالى:

هذا هو واقع البيت أرضاً وبناءً وضحته هذه الكلمات البليغة، إلا أنه الأحب من جميع بقاع المعمورة إلى اللَّه سبحانه وتعالى، والأفضل والأكرم عنده تعالى، وهو حرمه وبيته، ويكفيه منزلة عظيمة، وشرفاً كبيراً أنه أضيف إليه تعالى فهو بيت اللَّه وهو حرم اللَّه، إضافة إلى أن النظر إليه جعلته الشريعة عبادة يثاب عليها المؤمن ويغفر اللَّه تعالى له ذنوبه.

وكل هذا نجده فيما تظافر من روايات مدرسة أهل البيت عليهم السلام:

فقد روى الصدوق عن سعيد بن جبير عن أبی عبد اللَّه الصادق عليه السلام أنه قال:

«أحب الأرض إلى اللَّه تعالى مكة، وما تربة أحب إلى اللَّه عز وجل من تربتها، ولا حجر أحب إلى اللَّه من حجرها، ولا شجر أحب إلى اللَّه من شجرها، ولا جبال أحب إلى اللَّه من جبالها» (۱)

. وعن أبی جعفر عليه السلام أنه قال: «ما خلق اللَّه عز وجل بقعة فی الأرض أحب إليه منها. ثم أومأ بيده نحو الكعبة. ولا أكرم على اللَّه عز وجل منها، لها حرّم اللَّه عزّوجل الأشهر الحرم فی كتابه، يوم خلق السموات والأرض ثلاثة متوالية للحج: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، وشهر مفرد للعمرة، رجب» (۲).

النظر إليها:

وجعل اللَّه تعالى النظر إليها من منازل رحمته، فعن معاوية بن عمار عن أبی عبد اللَّه عليه السلام أنه قال:

«إن اللَّه تبارك وتعالى جعل حول الكعبة عشرين ومائة رحمة، منها ستون للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين» (۳)

. وعن أبی عبد اللَّه الصادق عليه السلام أنه قال:

«النظر إلى الكعبة عبادة... وقال: من نظر إلى الكعبة كتبت له حسنة، ومحيت عنه عشر سيئات» (۴)

، وعنه:

«من نظر

۱- وسائل الشيعة ۹: ۳۸۶.

۲- من لا يحضره الفقيه ۲: ۶۶۴.

۳- وسائل الشيعة ۹: ۳۶۳.

۴- من لا يحضره الفقيه ۲: ۱۴۳.

ص: ۹۹

إلى الكعبة لم يزل تكتب له حسنة، وتمحى عنه سيئة حتى ينصرف ببصره عنها» (۱)

، وعنه:

«من أيسر ما يعطى من ينظر إلى الكعبة أن يعطيه اللَّه بكل نظرة حسنة، وتمحى عنه سيئة وترفع له درجة» (۲).

المنزلة المباركة:

ثم انتقل الإمام على عليه السلام بعد ذلك و فى الخطبة نفسها، ليصوغ بعبارات أخرى غنية بالمعانى والبيان ما آلت إليه هذه البنية المتواضعة من منزلة عظيمة مباركة فى السماء، و من موقع مقدس فى القلوب، ومن مكانة كبيرة فى النفوس، ومن حضور حى فى وجدان المؤمنين وفى أرواح الموحدين لا يخبو نوره ولاينطفئ ضياؤه ولا ينضب معينه ولا تموت حركته... فيقول عليه السلام:

ثمّ أمر آدم عليه السلام وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتجع أسفارهم، وغاية لملقى رحالهم. تهوى إليه ثمار الأفئدة من مفاوز قفار سحيقة، ومهاوى فجاج عميقة، وجزائر بحار منقطعة، حتى يهزوا مناكبهم ذللًا، يهللون للَّه حوله، ويرملون على أقدامهم، شعثاً غبراً له. قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم، و شوهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم، ابتلاءً عظيماً، وامتحاناً شديداً، واختباراً مبيناً، وتمحيصاً بليغاً. جعله اللَّه سبباً لرحمته، ووصلةً إلى جنته.

إنها بقعة- مع كونها قفراء جدبة وعرة ضيقة- غدت مثابةً وأمناً

«مثابة لمنتجع أسفارهم، وغاية لملقى رحالهم»

. لنقف قليلًا عند شرح هذا المقطع.

وقبل هذا لا بد من أن نردف هذا المقطع بمقطع آخر للإمام عليه السلام أيضاً يشبهه،

۱- المصدر نفسه ۲: ۱۳۰.

۲- ثواب الأعمال: ۱۷.

ص: ۱۰۰

حیث یصف فیه حال الوافدین إلی الکعبة الطائفین بها... بالقول:

«وفرض علیکم حج بیته الحرام»

، وفی آخر هذه الخطبة فی الصفحة ۴۵ من نهج البلاغة لصبحی الصالح، قال علیه السلام أیضاً:

«فرض حجه، و أوجب حقه، وکتب وفادته، فقال سبحانه: «وَ لِلَّهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَیْهِ سَبِیلًا وَ مَنْ کَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِیٌّ عَنِ الْعالَمِینَ»– الذی جعله قبلة للأنام، یردونه ورود الأنعام، ویألهون إلیه ولوه الحمام

– أی یلوذون به ویعکفون علیه. ثم قال علیه السلام:

«وجعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته وإذعانهم لعزته»

. ثم راح علیه السلام یصف و یثنی علی من اختارته السماء وکانوا بحق وحقیقة حجاج بیته الطائفین به والعاکفین فیه والقائمین والرکع السجود، فاستحقوا بذلک أن یقول علی علیه السلام فیهم:

«واختار من خلقه سماعاً، أجابوا إلیه دعوته، وصدقوا کلمته، ووقفوا مواقف أنبیائه، وتشبهوا بملائکته المطیفین بعرشه

». إن هؤلاء هم الذین من أجلهم جاء أمر اللَّه تعالی لنبیه إبراهیم الخلیل عبر آیتین قرآنیتین: «

وَعَهِدْنا إِلی إِبْراهِیمَ وَ إِسْماعِیلَ أَنْ طَهِّرا بَیْتِیَ لِلطَّائِفِینَ وَ الْعاکِفِینَ وَ الرُّکَّعِ السُّجُودِ» (۱)

، «وَطَهِّرْ بَیْتِیَ لِلطَّائِفِینَ وَالْقائِمِینَ وَالرُّکَّعِ السُّجُودِ» (۲)

. إنه تطهیر من الأوثان والأصنام، التی کانوا یعلقونها علی باب

البیت، أو من الفرث والدم الذی یطرحه المشرکون عند البیت قبل أن یصیر بید إبراهیم وإسماعیل، أو طهراه بنیاناً بکماله علی الطهارة

(۳)... إلا أنه ورد فی تفسیر

القمی عن الإمام الصادق علیه السلام أنه قال فی تفسیر هذه الآیة: «

أَنْ طَهِّرا بَیْتِیَ لِلطَّائِفِینَ..»

یعنی

«نحّ عنه المشرکین» (۴)

. ولم یتوقف سلام اللَّه علیه عند هذا، بل بین لنا ما کانوا یهدفون إلیه فی صدق عبادتهم وإخلاص نوایاهم، وما کانوا یجنونه من ذلک فقال:

«یحرزون الأرباح فی متجر عبادته، ویتبادرون عند موعد مغفرته».

۱– البقرة: ۱۲۵.

۲– سورة الحج: ۲۶.

۳– أنظر مجمع البیان فی تفسیر الآیة ۱۲۵، من سورة البقرة.

۴– راجع البحث الروائی حول الآیة فی تفسیر المیزان.

ص: ۱۰۱

مـا أعظمهـا من تجـارة ومـا أزكاهـا! ومـا أطيبهـا من أربـاح وأحلاها! راحوا يتسابقون إلى اقتطافها، ويسارعون إلى اقتنائها بلهفـة عالية وشوق عظيم! وما هى هـذه الأرباح؟! وأين تكمن هـذه الأرباح؟! إنها الأعظم ثواباً والأكبر أجراً، إنها التوبة والمغفرة! إنها هناك حيث الجنة، التى عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين!

فالأمر الإلهى كان تكليفاً لآدم عليه السلام وولده، وبالتالى فهو دليل على وجود البيت فى زمانه، وإلا كيف يؤمرون بزيارته...؟!

أن يثنوا أعطافهم نحوه:

ثنى عطفه إليه، أى مال وتوجه إليه، أى يقصدوه ويحجوه، وعطفا الرجل: جانباه.

فصار مثابة،

أى يثاب إليه ويرجع نحوه مرة بعد أخرى.

لمنتجع أسفارهم:

أى لنجعتها، والنجعة هى طلب الكلا فى الأصل، ثم سمى كل من يروم النفع منه منتجعاً، أى محل الفائدة منها.

وغاية لملقى رحالهم:

أى أن البيت صار هو الغرض وهو المقصد، وعنده تلقى الرحال، بأن تحط رحال الإبل عن ظهورها، ويبطل السـفر، لانهم قد انتهوا إلى الغاية المقصودة. وملقى مصدر ميمى، أى نهاية حصر حالهم عن ظهور إبلهم.

تهوى إليه ثمار الأفئدة:

ثمرة الفؤاد: سويـداء القلب، ومنه قولهم للولـد هو ثمرة الفؤاد. وتهوى إليه أى تتشوقه وتحنّ نحوه، أو تسـرع سـيراً إليه. والمراد بالثمار هنا الأرواح، وهو ما يذهب إليه صبحى الصالح.

المفـاوز: جمع مفـازة. والفلاـة سـميت مفـازة إمـا لأنهـا مهلكـة من قولهم: فوز الرجل أى هلك، وإما تفاؤلًا بالسـلامة والفوز، والرواية المشهورة

«من مفاوز قفار»

بالإضافة. وقد روى قوم

«من مفاوز»

بفتح الزاء، لانه لا ينصرف، ولم يضيفوا، جعلوا

«قفار»

صفة... الفلاة التى لا ماء فيها. والسحيقة: البعيدة.

والمهـاوى: المساقـط أو الهوات، أى منخفضـات الأراضـى. أما الفجاج فهو جمع فـج، وهو الطريق بين الجبلين، أو الطرق الواسـعة بين الجبال.

ص: ۱۰۲

يهزوا مناكبهم:

يحركهم الشوق نحوه، إلى أن يسافروا إليه، فكنى عن السفر بهز المناكب وهى رؤوس أكتافهم.

يرملون،

الرمل: السعى فوق المشى قليلًا، فهو ضرب من السير فوق المشى ودون الجرى.

شعثاً غبراً:

أى لا يتعهدون شعورهم، فشعورهم منتشرة ملبدة. كما أنهم لا يهتمون بثيابهم ولا بأبدانهم، التى علاها الغبار.

وشوهوا بإعفاء الشعور:

غيّروا محاسن صورهم، بأن أعفوا شعورهم، فلم يحلقوا ما فضل منها وسقط على الوجه، ونبت فى غيره من الأعضاء، التى جرت العادة بإزالتها عنها، فتركوها بلا حلق ولا قص.

وتمحيصاً بليغاً:

التمحيص هو التطهير من محصت الذهب بالنار إذا صفيته مما يشوبه، ويأتى التمحيص بمعنى الامتحان والاختبار. وبما أن الإمام عليه السلام ذكر كلا منهما فقال: وامتحاناً شديداً واختباراً مبيناً، فالمناسب أن نأخذ بالمعنى الأول أى تطهيراً بليغاً.

جعله اللَّه سببا لرحمته، ووصلة إلى جنته:

إنها نتيجة من يجتازون ذلك الامتحان، إنها الخاتمة التى يمنّ اللَّه تعالى بها على عباده الفائزين باختبار السماء.

فكان هذا البيت بترابه و بأحجاره وبأجوائه قاعة امتحانية اختبارية تمحيصية كبرى لكل النفوس والأرواح والأجسام، التى أوت إليها وقد وطنت جهدها وكدحها ومالها وفراق أهلها وأحبتها لاجتياز ذلك الامتحان والفوز بما هيأته

ص: ۱۰۳

السماء من درجات عالية ورتب باهرة.

إنها رحمة اللَّه سبحانه، التی وسعت کل شیء، وإنها جنة اللَّه عز وجل، التی عرضها السموات والأرض أعدت للمتقین. حقاً إنه سبب ما أعظمه! حقاً إنه وصلة ما أجلها وأجملها! حقاً إنهما طریقان مبارکان ینتهیان برحمة اللَّه تعالی وجنته! حقاً إنه دار ضیافة ما أکرم صاحبها وما أطیب موائدها! حقاً إنها رحلة عطاء، وأی عطاء! إنه عطاء السماء الذی لا حدود له! حقاً إنه جزاء ما أعدله جاء علی قدر الابتلاء!!...

یقول الإمام جعفر الصادق علیه السلام:

«وهذا بیت استعبد اللَّه به خلقه، لیختبر طاعتهم فی إتیانه، فحثّهم علی تعظیمه وزیارته، وقد جعله محل الأنبیاء وقبلة المصلین، فهو شعبة من رضوانه وطریق یؤدی إلی غفرانه، منصوب علی استواء الکمال، ومجتمع العظمة والجلال...» (۱)

. وهکذا تلتقی کلماتهم علیهم السلام فی

کون البیت وضع للاختبار والابتلاء، وانه باب رحمة ونجاة للعباد...

وفی هذا المقطع یتناول الإمام علیه السلام موقعاً آخر مغایراً للموقع الأول، وما لو قدّر أن یکون موضعاً للکعبة. وما لو کانت مواد بنائها غیر تلک التی بنیت منها.

ماذا سیترتب علی هذا التغییر؟ إنه سؤال کبیر وخطیر! وهو ما سنری جوابه، الذی لا یقل أهمیة عنه، وسنراه فیما بعد الفقرات التالیة:

وسهل وقرار:

أی فی مکان بدرجة من السهولة یستطیع معها الناس الاستقرار فیه، ولا ینالهم من المقام به مشقة. والقرار یأتی أیضاً بمعنی: المطمئن من الأرض.

وجم الأشجار:

أی کثیر الأشجار.

دانی الثمار:

قریبها.

ملتف البنی:

أی مشتبک العمران کثیره. البرة: الواحدة من البر، وهو

۱- سفینة البحار ۱: ۲۱۱.

ص: ۱۰۴

الحنطة. السمراء: أجودها، الأرياف: جمع ريف: الأرض الخصبة، أو الخصب والمرعى فى الأصل وهو ههنا السواد والمزارع. والعراص: جمع عرصة، الساحة التى ليس بها بناء. محدقة: أى محيطة. ومغدقة: غزيرة، والغدق: الماء الكثير.

ناضرة: ذات نضارة ورونق وحسن. هذا فيما يخص موقع البيت.

أما فيما يخص بناءه، فيقول عليه السلام:

«ولو كان الأساس المحمول عليها، والأحجار المرفوع بها، بين زمردة خضراء، وياقوتة حمراء، ونور وضياء».

فالزمرد: الزبرجد: وهو حجر نفيس أخضر اللون شديد الخضرة شفاف.

وأشده خضرة أجوده وأصفاه جوهراً، واحدته زمردة. وقيل: هو حجر كريم ذو ألوان كثيرة، أشهرها الأخضر المصرى والأصفر القبرصى.

الياقوت: حجر من الأحجار الكريمة، معرب، وهو أكثر المعادن صلابة بعد الماس، ولونه فى الغالب شفاف مشرب بالحمرة أو الزرقة أو الصفرة، وأجوده الأحمر الرمانى. واحدته أو القطعة منه ياقوتة، الجمع: يواقيت.

وهنا تكمن الإجابة عن السؤال، الذى ذكر أعلاه، والإجابة التى ذكرها الإمام عليه السلام تتوفر على عبارتين:

الأولى: جاءت بعد:

«ولو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام، ومشاعره العظام بين جنات وأنهار...»

، «لكان قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء»

هذا هو الجواب الأول. وهو أمر يتعلق كما هو واضح بالأجر والثواب، وأن الأجر والثواب يأتى على قدر المشقة التى تواكب التكليف المراد من المؤمن إنجازه والقيام به، والتكليف هنا هو مناسك هذه الفريضة المباركة ومشاعرها فى الديار المقدسة.

فكلما كانت التكاليف متعباً أداؤها، كلما تعاظم أجرها، وعظم ثوابها. يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم، كانت المثوبة والجزاء أجزل.

الثانية: جاءت بعد:

«ولو كان الأساس المحمول عليها...» «لخفف ذلك مصارعة الشك فى الصدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفى معتلج الريب من الناس، ولكن اللّه يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبدهم بأنواع

ص: ۱۰۵

المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره».

فمصارعة الشك، وروى مضارعة الشك بالضاد المعجمة، ومعناه مقارنة الشك ودنوه من النفس، وأصله من مضارعة القدر بكسر القاف وتسكين الدال، أى إذا حان إدراكها، ومن مضارعة الشمس إذا دنت للمغيب. ويذهب الراوندى- كما يذكر ابن ابى الحديد، فى تفسيره لهذه الكلمة (مضارعة الشك)- إلى أن معناها:

مماثلته ومشابهته. ولكن ابن أبى الحديد يستبعد هذا لأنه لا معنى للمماثلة والمشابهة هاهنا، كما يذهب أيضاً إلى أن الصحيح مصارعة الشك بالصاد المهملة.

ولنفى معتلج الريب: أى اعتلاجه، ومعتلج مصدر ميمى من الاعتلاج أى الالتطام، اعتلجت الأموال أى التطمت. فيكون المعنى: زال تلاطم الريب والشك من صدور الناس، أو لنفى اضطراب الشك فى القلوب.

يجيب أمير المؤمنين عليه السلام عن هذا بقوله: «إخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكاناًللتذلل فى نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فتحاً إلى فضله، وأسباباً ذللًا لعفوه».

إذن هذه هى النتيجة لكل هذا الامتحان والاختبار. فما أعظمها من نتيجة! وما أجملها من جائزة! إنها أبواب إلى فضله وأسباب إلى عفوه. ونبذ للباس التكبر وهوخلق- كما تعلمون- ردىء، وتثبيت للتواضع فى النفوس وهو خلق- كما تعلمون- عظيم. وهو ما يجعل فريضة الحج موقعاً ومناسك مدرسة تربوية أخلاقية ميدانية رائعة، لاتجد لها مثيلًا على الإطلاق. هدفها الأكبر وغايتها العظمى تربية الإنسان فرداً ومجتمعاً، فيعود إلى أهله ومجتمعه مبلغاً- مبشراً ونذيراً- فتتواصل عملية البناء فى المجتمعات الإسلامية وفيما بينها وتنمو، وتتكامل النفوس وتتعزز الأواصر وتتمتّن العلاقات على أسس إيمانية واعية.

لقد راحت كلمات أمير المؤمنين عليه السلام ترسم الحكمة العظيمة والفلسفة الرائعة لموسم الحج، وقد امتحن اللّه تعالى عباده بهذه المواقع، فراحوا- نفوساً وأجساداً- يطوفون بها خاشعة أرواحهم آمنة مطمئنة، وهى تتزاحم لاستلامها والتبرك بها،

ص: ۱۰۶

لا يرتابها القنوط من رحمته تعالى، وكيف يداخلها اليأس من رحمته وهى فى ضيافته تعالى؟! وهم يقرأون ويسمعون قوله تعالى: «
قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (۱)
ويقرأون ويسمعون أيضاً قوله تعالى: «
.. وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ» (۲)
؟! إنه الانقياد الخالص للَّه‌تعالى والتسليم له والطاعة المطلقة
لإرادته والامتثال لأوامره والتطبيق الجاد الكامل لها، والثقة العالية بعفوه ورحمته ورضاه. وإنه الحكمة البالغة أن يبتلى اللَّه عز وجل عباده ببذل المال والجهد للوصول إلى بيته المكرم للطواف به والتعبد عنده والتضرع بجواره، وهو لم يكن من زمردة خضراء و لم يكن من ياقوتة حمراء ولم يكن من نور وضياء، وهى نفائس تستحق أن يشدّ لها الرحال، وتستحق أن يتحمل من أجلها الإنسان العناء والمخاطر، وبذل المال، وفراق الأهل والأحبة، إذا ما قسنا الأمور بالموازين الدنيوية، وأن الإنسان ميّال للمال وللمتعة والراحة والدعة «
وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ» (۳)
، أما أن يتحمل الحاج كل ذلك للمجىء إلى بناء من البساطة بدرجة
كبيرة متكون من أحجار وصخور وطوب، ضمته أرض جرداء تحيطها جبال صماء، كل شىء فيها يتصف بالجفاف والشحوب بل وحتى بالذبول، ليعبد ربه ويستغفره ويتضرع إليه فى تلك الأيام التى باركتها السماء. فهو أمر يحتاج إلى رصيد إيمانى راسخ ويقين ثابت وقناعة بما يترتب على ذلك من أجر وثواب، ويحتاج أيضاً إلى صبر ومثابرة ومجالدة لهوى النفس ومجاهدة لرغباتها فى الدعة والاسترخاء، وبغضها للمتاعب وركوب المخاطر.
إنها إرادة اللَّه تعالى فى أن تكون نوايا القاصدين والذين يؤمّون بيته الحرام نابعة من وعى وإيمان، ومن معاناة صادقة خالصة من كل شائبة مادية ودوافع

۱- الزمر: ۵۳.

۲- الحجر: ۵۶.

۳- العاديات: ۸.

ص: ۱۰۷

دنيوية... ولو قدر أن يكون موقع الكعبة كما يصفه الإمام عليه السلام:

«بين جنات وأنهار، وسهل وقرار، دانى الثمار، ملتف البنى، متصل القرى».

وليس هذا فقط بل هو أيضاً كما يصفه عليه السلام:

«بين برة سمراء، وروضة خضراء، وأرياف محدقة، وعراص مغدقة، ورياض ناضرة، وطرق عامرة»

. ولو قدر أن يكون بناؤها من أحجار غير تلك الأحجار التى هى عليها، أى من أحجار معروفة بنفاستها كالتى ذكرها الإمام عليه السلام:

«زمردة خضراء، وياقوتة حمراء»

ثم يضيف عليها شيئاً آخر ألا وهو:

«ونور وضياء»

... لرأيت- إذا ما اكتملت هاتان الصورتان صورة الموقع وصورة البناء- ماذا ستكون عليه الكعبة من مزرعة رائعة الجمال، و من بريق وهاج، ومن رونق جذاب يأخذ بالقلوب والأبصار، وعندئذ تكون منتجعاً تستروحه الأفئدة والأبدان، وتستجمله النفوس والأجسام، ومكاناً للاسترخاء والدعة والطمأنينة، يستريح فيه القادمون من وعثاء الطريق ومشاق الرحلة، وبالتالى يغدو مكاناً للنزهة والاستجمام لا ميداناً للاختبار والامتحان! هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، فإن نفاسة هذه الأحجار هى التى تشكل الدافع القوى بل الأول لتصديقهم واعتقادهم بأن هذا البيت هو بيت اللّه، ثم تدفعهم إلى الطواف حوله والمكوث عنده، وهو قوله عليه السلام:

«لخفف ذلك مصارعة الشك فى الصدور»

. ومن ناحية ثالثة، فإن زيارة الكعبة تكون بسبب إعجابهم وانبهارهم بدررها ونفاسة أحجارها، ولكى يتمتعوا بمنظر البيت وزينته. وبالتالى لا يكون دافعهم وقصدهم مجاهدة إبليس، الذى يدعوهم إلى ترك حج هذا البيت، والذى يشجعهم على اختيار الدعة والراحة والسلامة وهو مبدؤه ومبتغاه. لهذا جاء قول الإمام عليه السلام:

«ولوضع مجاهدة إبليس فى القلوب»

من ناحية رابعة.

إنها قصة الابتلاء والامتحان والاختبار والتمحيص، التى تؤدى بدورها ونهايتها إلى نتيجة كبيرة طالما انتظرتها النفوس الصابرة وتشوقت إليها القلوب المؤمنة، وتلهفت إليها الأرواح المطمئنة. إنها رحمة اللّه تعالى، والوصول إلى جنته

ص: ۱۰۸

التی عرضها السموات والأرض أعدت للمتقین! إنها المعادلة العادلة بین عظمة الابتلاء وعظمة الجزاء، حقاً

«کلما کانت البلوی والاختبار أعظم کانت المثوبة والجزاء أجزل»

. التشابه فی الابتلاءات: إنها إرادة اللَّه عز وجل ومشیئته هنا فی ابتلائه الناس بالکعبة بموقعها وأحجارها، کما هی إرادته ومشیئته فی أن یخلق نبیه آدم علیه السلام من طین لا من نور وطیب کما هو قول الإمام علی علیه السلام:

«ولو أراد اللَّه أن یخلق آدم من نور یخطف الأبصار ضیاؤه، ویبهر العقول رواؤه، وطیب یأخذ الأنفاس عرفه، لفعل»

، أما التعلیل فهو:

«ولو فعل لظلّت له الأعناق خاضعة، ولخفت البلوی فیه علی الملائکة».

ثم یبین الإمام علیه السلام حقیقة هذا الابتلاء، التی تنفعنا فی هذا المورد وفی غیره من موارد الابتلاء الأخری، والتی منها موضوع مقالتنا وهو الکعبة، التی نجهل الکثیر من حکمة وجودها والاختبار والتمحیص بها. فیقول علیه السلام:

«ولکن اللَّه سبحانه یبتلی خلقه ببعض ما یجهلون أصله، تمییزاً بالاختبار لهم، ونفیاً للاستکبار عنهم، وإبعاداً للخیلاء منهم»

. وهذا وذاک هو عین الحکمة فی أن الأنبیاء والرسل عاشوا فی ضعف وفقر وعوز، وهو ما یتناوله الإمام علیه السلام مبیناً ما سیؤول إلیه ذلک لو کان کما فی النص التالی:

«ولو کانت الأنبیاء أهل قوة لا ترام، وعزة لا تضام، وملک تمتد نحوه أعناق الرجال، وتشتد إلیه عقد الرحال. لکان ذلک أهون علی الخلق فی الاعتبار، وأبعد لهم فی الاستکبار، ولآمنوا عن رهبة قاهرة لهم، أو رغبة مائلة بهم، فکانت النیات مشترکة، والحسنات مقتسمة» (۱)

. وهو یشبه اختبارات

أخری تمر علی العباد وهی تحمل الهدیة والبشری، أتعلمون لمن هذه البشری؟! إنها للصابرین وهم الذین خرجوا من قاعة الاختبار بأنواعه المتعددة فائزین «

وَ لَنَبْلُوَنَّکُمْ بِشَیْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَ الْأَنْفُسِ

۱- نهج البلاغة: الخطبة القاصعة.

ص: ۱۰۹

وَ الثَّمَراتِ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ» (۱)

. إنها سنة السماء فی الاختبار

ليتبين الحق من الباطل والخالص من الشائب «

أ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ...» (۲)

. إن فريضة الحج تعد اختباراً عظيماً يدخله المؤمن ولو مرة واحدة فی حياته، فطوبی للذين قبلت السماء حجهم فهم الصابرون الناجحون بالامتحان الربانی الفائزون بالثواب العظيم!

وقفة:

هذا و أن ما نلا حظه اليوم فی الكعبة خاصة و عموم مكة والمدينة وباقی المدن من وضع عمرانی ملفت جامع لوسائل الراحة، ومن أبنية للعيش والسكن والاستقرار،، وما نراه من مؤسسات ومراكز لرعاية الحجيج وتسهيل أمورهم...

إضافة إلی تطور وسائل النقل بين دول العالم.. هدف كل هذه وغيرها توفير الأمان والسلامة والراحة وتخفيف معاناة المسافرين والقادمين لأداء فريضة الحج والزيارة.. جعلنی أستطيع أن أقول: ما عادت رحلة الحج متعبة وشاقة كما كانت عليه، بل إن سفرة الحج فی عصرنا غدت سفرة ممتعة، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب! وقد يكون كل هذا سبباً فی تقليل الأجر والثواب إذا ما لاحظنا بأن الثواب علی قدر المشقة كما يذكر، وأن هناک مدخلية للمشقة فی زيادة الأجر.

وهذه المتاعب والمشقة و بسبب ما ذكرناه أعلاه قد تنعدم أو

۱- البقرة: ۱۵۵.

۲- العنكبوت: ۲.

ص: ۱۱۰

تقل كثيراً، وبالتالى قد ينقص الثواب، فما علينا والحالة هذه إلا مزيداً من الصدق والإخلاص فى أداء المناسك، وإلا مضاعفة الأعمال التى ترضى اللَّه سبحانه، والإكثار من عبادته صلاةً ودعاءً وطوافاً وسعياً... وعدم تضييع الوقت بغير النافع فى هذه المناسبة التى قد لا تعود أو لا ـ نوفق لمثلها والعياذ باللَّه، حتى لا يفوتنا الأجر الأكمل والثواب الأعظم، ولعل ما نقدمه من عبادات بصدق يعوضنا عما قد يفوتنا من الثواب. واللَّه تعالى العالم وهو الغنى الكريم.

الحجر الأسود الناطق الشاهد:

صحيح أن هذه التى يطوف بها الناس أبنية من أحجار صماء لا تضر ولا تنفع، ولكن هذا لا يمنعها من أن تنطلق لتشهد بإذن ربها لمن وافاها ولمن عاهدها، فهى ليست بعيدة عن ملكوت السماء، وعما أثبتته لها السماء من حكم ومعان ودور ينتظرها هناك، فقد تختزن هى والمناسك من حولها أسراراً وأموراً ووظائف عهدت إليها، وقد خبئت أو أخفيت عنا لمصالح اللَّه أعلم بها، أو صعبت علينا معرفتها ونحن بها جاهلون. تظهر لنا هناك يوم القيامة: «

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ» (۱)

، وعند مليک مقتدر وهو «

الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ» (۲)

. وقد وردت أحاديث عديدة عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام بخصوص الحجر الأسود دون غيره من الأحجار، لما يتمتع به من امتيازات لا ـ تتوفر فى غيره من الأحجار والصخور فى الكعبة أو فى المواقع الأـخرى من الحرم الشريف، وهذه الخصوصية للحجر الأسود من أنه يمين اللَّه تعالى فى الأرض، وأنه ناطق شاهد يوم القيامة على من زاره ووافاه وعاهده كما صرحت به روايات هذه المدرسة، هذه الخصوصية لم أجدها لغيره، ولعله اختص بها دونه، وكيف لا تكون له هذه الميزة وهذه الفضيلة والطواف يبدأ منه وينتهى إليه؟! وكيف لا ينطلق لسانه بتلك

۱- آل‌عمران: ۱۰۶.

۲- فصلت: ۲۱.

ص: ۱۱۱

الشهادة ويستحب للحاج أن يقول عنده إذا ما استلمه أو قبله أو أشار إليه: «هذه أمانتى أديتها وميثاقى تعاهدته، لتشهد لى بالموافاة، اللهم تصديقاً بكتابك، وعلى سنة نبيّك، أشهد أن لا اله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، آمنت باللَّه وكفرت بالجبت والطاغوت وباللات والعزى وعبادة الشيطان، وعبادة كل ندّ يدعى من دون اللَّه» (۱).

وقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام، أن عمر بن الخطاب مر على الحجر الأسود، فقال: واللَّه يا حجر إنا لنعلم أنك لا تضر ولا تنفع، إلا ـ أنا رأينا رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله يحبك فنحن نحبك. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: كيف يا ابن الخطاب! فواللَّه ليبعثنه اللَّه يوم القيامة وله لسان وشفتان، فيشهد لمن وافاه، وهو يمين اللَّه عز وجل فى أرضه يبايع بها خلقه. فقال عمر: لا أبقانا اللَّه فى بلد لا يكون فيه على بن أبى طالب.

وعن عبد اللَّه بن سنان أنه قال: «بينا نحن فى الطواف إذ مر رجل من آل عمر، فأخذ بيده رجل فاستلم الحجر فانتهره وأغلظ له وقال له: بطل حجك، إن الذى تستلمه حجر لا يضر ولا ينفع. فقلت لأبى عبد اللَّه... فقال عليه السلام: كذب ثم كذب ثم كذب، إن للحجر لساناً ذلقاً يوم القيامة يشهد لمن وافاه بالموافاة». ثم ذكر حديث خلق آدم وأخذ الميثاق على ذريته، وأن الحجر التقم الميثاق من الخلق كلهم. إلى أن قال:

«فمن اجل ذلك أمرتم أن تقولوا إذا استلمتم الحجر: أمانتى أديتها وميثاقى تعاهدته لتشهد لى بالموافاة يوم القيامة، آمنت باللَّه وكفرت بالجبت والطاغوت واللات والعزى وعبادة الشيطان وعبادة الأوثان وعبادة كل ند يدعى من دون اللَّه عزّوجل» (۲).

وقد يكون الاستلام أو التقبيل تعبيراً عن تجديد للبيعة أو للعهد والميثاق، ولهذا راح الحجاج يتزاحمون بشدة على استلامه وتقبيله ومسحه، وإن لم يتيسر

۱- وسائل الشيعة ۱۳: ۳۰۲، ۳۱۹.

۲- من لا يحضره الفقيه ۲: ۳۳۰.

ص: ۱۱۲

ذلـک یشـار إلیه بالیـد، مع أن هـذا کله لیس بواجب وإنمـا هو مسـتحب لا ـ أکثر، ولهـذا یجیب الإمـام الصـادق علیه السـلام من کان یستغرب منه ترکه استلام الحجر الأسود فیقول:

«أکره أن أؤذی ضعیفاً أو أتأذی» (۱)

. وأجاب علیه السلام عن سؤال وجه إلیه عن امرأة حجت وهی حبلی یزاحم بها حتی تستلم الحجر. فقال علیه السلام:

«لا تغرروا بها» (۲)

. وورد عنهم علیهم السلام: «إن اللّه وضع عن

النساء أربعاً، وعدّ منهن استلام الحجر».

ولزیادة الاطلاع حول الحجر الأسود فی قصـته التاریخیـة والفقهیـة والروائیة فی المذاهـب الإسـلامیة، تراجع مقالتنا فی العدد ۴ من هذه المجلة، ۱۵۱– ۱۷۹.

الدعاء:

هذا، وقد اتخذت مدرسة أهل البیت علیهم السـلام من الدعاء وسـیلة بل أعطته دوراً کبیراً ورئیسیاً لتحقیق الأهداف والمقاصد المترتبة علی وجود هذا البناء المقدس بکل مفاصله، التی أوجبت السماء علی المکلفین بالحج والمعتمرین ارتیادها وتأدیة ما علیهم من أعمال ترافقهـا الأدعیـة، التی لا ـ تجـد مکاناً یخلو منها، ولا مفصـلًا عبادیاً إلا وهی غـذاؤه، بل لا تجـد لساناً إلا ویتمتم بها، أو یکون غیر هـذا والدعاء لب العبادة أو مخها، ومن خلاله یتم التسامی الروحی والتعلق بعالم الغیب، وتثبیت الإیمان به، وترکیز التوحید وتعظیمه، والفوز برضا الرحمن، واتباع سـنة الأنبیاء والأئمة علیهم صلوات اللّه وسلامه، وقبول الأعمال، وغفران الذنوب...؟! وقد وردت أدعیة کثیرة عن أهل البیت علیهم السـلام، اکتظت بها کتب الحـدیث، واحتلت مکانـة کبیرة فی مناسک هـذه الفریضة المبارکة.. وقد جمع طاقة جیدة منها سماحة الأخ الأستاذ الشیخ محمد علی المقدادی فی مقالته القیمة: مع أدعیة الحج. المنشورة فی العدد ۱۸ من هذه المجلة.

۱– الکافی ۴: ۴۰۹.

۲– التهذیب ۵: ۳۹۹.

ص: ۱۱۳

موعد مع إبراهيم الحج مرآة التاريخ البشرى

اشارة

عبدالجبّار الرفاعى

إن استيعاب مضامين الحج يتوقف على معرفة النبى إبراهيم عليه السلام، بل إن اكتشاف الأديان السماوية، وهكذا دين الإسلام، لا يمكن أن يتحقق من دون التعرف على روح دين إبراهيم، ونمط «الثقافة الابراهيمية».

ذلك أن إبراهيم هو أبرز داعية للتوحيد فى التاريخ، فهو الذى حطم الأوثان، وأشاد الكعبة المشرفة، وسواها من معالم التوحيد فى الأرض.

وباتت مسيرته وخطواته ومفهوماته تطبع دعوة التوحيد، وتظل حية، فاعلة، لاتنضب روافدها، ولاتضمحل أوتذبل أبداً. (۱)

هذا ما يقوله الدكتور على شريعتى، ويشدد عليه فى مواضع مختلفة من آثاره، معتبراً وعى الدور الإبراهيمى فى حياة البشرية مدخلًا أساسياً لدراسة رحلة البشرية الطويلة، وأديانها الكبرى. كما يعتقد بأن الحج مرآة يتجلى فيها تاريخ الإنسان، عبر ممثلين تنتخبهم السماء، بدءاً بآدم، وإبراهيم وإسماعيل، ثمّ محمد عليهم السلام. (۲)

وحيث ترتسم خطاهم فى البيت الحرام والمشاهد المشرفة فى مكة المكرمة، عانق مساراً آخر للإنسان، طمسته مدونات المؤرخين، ولم تتحدث عنه بقايا الحضارات التليدة، وآثارها.

۱- الدكتور على شريعتى، ميعاد با إبراهيم موعد مع إبراهيم: ۱۷، ۵۳- ۵۴.

۲- المصدر السابق: ۲۱۰.

ص: ۱۱۴

ويحاول شريعتى صياغة «فلسفة تاريخ» محورها حركة الأنبياء، وإبراهيم خاصة، وتجربته الإيمانية العميقة، وطبيعة المنعطفات الهامة فى حياته، لاسيما الحقبة المكية منها، التى تضافرت جهوده فيها مع زوجه هاجر، وولده إسماعيل.

البيئة الثقافية لشريعتى

ولد شريعتى فى قرية «مزينان» التابعة لمدينة مشهد فى خراسان سنة ۱۹۳۳. وخراسان بحكم موقعها الجغرافى، وتاريخها، والسياقات الثقافية والاجتماعية لها، بمثابة عالم مصغر للحياة الدينية فى إيران.

أن الحج مرآة يتجلى فيها تاريخ الإنسان، عبر ممثلين تنتخبهم السماء، بدءاً بآدم، وإبراهيم وإسماعيل، ثمّ محمد عليهم السلام

أما والد شريعتى فهو محمد تقى، أحد أساتذة التيار الاسلامى المستنير فى إيران. انخرط شريعتى الأب فى الحوزة العلمية فى مشهد سنة ۱۹۲۸، وعمل فيما بعد معلّماً فى مدارسها الثانوية. واهتم بتأسيس منتدى ثقافى إسلامى، يعنى باحتضان الشباب ورعايتهم، وتعليمهم حقائق الإسلام، ويتلمس لهم سبل مواءمة الإسلام مع العصر، والتغلب على الإشكالات، والإجابة عن مايتوالد لديهم من أسئلة لاهوتية جديدة، لم يألفها علم الكلام أوالفقه من قبل.

وقد تمحور حول محمد تقى شريعتى نخبة من الشباب، ممن كانوا يدرسون فى الجامعة والحوزة العلمية فى مشهد، وطفقوا يبحثون عن معلم أومرشد ينفتح على أفكارهم، ولا تستفزه استفهاماتهم، ولا تفزعه رؤاهم النقدية للتراث والواقع. فكان شريعتى الأب يحاول أن يصغى إليهم باهتمام، ويقدم لهم تفسيراً للقرآن، لايكرر آراء السلف، ويوظف بعض مكاسب العلم الحديث فى استنطاق النص، ويسعى لوصل الواقع بالقرآن، والقرآن بالواقع، متجاوزاً ماراكمه المفسرون من قطيعة بينهما، بعد إغراق المفسرين مصنفاتهم بمباحث لغوية

ص: ۱۱۵

بيانية، ومفاهيم كلامية ميتافيزيقية، تتحدث عن عوالم الملكوت، فيما تهمل الإنسان وهمومه فى الأرض.

فى هـذه البيئة العائلية نشأ على شـريعتى، وترعرع فى المحيط الثقافى الذى شـكّله والده، واتسع ليضم جماعة من طليعة الإسـلاميين فى مشـهد. وتـدرج فى مراحـل الدراسـة، وظهرت مبكراً موهبته، وتفتقت عقليته النقديـة، وروحه المتوثبـة، عنـدما كـان طالباً فى المرحلة الثانوية، فانحاز للتيار الوطنى الذى تزعمه الدكتور محمد مصدق، سنة ۱۹۵۴.

وفى عام ۱۹۵۵ م دخل كلية الآداب بجامعة مشـهد، وتخرج فيها بدرجة امتياز فى اللغة والأدب الفارسـى سنة ۱۹۵۸، ثم واصل دراسته فى جامعة باريس، وحصل على الدكتوراه فى علم الاجتماع، ودكتوراه أخرى فى تاريخ الأديان، سنة ۱۹۶۳.

وكانت أيام باريس أخصب فترة فى تكوينه الفكرى. ونشاطه السياسى، فقد درس الاتجاهات الفكرية الراهنة فى فرنسا والغرب، وتعلم على يـد بعض المفكريـن المعروفين ذلـك الحين فى بـاريس، وتعرف على آخرين ممن لم يتلمـذ عليهم، وظـل مثـابراً على التواصـل معهم، كماتعززت علاقاته بالثوار الجزائريين، واشترك فى نشاطاتهم، وارتبط بعلاقـة مع المفكر والمناضل فرانتس فانون، الـذى ترجم للفارسية شيئاً من كتابه «معذبو الأرض».

وفى عام ۱۹۶۴ عاد إلى ايران، فسجن لمدة ستة أشهر، بسبب مساهماته فى نشاطات مناهضة للشاه خارج إيران.

ومنذ سـنة ۱۹۶۶ عمل أسـتاذاً مساعـداً لمادة «تاريـخ الإسـلام» فى جامعـة مشـهد. وتعرض فى السـنوات التاليـة للمراقبة والملاحقة من الشـرطة السرية، واعتقل مرات عديدة، وفصل من عمله، ومنع من أن يحاضر أويشارك فى ندوات، ولبث فى السنين الأخيرة من حياته فى وطنه تحت مراقبة مكثفة، أعاقت حركته، فاضطر للهجرة إلى لندن، وتوفى هناك

ص: ۱۱۶

فى السادس من حزيران ۱۹۷۷، بعد فترة وجيزة من وصوله، وأحاطت بموته ظروف مبهمة غامضة، تنوعت تفسيراتها، ودفعت أنصاره ومريديه للقول بتدبير السافاك مؤامرة لقتله.

لقد كان شريعتى الأب المعلم الأول لشريعتى الإبن، فكانت رؤيا الأب الحرة الجريئة تضىء عقل الإبن، وتوقد وعيه، وتقحم تفكيره حقولًا لم يفكر فيها من قبل. مضافاً إلى التحاق على شريعتى فى مطلع حياته بالصراع السياسى، وإصراره على مواصلة الدرب فيما بعد، واطلاعه على التراث، وتخصصه فى علم الاجتماع ومقارنة الأديان، وعلاقاته المميزة مع مجموعة من المفكرين، وسعيه الحثيث لمواكبة معطيات الدراسات الإنسانية فى الغرب. كل ذلك أتاح له إمكانات، ومنحه مهارات مميزة فى دراسة المجتمعات الإسلامية، والانطلاق من مجتمعه والظواهر السائدة فيه، بوصفه أنموذجاً لدراسة الاجتماع الإسلامى.

علم اجتماع الدين

يمكن القول: إن على شريعتى كان من أبرز خبراء ((علم اجتماع الدين)) فى العالم الإسلامى، فى العقدين السادس والسابع من القرن العشرين، ذلك أن آثاره، بما تشتمل عليه من كتابات ومحاضرات، تعالج قضايا ترتبط بشكل مباشر أوغير مباشر، بهذا الحقل.

ولعل التكوين العلمى لشريعتى هو الذى وفر له عدة معرفية لخوض مغامرة البحث فى هذا الحقل، الذى كان وقفاً على المستشرقين، والباحثين الغربيين المهتمين بالاجتماع الإسلامى.

ص: ۱۱۷

وعندما نعود إلى تراثه نجده يستعير جملة أدوات منهاجية، وأفكاراً حديثة، من مفكرين فرنسيين وألمان، فقد تأثر برؤى ريمون آرون، وجاك بيرك، وهنرى كوربان، وفرانتس فانون، وروجيه

لقـد اسـتقى شـريعتى أدواته التحليليـة من علم الاجتماع، وعلم الاقتصاد، وفلسـفة التاريخ، والانثروبولوجيا، والميثولوجيا، وهيمنت على عقله الفلسـفة الاجتماعيـة الفرنسـية والألمانيـة أكثر من سواهـا، لكنه ظل أقل تعاطياً مع مقولات الفلسـفة والآراء الفلسـفية، ربما بسـبب تخصصه ودراساته فى الاجتماع ومقارنهٔ الأديان.

غارودى، وجورج كوروتيش، ولويس ماسينيون، وجان بول سارتر، والبير كامو.

وترد فى كتاباته إشارات إلى:

هيغـل، وماركس، وهوسـرل، وياسبرس، وهايـدغر، وماركوزه، تـدلل على أن لمناهـج ومفاهيم هؤلاء المفكرين تأثيراً بالغاً فى صـياغهٔ عقليته ونسقه الفكر ى.

لقد استعار شريعتى بعض آراء المثاليهٔ التاريخيهٔ لهيغل، كما أخذ من ماركس «البناء التحتى والفوقى، والصراع الطبقى، والأيديولوجيا، والاغتراب». واقتبس فكرهٔ «سـجن الـذات» من هايـدغر، وعممها إلى ما أسـماه «السـجون الأربعـهٔ» بعـد أن ضم إليها سـجون: «الطبيعهٔ، والمجتمع، والتاريخ». كذلك استفاد من ظاهريات هوسرل (۱)، واهتم بسارتر، وأفاد من وجوديته فى تحليل بعض الظواهر. كما حاول أن يتوكأ على فكرهٔالاعتراض التىقررهاالبير كامو، بقوله: «أنا أعترض، إذن أنا موجود».

يكتب شـريعتى «إننى اتخـذت من كلمـهٔ البير كامو هـذه درساً لحياتى، على أساس نفس الرسالهٔ والمسؤوليهٔ الصـغيرهٔ التى أحس بها، بالنسبهٔ لوعيى وإحساسى وعقيدتى» (۲).

لقد استقى شريعتى أدواته التحليلية من علم الاجتماع، وعلم

۱- مهرزاد بروجردى. روشنفكران إيران وغرب المثقفون الإيرانيون والغرب. ترجمهٔ: جمشيد شيرازى:۱۶۷- ۱۶۸.

۲- الدكتور على شريعتى. اسلام شناسى معرفهٔ الإسلام: ۲۳۳.

ص: ۱۱۸

الاقتصاد، وفلسفة التاريخ، والانثروبولوجيا، والميثولوجيا، وهيمنت على عقله الفلسفة الاجتماعية الفرنسية والألمانية أكثر من سواها، لكنه ظل أقل تعاطياً مع مقولات الفلسفة والآراء الفلسفية، ربما بسبب تخصصه ودراساته فى الاجتماع ومقارنة الأديان.

وكان يدرك أنه اجترح درباً لم يمهد من قبل لدى الدارسين فى ديارنا، فالدراسات الإسلامية فى الحواضر العلمية المعروفة، وكليات الدراسات الشرعية تستعين بالمناهج والأدوات الموروثة، ولاتتقن، وربما تخشى، التعاطى مع مناهج العلوم الاجتماعية الحديثة.

ولعل روح الاقتحام التى اتسمت بها شخصية شريعتى، هى ماحفزه للسير فى ذلك الدرب، والمغامرة بالمضى فيه حتى النهاية، بالرغم من الهجاء البالغ القسوة الذى تعرض له، وشتى ألوان التهم، وفتاوى تفسيقه وضلاله. إنه كان مدركاً بما يحف بمغامراته من مخاطر، وما يكتنفها من مزالق، باعتباره يدشن نمطاً جديداً فى دراسة الدين والاجتماع الإسلامى، مستنداً إلى مفاهيم ومناهج مختلفة. فقد تحدث عن ذلك بصراحة: «أهم درس استطيع أن أعطيه لطلابى كمعلم، هو أن عليهم، لأجل معرفة عميقة بالدين، انتهاج سبيل العلماء غير المتدينين، بل المناهضين للدين، أوحتى من كان ينشد محاربة الدين.

أنا أسلك هذا السبيل، وأتحدث بنفس اللغة المنددة بالدين، والمتنكرة لدعائمه الغيبية، تحت عناوين: علم الاجتماع، والاقتصاد، وفلسفة التاريخ، وعلم الإنسان. إنّى أتحدث بهذا المنهج الذى أعتبره أفضل المناهج لمعالجة المسائل العلمية والإنسانية. إنه المنهج ذاته الذى نهجته أوروبا منذ القرن الثامن عشر، لدراسة مشكلاتها الإنسانية بجميع أبعادها، ومناوءة الدين فى المجتمع. سوف أعالج قضايا الدين حتى من منظور طبقى اقتصادى، لكن بموضوعية، ومن دون تعصب وتحيز ما استطعت» (۱).

۱- الدكتور على شريعتى. روش شناخت اسلام منهج معرفة الإسلام: ۱۸- ۱۹.

ص: ۱۱۹

لقد حسم شريعتى خياره، وقرر استخدام المناهج الغربية فى دراسة الدين والاجتماع الإسلامى، ولم يتوقف عند الجدل الواسع الذى لما يزل محتدماً، حول مشروعية دراسة الدين والمجتمعات الإسلامية، بمناهج مستوردة من أديان ومجتمعات أخرى. فبدلًا من اصطفافه بجنب أحد فرقاء الصراع، واستنزاف تفكيره فى التدليل على مشروعية أو عدم مشروعية ذلك، بادر لحشد مختلف المناهج فى دراساته، ولم يتردد فى انتقاء واستخدام أى مصطلح أومفهوم، يحسبه مناسباً لحقل بحثه.

وكأنه، بمغامرته هذه، أراد القول: إنّ السبيل الأمثل لاختبار المناهج وأدواتها هو بتطبيقها مباشرة على ميادين معينة. وإن اكتشاف ماتتمخض عنه عملية التطبيق من معطيات، هو معيار اختبارها. كما أن نتائج التطبيق ستقودنا إلى استئناف النظر فى بعض المناهج، وإمكانية تمثلها فى سياقات حضارية أخرى، فنستبعد منها أونختزل مالايتسق مع بيئتنا، أو لايمكن توطينه ودمجه فى محيطنا الثقافى.

وقد صرح شريعتى بأنه يعمل فى دراساته على صياغة رؤية اجتماعية من منظور إسلامى، فمثلًا يلمح إلى محاولته هذه بإشارة دالة قائلًا: «باعتبار تخصصى العلمى هو فى علم اجتماع الدين، وهذا التخصص منسجم مع عملى، فإنّى أسعى لتدوين نوع من علم الاجتماع المرتكز على الإسلام والمصطلحات المستوحاة من القرآن والحديث» (۱).

إلّا أنه فى مناسبة أخرى يوضح أن دراساته لاتتناول المفاهيم المودعة فى المصنفات التراثية، مثلما لاتهمه طبيعة هذه المفاهيم فى وعاء الذهن، وإنّما تنصب جهوده على تمثلها فى التاريخ، وأنماط تجليها فى الاجتماع البشرى. فمثلًا يتحدث عن التوحيد الذى يتناوله فى دراساته بقوله:

«أعنى بالتوحيد حضوره فى التاريخ والمجتمع، لا مفهوم التوحيد فى عالم الكتب، أو عالم الحقيقة. فليس حديثى بشأن التوحيد الذى تحدث

۱- المصدر السابق: ۲۳.

ص: ۱۲۰

عنه القرآن، ومحمد صلی الله علیه و آله، وعلی علیه السلام.

مایهمنی الآن هو التوحید فی المجتمع والتاریخ، والأمر هکذا لدی دائماً» (۱).

ویحاول شریعتی استخدام مختلف المنهجیات، والاستعانهٔ بما یطلع علیه من أفکار فی العلوم الإنسانیهٔ الجدیدهٔ، لیوظفها فی حقل دراساته، فلا یتردد فی الاستعانهٔ بالمعطیات الراهنهٔ فی حقل المیثولوجیا، والنماذج الرمزیهٔ، أوغیرها. یکتب فی سیاق استعارته لتلک المعطیات: «إنّنی شخصیاً أهتم بدراسهٔ الأساطیر، ولی علاقهٔ دائمهٔ بالأساطیر والنماذج الأسطوریهٔ» (۲).

ویضیف: «منذ فترهٔ وأنا أعمل فی حقل الأساطیر، لشغفی بالأسطورهٔ أشد من التاریخ. وأحسب أن ما تشی به الأسطورهٔ من حقائق أوفر من التاریخ، فالأسطورهٔ حکایهٔ وجدت فی فکر الإنسان، أمّا التاریخ فهو حقائق أوجدها الإنسان. الأسطورهٔ تحکی التاریخ کما ینبغی أن یکون» (۳).

ویمکننا ملاحظهٔ التفسیر الرمزی واستعمال الأسالیب الحدیثهٔ فی البحث المیثولوجی فی مواضع عدیدهٔ من آثار شریعتی.

وتظل محاولهٔ شریعتی، مع جرأتها وریادتها، عرضهٔ لعدد من الإشکالات والأسئلهٔ. باعتبارها توظف أدوات منهاجیهٔ متنوعهٔ فی دراسهٔ الظواهر الدینیهٔ، من دون أن تتنبه إلی أن الأبعاد المیتافیزیقیهٔ، التی تنفرد بها تلک الظواهر، لیس بوسعنا إدراکها، واستکناه مضمونها، بوسائل العلوم الاجتماعیهٔ الوضعیهٔ.

مضافاً إلی أن طائفهٔ من العناصر المنهجیهٔ والمفاهیم والمصطلحات التراثیهٔ المولدهٔ فی سیاق نشأهٔ وتطور الاجتماع الإسلامی، یمکن استخدامها، مباشرهٔ، أوبعد تهذیبها، أوتفکیکها، وإعادهٔ إنتاجها.

الإسلام من ثقافهٔ إلی أیدیولوجیا

عاش شریعتی فی عصر طغی فیه صوت النضال، وتسابق المثقفون لتأیید ومساندهٔ الانتفاضات والحرکات الثوریهٔ، وفی بدایهٔ حیاته أغواه بریق الشعارات، وشغف بفعل الاحتجاج والاعتراض، فتضامن مع

۱- الدکتور علی شریعتی. اسلام شناسی معرفهٔ الإسلام: ۲۶۹.

۲- المصدر السابق: ۲۲۲.

۳- المصدر السابق: ۲۰۹.

ص: ۱۲۱

استغاثات الكادحين، ولوعة المحرومين، وأنين المعذبين. وتلاحم فى شخصيته المثقف والداعية والباحث والمناضل، وذابت الحدود فى وجدانه بين النموذجين، بل أمسى الوجه الحقيقى للمثقف فى وعيه هو الداعية، وتحولت الثقافة إلى أيديولوجيا، وتمحورت جهوده فى «أدلجة الدين والمجتمع».

يقول شريعتى: «سألنى أحد رفاق الدرب: ماهو برأيك أهم حدث وأسمى إنجاز استطعنا تحقيقه خلال السنوات الماضية؟ فأجبته: بكلمة واحدة، هو تحويل الإسلام من ثقافة إلى أيديولوجيا» (۱).

ما الذى يقصده بالأيديولوجيا؟

وهل يستطيع أن يحتفظ بموقفه المعرفى كباحث، فى الوقت نفسه الذى يوسع دائرة الأيديولوجيا، لتشمل الدين والثقافة والمجتمع؟!

قبل الإشارة إلى ذلك نقتبس نصاً مطولًا من آثاره، يضىء هذا المفهوم، ويحدّد ملامحه فى وعيه.

يكتب: (الأيديولوجيا عبارة عن عقيدة ومعرفة عقيدة. وهى بالمعنى الاصطلاحى، رؤية ووعى خاص يتوفر عليه الإنسان فيما يتصل بنفسه، ومكانته الطبقية، ومنزلته الاجتماعية، وواقعه الوطنى، وقدره العالمى والتاريخى، وفئته الاجتماعية التى ينتمى إليها. وهى المسوّغة لهذه الأمور، والتى ترسم له مسؤولياته وحلوله وتوجهاته ومواقفه ومبادءه وأحكامه، وتدفعه بالتالى إلى الإيمان بأخلاق وسلوك ومنظومة قيم خاصة، فعلى أساس رؤيتك الكونية، وابتناءً على نمط «علم الاجتماع» و «علم الإنسان» و «فلسفة التاريخ» الذى تحمله، يمكن تحديد ما هى عقيدتك فى الحياة، وفى علاقتك بنفسك وبالآخرين وبالعالم؟ كيف ينبغى العيش، وما الذى يجب فعله؟

أى مجتمع يتعين بناؤه، وكيف يتوجب تغيير نظام اجتماعى بشكل أنموذجى، وما هى مسؤولية كل فرد حيال المجموع؟ وما هى صراعاته، وأواصره، وأشواقه، ومثله العليا، وحاجاته، ومرتكزاته العقيدية،

۱- الدكتور على شريعتى. الآثار الكاملة ۱: ۲۰۹.

ص: ۱۲۲

وقيمه الإيجابية والسلبية، وسلوكه الاجتماعى، ومعايير الخير والشر لديه، وبالتالى ما هى طبيعة الإنسان وهويته الاجتماعية؟ وعلى هذا فالأيديولوجيا هى عقيدة تحدد الاتجاه الاجتماعى والوطنى والطبقى للإنسان، وتفسر نظامه القيمى والاجتماعى، وشكل الحياة، والوضع المثالى للفرد والمجتمع، والحياة الإنسانية بكل أبعادها، وتجيب عن الأسئلة: ((كيف تكون؟)) و «ماذا تفعل؟» و «ماذا ينبغى فعله؟» و «كيف يجب ان نكون؟» (۱).

الأيديولوجيا تقنية يستعين الإنسان بها وبالمعرفة لتوظيف التاريخ والمجتمع حسب مايشاء

لكن ماهى حدود الأيديولوجيا؟

وماهى علاقتها بالعلوم والمعرفة التقنية؟ يجيب شريعتى:

«الأيديولوجيا تهدى للإنسان ماتمنحه له الإمكانات التقنية تماماً. ما التقنية إلّامجموعة الجهود الإنسانية الرامية إلى توظيف الطبيعة لتحطيم هيمنتها وجبرها، وفرض احتياجاتنا عليها. الأيديولوجيا تقنية يستعين الإنسان بها وبالمعرفة لتوظيف التاريخ والمجتمع حسب مايشاء» (۲).

ويتداخل مفهوما التقنية والأيديولوجيا لديه، بنحو تصبح «التقنية عبارة عن فرض إرادة الإنسان على قوانين الطبيعة، أوهى استخدام العلم من قبل الإرادة الإنسانية الواعية، للوصول إلى مبتغاه. العلم هو مسعى إنسانى لفهم الطبيعة واكتشاف مافيها، والتقنية هى سعيه لتطويع الطبيعة واستخدامها، واصطناع ماليس فيها. وفقاً لهذا التعريف تكون الأيديولوجيا بالمعنى الأخص للكلمة، تقنية بالمعنى الأعم للكلمة» (۳).

ويبدو أن الهموم النضالية لشريعتى، ومحاولاته الواسعة لأنسنة الدين، والتشديد على المضامين الاجتماعية للإسلام، هى الباعث لمسعاه فى تحويل الإسلام «من ثقافة إلى أيديولوجيا». وربما تأثر شريعتى بأطروحات جماعة لاهوت التحرير،

۱- المصدر السابق ۱۶: ۲۸- ۲۹.

۲- المصدر السابق ۱۱: ۲۴۲- ۲۴۳.

۳- المصدر السابق ۴: ۲۳۲- ۲۳۴.

ص: ۱۲۳

ودعواتهم لتحويل الدين إلى أيديولوجيا لمناهضة الاستعمار، وتحرير الأرض، وتنمية المجتمع، بعيداً عن مشاغل اللاهوت الكلاسيكى.

وممّا لا ريب فيه أن هيمنة الأيديولوجيا على وعى الباحث ولاوعيه، تحول بينه وبين الوصول الى نتائج علمية، أكثر موضوعية وحياداً فى تفكيره وبحثه. ذلك أن الأيديولوجيا تقود أية عملية تفكير وتوجهها الوجهة التى تنشدها، وتضاعف التحيزات والمفروضات القبلية فى ذهن الباحث، وتسوقه دائماً إلى مواقف ونتائج محددة سلفاً، باعتبار التفكير الأيديولوجى يسعى إلى تغيير العالم لاتفسيره. وينشغل أنصار الأيديولوجيا فى سكب المجتمع فى قوالبها ورؤيتها الخاصة، ولذلك ينددون بالتعددية، ويُكرهون الناس على تفسير رسمى للمعتقدات الدينية والاجتماعية والسياسية، ويخنقون الأسئلة الكبرى، ويعملون على ترسيخ الجزمية واليقين، وبالتالى بناء مجتمع مقلد مغلق.

وتكمن المفارقة فى أن شريعتى الذى أعلن عن مطمحه فى الانتقال بالإسلام «من ثقافة إلى إيديولوجيا» تسودكتاباته نزعةتفكير حرة، ترفض المجتمع المغلق، وتدعو إلى إصلاح الفكر الإسلامى، والانفتاح على مختلف الأديان والثقافات. وتحكى آثاره ذائقة فنان، وروح شاعر، وعقلية ناقد، ونزعة متمرد. ومثل هذه السمات فى الشخصية يتعذر على الأيديو لوجيا الانسجام والتوافق معها.

ص: ۱۲۴

والمفروض أن مثقفاً كشريعتى يدرك مثل هذا التهافت، ويعى الالتباس بين الشخصية الأيديولوجية، وشخصية المثقف، والشاعر، والفنان، والناقد، لكن موقفه ظل ملتبساً بين شفافية الفنان الرومانسى، وبين أحلام وتطلعات المناضل.

العدة المعرفية للحاج على شريعتى

تكرر ذهاب شريعتى إلى ديار الرحمن عدة مرات، فقد أدى العمرة ثلاث مرات، فيما أدى الحج أكثر من مرة، فى عامى ۱۹۷۰ و ۱۹۷۱، وكانت المشاعر المشرفة فى مكة المكرمة، والمشاهد الكريمة فى المدينة المنورة، مصدر إلهام لجملة من أفكاره، وانطباعاته، وتأملاته، وإشراقاته الروحية، التى أفاضها فى محاضرات وكتابات احتلت مئات الصفحات من آثاره المنشورة.

وتحتل هذه المجموعة من الآثار أهمية فائقة، ليس لحجمها الواسع، وتنّوع ماتناولته من موضوعات، تتصل بفلسفة التاريخ، وفلسفة العبادة، ومقاصد الشريعة، وأهدافها العامة، فقط، وإنّما لأنها تعبر عن تجربة مميزة فى أدب الحج، وعموم الإنتاج الفكرى حول الحج والعمرة، باعتبار صاحبها من القلائل الذين توفروا على عدّة معرفية، تجمع بين التخصص الأكاديمى فى علم الاجتماع وتاريخ الأديان، والاطلاع على تراث وآداب الشعوب الإسلامية، ووعى العصر، وواقع المجتمعات الإسلامية، وأحوال العالم. وقلما نجد من يتوافر فى نفس الوقت على ذائقة فنان، وخيال شاعر، وانفعال إنسان رومانسى، وخبرة فى العلوم الإنسانية الجديدة، واطلاع واسع على التراث والواقع، وداعية ومناضل.

فى شخصية على شريعتى نلمح عدة أبعاد، تمثل، المفكر، والباحث، والمثقف، والفنان، والناقد، والمتمرد، والداعية. وهى أبعاد ربما يبدو بعضها منافياً للبعض، لاتجتمع وتتوحد فى إنسان إلّافى حالات محدودة.

ص: ۱۲۵

تلـک هی المواهب الذاتیـة، والإمکانـات الخاصـة، والأـدوات المعرفیـة، التی یمتلکها شـریعتی، وفتحت له أبواباً ونوافـذ لتأمل وتحلیل التجربة الدینیة للحاج؟

ودراسة العناصر الرمزیة فی المناسک، وأنماط التحولات الروحیة والأنثروبولوجیة للمسلم الحاج.

قـد نلتقی فی ضـیوف الرحمـن مع مبـدعین، وشـعراء، وفنـانین، ومفکریـن، ومثقفین، وأکـادیمیین، وسیاسـیین، وعلمـاء دین، وعرفـاء ومتصوفة، ولکن قلیلًا ما نشاهد أحداً تتجاور فی شخصه وتلتحم مجموعة من تلک المواهب.

ولاریب فی أن الفنان تتجسد المناسک فی وجدانه بصورة تحکی الألوان، والتشکیلات، والحرکات، والأصوات، وکأنها لوحة متناسقة خلابـة، فی أطیاف ألوانها، وملامحها الجمالیـة، وأنغامها. وهکـذا تبـدو المناسک فی عیون السیاسـی، باعتبارها أنموذجاً لوحـدة الأمة وتضامنها، ومظهراً لعزتها واقتدارها.

فیما تتجلی المناسک بصورة ثالثة لدی العارف والمتصوف، وهکذا.

أمّا لو تکـاملت مجموعـة من هـذه القابلیـات والإمکانـات فی فرد واحـد، فسوف تتسع رؤیته، لتلاـمس طائفـة من المعانی والـدلالات الرمزیة العمیقة التی تشی بها الفاعلیات المتنوعة للحج، والمواضع المتعددة للمشاعر، یصعب علی غیره استلهامها والتعرف علیها.

لقد وظف شـریعتی کل عدته المعرفیة، وثقافته الواسـعة، وخیاله الرحب فی اسـتجلاء المقاصد الکامنة وراء مناسک الحج، وأشار إلی أن الوجه الظاهر للمناسک بوسعنا وعیه بما نتداوله من أدوات إدراک، لکن الوجه الخفی یتعذر علینا وعیه بهذه الأدوات، لأنه خلاصة لتجربـة وجدانیـة باطنیة، لایمکن قیاسـها أو اکتشافها بمفهوماتنا المتعارفة، کما لانسـتطیع التعبیر عنها بوضوح، لقصور اللغة عن حکایة الأنطولوجیا الذاتیة، ومایضیء النفس من نور جوّانی.

ص: ۱۲۶

الحج يخلع معنى على ما لا معنى له

يعترف شريعتى بأنه عندما يتحدث عن الحج إنما يلخص فهمه، وتجربته الخاصة، وما أدركه من معان، وهى بالتأكيد ليست كل المعانى، فهو يصف كتابته عن الحج بأنها «نتاج قدرته المحدودة على التحليل والتلخيص لعرض رمزى معجز، ذلك أن المهيمن على خشبة المسرح فى الحج هو ذاته المهيمن على الكون الواسع. وأقول بوضوح: لقد حاولت أن أسكب بحراً فى كوز! ففى كل مرة أذهب إلى الحج أحاول أن أعود لتقييم ما استوحيته من المرة السابقة، لكى تنضج رؤيتى. فأكتشف آفاقاً وعبراً جديدة» (۱).

ويمثل برغسون العالم بأنه «بمثابة موشور زجاجى، لامتناهى الأبعاد، وقادر على تفكيك وعكس مالانهاية له من ألوان. وكل إنسان يقتبس ماهو مستعد لإدراكه من تلك الأبعاد والألوان، حسب شفافية قلبه، وتسامى روحه، وعلى أية حال فهو لايستطيع إدراك تمام الألوان والأبعاد».

وهكذا هو الحج، فإنّه مشبع بالمعانى والدلالات، وهو كما يقول شريعتى، معلقا على رأى برغسون:

«عبارة عن مجموعة من الإشارات، وأجلى وعى للحج هو وعى أولئك القادرين على إدراك ما ترمز إليه تلك الإشارات» (۲).

ويضيف: إن مناسك الحج كأنها شكل زجاجى شفاف، متعدد الزوايا والأضلاع، وكل إنسان عندما ينعكس نوره على ضلع من أضلاع هذا الشكل الزجاجى، يتحلل هذا النور إلى مئات الألوان. فليس هناك معنى أحادى لمناسك الحج، وكل

ذلك أن المهيمن على خشبة المسرح فى الحج هو ذاته المهيمن على الكون الواسع. وأقول بوضوح: لقد حاولت أن أسكب بحراً فى كوز! ففى كل مرة أذهب إلى الحج أحاول أن أعود لتقييم ما استوحيته من المرة السابقة، لكى تنضج رؤيتى. فأكتشف آفاقاً وعبراً جديدة

۱– الدكتور على شريعتى، الحج: ۵۸، ۱۱۵، ۲۵۰.

۲– ميعاد با إبراهيم: ۲۰۹.

ص: ۱۲۷

إنسان تبعاً لذوقه، ومشاعره، وروحيته، تسطع على مرآة روحه إشعاعات ماتفيضه المناسك من أنوار (۱).

وبالتالى ليس من الصواب أن يزعم أحد بأنه وعى كل مقاصد الحج، وتعرف على أهدافه وفلسفته بتمامها. وأنه ليس هناك معنى أومقصد سوى ماوعاه (۲).

الحج ليس ضريبة مالية على الثروة، وإنما هو فريضة كالصلاة.

ومدلول الاستطاعة هو القدرة، والفهم والحكمة، بنحو تدرك ماتفعله، والاستطاعة شرط عام لكل الممارسات الدينية المناطة بالإنسان إنّ اللاجدوى، واللامعنى، واللاهدف، والحيرة، والارتياب والشك، من أعقد المشكلات التى تعانى منها أعداد غفيرة من البشر منذ فجر التاريخ، والدور الأعظم للدين فى الحياة، أنه يحرر الإنسان من حيرته، وارتيابه، ويخلع معنى على مالامعنى له فى نظره، كما يضع أهدافاً عظمى للحياة، ويخلص البشر من الشعور بالعبث واللاجدوى. والحج أحد أهم الشعائر التى تبعث فى المسلم الحيوية والفاعلية، وترسخ القيم الفاضلة، والأهداف الخيرة فى حياته.

قبل أن يذهب المسلم إلى الحج يجب أن يكون مستطيعاً لأداء هذه الفريضة، والاستطاعة، كما يفهمها شريعتى، لاتعنى الثراء وامتلاك المال اللازم للسفر، ذلك أن الحج ليس ضريبة مالية على الثروة، وإنما هو فريضة كالصلاة. ومدلول الاستطاعة هو القدرة، والفهم والحكمة، بنحو تدرك ماتفعله، والاستطاعة شرط عام لكل الممارسات الدينية المناطة بالإنسان (۳).

ويختلط فى مفهوم عامة الناس الحج بالزيارة، فيفهمون الحج بأنه زيارة إلى بيت اللّه الحرام، غير أن صاحبنا يرفض هذا الفهم، باعتبار الزيارة تنتهى عادة عند المقصد والغاية، أما الحج فهو عملية ديناميكية، وحراك متواصل، وأشواق روحية، وسعى متوثب،

۱- المصدر السابق: ۲۴۶.

۲- المصدر السابق: ۲۰۹.

۳- المصدر السابق: ۱۴.

ص: ۱۲۸

وصيرورة تكاملية، لطى منازل ومقامات فى مدارج التكامل المعنوى، والارتقاء من مرتبة إلى أخرى.

الحج حركة دائبة، مستديمة، متوثبة، من منزل إلى منزل، يواكب فيها التسامى المعنوى الانتقال من مشعل إلى آخر. إن الحج يبدأ حيث يهبط المسلم فى الميقات ويباشر الإحرام، ويظل يتصاعد الحاج روحياً مع توالى أدائه للمناسك، ومكوثه فى المشاعر (۱).

ومن المزايا التى ينفرد بها الحج، أنه مؤتمر لا كالمؤتمرات المعروفة، فعادة ما يأتلف المؤتمر من جماعة تشترك فى مواصفات ترتبط بالموضوع الذى ينعقد هذا الاجتماع لأجله، وهى عادة ماتضم النخبة من ذوى الرأى. بينما الحج ملتقى واسع، يجمع مختلف أصناف المجتمع، وتسوده أعمال عبادية شاملة، ينخرط فيها كافة الحجاج، من دون نظر إلى أعراقهم، ومواقعهم الطبقية، ومستوياتهم الثقافية، ومراتبهم الاجتماعية والوظيفية. إن لقاءً بشرياً من هذا النوع لا تعرفه أية مؤتمرات أو ندوات أخرى، ولا تحصد مكاسبه الكثير من الملتقيات فى العالم (۲).

ويرجع شريعتى الحج إلى شكل من أشكال الهجرة. إنّه هجرة مزدوجة، فهو من جهة هجرة ذاتية أنفسية، يغادر فيها المسلم عالمه الخاص، أولاده، مقتنياته، منزله، ممتلكاته، كذلك يتحرّر من خطاياه، وموبقاته، ونوازع الشر، والأهواء فى نفسه، ويتطهر من الأحقاد، والأغلال، والكراهية. لابد أن يوفى كافة ديونه، والديون هنا لاتقتصر على الأموال المقترضة، وإنما تتجاوزها إلى انتهاكات حقوق الناس ومظالمهم، وهى الديون الأهم فى عنق الإنسان. هذه هى الهجرة الذاتية الأنفسية، وبموازاتها يهاجر الحاج هجرة أخرى فى عالم الإنسان، هجرة خارجية آفاقية، ليتعاطى مع الكثير من الناس، الذين يعاشرهم لأول مرة، ويتوغل فى عالمهم، وثقافاتهم، وتقاليدهم، وطبائعهم، ويتفاعل

۱- المصدر السابق: ۴۳۸.

۲- المصدر السابق: ۳۲۶.

ص: ۱۲۹

معهم، مكتشفاً آفاقاً متنوعةً، وخصائص عديدة، وظواهر مختلفة، في الاجتماع الإسلامي. إنها رحلة وهجرة في عمق الاجتماع الإسلامي، تسهم في إخصاب وعي المسلم، وتدمجه بمحيطه الثقافي والاجتماعي الشامل، وتقتلع من نفسه مشاعر الاغتراب (۱).

وتكتسب الهجرة مدلولًا خاصاً في الوعي التاريخي لشريعتي، ذلك أنّه يرتقي بها إلى مستوى القانون الفلسفي والاجتماعي، وإن «الهجرة عامل من عوامل التطور والتمدن طوال التاريخ، فمجموعة المدنيات السبع والعشرين

إن شعائر الحج هي مذكرات هاجر وإبراهيم، وملخص مافعلته هاجر هو الهجرة، والانتقال من مرحلة ماقبل الحضارة إلى الحضارة، وإن أية هجرة من نوع هجرتها هي حركة باتجاه الحضارة

في التاريخ التي نعرفها إلى الآن، كلها وليدة هجرات تمت من قبل، ولايوجد استثناء واحد لهذه القاعدة. ومن هذه الناحية لاتوجد قبيلة واحدة كانت بدائية، ثم تمكنت- صدفةً- أن تتحضر، وتغيرت ثقافتها، وأوجدت ثقافة جديدة متقدمة، من دون أن تتحرك وتهاجر من أرضها إلى أرض أخرى... فكل الحضارات في العالم، سواء كانت آخرها وأحدثها، وهي حضارة أمريكا الحديثة، أو أقدم الحضارات التي نعرفها، وهي الحضارة السومرية، إنما وجدت كلها على أثر هجرات، مما يعني أن المجتمع البدائي ظل بدائياً طيلة بقائه في أرضه، وتمكن أن يتحضر، وتغيرت حالته جذرياً، بعدما هاجر إلى أرض ثانية وأقام فيها. كل الحضارات كانت وليدة هجرة المجتمعات البدائية» (۲).

وتحليل مضمون الحج على أنه نوع من الهجرة، يعني أن للحج وظيفة تمدينية حضارية، مثلما هي الهجرة ودورها في صناعة الحضارة في التاريخ.

إن شعائر الحج هي مذكرات هاجر وإبراهيم، وملخص مافعلته

۱- المصدر السابق: ۴۳۸- ۴۳۹، والآثار الكاملة ۱۷: ۶۷.

۲- الدكتور علي شريعتي. منهج معرفة الإسلام. في كتاب: هكذا تكلم علي شريعتي. فاضل رسول: ۱۵۶.

ص: ١٣٠

هاجر هو الهجرة، والانتقال من مرحلة ماقبل الحضارة إلى الحضارة، وإن أية هجرة من نوع هجرتها هى حركة باتجاه الحضارة (١).
ويكرّس شريعتى عدته المعرفية، وثقافته المتنوعة، ومفهوماته الخاصة لموضوع «الهجرة» وغيره، كأدوات تفسيرية لأعمال الحاج، ومايؤديه فى مناسكه من ممارسات، ومايمتنع عنه من محظورات، بحيث تغدو هذه الممارسات نحواً من الهجرة الأنفسية الآفاقية عند الفحص والتدبر.

الحج خلاصة دعوة إبراهيم ومعاناة هاجر

يحشد شريعتى تحليلات مفصلة لكل منسك من مناسك الحج، مواكباً رحلة الحاج، منذ أن يتأهب من منزله مستعداً لهذه الرحلة المباركة، استجابةً لنداء إبراهيم عليه السلام، حتى يعود إلى أهله.
فى الميقات، يخلع الحاج لباسه، ويرتدى ثياباً هى بمثابة الكفن، فى لونها ومواصفاتها. وهنا يتكشف الوجه الآخر للوظيفة الرمزية للباس فى حياة الإنسان، وما تشير إليه الأزياء، فى ألوانها، وتشكيلاتها، وتصاميمها المتنوعة. فلا يقتصر دور اللباس على الستر، والزينة، وحماية الإنسان من المؤثرات المناخية، كالحر والبرد والرياح، وإنما ترمز أزياء الناس إلى مكانتهم، وطبقتهم، وموقعهم، وتشير إلى وجهة تفكيرهم، وما يميزهم عن سواهم، فى معظم المجتمعات. اللباس يكرس

١- الحج: ١٠٢.

ص: ۱۳۱

«الأنا» ويشى بالمختلف. أما الإحرام الذى يرتديه كل حاج، ويخضع لشروط صارمة تضبط بساطته، وتنفى عنه أية زخارف، أو ألوان، وأشكال، فهو تدريب عملى لتربية الإنسان المسلم على تجاوز ثنائية:

السيد والعبد، والقوى والضعيف، والشريف والوضيع، والمتحضر والبدوى، والعربى والأعجمى، والشرقى والغربى، والغنى والفقير، والمتخم والجائع.

إن التجرد من الثياب فى الميقات، يتضمن- فيما يرمز إليه- هتك الأقنعة، التى تختفى وراءها جملة من نزعات الكراهية، الكامنة لدى الإنسان. إنه تجرد من قناع الوحشية، والمكر، والخديعة، والخنوع، والذلة، والجبن، والهوان. وسائر منابع الشر والعدوان. وكأن لحظة الميقات لحظة يولد فيها الإنسان من جديد. وقتئذ تتجلى الذات على حقيقتها، متحررة من الأعراف والتقاليد، ومن سائر الأسماء والألقاب، التى تضج بها الحياة، وتغطى الأشخاص بطبقات

إن التجرد من الثياب فى الميقات، يتضمن- فيما يرمز إليه- هتك الأقنعة، التى تختفى وراءها جملة من نزعات الكراهية، الكامنة لدى الإنسان

وحجب، شديدة الكثافة، تستر على حقيقة الإنسان (۱).

ثم يردد الحاج التلبية بعد ارتداء الإحرام (

لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك

). والتلبية تتضمن اعترافاً وإقراراً بالتوحيد، ونبذاً للشرك بكافة أنواعه، فالشرك منبع اغتراب الإنسان فى العالم، والشرك يمسخ الإنسان، ويكرس استلابه، ويبرر الانقسامات، والصراعات، والتمييز العنصرى. ذلك «أن الاعتقاد بتعددية الآلهة، يبرر تعددية المخلوقات، ويسوغ تقديس بعضها، ويصورها كأنها حقائق خالدة أبدية. وإن الاعتقاد بوجود تناقض بين الآلهة، يصور الصراعات والتناقضات فى الحياة بمثابة أمر طبيعى وإلهى. بينما

۱- الحج: ۷۵- ۷۷، ۱۲۱.

ص: ۱۳۲

التوحيد الذی يعنی رفض كل أشكال الشرك، ينظر إلی كلّ ذرة وظاهرة فی الوجود علی أنها تندرج فی حركة متسقة باتجاه هدف واحد» (۱).

إنّ التلبية فاعلية جوّانية، يفصح عنها اللسان، بهذه الصيغة، بغية تطهير جوانح الإنسان من كافة ألوان الشرك، وتعميق التوحيد فی وجدانه.

أمّا الكعبة الشريفة، فيشتق لها شريعتی أسماء، يستنبط شيئاً منها من القرآن الكريم، وماورد من أوصاف لها فی المأثور. إذ يسميها تارة «بيت الناس» استناداً إلی قوله تعالی:

«إن أول بيت وضع للناس للذی ببكة مباركاً وهدی للعالمين» (۲)

. فالناس ككل هم ممثلو اللَّه وعياله. والقرآن يبدأ باسم اللَّه وينتهی

إنّ هجرة إبراهيم، ورحلته الطويلة مابين بلاد الرافدين وفلسطين ومكة، كانت هجرة تمدينية، تهدف إلی إرساء قواعد ومعالم شاخصة للحضارة، ومحطات يأوی إليها الناس، حين تضيق الأرض عليهم

باسم الناس. والكعبة «بيت اللَّه»، ولكن يطلق القرآن عليها اسم «بيت الناس» أيضاً. ويعتقد شريعتی أن الآيات القرآنية التی نسبت الملكية إلی اللَّه «

إن تقرضوا اللَّه قرضاً حسناً» (۳)

، المقصود من كلمة اللَّه فيها هو الناس، وإلّا فما حاجته إلی المال؟

وفی حالات متعددة يمكننا وضع كلمة اللَّه حيثما كانت كلمة الناس أوالعكس. ومع ذلك تبقی الآية مفهومة وصحيحة (۴)، وهكذا يتحد سبيل اللَّه مع سبيل الناس، بمعنی أنه لكی تقترب من اللَّه عليك أن تقترب أولًا من الناس. وأن الوصول إلی اللَّه إنما يجری من خلال نفع الناس «خير الناس من نفع الناس» وخدمة الناس (۵).

وعندما بنی إبراهيم الكعبة، أرادها أن تكون بيتاً لمن لا بيت لهم، ومأوی لكل الذين لامأوی لهم، هی مظلة لمن تعرض للطرد والنفی. هی ملاذ للمعذبين والمستضعفين فی الأرض، وملجأ للمشردين. إنّها مصباح يضیء فی ظلام الطغيان الذی

۱- الدكتور علی شريعتی. الرؤية التوحيدية للعالم. فی كتاب: هكذا تكلم شريعتی. فاضل رسول: ۱۷۰.

۲- سورة آل عمران: ۹۶.

۳- سورة التغابن: ۱۷.

۴- فاضل رسول. مصدر سابق: ۳۷، ۱۴۰.

۵- الحج: ۱۰۴، ۱۰۷.

ص: ۱۳۳

يعانيه من اتخذوا إبراهيم أسوة لهم.

لقد عانى إبراهيم التشريد من قبل، بعد أن حطم الأوثان، وأراد أن يحرر الناس من عبوديتها، وعبودية النمرود. ثم طاف الأرض باحثاً عن الحريّة، ومحاولًا أن يبنى للناس بيتاً لتحريرهم، بديلًا عن معابد الأصنام، التى تشيع الشرک، والذى هو أبرز رافد تستقى منه عبودية الإنسان للآلهة المزيفة. إن هجرة إبراهيم، ورحلته الطويلة مابين بلاد الرافدين وفلسطين ومكة، كانت هجرة تمدينية، تهدف إلى إرساء قواعد ومعالم شاخصة للحضارة، ومحطات يأوى إليها الناس، حين تضيق الأرض عليهم (۱).

إن شريعتى يشدد على اشتقاق معنى «التحرير» من وصف البيت ب «العتيق»، فيغدو بيتاً يفيض الحرية على الوافدين إليه، ذلک أن «العتق» هو «التحرير» (۲).

ففى البيت العتيق يتساوى الحر والعبد، والأبيض والأسود، والعربى والأعجمى، وتتلاشى كافة الأسماء، والألقاب، والعناوين، والأعراق، وكل مايميز الناس، ويصنفهم إلى طبقات، ومراتب، ودرجات.

الكعبة بمثابة بوصلة تحدد وجهة السير، وترسم الاتجاه الذى ينبغى أن يسعى الجميع نحوه. إنها ((القبلة)) التى تشكل محور اللقاء، وتشير إلى الهدف الشامل للمسلمين بأسرهم (۳). هى كالشمس فى المركز، والناس كالأجرام تسبح حولها. الكعبة ترمز لخلود اللّه ودوامه، وحركة الطائفين الدائرية تمثل النشاط الدائم، والسعى المتواصل، والحركة المستمرة. الكل يتمحورون حول الكعبة كشخصية معنوية واحدة، توحد غاياتهم، وتضىء لهم دروب الحياة، وتحذرهم من مزالق الطريق ومنعرجاته، بينما خارج محيط الكعبة يتشرذم الناس، وتصبح لكل منهم وجهة هو موليها (۴).

وطوافهم حول البيت هو معراج يلتحمون فيه ويندمجون، هو معراج من أجل الناس، والحركة الأبدية باتجاه الحق، وفى طريق الخير العام. وكأن الطواف نهر يفيض بالحب والخير للبشرية كافة. هو استئناف

۱- المصدر السابق: ۱۲۴- ۱۲۵.

۲- المصدر السابق: ۹۷.

۳- المصدر السابق: ۱۴۵- ۱۴۶.

۴- المصدر السابق: ۱۰۳- ۱۰۴، ۱۰۶.

ص: ۱۳۴

لمسيرة إبراهيم رائد الحب والخير والحرية (۱).

يقول شريعتى: «فى العام الماضى حين كنت أطوف فى شدة الزحام، تعرضت مراراً لتدافع شديد، فثرت منفعلًا، غاضباً من هذا السلوك. غير أنى شعرت بالأسى والندم، ذلك أن الإنسان فى هذه الحالة ينبغى أن ينسلخ من الأنا والذات، بينما ما زالت الأنا غاطسة فى داخلى)) (۲).

الطواف والسعى خلاصة شديدة لهجرة هاجر، ورحلتها الشاقة المضنية من أجل تشييد قواعد التوحيد. اختار اللّه تعالى هاجر الأَمَة، التى تقع فى أدنى سلم الألقاب والمقامات، ومايسبغه الناس من تسميات وعناوين، تصنف المجتمع إلى طبقات ومراتب. اختارها لمهمة ربانية، تعد من أعظم المهمات فى مسار النبوة. وفى ذلك دلالة صريحة على أن منظومة القيم والمعايير الربانية، لاتتطابق مع ماينشده الناس، ويتواضعون على تبنّيه فى حياتهم. وتظل البشرية عبر الأجيال تقتفى خطى هاجر، وتكرّر مسعاها.

وتبقى أطياف هاجر، وظلالها، وأنفاسها، وزفراتها، يتردد صداها على الدوام.

ففى السعى يترسم الحاج درب هاجر، ويستلهم تجربتها، ويحرص على استئناف مسيرتها، ومحاكاتها بحذافيرها. السعى الذى يحكى ظمأ هاجر، هو تعبير عن ظمأ البشرية الأبدى للإيمان والحق، والعدل، والإحسان، والصدق، والحكمة، والحرية، والأمن، والجمال، والإيثار، والفداء، والحب، والتواضع، وكل قيم الخير والفضيلة. وافتقار البشرية إلى هذه القيم، واضمحلالها يعنى انحطاطها وتفسخ مجتمعاتها. والسعى ممارسة، وإعداد تربوى، وتدريب عملى على تجذير هذه القيم، وتنميتها، وترسيخها.

لقد عالج شريعتى كافّة مايؤديه الحاج من شعائر، برؤية تتداخل فيها العقلية التحليلية الناقدة، ومخيلة الفنان، وأحاسيس الشاعر، وذوق المتصوف، وأشواق العارف، فاستغرق فى تحليلات شتى، قد لا

۱- المصدر السابق: ۱۱۷، ۱۲۰، ۱۲۵.

۲- ميعاد با إبراهيم موعد مع إبراهيم: ۴۳۸

ص: ۱۳۵

نلتفت إليها في نظرة سريعة خاطفة، أو ملاحظة عامة ساذجة.

إلّا إنه راح يغرقنا أحياناً في تفسير إشاري باطني، لا يلامس وعي وإدراك عامة الناس، ويعمد إلى استخدام مختلف الأدوات، المنتقاة من العلوم الإنسانية الحديثة، فضلًا عن خبرته، وذوقه الخاص، من أجل تأويله الرمزي للحج ومناسكه.

وبالتالي تبقى رؤيته معبرة عن تجربته الخاصة، وهي لا تعبر بالضرورة عما سواه. ذلك أن لكل تجربة شروطها، وظروفها، والعناصر المكوّنة لها، والمنابع التي تستقي منها. فقد تشترك التجارب الروحية في قواسم عامة، لكنها لن تتطابق.

دعاء

فيما يلي مقتطفات من دعاء بصياغة شريعتي، تتجلى فيه بوضوح أحلامه ومايطمح إليه من قيم وأخلاقيات، وما ينشده من نزعات معنوية وإنسانية ينبغي أن تسود الاجتماع الإسلامي:

إلهي: صن «عقيدتي» من «عقدتي».

إلهي: مكني من احتمال العقيدة المخالفة.

إلهي: هبني إيمان ((الطاعة المطلقة)) لك، لكي أخوض عالم العصيان المطلق.

إلهي: أججٍ فيّ نار ((الشك)) المقدسة، حتّى إذا أحرقت كل ((يقين)) نقشوه في داخلي، تشرق البسمة الحنون على شفتي فجر اليقين الذي لاغبار عليه.

إلهي: قل للماديين: إن الإنسان ليس بشجرة تحيا من غير وعي منها في الطبيعة والتاريخ والمجتمع.

إلهي: علم مجتمعي بأن السبيل إليك، إنما يكون من الأرض، واهدني يا إلهي، إلى السبيل الذي يختصر المسافات.

إلهي: علم المتدينين بأن الإنسان من تراب، وأن ظاهرةً من مادة تفسر اللّه بقدر ظاهرة من غيب. فلله وجود في الدنيا يساوي وجوده في الآخرة.

لقنهم أن الدين إن لم يسبق الموت فلا

ص: ۱۳۶

معنی له ولافائدة فیه بعد الموت.

یا رب:

هب روح المسؤولیة للعلماء، والعلم للجاهلین، والنور للمؤمنین، والإیمان للمفکرین، والتفهم للمتعصبین، والتعصب للفاهمین، والحس للنساء، والشرف للرجال، والوعی للشیوخ، والأصالة للشباب، والعقیدة للمربین، والیقظة للغافلین، والإرادة للمتیقظین.

هب الحقیقة للدعاة والمبلغین، والدین للمتدینین، والالتزام للکتّاب، والمعاناة للفنانین، والشعور للشعراء، والأمل للیائسین، والقوة للضعفاء، والجرأة للمحافظین المترددین، والقیام للقاعدین، والحرکة للراکدین، والحیاة للأموات، والبصر للعمیان، والصحة للمعاقین، والصراخ للصامتین، والقرآن للمسلمین.

یارب:

هب الوحدة لدیننا، والشفاء لحسّادنا، والموضوعیة للأنانیین والمغرورین منا، والأدب للسبابین منا، والصبر للمجاهدین، والوعی لعامة الناس، وهب للأمة: الهمة والتصمیم والاستعداد للفداء من أجل التحرر والکرامة.

یارب:

اهدنی کی أقیم مجتمعی علی هذه القواعد الثلاث: الکتاب، والمیزان، والحدید، اللهم اجعل قلبی فیاضاً بالحق والخیر والجمال. اللهم زدنی إرادةً، وعلماً، وتمرداً، وغناً، وحیرةً، ووحدةً، وفداءً، وشفافیة روح.

الهوامش

ص: ۱۳۷

الحج والحجاج فى كتب المستشرقين

اشارة

خالد الطويلى

بدأ اهتمام الغرب ببلاد العرب منذ القرن الخامس قبل الميلاد فى كتب هيرودوتس وثيوفرست تلميذ أرسطو، ولاحقاً فى القرنين الأول والثانى للميلاد عند الجغرافى اليونانى سترابون، والمؤرخ الرومانى بلينى. بعد ذلك لم يضف الكثير على ما كتب آنذاك، حتى جاء القرن الخامس عشر الميلادى وبدأ تدفق الرحّالة الأوروبيين إلى الجزيرة العربية.

بقيت مكة المكرمة منذ نشأتها- وعلى مرّ العصور- مجهولة الملامح لغير العرب الذين كانوا يحجون إليها، وعصية على الغزو الأجنبى رغم محاولات أباطرة الروم وملوك فارس فى حقب مختلفة، وكان عدم توافر معلومات واضحة عن الصحارى العربية من أهم الأسباب التى أحبطت أولئك الغزاة الذين راودتهم فكرة الغزو.

وخلال حقبة انتشار الإسلام فى أوروبا، تفاقم ذلك الغموض الذى كان يحيط بمكة المكرمة وبالمدينة النبوية خصوصاً بالنسبة إلى أولئك الذين أرادوا معرفة ما يمكن عن منشأ الإسلام الذى ساق الجيوش إلى ديارهم. ولأنهم كانوا ممنوعين من دخولها، ولبعد المسافة ومشقة السفر وخطورة المغامرة، تمكنت المدينتان من الاحتفاظ بأسرارهما وغموضهما عبر كل ذلك التاريخ المتقلّب، وبقى

ص: ۱۳۹

حب المعرفة يدغدغ فضول المهتمين لاختراق حاجز سريتها ضـمن مناطق جغرافية أخرى فى المشرق اهتم بها تيار فكرى غربى سمى بالاستشـراق. وبتنوع خلفيات هؤلاء المهتمين وأهدافهم وتوجهاتهم وسـبلهم ظل الحج الوسيلة الأمثل لتغلغلهم إلى داخل هذا المجتمع المنغلق أمامهم. أتقنوا اللغة العربية وانتحلوا شخصيات إسلامية فى سبيل هذه المعلومات رغم المخاطر التى كانت تحيط بهذا النوع من التسـلل الـذى أثار- حسب روايات بعضـهم- ريبـة أهل البلـد وكاد يجلب الهلاك لهم، ولم يكن الفضول وحسب هو الـذى أتى بهم جميعاً، فقـد كان منهم الرحالة المستشـرقون، وكان منهم الجواسـيس، ومنهم من ساقتهم ظروف مختلفة كالعبودية وخلافها إلى الحج. وقـد عرفنا منهم من تسـنَّت له العودة إلى بلده من دون أن يهلك وأن ينشـر مذكراته عن تلك الرحلات، ومنهم الكثير ممن لم تصـلنا أخبارهم.

ولبعد المسافة ومشـقة السفر وخطورة المغامرة، تمكنت المدينتان من الاحتفاظ بأسرارهما وغموضهما عبر كل ذلك التاريخ المتقلّب، وبقى حب المعرفة يدغدغ فضول المهتمين لاختراق حاجز سـريتها ضـمن مناطق جغرافية أخرى فى المشرق اهتم بها تيار فكرى غربى سمى بالاستشراق.

وبتنوع خلفيـات هؤلاـء المهتمين وأهـدافهم وتوجهـاتهم وسـبلهم ظـل الحـج الوسـيلة الأمثل لتغلغلهم إلى داخل هـذا المجتمع المنغلق أمامهم. أتقنوا اللغة العربية وانتحلوا شخصيات إسلامية فى سبيل هذه المعلومات رغم المخاطر التى كانت تحيط بهذا النوع من التسلل بدأ تدفق الرحالة المستشـرقين إلى المنطقة خلال القرن الخامس عشـر الميلادى فى إطار لايمكن عزله عن التطورات الدولية السياسـية والعسكرية.

وكانت كتاباتهم عنها متباينـة من حيث الالتزام بالموضوعيـة والحياد، ولكنها كانت تعكس اهتمام الأوروبيين المتزايـد بالشـرق عنـدما بدأت البوادر الأولى للصراع من

ص: ۱۴۰

أجل السیطرة والتوسع، والذی بدأته إسبانیا والبرتغال، ثم هولندا وفرنسا وبریطانیا بوصفها قوی بحریة استطاعت الوصول إلی الشرق العربی والجزیرة العربیة.

طلائعهم: ممالیک أو فی لباسهم

کان أول من ادّعی الوصول إلی مکة المکرمة من المستشرقین جون کابوت عام ۱۴۸۰ م. أی قبل ۱۲ عاماً من سقوط الأندلس واکتشاف أمریکا، ولکن لم یصل إلینا أی شیء مما کتب عن تلک الرحلة. أما أول سجلّ وصلنا حول رحلة مستشرق إلی الحج فکان حول رجل إیطالی یدعی لودفیجودی فارتیما عام ۱۵۰۳ م، دخلها بوصفه جندیاً فی حرس الممالیک وانتحل لنفسه اسم «یونس المصری»، ویبدو أن تقمص شخصیة المملوک لفارتیما وغیره- کما سیأتی ذکره لاحقاً- کانت أکثر سهولة، کون کثیر من الممالیک کانوا من المسیحیین الذین اعتنقوا الإسلام.

ص: ۱۴۱

أبحر فارتیما من البندقیة عام ۱۵۰۳ م، وزار کلًا من الاسکندریة وطرابلس وأنطاکیة وبیروت ودمشق، وسارع منذ وصوله دمشق، إلی تعلّم اللغة العربیة، واستعدّ لاستئناف الرحلة جنوباً، ثمّ أمّن لنفسه مکاناً فی القافلة الذاهبة إلی مکة المکرمة، بعد أن عمل علی عقد عُری الصداقة مع أحد زعماء الممالیک الذی عیّنه حارساً من حرّاس القافلة.

وفی الثامن من أبریل ۱۵۰۳ م تحرّک فارتیما إلی مکة المکرمة بزی جندی مملوک، وحینما وصل إلی المدینة بقی فیها ثلاثة أیام، ودخل الحرم الشریف، الذی یصفه وصفاً موجزاً، فیقول: «إنه مسجد مقبّب یدخل إلیه من بابین کبیرین، ویحمل سقفه حوالی أربعمائة عمود من الآجر الأبیض، وفیه عدد کبیر من المصابیح المعلّقة- الثریّات- یناهز الثلاثة آلاف»، ویشیر إلی وجود عدد من الکتب، فی جهة من جهات المسجد التی تحتوی علی تعالیم الدین الإسلامی.

وینتهز فارتیما الفرصة لتصحیح الاعتقاد الشائع فی أوروبا آنذاک من أن جثمان النبی محمّد صلی الله علیه و آله معلّق فی الفضاء، فیقول: «أما بخصوص هذه الأخبار فأنا أخالفها تماماً، وأؤکّد أن هذا لیس صحیحاً». ویذکر فی الفصل الذی یتطرّق فیه إلی مکة المکرمة وتشییدها وإنشائها أنها مدینة جمیلة تکتظ بالسکان، لأنّها تحتوی علی ستة آلاف أسرة. ودورها حسنة للغایة، «مثل دور الإیطالیین»، علی حد تعبیره، ویذکر کذلک أن مکة المکرمة لم تکن مسوّرة، لأن أسوارها هی الجبال الطبیعیة التی تحیط بها، ولها أربعة مداخل. وقد اندهش فارتیما من کثرة الحجاج الهائلة وتعدد جنسیاتهم وقومیاتهم، ممّا دفعه للقول: إنّه لم یجد مطلقاً، من قبل، مثل هذا العدد من الناس یجتمع فی بقعة واحدة من الأرض.

ویمضی الرحالة فی نقل انطباعاته ومشاهداته، فیذکر فی الفصل المخصص للحج من رحلته أن مرکز مکة المکرمة یوجد فیه «معبد» جمیل جداً، علی حدّ

ص: ۱۴۲

تعبیره، مبنی من اللبن المشوی، وللمسجد الحرام- أو المعبد کما یسمیه- مئة باب، ثم یشیر إلی وجود الکعبة الشریفة فی الوسط من دون أن یذکر اسمها، ثم یصف بئر زمزم قائلًا: «إن ستة أو سبعة رجال یقفون عادة حول البئر لیستقوا الماء للناس منها. وهؤلاء یریقون ثلاثة أسطل من ماء زمزم فوق کل حاج من الحجاج، فیتبلل به من قمّة الرأس إلی أخمص القدم، ولوکان لباسه من حریر».

ویظل القرن السادس عشر الذی کاد یطبع بصبغة برتغالیة، شاهداً علی محاولات أخری، علی هذا الصعید وفی السیاق نفسه. ففی یولیو ۱۵۶۵ م حجّ إلی مکة المکرمة مملوک برتغالی الأصل مجهول الاسم. فکتب وصفاً دقیقاً عنها. رغم اختصاره واقتضاب ما جاء فیه. وقد اکتشف ماکتبه هذا المملوک فی حاشیة کتاب عربی موجود فی مکتبة الفاتیکان برقم ۲۱۷.

وفی الوقت نفسه تقریباً. وصل إلی مکة المکرمة رجل ألمانی یسمی هانس وایلد کان الأتراک قد أخذوه أسیراً فی هنغاریا، وسیق إلی مکة المکرمة، فلم یعد إلی ألمانیا إلّاسنة ۱۶۱۱ م. وبعده بسنوات قلیلة أسر فتیً بندقی یدعی مارکو دی لومباردو وهو یعبر البحر الأبیض المتوسط بصحبة عمّه القبطان، فبُعث به إلی مکة المکرمة من مصر مصاحباً لابن سیده. وقد دوّن أشیاء طریفة عن سفرته.

أما جوزیف بیتس فهو شاب انجلیزی یافع من أهالی أوکسفورد، وقصته طریفة وغیر عادیة. فقد کان هذا البریطانی شدید التعلّق بالبحر، وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره التحق بسفینة کانت متوجهة إلی أمریکا عام ۱۶۷۸ م، وفی طریق العودة. علی مقربة من الشواطیء الإسبانیة، هاجم قراصنة جزائریون السفینة وأسروا أعضاء الطاقم ونقلوهم إلی العاصمة الجزائریة، حیث بیعوا فی السوق عبیداً.

قام بیتس برفقة سیده الجزائری بالحج إلی مکة والمدینة فی أواخر القرن السابع عشر. ثم تمکّن من الفرار، ونشر قصة رحلته تلک فی بریطانیا سنة

ص: ۱۴۳

۱۷۰۴ م، وهی قصة فیها بعض الأخطاء والمبالغات الشائعة فی الکتب المعاصرة له. ولکن الکتاب وعنوانه «وصف أمین لدیانة وأخلاق المحمـدیین» اجتـذب اهتمامـاً کبیراً. فقـد کـان بیتس من أوائل الإنجلیز الـذین دخلوا شـبه الجزیرة العربیـة ووصـفوا شـعبها، والأماکن المقدسـة فیها، وشـعائر الحـج فی مکـة، وقد زار کذلک قبر النبی صـلی الله علیه و آله، ونفی کما فعل فارتیما من قبله حکایة أن القبر معلّق فی الهواء، ویبدو أن هذه القصة کانت شائعة فی أوروبا عن الجسد الشریف حتی أتی علی نفیها أکثر من رحالة.

ویمضـی بیتس فی وصف قافلـة الحجاج، وهو ینتقل بمعیّة سـیده من القاهرة إلی السویس، ومنها إلی مرفأ صـغیر بین ینبع وجدة، ومن هناک اسـتخدما الجمال للوصول إلی مکـة المکرمـة ودامت إقامتهما هناک شـهرین، وکان بیتس یرافق معلمه کل یوم فی جولة حول المدینة، ویسجّل فی ذهنه صور المبانی وعادات الأهالی الدینیة. وکان الجهد الذی بذله لتسجیل کل هذه التفاصیل ممیزاً.

ویقدم بیتس انطباعاته حول مکة المکرمة، فیقول: إنه لم یجد فیها شـیئاً مثیراً أو مبهجاً. ولم یعجبه سـکان مکة أیضاً، فهم فقراء میالون إلی النحافـة والهزال، ثم استرعی انتباهه «المتصوفون (الـدراویش) الـذین یعیشون حیاة الزهـد والتنسّک ویسافرون من أدنی البلاد إلی أقصاها، وهم یعیشون علی صدقات الآخرین، یلبس الواحد منهم قفطاناً أبیض وقبعة طویلة بیضاء وعلی ظهر الواحد منهم جلد ضأن أو ماعز یرقد علیه، وفی یده یحمل عصا طویلة».

ویـذکر- خلاـل وصـفه للحـج ومناسـکه- أن سـلطان مکـة یقوم شخصـیاً بغسل الکعبـة بماء زمزم، ثم بالماء المطیّب المعطّر. «وحینما یقومون بهذه العملیة ترفع السلالم التی تؤدّی إلی بیت اللّه، ولذلک یحتشد الناس تحت الباب لیدفع ماء الغسیل

ص: ۱۴۴

عليهم حتى يتبللوا به من الرأس إلى القدم. ثم تقطع المكانس التى يكنس بها البيت قطعاً صغيرة، وترمى عليهم فيتلاقفونها، ومن يفز بقطعة منها يحتفظ بها كأثر».

ويضيف: «إنّ مكة كان فيها ماء كثير، لكنها خالية من العشب والزرع إلا فى بعض الأماكن». على أنه وجد فيها عدّة أنواع من الفاكهة متوافرة للناس مثل العنب والبطيخ والخيار والقرع وما أشبه. وهذه يُؤتى بها فى العادة من مكان يقع على مسيرة يومين أو ثلاثة ربما قصد به الطائف.

الرحلات المحضّرة بعناية

وفى عام ۱۸۰۷ م وصل الحجاز رجل إسبانى الأصل يُدعى دومنيكو باديا أى ليبليج، لينتحل اسماً ونسباً عربياً «على بك العبّاسى»، وقد تضاربت الآراء فى حقيقة هذا الرجل، فقد يكون عميلًا للفرنسيين أو البرتغاليين أو ربّما الإنجليز.

وهناك من يذهب إلى أنه كان جاسوساً لسلطان مصر محمد على باشا، الذى كان يجهّز لحملة على الحجاز. على كل، فإن على بك العباسى كان أول أوروبى احتك بالناس عن قرب من موقع لم يثر حساسيتهم. وكان لادعائه النسب العباسى، وتأكيده لشريف مكة بأنه كان واحداً من عائلتهم الوجه الذى دخل به قلوب الناس.

سعى على بك إلى توخى الدقّة فى كتاباته. فهو يصف بالتفصيل الأروقة المعمدة والقباب والمآذن فى المسجد الحرام، ويخبرنا عن الأماكن المبلّطة والأماكن ذات الأرض الرملية. ويميّز الأمكنة التى تخص أتباع كل مذهب من المذاهب الأربعة فى أرجاء الحرم. ويأتى بعد ذلك على إيراد تفاصيل أخرى عن مناسك الحج، فيُحدّث قرّاءه عن رمى الجمرات ويشرح رمزيتها.

ولم يكتف على بك بزيارته الأولى، فغادر دمشق عام ۱۸۱۸ م، متجهاً إلى

ص: ۱۴۵

زيارة مكـة المكرمـة للمرة الثانية ولكنه توفى على الطريق، وتقول التقارير البريطانية: إن وفاته كانت بسـبب مرض الديزنتاريا. فى حين أن التقارير الفرنسية تؤكد بأنه قتل مسموماً من قبل البريطانيين.

بقى أن نشـير إلى أن رحلات على بك قـد طبعت بالإنجليزيـة عام ۱۸۱۶ م، تحت عنـوان «رحلات على بـك فى المغرب وطرابلس وقبرص ومصر والجزيرة العربية وسوريا وتركيا ۱۸۰۳- ۱۸۰۷ م»، وأعيد طبعها فى لندن عام ۱۹۹۳ م.

أما الرحالة الثانى الذى قام بمهمّة مشابهة، فهو الألمانى أولريخ سيتزن.

غير أن المعلومات عنه موجزة جـداً. ولـد عام ۱۷۶۷ م، ونجهل الكثير عن نشأته وحياته، وكل ما نعرفه أنه قضـى عشـرين سـنة يـدرس ويتأهّب لرحلته إلى الشرق. فجاء إلى سوريا سنة ۱۸۰۵ م وأقام فيها بضع سنين، وكتب فى رحلته كتاباً قيّماً باللغة الألمانية قبل أن يعلن إسلامه ويتوجه إلى أداء فريضة الحج.

فسافر إلى الحجاز، فى زىّ درويش اسمه «الحاج موسى»، ودخل مكة حاجاً سنة ۱۸۱۰ م.

وزار الحجاز عـدد آخر من الأوروبيين الرحالـة بعـد ذلك. وقـد كانت حملـة الخديوى محمد على باشا على الحجاز، سـبباً فى دخول عـدد من الأوروبيين مع الجيوش المصـرية إلى الأراضـى المقدّسـة وزيارتهم مكـة والمدينـة، ومنهم السويسـرى بيركهارت، والإيطالى فيناتى، والجندى الأسكتلندى توماس.

أما فيناتى، فهو رجل من أهالى فيرارا فى إيطاليا، وقـد قـدّر له بعـد مغامرات عـدة، أن يحـجّ إلى مكة المكرّمة فى ۱۸۱۴ م، وقد اتخذ محمداً اسماً. كل مالدينا من معلومات عنه، أنه سيق إلى الجندية فى بلدته سنة ۱۸۰۵ م. ففرّ منها إلى ألبانيا، وعمل عند أحد الباشوات الأتراك فيها، واعتنق الإسلام.

ص: ۱۴۶

ثمّ توجّه إلی اسطنبول، وبعد مغامرات وتقلبات عدّة وصل إلی القاهرة فی عام ۱۸۰۹ م، وانخرط فی سلک الحرس الألبانی. ثم فرّ من الجندیة عام ۱۸۱۴ م وتوجه إلی مکة المکرمة، فحجّ فیها. وکتب عن ما شاهده بالتفصیل، ومنه قوله:

«ولمّا کنت مسروراً لنجاحی فی الفرار، کنت فی وضع فکری یتقبّل الکثیر من الانطباعات القویّة. ولذلک تأثرت کثیراً بجمیع ما رأیت عندما دخلت البلدة (یقصد مکة)، لأنّها وان لم تکن واسعة ولا جمیلة بحدّ ذاتها، فقد کان فیها شیء یبعث علی الرهبة والاندهاش. وکان ذلک یلاحظ علی الأخصّ عند الظهیرة، حینما یهدأ کل شیء تمام الهدوء، إلا المؤذّن الذی یدعو الناس إلی الصلاة من فوق المأذنة».

وفی الوقت الذی کان فیه فیناتی یقوم برحلة الحج إلی مکة، کان هناک مستشرق آخر یُعدّ من أشهر رحالی القرن التاسع عشر وأغزرهم علماً وثقافة وأبعدهم صیتاً وشهرة، یشارک فی موسم الحج ذاته، متخفیاً تحت اسم مستعار وهو «الشیخ إبراهیم».. ذلک هو الرحالة السویسری جون لویس بیرکهارت

ویمضی فیناتی فی وصف البیت الحرام والکعبة معلقاً علی ازدحام الناس فی مکة، وکثرة الحجّاج فیها فیقول: «وصلت إلی مکة، منذ أن أتیتُ إلیها، قافلتان کبیرتان، إحداهما من آسیا والأخری من إفریقیا، یبلغ عدد القادمین فیهما حوالی أربعین ألف شخص، کان یبدو علیهم کلهم مقدار ما یکنّونه فی نفوسهم من الاحترام والتقدیس للبیت الحرام».

عصر کبار المستشرقین

وفی الوقت الذی کان فیه فیناتی یقوم برحلة الحج إلی مکة، کان هناک مستشرق آخر یُعدّ من أشهر رحالی القرن التاسع عشر وأغزرهم علماً وثقافة وأبعدهم صیتاً وشهرة، یشارک فی موسم الحج ذاته، متخفیاً تحت اسم مستعار

ص: ۱۴۷

وهو «الشيخ إبراهيم».. ذلك هو الرحالة السويسرى جون لويس بيركهارت الذى نزل فى جدة فى الثامن عشر من يوليو ۱۸۱۴ م. وسار منها إلى الطائف لمقابلة الخديوى محمد على باشا، ثم قصد مكة المكرمة لأداء فريضة الحج.

قبل أن يرحل بيركهارت إلى الحج، قرر أن يعدّ نفسه إعداداً كافياً لتلك الحياة المليئة بالمصاعب والاختبارات والمحن التى تنتظره. فالتحق بجامعة كمبردج عام ۱۸۰۸ م لدراسة اللغة العربية والطب وعلم الفلك وعلوم أخرى. ثم قصد حلب حيث قرأ القرآن وتفقه فى الدين الإسلامى، ثم اعتنقه عام ۱۸۰۹ م وتسمّى بإبراهيم بن عبداللّه، وراح يعوّد نفسه على الحياة الصعبة، فهجر حياة الترف، وبات ينام على الأرض.

وصل بيركهارت إلى مكة، فى ۸ سبتمبر ۱۸۱۴ م، وكانت معرفته باللغة العربية، واطلاعه التام على أحوال المسلمين وعاداتهم قد ساعداه على إنجاز مهامه بنجاح، حتى استطاع أن يعيش فى مكة خلال موسم الحج كلّه، ويشترك فى مناسكه وشعائره، من دون أن يثير أية شكوك.. وكان بيركهارت نفسه يقول: إنّه من بقايا المماليك الذين قضى عليهم محمّد على باشا فى مصر، حينما كان يُسأل عن هويته، وشخصية المملوكى والدرويش كانت مناسبة للتخفى بين الحجيج بالنسبة لرجل أوروبى كما فعل فارتيما من قبل، والملاحظ مما كتبه بيركهارت نفسه أن إقامته فى مكة كانت

ص: ۱۴۸

مريحة جداً، إذ يقول: «خلال جميع رحلاتي في الشرق، لم أتمتع براحة كالتي عشتها في مكة. وسأحتفظ بذكريات جميلة عن إقامتي هنا».

ولا ـ شكّ أن بيركهارت لم يُضع وقته سُدى، إذ وضع ۳۵۰ صفحة من الملاحظات والوصف الدقيق للمدينة وأهلها.. وترك وصفاً مفصلًا لبيت اللَّه الحرام، خلال ليالي شهر رمضان عندما «تلتمع آلاف الفوانيس في أعمدته» وعندما «تنعشنا النسمة الباردة فيه، بعد يوم طويل وحار من الصيام».

إنّ مكة مفتوحة من جميع الجهات، لكن الجبال المحيطة بها تشكلّ مانعاً حصيناً ضد العدو. وقد كان لها في الزمن القديم ثلاثة أسوار تحمي جوانبها

ومن طريف ما يورده بيركهارت، في هذا الفصل، قائمة بأسماء الأبواب الموجودة في المسجد الحرام تحتوي على تسعة وثلاثين اسماً حديثاً، تقابلها الأسماء القديمة لبعض الأبواب. ويضيف في وصفه لمكة المكرمة: «إنها يمكن أن تعتبر بلدة جميلة، لأن شوارعها أعرض من شوارع المدن الشرقية الأخرى بوجه عام.

وبيوتها عالية مبنية بالحجر. فيها عدد من الشبابيك التي تطلُّ على الشوارع فتسبغ عليها منظراً مليئاً بالحيوية، بخلاف الدور في مصر وسوريا، التي لا تطلّ على الطرق في الغالب، وهي مثل جدة، تحتوي على عدد من الدور ذوات ثلاثة طوابق». ويقول كذلك: «إنّ مكة مفتوحة من جميع الجهات، لكن الجبال المحيطة بها تشكلّ مانعاً حصيناً ضد العدو. وقد كان لها في الزمن القديم ثلاثة أسوار تحمي جوانبها».

ويمضي بيركهارت في التطرّق إلى العديد من التفصيلات، كالماء الذي يعتمد عليه سكان مكة، وبئر زمزم، وقناة زبيدة التي يسهب في سرد تاريخها وما شهدته

ص: ۱۴۹

من ترميم وإصلاح على مرّ التاريخ. كما يصف محلات مكة التجارية وأسواقها وأدق التفصيلات الأخرى عن حاراتها ومطوّفيها وسفوحها، وأجهزتها الإدارية، وأماكنها التاريخية.

قدّر بيركهارت عدد سكان مكة في غير مواسم الحج، بخمسة وعشرين إلى ثلاثين ألف نسمة، ثم يقول: «إن مكة كان بوسعها، في تلك الأيام، أن تسكن ثلاثة أضعاف هذا العدد من الحجاج أيضاً». ويضيف في حديثه عن السكان أن جلّهم غرباء وأجانب عنها. من أهالي اليمن و حضرموت. وكان يليهم في العدد أبناء الهنود والمصريين والسوريين والمغاربة والأتراك. وكان هناك أيضاً مكّيون من أصل إيراني وتاتاري وبخاري وكردي. ومن كل بلد مسلم آخر تقريباً.

في منتصف يناير ۱۸۱۵ م، غادر بيركهارت مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.

ومن سوء حظه أنه وقع مريضاً بمرض البرداء (الملاريا)، حتى أصابه اليأس من نفسه. وظنّ أنه سيقضي نحبه في المدينة فيقبر فيها. لكنه مع ذلك استطاع أن يكتب عدّة فصول عنها في الجزء الثاني من رحلته. غير أن هذه الكتابات بقيت أقل شمولية من كتاباته عن مكة.

وفي صبيحة يوم الخامس والعشرين من يوليو ۱۸۵۳ م، وصل المدينة المنورة بريطاني متنكّر باسم «الحاج عبداللّه»، ليغدو هو الآخر أحد أبرز الرحّالة الأوروبيين الذين استشرقوا.

ولم يكن هذا (الحاج) سوى السير ريتشارد فرنسيس بيرتون الذي كان يعمل موظفاً في شركة الهند الشرقية المعروفة، ورحل إلى إفريقيا والهند وسوريا وشمال إفريقيا والبرازيل وجزيرة العرب التي ظلّت بين هذه جميعاً- كما قال هو نفسه-: «البلاد التي تولّعت بها».

ص: ۱۵۰

استعدّ بيرتون- كما فعل بيركهارت- من قبل أن يقدم على رحلته الخطرة بأشهر عديدة، واتخذ جميع التدابير اللازمة للقيام بمهمته خير قيام، حتى أنه عمد إلى الاختتان وهو يومئذ فى الثانية والثلاثين من عمره! وخلع عنه ثيابه الأوروبية، واستبدلها بملابس مسلم أفغانى فى طريقه إلى أداء فريضة الحج، وتسمّى باسم الحاج عبداللّه. وقد وصف لنا بيرتون بدقّة رحلته هذه فى كتاب ممتع من جزأين ضخمين هو «الحج إلى المدينة ومكة».

وفى طريقه إلى الشرق، كان بيرتون يعمل على إتقان دوره كمسلم فى تفاصيل الحياة اليومية للمسلم، منتحلًا شخصية نبيل فارسى بداية الأمر، ثمّ شخصية درويش متجوّل. وعن سبب إقدامه على هذه الخطوة. يقول بيرتون:

«ليس هنالك من شخصية مناسبة للتخفّى فى العالم الإسلامى أكثر من شخصية الدرويش، فهذه الشخصية يمكن لأى‌رجل من أية طبقة أن يتلبّسها، من أى عمر أو من أى مذهب. كما يسمح للدراويش بتجاوز أو تجاهل أصول الأدب والمعاملة كأشخاص قد انسلخوا عن المجتمع، وتوقّفوا عن الظهور على مسرح الحياة».

وصل بيرتون إلى المدينة المنورة أولًا، وكتب عن تشكيلات خدم الحرم النبوى، وما يلبث أن يقارنها بما قرأه عند بيركهارت. ويعلمنا بيرتون أن حجم المدينة المنورة حين زارها كان أكبر بمرة وثلث من حجم مدينة السويس، أو بقدر نصف حجم مكة، وهى عبارة عن مكان مسوّر يؤلّف شكلًا بيضاوياً غير منتظم.

ولها أربع بوّابات.. وهناك عمارات ضخمة وأبراج مزدوجة متقاربة.. وفى داخل المدينة الظليل ترى الجنود يحرسون المدينة، وأصحاب الجمال يتشاجرون، وكثيراً من الرجال الذين لا عمل لهم يتسكّعون. ثم يصف البنايات العامة فيقول: إن هناك أربع خانات كبيرة وبضع مقاه صغيرة، وحماماً ممتازاً، ويقدّر السكّان ب ۱۶ ألف نسمة.

ص: ۱۵۱

ومن المستشرقين الذين قاموا بالحج بغرض التجسس، أو التعرف على أحوال مواطنى مستعمرات بلادهم، الهولندى سنوك هورخنيه الذى كان أستاذاً للغة العربية فى جامعة لندن

فى ۱۱ سبتمبر ۱۸۵۳ م، وصل بيرتون إلى مكة المكرمة بعد رحلة متعبة حافلة بالمخاطر؛ ليستقر به المقام فى بيت مرافقه محمّد البسيونى الذى كان دليله ومرافقه منذ بداية الرحلة.

يقول بيرتون عن مكة حينما وصلها لأول مرة: إنه لم يجد فيها ذلك الجمال الرشيق المتناسق الذى يتجلّى فى آثار اليونان وإيطاليا، (وهذا دليل على التحول الذى طرأ على معمار مكة فى الفترة ما بين زيارة فارتيما الذى وصف دورها بأنها تشبه الدور الإيطالية، وبين زيارة بيرتون لها) ولا الفخامة المتجلّية فى أبنية الهند، ومع هذا فقد كان المنظر غريباً فريداً بالنسبة إليه، وكتب: «لكننى لم أرَ مثل هذه المشاهد المهيبة والرائعة فى أى مكان آخر».

ومن المستشرقين الذين قاموا بالحج بغرض التجسس، أو التعرف على أحوال مواطنى مستعمرات بلادهم، الهولندى سنوك هورخنيه الذى كان أستاذاً للغة العربية فى جامعة لندن، وعاش ۱۷ عاماً فى جزر الهند الشرقية (أندونيسيا)، ثم زار مكة وبقى فيها ستة أشهر بين العامين ۱۸۸۴ و ۱۸۸۵ م.

وتزامنت هذه الزيارة مع قيام حركات مقاومة للاستعمار الهولندى فى تلك الجزر الآسيوية التى يحج منها عشرات الآلاف إلى مكة سنوياً، وكان الهدف منها التعرف على المؤثرات التى تدفع الثوار إلى العصيان بشكل خاص بعد عودتهم من مكة. والتقط هورخنيه آنذاك كمية كبيرة من الصور الفوتوغرافية لمواطنى هذه الجزر إضافة إلى أماكن عديدة فى مكة وجوارها.

إن قائمة الأوروبيين الذين زاروا مكة المكرمة طويلة فى الحقيقة، إذ تضم إضافة إلى المشاهير الذين ذكرناهم عدداً أكبر ممن هم أقل شهرة، وبشكل عام

ص: ۱۵۲

يمكن القول: إن ملاحظات هؤلاء اختلفت بمرور الزمن. فقد كان الأوائل منهم أكثر اهتماماً بشرح تفاصيل الدين ومناسك الحج. وتعبيراتهم تطبعها الدهشة وأحياناً الانبهار وأحياناً التعصب الدينى. كما أن الأوائل ركزوا على دحض الأخطاء والخرافات الرائجة فى أوروبا عن الدين الإسلامى ومقدساته.

إن قائمة الأوروبيين الذين زاروا مكة المكرمة طويلة فى الحقيقة، إذ تضم إضافة إلى المشاهير الذين ذكرناهم عدداً أكبر ممن هم أقل شهرة

أما المتأخرون منهم، فقد ذهبوا إلى وصف أدقّ لحال سكان مكة والمدينة، والحجاج وتركيباتهم الإثنية وأعدادهم وطبقاتهم وأحوالهم المادية والسياسية والاجتماعية، كما تركّز وصفهم للمدينتين على ذكر تحصيناتهما مصادر المؤونة والماء فيهما، كما استغل رحالة كل بلد أوروبى فرصة الحج للتجسّس على حجاج مستعمرات بلده.

وقد كانت هناك بضع عوامل مشتركة بين هؤلاء الرحالة الأوائل منهم أو المتأخرين. فقد شاع بينهم تقمّص شخصيات يسهل لهم التسلل عبرها و تبرير سحنتهم الأوروبية من خلالها مثل جنود المماليك، أو تصرفاتهم الغريبة مثل الدراويش. كما أن جميعهم تعلّم اللغة العربية وأجادها واستعدّ للرحلة وتعلم الدروس ممن سبقوه إليها بفطنة شديدة.

ص: ۱۵۳

الصحابی عبد اللّه بن رواحهٔ

اشارهٔ

من الذین صدقوا ما عاهدوا اللّه علیه

محمد سلیمان

ظلّت ومـازالت الصـحبهٔ ومدرسـتها النبویّهٔ المقدّسـهٔ شـجرهًٔ طیبـهٔ تؤتی أکلهـا کـلّ حین بإذن ربّها، وظلّ الصـحابی الصادق المخلص ومـازال غصـناً یانعـاً مبارکـاً، وینبوعـاً لا یعرف النضوب، ومادام ملتزماً بمبادیء هـذه المدرسـهٔ الربانیـهٔ وبسـیرتها وأخلاقها ومناهجها، ومادام وفیّاً لصاحبها ومؤسسها رسول الرحمهٔ محمد بن عبداللّه صلی الله علیه و آله.

فالصـحبهٔ نبع ثرّ وبضاعـهٔ لا تبور، تغنی تراثنا وأجیالنا وموائـدنا العلمیـهٔ والعبادیـهٔ والأدبیـهٔ والأخلاقیـهٔ من خزینها وما ورّثته لنا من خیر عمیم وعطاء جزیل وعلم نافع وتضـحیهٔ کبیرهٔ... لا یمکننا الاسـتغناء عنها وعن تاریخها الحافل بکلّ معنی جمیل وقیمـهٔ عالیـهٔ، أما روّاد هـذه المدرسـهٔ فقـد اختلفت منازلهم، فشأنهم شأن کل التلامیـذ والطلبـهٔ، منهم الجاد والمخلص فی استیعاب دروسـها ومبادئها، ومنهم دون ذلک، ومنهم المتخلّف عنها حتی صار عالهًٔ علیها بل ظلّ مسـیئاً إلیها، فالصـحابهٔ لیسوا کلّهم فی الفضل سواء وإن زعمنا هذا فهو ظلم للمدرسـهٔ ولصاحبهـا ولرّوادهـا المخلصـین. وکیف نزعم هـذا لهم وقـد فضّـل اللّه تعالی الرسل بعضـهم علی بعض وهم الأفضـل والأکرم والأقرب إلیه تعالی من غیرهم، فقال:

«تلک الرسل فضّلنا بعضهم علی بعض»

؟! والتفضیل حالهٔ توافق طبیعهٔ

ص: ۱۵۴

الأشیاء، فما من شیء فی الدنیا إلّاوالتفاضل جارٍ فیه.

ولا یضرّ هـذه المدرسة السـماویة بل ولا یفیدها من انحرف عنها وشـطّت به قدماه بعیداً عن أسسـها ومتبنیاتها، کما لا یضـر ذلک فی سمعة الصـحابة الآخرین الذین أجزم أنّ بعضـهم کان صناعة خاصة، أعدّتهم السماء واختارتهم وتفضّلت بهم علینا جمیعاً؛ لیصوغوا لنا تأریخاً ملیئاً بکلّ معانی الخیر، وحاضراً کلّه عطاء، ومستقبلًا زاهراً بالأمل مشرقاً بالحب، بعیداً عن العداوة والبغضاء.

إنّهم بحقّ جیلٌ قد لا یکون له نظیر فیما مضی من تأریخ الرسالات وفیما هو آت إلّاعند القلّة القلیلة النادرة.

فهیّئتهم هـذه المدرسة، وصاغتهم لتبلیغ أعظم رسالة سـماویة وأعظم دین خاتم للدیانات، فغیّروا أمة جاهلیة بل غیروا أمماً أخری فتغیّر وجه التاریـخ، فاسـتحقوا بـذلک العظیم فی الـدنیا والآخرة، وغـدوا من ورثة جنة النعیم، یتبوأون فیها غرفاً، وینعمون بها، ویمرحون فی بحبوحة منها.

ولا غرابة فی ذلک بعد أن أحبوا اللّه ورسوله، وطلبوا رضوانه تعالی وملئوا شوقاً إلی لقائه، یطلبون الموت ویتحاثّون علیه.

کم کانت تربیتک یا رسول‌اللّه لهذه النخبة الطیبة نافعة خالدة!

وکم کان حبّهم واحتفاؤهم بک یا رسول اللّه عظیماً صادقاً حتی شـهد به أبو سـفیان وهو یعیش العداء کلّه والکراهیة کلّها لرسول اللّه ودینه وصحبه:

ما رأیت من الناس أحداً یحبّ أحداً کما یحبّ أصحاب

ص: ۱۵۵

محمّدٍ محمداً!

ونحن ما إن ننتهی من تاریخ واحد منهم حتی ندخل تأریخ آخر یکمل الصورة المشرقة لهذه المدرسة ولهذه الصحبة ولما تتوفر علیه من مبادیء وقیم عالیة.

والصحابی الذی بین أیدینا هو واحد من الذین لم یفتأ سیفهم یطارد فلول الوثنیة المقهورة وأذیالهم المدحورة، وانجلت فروسیته ومضاؤه فی معارک الإسلام الکبری فی معرکة بدر وفی معرکة أحد وفی الخندق ویوم الحدیبیة وخیبر، وهو ینتضی سیفیه الباترین- کما یعبر السید الجمیلی- سیف فی یده، وآخر فی لسانه، فأخذ یحصد أعداءَه ویضرب الباطل فیهم علی أمّ رأسه فی غیر هوادة أو رحمة (۱).

إنّه الصحابی الجلیل، المؤمن المجاهد، والکاتب الشاعر، الخزرجی: عبد اللّه بن رواحة بن ثعلبة بن امریء القیس بن عمرو بن امریء القیس الأکبر بن مالک بن ثعلبة بن کعب بن الخزرج بن الحارث، هذا نسبه من أبیه وقد وقع فیه اختلاف.

کم کانت تربیتک یا رسول اللّه لهذه النخبة الطیبة نافعة خالدة!

وکم کان حبّهم واحتفاؤهم بک یا رسول اللّه عظیماً صادقاً حتی شهد به أبو سفیان وهو یعیش العداء کلّه والکراهیة کلّها لرسول اللّه ودینه وصحبه:

ما رأیت من الناس أحداً یحبّ أحداً کما یحبّ أصحاب محمّدٍ محمداً!

أمّا نسبه من أمّه، فهی کبشة بنت واقد بن عمرو بن الإطنابة ابن عامر بن زید مناة.

وأمّا کنیته فهو یکنّی ب (أبو محمد)، ویقال له: أبو رواحة، ویقال له أیضاً: أبو عمرو الأنصاری.

۱- صحابة النبی صلی الله علیه و آله للدکتور السید الجمیلی: ۲۶۴.

ص: ۱۵۶

إسلامه

كـان من الـذين منَّ اللَّه تعـالى عليهم، يـوم العقبـة الأـولى، حيث شـهدها مبايعـاً رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله مع نخبـة من الخزرج، وشـهدها نقيباً حيث كان من الاثنى عشـر نقيباً، ولم يكتف بهـذا، بل شـهد العقبـة الثانيـة مع جمع كبير من الأنصار والذين كانوا ثلاثة وسبعين رجلًا وامرأتين.

وكـان واحـداً ممّن اعترضوا ناقـة رسول اللَّه حين وازنت دار بنى الحـارث بن الخزرج- وكان هـذا يوم اعتراض القبائل فى يثرب لناقة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله تبتغى نزولها عندها- فاعترضها منهم سعد بن الربيع، وخارجة بن زيد، وعبداللَّه بن رواحة فى رجال من بنى الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا رسول اللَّه هلّم إلينا، إلى العـدد والعـدّة والمنعـة، فقال لهم: خلوا سبيلها، فإنها مأمورة، فخلوا سبيلها، فـانطلقت... وكـان له موقف آخر يتصف بالقوّة والرغبـة العظيمـة فى سـماع آيات القرآن وما يبشـر به رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله وينذر:

فعن زيـد بن حارثة قال: ركب رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله إلى سـعد بن عبادة يعوده من شـكوٍ أصابه على حمار عليه إكاف، فوقه قطيفـة فدكيـة، مختطمـة بحبل من ليف، وأردفنى رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله خلفه، قال: فمرّ بعبد اللَّه بن أبى، وهو فى ظلّ مُزاحم أطمه (الحصن، وأطام المدينة سـطوحها...)، وحوله رجال من قومه، فلما رآه رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله تذمم أى استنكف واستحيا من أن يجاوزه حتى ينزل، فنزل فسلم، ثمّ جلس قليلًا فتلا القرآن ودعا إلى اللَّه عزّ وجلّ وذكّر باللَّه وحذّر، وبشر وأنذر.

وهو زامّ لا- يتكلم، حتى إذا فرغ رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله من مقالته، قال: يا هـذا، إنّه لا أحسن من حـديثك هـذا، إن كان حقاً فاجلس فى بيتك، فمن جاءك له فحدّثه إياه، ومن لم يأتك فلا تغتّه به

[أى لا تثقل عليه

] ولا تأته فى مجلسه بما يكره منه.

وهنا انبرى عبداللَّه بن رواحة قائلًا فى رجال كانوا عنده من المسلمين: بلى، فاغشنا به، وائتنا فى مجالسنا ودورنا وبيوتنا.

ثمّ واصل كلامه هذا قائلًا:

ص: ۱۵۷

فهو واللَّه ممّا نحبّ، وممّا أكرمنا اللَّه به وهدانا له.

فما كان من عبداللَّه بن أبى حيث رأى- بعد مقالة عبد اللَّه بن رواحة- من خلاف قومه ما رأى، إلّاأن أنشد قائلًا:

متى ما يكُن مولاك خصمُك لا تزل تذِلّ ويصرعك الذين تصارع!

وهل ينهض البازى بغير جناحه وإن جُذّ يوماً ريشه فهو واقع (۱)

***

وكان عبد اللَّه بن رواحة ممّن شهدوا معركة بدر، وهو من الفتية من الأنصار وهم: عوف ومعوّذ بن الحارث وأمّهما عفراء، وعبداللَّه بن رواحة خرجوا لمقاتلة عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة من رجال قريش المشركين الذين دعوا المسلمين إلى المبارزة فى أول وقعة بدر الكبرى، فقالوا: من أنتم؟

فقالوا: رهط من الأنصار.

قالوا: ما لنا بكم من حاجة.

وكان عبد اللَّه بن رواحة ممّن شهدوا معركة بدر، وهو من الفتية من الأنصار

ثم نادى مُناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا.

وكأنهم لم يروا فى فتية الأنصار أكفاء لهم.

فقال صلى الله عليه و آله: قم يا عبيدة بن الحارث!

وقم يا حمزة!

وقم يا علىّ!

فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: نعم، أكفاء كرام، فبارز عبيدة- وكان أسنّ القوم- عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز على الوليد بن عتبة. فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وأمّا على فلم

۱- السيرة النبويّة لابن هشام ۲: ۵۸۶- ۵۸۷.

ص: ۱۵۸

يمهل الوليـد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضـربتين، كلاهما أثبت صاحبه، وكرّ حمزة وعلى بأسـيافهما على عتبة فذفّقا عليه أى أسرعا قتله. واحتملا صاحبهما فحازاه الى أصحابه.

وفى رواية أنّ عتبة بن ربيعة قال للفتية من الأنصار وكان منهم- كما قلنا- ابن رواحة حين انتسـبوا: أكفاء كرام، إنما نريد قومنا (۱). ثم خاض الجميع معركة بدر

وحققوا نصراً عظيماً.

وشـهد- بعـد ذلك- معارك الإسـلام الأخرى، معركـة أحـد ومعركة الخندق ويوم الحديبية وخيبر مقاتلًا عنيداً، وشـهد مؤتة فى غزوة الأمراء أميراً ثمّ شهيداً.

وكان هـذا الصـحابى الجليل- إضافـةً إلى كونه شاعراً بارزاً- كان كاتباً، فهو من القلّـة الذين يجيدون الكتابة فى الجاهلية حيث كانت الكتابة فى العرب قليلًا.

رحم اللَّه ابن رواحة، كان أينما أدركته الصلاة أناخ

وقـد كلّفه رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله بمسؤوليات عديـدة، منها أنّه قـدّمه فى بـدر يبشّـر أهل العاليـة بما فتح اللَّه عليه، والعالية: بنو عمرو بن عوف وخطمة ووائل.

واستخلفه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على المدينة حين خرج إلى غزوة بدر الوعد.

وبعثه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله سريّة فى ثلاثين راكباً إلى أسير بن زارم اليهودى بخيبر فقتله، ثمّ بعثه الى خيبر خارصاً كما يأتينا.

وممّا قاله رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فيه:

رحم اللَّه ابن رواحة، كان أينما أدركته الصلاة أناخ.

إنّه سيلقى حجّته، فعن أنس أنّه قال:

كنا مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى سفر فأصابنا مطر ورِداغ

[والردغ والردَغة والردّغة: الماء والطين والوحل الكثير الشديد، والجمع، رِداغ وردغ. أنظر

۱- أنظر السيرة النبوية ۲: ۶۲۵.

ص: ۱۵۹

اللسان: ردغ

]. فأمرنا رسول اللّه صلى الله عليه و آله أن نصلى على ظهور رواحلنا.

قال: ففعلنا، ونزل ابن رواحة فصلى فى الأرض.

قال: فسعى به رجل من القوم فقال: يا رسول اللّه أمرت الناس يصلّون على ظهور رواحلهم ففعلوا، ونزل ابن رواحة فصلى فى الأرض.

قال: فبعث إليه فقال: ليأتينكم وقد لقى حجّته.

قال: فأتاه، فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: يابن رواحة، أمرتُ الناس أن يصلّوا على ظهور رواحلهم، نزلت وصليت فى الأرض!

قال: فقال: يا رسول اللّه؛ لأنّك تسعى فى رقبة قد فكّها اللّه، وإنما أنا نزلت لأسعى فى رقبة لم تفكّ.

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: ألم أقل لكم إنّه سيلقى حجّته؟!

وفى رواية أخرى أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله خرج فى سريّة، فأدركته الصلاة وهو على ظهر، فصلّى رسول اللّه صلى الله عليه و آله على ظهر، ونزل ابن رواحة فصلّى بالأرض، ثمّ أتى النبيّ صلى الله عليه و آله، فقال النبيّ صلى الله عليه و آله: يابن رواحة، أرغبت عن صلاتى؟!

قال: لستُ مثلك، إنّك تسعى فى عِتقٍ ونحن نسعى فى رقّ، فلم يَعِبْ عليه ما صنع.

وقد فرّق أو ميّز رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى هذا بين ابن رواحة ورجل آخر، حين خرج رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى سرية فصلّى بأصحابه على ظهر، فاقتحم رجل من الناس فصلى على الأرض، فقال: خالف خالف اللّه به، فما مات حتى خرج من الإسلام.

وفرق كبير بين هذا وذاك، فذاك رجل اختبر رسول اللّه- كما يبدو- إيمانه وإخلاصه... فيما ظهر نفاق هذا وبعده عن الإيمان.

ص: ۱۶۰

ابن رواحهٔ وآیات قرآنیهٔ:

فی روایهٔ: لما نزلت الآیهٔ:

«والشعراء یتّبعهم الغاوون» (۱)

قال عبداللَّه بن

رواحهٔ: قد علم اللَّه أنّی منهم، فأنزل اللَّه عزّ وجلّ:

«إلّاالذین آمنوا وعملوا الصالحات» (۲).

حتی ختم الآیهٔ.

وعن ابن عباس أنّ الآیهٔ المبارکهٔ

«إلّاالذین آمنوا وعملوا الصالحات وذکروا اللَّه کثیراً وانتصروا من بعد ما ظلموا» (۳).

نزلت فی جماعهٔ کان منهم عبداللَّه بن رواحهٔ.

لقد انقبضت أساریر وجهه حیث نزول الآیهٔ الأولی، واغتمّ غمّاً عظیماً وذهبت به الظنون کلّ مذهب حتی نزلت الآیهٔ الاخری، التی أزالت عن صدره هذه الظنون وذلک الغم.

وفی قوله تعالی:

«یا أیها الذین آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون کبر مقتاً عند اللَّه أن تقولوا مالا تفعلون إنّ اللَّه یحبّ الذین یقاتلون فی سبیله صفاً کأنّهم بنیانٌ مرصوص» (۴)

. فی نفر من الأنصار منهم عبداللَّه بن رواحهٔ. قالوا فی مجلس: لو نعلم أی الأعمال أحبّ إلی اللَّه عزّ وجلّ لعملنا به حتی نموت، فلما نزلت فیهم، قال ابن رواحهٔ: ولا أزال حبیساً فی سبیل اللَّه عزّ وجلّ حتی أموت، فقتل شهیداً رحمهٔ اللَّه علیه.

وفی روایهٔ أنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله دفع إلی نفر من أصحابه فیهم عبداللَّه بن رواحهٔ یذکرهم اللَّه، فلما رأی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله سکت، فقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: ذکّر أصحابک،

۱- الشعراء: ۲۲۴.

۲- الشعراء: ۲۲۷.

۳- الشعراء: ۲۲۷.

۴- الصف: ۲- ۴.

ص: ۱۶۱

فقال: يا رسول اللَّه، أنت أحقّ منى.

قال: أما إنكم الذين أمرنى اللَّه أن أصبر نفسى معهم، ثمّ تلا عليهم:

«واصبر نفسك مع الذين يدعون ربّهم» (۱).

الآية إلى آخرها.

قال: وما قعد عِدتكم قط يذكرون اللَّه إلّاقعد معهم عددهم من الملائكة. فإن حمدوا اللَّه حمدوه، وإن استغفروا اللَّه أمّنوا، ثمّ عرجوا إلى ربّهم، فسألهم وهو أعلم منهم، فقال: أين ومن أين؟

قالوا: ربّنا، عبيد لك من أهل الأرض ذكروك فذكرناك.

قال: ويقولون: ماذا؟

قالوا: ربنا حمدوك، فقال: أولُ من عُبد وآخر من حُمد.

قالوا: وسبّحوك.

قال: مدحى لا ينبغى لأحد غيرى.

قالوا: كبّروك.

قال: لى الكبرياء فى السموات والأرض وأنا العزيز الحكيم.

قالوا: ربّنا استغفروك.

قال: إنى أشهدكم أنى قد غفرت لهم.

قالوا: ربنا فيهم فلان وفلان؟!

۱- الكهف: ۲۸.

ص: ۱۶۲

قال: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم.

- وفى الآية

«لأمَةٌ مؤمنةٌ خيرٌ من مشركةٍ ولو أعجبتكم» (۱)

. عن ابن عباس أنّها نزلت فى عبداللَّه بن رواحة، وكانت له أمَة سوداء، وإنّه غضب عليها فلطمها، ثم إنه فزع فأتى النبىّ صلى الله عليه و آله فأخبره خبرها.

فقال له النبىّ صلى الله عليه و آله: ما هى يا عبداللَّه؟

قال: هى تصوم، وتصلى، وتحسن الوضوء، وتشهد أن لا إله إلّااللَّه وأنك رسوله.

فقال: يا عبداللَّه هذه مؤمنة.

فقال عبداللَّه: فوالذى بعثك بالحق لأعتقنّها ولأتزوجنّها. ففعل.

فطعن عليه ناسٌ من المسلمين وقالوا: نكح أَمَة، وكانوا يريدون أن يُنكحوا إلى المشركين ويُنكحوهم رغبةً فى أحسابهم.

فأنزل اللَّه تعالى فيهم:

«ولأمَة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم»

ابن رواحة ثالث ثلاثة شعراء

كان ابن رواحة شاعراً مجيداً، وقد نقل لنا الرواة مقاطع من شعره، و عَدّوه واحداً من ثلاثة شعراء عرفتهم الصحبة النبوية المباركة، ونالوا منها حظاً وافراً، وموقعاً إعلامياً ضرورياً، لا تستغنى عنه أى حركة تغييرية خاصة فى بيئة كتلك التى احتلّ فيها الأدب والشعر بالذات مكانةً مرموقةً، بل دخل كلّ معالم ومفاصل حياتهم ونواحيها المتعددة حتى غدا وسيلتهم الإعلامية الأولى والمحببة، التى يتجاوبون ويتفاعلون معها، فهى التى تخاطب عقولهم وقلوبهم ومشاعرهم، كما أنهما، أى الشعر والنثر- إضافة الى أنهما وسيلتان إعلاميتان مهمتان- مدرستان تثقيفيتان متنقلتان تربيان النفوس، بما تحملانه من معان حسنة أو سيئة؛ لهذا ولغيره راحت المدرسة النبويّة تستثمرهما- بعد تهذيبهما من شوائب الجاهلية- فى

۱- البقرة: ۲۲۱.

ص: ۱۶۳

خدمة الإسلام ودعوته الخالدة وبأيامها ومواقعها المشهودة.

فكان عبداللَّه بن رواحة وهو الذی عرف فی أوساطهم بكونه شاعراً من الطراز الأول، راحت كتب التأريخ والأدب تذكر لنا شعره وأراجيزه وهو يقاتل، وهو يطوف، وهو يدعو إلى اللَّه تعالى، وهو يهاجم أعداء اللَّه ورسوله... واحداً من ثلاثة شعراء عرفتهم الصحبة النبوية وعرفهم العصر الأول للإسلام ودعوته، وهم: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وثالثهم الصحابی الجليل ابن رواحة.

وفی جوابه عن سؤال يقال: إنّ رسول اللَّه صلی الله عليه و آله وجهه له يوماً:

ما الشعر؟

كان ابن رواحة شاعراً مجيداً، وقد نقل لنا الرواة مقاطع من شعره، و عَدّوه واحداً من ثلاثة شعراء عرفتهم الصحبة النبوية المباركة، ونالوا منها حظاً وافراً، وموقعاً إعلامياً ضرورياً

قال: شیء يختلج فی صدر الرجل، فيخرجه على لسانه شعراً.

قال: فهل تستطيع أن تقول شيئاً الآن؟

فنظر فی وجه رسول اللَّه صلی الله عليه و آله فقال: نعم، فأنشد من البسيط ثمانية أبيات منها:

إنّی توسمت فيک الخير نافلةً واللَّه يعلم إنی ثابت البصر

فثبت اللَّه ما آتاک من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذی نصروا

وعنه رحمه اللَّه أنّه قال: مررت بالنبیّ صلی الله عليه و آله وهو جالس فی نفر من أصحابه، فأضب القوم

[أی تكلموا متتابعاً

]: يا عبداللَّه بن رواحة، يا عبداللَّه بن رواحة، فعرفت أنّ رسول اللَّه صلی الله عليه و آله دعانی، فانطلقت إليهم مسرعاً، فسلّمت.

فقال: ها هنا، فجلست بين يديه.

فقال- كأنه يتعجب من شعری-: كيف تقول الشعر إذا قلت؟

قلت: أنظر فی ذلک ثمّ أقول.

ص: ۱۶۴

فقال: فعليک بالمشرکين.

قال: ولم أکن أعددت شيئاً، فأنشدته، فلما قلت:

فخبّرونى أثمان العَباءِ متى کنتم بطاريق أو دانت لکم مضرُ

قال: فکأنى عرفت فى وجه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله الکراهية أن جعلت قومه أثمان العباء، فقلت:

نُجالد الناس عن عُرضٍ فنأسِرُهم فينا النبى وفينا تُنزل السور

وقد علمتهم بأنّا ليس يغلبنا حىّ من الناس إن عَزّوا وإن کثروا

يا هاشم الخير إنّ اللَّه فضّلکم على البريّة فضلًا ماله غيرُ

إنى تفرّست فيک الخير أعرفه فراسةً خالفتهم فى الذى نظروا

ولو سألت او استنصرت بعضهم فى جلّ أمرک ما آوَوا ولا نُصروا

فثّبت اللَّه ما آتاک من حسن تثبيت موسى ونصراً کالذى نصروا

فأقبل علىّ بوجهه متبسّماً ثم قال: وإيّاک فثبت اللَّه.

وتصدى ثلاثة من کفار قريش وهم: أبو سفيان بن الحارث، وعمرو بن العاص، وابن الزبيرى ليهجوا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وأصحابه.

فقال قائل لعلىّ: أُهج عنا هؤلاء القوم الذين قد هجونا.

فقال على: إن أذن لى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فعلت.

فقال الرجل: يا رسول اللَّه، أتأذن لعلى کيما يهجو عنا هؤلاء القوم الذين قد هجونا؟

فقال: ليس هناک... ثم قال للأنصار: ما يمنع القوم الذين قد نصروا رسولاللَّه صلى الله عليه و آله بسلاحهم وأنفسهم أن ينصروه بألسنتهم؟

فقال حسان بن ثابت: أنا لها يا رسول اللَّه وأخذ بطرف لسانه، فقال: واللَّه ما يسرنى به مقولًا بين بصرى وصنعاء.

ص: ۱۶۵

فقال له رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: وکیف تهجوهم وأنا منهم؟

فقال: إنی أسلُّک منهم کما تُسلّ الشعرة من العجین.

فکان یهجوهم ثلاثة من الأنصار یجیبونهم: حسان بن ثابت، وکعب بن مالک، وعبداللَّه بن رواحة.

فکان حسان بن ثابت وکعب بن مالک یعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأیام والمآثر ویعیّرانهم بالمثالب.

وکان عبداللَّه بن رواحة یعیّرهم بالکفر وینسبهم إلی الکفر، ویعلم أنّه لیس فیهم شرّ من الکفر.

وکانوا فی ذلک الزمان أشدّ القول علیهم قول حسان بن ثابت وکعب بن مالک، وأهون القول قول عبداللَّه بن رواحة. فلما أسلموا وفقهوا الإسلام کان أشدَّ القول علیهم قول عبداللَّه بن رواحة.

وفی یوم الخندق، حیث کان رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ینقل التراب حتّی واری التراب شعر صدره المبارک، راح عبداللَّه بن رواحة هذا الصحابی الجلیل یرتجز قائلًا:

اللهم لولا أنت ما اهتدینا ولا تصدقنا ولا صلینا

فأنزلنْ سکینةً علینا وثبّت الأقدام إن لاقینا

إنّ الأُولی قد بغوا علینا وإن أرادوا فتنةً أبینا

وکان ارتجازه هذا تلبیة لأمر رسول اللَّه صلی الله علیه و آله حینما قال له: أنزل فحرک بنا التراب.

وبعد أن أنشد أرجوزته المذکورة دعا رسول اللَّه صلی الله علیه و آله له قائلًا: اللهم ارحمه.

وفی شعره وهو یمدح رسول اللَّه صلی الله علیه و آله حین یقول:

وفینا رسول اللَّه یتلو کتابَهُ إذا انشقّ معروف من الفجر ساطع

یبیتُ یجافی جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشرکین المضاجع

أرانا الهدی بعد العمی فقلوبنا به موقنات أنّ ما قال واقع

هذا لعمری من معاریض الکلام...

ونسب لهذا الصحابی لطائف أضحکت رسول اللَّه صلی الله علیه و آله:

فقد کانت لعبداللَّه بن رواحة جاریة یستسرّها سرّاً عن أهله، فبصرت به أمرأته یوماً قد خلا بها، فقالت: لقد اخترتَ أَمَتک علی حُرّتک، فجاحدها ذلک.

قالت: فإن کنت صادقاً فاقرأ آیة من القرآن، وفی روایة: وقد عهدته لا یقرأ القرآن وهو جنب.

فقال من الوافر:

شهدتُ بأنّ وعدَ اللَّه حقٌّ وأنّ النار مثوی الکافرینا

قالت: فزدنی آیة أخری، فقال:

وأنّ العرشَ فوقَ الماء طافٍ وفوق العرشِ ربُّ العالمینا

فقالت: زدنی آیة أخری، فقال:

وتحملُهُ ملائکةٌ کرامٌ ملائکةُ الإلهِ مقرَّبینا

وفی دیوانه... شدادٌ... مؤمنینا

فقالت: آمنت باللَّه وکذبت بصری.

فأتی ابن رواحة رسول اللّه صلی الله علیه و آله فحدّثه، فضحک رسول اللّه صلی الله علیه و آله ولم یغیّر علیه.

وزاد فی روایة بمعناه، فقالت له: أما إذا قرأت القرآن فإنّی قد عرفت أنه مکذوب علیک.

فافتقدته ذات لیلة، فلم تجده علی فراشها، فحبست نفسها، فلم تزل تطلبه حتی قدرت علیه فی ناحیة الدار، فقالت: الآن صدقت فیما بلغنی، فجحدها، فقالت: اقرأ الآیات من القرآن إن کنت صادقاً، فإنک إن کنت جنباً لم تقرأ، فقال

ص: ۱۶۶

ص: ۱۶۷

من الطویل:

وفینا رسول اللَّه یتلو کتابه إذا انشقّ معروف من الصبح ساطعُ

لبیت یجافی جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالکافرین المضاجعُ

أتی بالهدی بعد العمی فقلوبنا له موقنات أن ما قال واقعُ

وأعلم علماً لیس بالظنّ أننی إلی اللَّه محشورٌ هناک وراجعُ

فحدث رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بذلک، فاستضحک حتی ردّ یده علی فیه، وقال:

هذا لعمری من معاریض الکلام، یغفر اللَّه لک یابن رواحهٔ، إن خیارکم خیرکم لنسائکم.

فأخبرنی ماالذی ردّت علیک، حیث قلت ما قلت؟

قال: قالت لی: اللَّه بینی وبینک، أما إذ قرأت القرآن فإنی أتهم ظنی وأصدقک.

فقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: لقد وجدتها ذات فقه فی الدین (۱).

ابن رواحهٔ فی عمرهٔ القضاء

بعد رجوعه صلی الله علیه و آله إلی المدینهٔ من خیبر منتصراً، أقام فی المدینهٔ شهری ربیع وجُمادَیین ورجباً وشعبان ورمضان وشوالًا، ثمانیهٔ أشهر، وکان یبعث فیما بین ذلک من غزوه وسرایاه صلی الله علیه و آله.

بعدها خرج صلی الله علیه و آله من المدینهٔ فی شهر ذی القعدهٔ من سنهٔ سبع للهجرهٔ النبویهٔ، قاصداً مکهٔ معتمراً عمرهٔ القضاء، بعد أن صدّه مشرکو مکهٔ عنها عام الفتح فی شهر ذی القعدهٔ سنهٔ ستّ، وسمّی شهر الصدّ، وهو من الأشهر الأربعهٔ الحرم، ثلاثهٔ سردٌ أی متتابعهٔ (ذوالقعدهٔ وذوالحجّهٔ والمحرم، وواحد فرد وهو رجب). فیما سمّیت عمرهٔ شهر ذی القعدهٔ من العام السابع بعمرهٔ القِصاص، لأنّ المشرکین صدّوا

۱- أنظر مختصر تاریخ دمشق ۱۲: ۱۵۸- ۱۵۹.

ص: ۱۶۸

رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فی شهر ذی القعدة فی الشهر الحرام من سنة ستّ، فاقتص رسول اللَّه صلى الله عليه و آله منهم، فدخل مكة فی الشهر نفسه الذی صدّوه فیه من سنة سبع، وقد أنزل اللَّه تعالی فی ذلک

«والحرمات قِصاص» (۱)

. وقد خرج مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله المسلمون ممّن كان صدّ معه فی عمرته، وعدّتهم كانت ألفين سوى النساء والصبيان.

وحين دخل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مكة فی عُمرة القضاء هذه دخلها وكان الصحابی الجليل عبداللَّه بن رواحة آخذاً بخطام ناقة رسول اللَّه وهو يرتجز قائلًا:

خلّوا بنی الكفار عن سبيله خلّوا فكلّ الخير فی رسوله

يا ربّ إنّی مؤمن بقيله (۲) أعرف حقّ اللَّه فی قبوله

نحن قتلناكم على تأويله كما قتلناكم على تنزيله (۳)

ضرباً يزيل الهام عن مِقيله ويُذهل الخليل عن خليله

۱- البقرة: ۱۹۴.

۲- بقيله: أی قوله.

۳- أی نحن نقاتلكم على إنكار تأويله، كما قتلناكم على إنكار تنزيله.

ص: ۱۶۹

والـذی یبـدو أنّ (نحن قتلناکم علی تأیله... ویـذهل الخلیل عن خلیله) کانت للصـحابی الجلیل عمار بن یاسـر رضوان اللَّه علیه، ارتجز بهما فی غیر هـذا الیوم أی یوم معرکـهٔ صـفین التی دارت رحاها بین جیش الإمام علیّ علیه السـلام وجیش البغاهٔ بقیادهٔ معاویهٔ بن أبی سفیان، وقد استشهد فیها عمار بن یاسر رحمه اللَّه تعالی.

والدلیل علی هذا، وهو ما ذکره ابن هشام صاحب السیرهٔ، أنّ ابن رواحهٔ إنما أراد المشرکین، والمشرکون لم یقرّوا بالتنزیل وإنّما یُقتل علی التأویل من أقرّ بالتنزیل (۱).

ویقال: إن عمر بن الخطاب قال: یا بن رواحهٔ، فی حرم اللَّه وبین یدی رسولاللَّه صلی الله علیه و آله تقول هذا الشعر؟

فقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: خلّ عنه یا عمر، فوالذی نفسی بیده لکلامه أشدّ علیهم من وقع النبل (۲).

وبینما کان رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله یطوف بالبیت فی عمرهٔ القضاء علی بعیر له، یسـتلم الرکن بمحجن، کان عبـداللَّه بن رواحهٔ آخذاً بغرزه وینشد بین یدیه من أرجازه:

یارب لولا أنت ما اهتدینا ولا تصدّقنا ولا صلینا

فأنزلن سکینهً علینا وثبت الأقدام إن لاقینا

إنّ الذین قد بغوا علینا وإن أرادوا فتنهً أبینا

هـذا ما ذکره السـید الجمیلی فی کتابه صـحابهٔ النبی صـلی الله علیه و آله دون أن یـذکر مصدر هذا الشعر، فیما ذکر صاحب مختصـر تاریخ دمشق وقال: إنّ هذه الأبیات کانت لابن رواحهٔ یوم الخندق.

کما ذکرناها فی حفر الخندق.

إذن فعبد اللَّه بن رواحهٔ کان حاضراً عمرهٔ القضاء، ولم یحضر فتح مکهٔ فی

۱- أنظر السیرهٔ النبویهٔ لابن هشام ۴: ۱۳.

۲- أنظر مختصر تاریخ دمشق ۱۲: ۱۵۵.

ص: ۱۷۰

شهر رمضان سـنة ثمان من الهجرة، لأنّه استشهد فی جمادی الأولی من السنة نفسها فی معرکة مؤتة فما نسب إلیه من أشعار کان خطأً، والـذی یبـدو أن کعب بن مالک هو الـذی کان یرتجز بین یدی رسول اللّه صـلی الله علیه و آله فی فتح مکة ولیس عبداللّه بن رواحة (۱).

من حکمه رضوان اللّه علیه

اتّسـمت مواقفه وأحادیثه بالحکمة والموعظة الحسنة، وطالما کان یذکر إخوانه وأصحابه بما یرضی اللّه تعالی، وبما یشدّهم إلی ذکره سبحانه، فعن أبی الدرداء أنّه قال:

أعوذ باللّه أن یأتی علیّ یوم، لا أذکر فیه عبداللّه بن رواحة.

وراح أبو الدرداء یواصل حدیثه عن إیمان ابن رواحة وحبّه لمجالس التفکر والذکر قائلًا:

کان إذا لقینی مقبلًا، ضـرب بین ثـدییّ، وإذا لقینی مدبراً ضـرب بین کتفیّ ثمّ یقول: یا عویمر، اجلس بنا فلنؤمن ساعة، فنجلس فنذکر اللّه ما شاء، ثمّ یقول: یا عُویمر، هذه مجالس الإیمان، إن مثل الإیمان مثل قمیصک؛ بینا أنت قد نزعته إذ لبسـته، وبینا أنت قد لبسته إذ نزعته، یا عُویمر، للقلب أسرع تقلّباً من القدر إذا استجمعت غلیاً (۲).

ویقال: إنّ عبـداللّه بن رواحة- وقبل غزوة مؤتة- کان قد مرض مرضاً شدیداً، حتی أغمی علیه، فکانت أخته عمرة تعدّد مآثره وتبکیه، فلما أفاق، قال لأخته: ما قلتِ فیّ شیئاً إلّاأنبونی ووبخونی، أی فلا تنبغی النیاحة.

ونقل أنّه فی مرضه هذا، عاده النبیّ صـلی الله علیه و آله وهو مغمی علیه، فقال صلی الله علیه و آله: اللّهم إن کان أجله قد حضر، فیسر علیه وإلّا فاشفه.

فوجد خفّةً وأفاق.

فقال: کأنّ ملکاً قد رفع مرزبة من حدید، (وکأنّه ردّ علی نیاحة أخته

۱- أنظر مختصر تاریخ دمشق ۱۲: ۱۵۵.

۲- أنظر مختصر تاریخ دمشق ۱۲: ۱۵۷- ۱۵۸.

ص: ۱۷۱

وتعدادها لمناقبه ومآثره)، ويقول: أأنت كذا؟

فلو قلتُ: نعم، لقمعنى بها.

كلّ هـذا كان دليلًا على عـدم رضاه عن ذكر مناقبه، وكان دليلًا على تواضـعه وزهـده فى شأن الدنيا ومراتبها حتى وإن كان جديراً بها وأنّه ينالها بحقّ.

موقفان لابن رواحة مع يهود خيبر

الموقف الأول:

غزا عبداللَّه بن رواحة يهود خيبر بأمر من رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله، وقد أصاب فيها يُسير بن رزام، الذى كان يبذل جهوداً كبيرة فى تجميع قبائـل غطفـان، اسـتعداداً لغزو رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله. فمـا كـان من رسول‌اللَّه صـلى الله عليه و آله إلّـاأن بعث إليه عبـداللَّه بن رواحـة فى نفر من أصـحابه، منهم عبـداللَّه بن أنيس حليف بنى سـلمة، فلما قدموا عليه كلّموه وواعدوه وقرّبوا له وقالوا له: إنك إن قدمت على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله استعملك وأكرمك.

غزا عبداللَّه بن رواحة يهود خيبر بأمر من رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله، وقد أصاب فيها يُسير بن رزام، الذى كان يبذل جهوداً كبيرة فى تجميع قبائل غطفان، استعداداً لغزو رسول اللَّه صلى الله عليه و آله

فلم يزالوا به حتى خرج معهم فى نفر من يهود، فحمله عبـداللَّه بن أنيس على بعيره وردفه، حتى إذا كـان بـالقرقرة من خيبر، على سـتة أميال، ندم اليسـير بن رزام على مسـيره إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله. ففطن له عبداللَّه بن أنيس وهو يريد السيف، فاقتحم به، ثمّ ضربه بالسـيف فقطع رجله، وضـربه اليسـير بمخرش فى يـده من شوقـط، فأمّه فى رأسه، وقتل اللَّه يُسـيراً، ومال كل رجل من أصـحاب رسول‌اللَّه صـلى الله عليه و آله على صاحبه من يهود فقتله، إلّارجلًا واحـداً أفلت على رجليه أو على راحلته، فلما قـدم عبداللَّه بن أنيس على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله تفل أى بصق بصاقاً خفيفاً على شجّته فلم تقح ولم تؤذه.

ص: ۱۷۲

الموقف الثانی:

فكما كان ابن رواحة عظيماً فی إيمانه شجاعاً فی جهاده، كان عظيماً فی عفّته، شجاعاً فی عدله وزهده.

ففی رواية، أنّ رسول اللَّه صلی الله عليه و آله قاتل أهل خيبر حتی ألجأهم إلی قصرهم،...

وكان عبداللَّه بن رواحة يأتيهم بأمرٍ من رسول اللَّه صلی الله عليه و آله فی كلّ عام فيُخرصها «۱»

عليهم، ثمّ يضمنهم الشطر، فشكوا إلی رسول اللَّه صلی الله عليه و آله شدّة خرصه، وأرادوا أن يرشوه، فقال: يا أعداء اللَّه، تطعمونی السُّحت، واللَّه لقد جئتكم من عند أحبّ الناس إلی، وأنتم أبغض إلی من عدَّتكم من القردة والخنازير، ولا يحملنی بغضی إياكم وحبّی إياه علی أن لا أعدل عليكم.

فكان جوابهم أن قالوا له: بهذا قامت السماوات والأرض.

فيما هناك رواية أخری بهذا الخصوص تقول:

إنّهم جمعوا حُليّاً من حُلیّ نسائهم، فقالوا:

هذا لک، وخفّف عنا وتجاوز فی القسم.

فما كان جواب بن رواحة، الذی اتّسم موقفه هذا، كما مواقفه الأخری بالشدّة المتصفة بالعدل والحق، إلّاأن أجابهم بقوله: يا معشر يهود، واللَّه إنكم لمن أبغض خلق اللَّه إلیّ، وما ذلک بحاملی علی أن أحيف عليكم، وأمّا الذی عرضتم علیَّ من الرشوة، فإنها سُحتٌ وإنّا لا نأكلها.

قالوا: بهذا قامت السماوات والأرض «۲».

ابن رواحة ثالث ثلاثة أمراء!

«هی إن شاء اللَّه الشهادة!»

فی جمادی الأولی سنة ثمان للهجرة النبوية، وفی قرية من أرض البلقاء من

ص: ۱۷۳

الشام، وقعت معارك طاحنة اتّسمت بالضراوة والشدّة بين جيش المسلمين وتعداده ثلاثة آلاف تحت إمرةِ ثلاثة من الأمراء المسلمين حتى سميت هذه الغزوة بغزوة جيش الأمراء. حيث خاضوا معركة لم يخض المسلمون معركة مثلها كما وصفت، وكان أعداء المسلمين من المشركين الروم قد ادّرعوا بالعتاد والأعداء ما يملأ السهل والجبل وما لا طاقة للمسلمين به.

وكان الصحابى عبداللَّه بن رواحة أحد أمراء هذا الجيش المسلم الثلاثة، الذين عينهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله.

تقول الرواية:

بعث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بعثة إلى مؤتة فى جمادى الأولى سنة ثمان، واستعمل عليهم زيدَ بن حارثة وقال:

«إن أُصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس، فإن أُصيب جعفر فعبد اللَّه بن رواحة على الناس، وزاد الزرقانى: فإن قتل فليتربص المسلمون برجل من بينهم يجعلونه عليهم».

فتجّهز الناس ثمّ تهيئوا للخروج، وهم ثلاثة آلاف، فلما حضر خروجهم ودّع الناسُ أمراء رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وسلّموا عليهم، فلما ودّع عبداللَّه بن رواحة مع من ودع من أمراء رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بكى؛ فقالوا:

ما يبكيك يابن رواحة؟ أو أنهم زعموا أنّ ابن رواحة بكى حين أراد الخروج إلى مؤتة، فبكى أهله حين رأوه يبكى.

فقال: أمَا واللَّه ما بى حبُّ الدنيا ولا صبابة بكم، أو واللَّه ما بكيت جزعاً من الموت ولاصبابة لكم، ولكنى سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقرأ آيةً من كتاب اللَّه عزّ وجلّ، يذكر فيها النار:

«وإن منكم إلّاواردها كان على ربك حتماً مقضيّاً»

أو أنىّ بكيت من قول اللَّه: (الآية) فقد علمتُ أنى وارد النار ولا أدرى أو فلستُ أدرى كيف لى بالصَّدر بعد الورود؛ أو فأيقنت أنّى واردها ولم أدرِ أنجو منها أو لا؟!

فقال المسلمون: صحبكم اللَّه ودفع عنكم، وردّكم إلينا صالحين.

ص: ۱۷۴

وهنا أنشد عبداللَّه بن رواحة:

لكننى أسأل الرحمن مغفرةً وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا (۱)

أو طعنةً بيدى حرّان مُجهزةً بحربة تُنفذ الأحشاءَ والكبدا (۲)

حتى يُقال إذا مرّوا على جَدَثى أرشده اللَّه من غازٍ وقد رشدا (۳)

ثمّ إن القوم تهيّئوا للخروج، فأتى عبداللَّه بن رواحة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فودعه، ثمّ قال:

فثبت اللَّه ما آتاک من حَسَنٍ تثبيت موسى ونصراً كالذى نُصروا

إنى تفرّست فيک الخيرَ نافلةً اللَّهُ يعلم أنى ثابت البصر

أنت الرسول فمن يُحرم نوافله والوجهَ منه فقد أزرى به القدر

وفى رواية:

أنت الرسول فمن يحرم نوافله والوجهَ منه فقد أزرى به القدر

فثبت اللَّه ما آتاک من حسنٍ فى المرسلين ونصراً كالذى نُصروا

إنى تفرّست فيک الخيرَ نافلةً فراسةً خالفت فيک الذى نظروا

يعنى المشركين، وهذه الأبيات فى قصيدة له.

قال ابن إسحاق: ثمّ خرج القوم، وخرج رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حتى إذا ودّعهم وانصرف عنهم، قال عبداللَّه بن رواحة:

خلَفَ السلامُ على امرىء ودّعته فى النخل خيرَ مُشيّع وخليل

۱- ذات فرغ: ذات سعة. والزبد هنا: رغوة الدم.

۲- مجهزة سريعة القتل. تنفذ الأحشا: تخترقها.

۳- الجدث والجدف: القبر.

ص: ۱۷۵

لمّا ودع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عبداللَّه بن رواحة، قال ابن رواحة: يا رسول اللَّه، مرنى بشىء أحفظه عنك.

قال: إنك قادم غداً بلداً، السجود فيه قليل، فأكثر السجود، قال عبداللَّه بن رواحة: زدنى يا رسول اللَّه.

قال: اذكر اللَّه فإنه عون لك على ما تطالب.

فقام من عنده، حتى إذا مضى ذاهباً، رجع اليه فقال: يا رسول اللَّه، إنّ اللَّه وتر يحب الوتر.

قال: يابن رواحة، ما عجزت فلا تعجزن إن أسأت عشراً أن تحسن واحدة.

فقال ابن رواحة: لا أسألك عن شىء بعدها.

ويقول زيد بن أرقم، وكان يتيماً فى حجر عبداللَّه بن رواحة:

فلم أرَ والى يتيم خيراً منه.

وقد خرج معه فحمله على حقيبة رحله، وخرج به غازياً إلى مؤتة، فسمعه زيد وهو يتمثل أبياته التى قال فيها مخاطباً ناقته:

إذا أدنيتنى وحملت رحلى مسيرة أربع بعد الحِساء (۱)

فشأنك فانعمى وخلاكِ ذمٌّ ولا أرجع إلى أهلى ورائى

۱- الحساء: موضع، معجم البلدان، وأنظر لسان العرب: حسا.

ص: ۱۷۶

وجاء المؤمنون وغادرونی بأرض الشام مشتهی الثواء

وردّک کلّ ذی نسب قریب إلی الرحمن وانقطع الإخاء

هنالک لا أبالی طلع نخل ولا بعل أسافلها رِداء (۱)

[أی إذا استشهدت لم أبالِ ما ترکت من عِذْی النخل وسقیه (۲)

] فلما سمعه زید بکی فخفقه بالدرة، وقال: ما علیک یا لکع أن یرزقنی اللَّه الشهادة، وترجع بین شعبتی الرحل.

وراح ابن رواحة یرتجز لزید قائلًا:

یا زیدُ زیدَ الیعملات الذبلِ تطاولَ اللیلُ هُدیتَ فانزلِ

أی انزل فسُق القوم.

وفی حدیث آخر بهذا المعنی: ثمّ نزل من اللیل فصلّی رکعتین ثمّ دعا فیهما دعاءً طویلًا ثمّ قال لی: یا غلام، فقلت: لبیک قال: هی إن شاء اللَّه الشهادة.

ومضی قوله: هنالک لا أبالی طلع نخل... البیت یقول: استشهدت لم أبال ما ترکت من عِذی النخل وسقیه.

ثمّ مضوا حتی نزلوا معان من أرض الشام، فبلغ الناسُ أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء فی مئة ألف من الروم، وانضم إلیهم من لخم وجُذام والقین وبهداء وبلی مئة ألف منهم، علیهم رجل من بلی ثمّ أحد إراشة یقال له: مالک بن زافلة.

فلما بلغ ذلک المسلمین أقاموا علی معان لیلتین یفکرون فی أمرهم، وقالوا: نکتب إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، فنخبره بعدد عدونا، فإما أن یُمدنا بالرجال، وإما أن یأمرنا بأمره، فنمضی له.

فشجّع الناسَ عبدُاللَّه بن رواحة، وقال:

۱- البعل: ما شرب بعروقه من الأرض، أنظر اللسان، بعل.

۲- عذا: والعذی من النبات: البعل.

ص: ۱۷۷

یـا قوم، واللَّه إن التی تکرهون للّتی خرجتم تطلبون الشـهادة، ومـا نقاتل الناس بعـدد ولا قوة ولا کثرة، ما نقابلهم إلّابهـذا الـدین الـذی أکرمنا اللَّه به، فانطلقوا فإنما هی إحدی الحسنیین:

إما ظهور

وإما شهادة

وفی روایـة أنهم فی سیرهم إلی تبوک إذ هم بناحیـة معـان، بضمّ المیم أو فتحها، وهی مدینـة فی طریق بادیـة الشام تلقاء الحجاز من نواحی البلقاء، وهی من أرض الشَّراة، والشراة: صقع بالشام بین دمشق ومدینة الرسول صلی الله علیه و آله (۱). وهم بهذه الناحیة مُعان أخبروا أنّ الروم قـد نُـذروا أی علموا، وجمعوا لهم جموعاً کثیرة من الروم وقضاعة وغیرهم من نصاری العرب، فاستشار زید بن حارثة أصحابه فقالوا:

قد وطئت البلاد وأخفت أهلها، فانصرف، فإنّه لا یعدل العافیة شیء.

وعبـد اللَّه ساکت، فسأله زیـد بن حارثـة فقال: إنّا لم نسـر إلی هذه البلاد، ونحن نرید الغنائم، ولکنا خرجنا نرید لقاءَهم ولسنا نقاتلهم بعدد ولا عدّة، فالرأی المسیر إلیهم.

فقبل زید رأیهُ وسار إلیهم (۲).

فقال الناس: قد واللَّه صدق ابنُ رواحة. فمضی الناس، فقال عبداللَّه بن رواحة فی مَحبِسهم ذلک:

جلبنا الخیل من أجاءٍ وفرع تُغَرُّ من الحشیش لها العُکومُ (۳)

۱- أنظر معجم البلدان.

۲- أنظر مختصر تاریخ دمشق ۱۲: ۱۶۲- ۱۶۳.

۳- أجـا: أحـد جبلی طیء، والآـخر سـلمی. وفرع بالفتـح: اسم موضع من وراء الفرک. وقـال یاقوت: الفرع: أطول جبل بأجأ وأوسـطه. والظاهر أن هذا هو المراد هنا. وتغر بالغین المعجمة: تطعم شـیئاً بعد شیء. یقال: غر الفرج غرا وغراراً: زفه. والعکوم: جمع عکم بالفتح وهو الجنب. ویروی: جلبتا الخیل من أجام قُرح، وقرح: سوق وادی القری، کما عند یاقوت وقد ذکره منسوباً الی ابن رواحة.

ص: ۱۷۸

حَذَوناها من الصَّوّان سِبْتاً أزلَّ كأن صَفحتَه أدِيم (۱)

أقامت ليلتين على مَعانٍ فأعقِبَ بعد فترتها جُمُوم (۲)

فرُحنا والجيادُ مسوّمات تنفَّس فى منافرها السموم (۳)

فلا وأبى مآب لنأتينها وإن كانت بها عربٌ وروم (۴)

فعبأنا أعنتها فجاءت عوابسَ والغبارُ لها بريم (۵)

بذى لجبٍ كأنّ البيض فيه إذا برزت قوانسُها النجوم (۶)

فراضيةُ المعيشة طلّقتْها أسنَّتُها فتَنكحُ أو تئيم (۷)

حتى إذا كـان جيش المسـلمين بتخوم البلقـاء، لقيتهم جموع هرقـل من الروم والعرب بقريـة من قرى البلقـاء يقـال لهـا مشارف، ثمّ دنا العـدوّ، وانحاز المسـلمون إلى قريـة يقال لها مؤتـة، فالتقى الناس عندها، فتعبأ لهم المسـلمون، فجعلوا على ميمنتهم رجلًا من بنى عُذرة يقال له: قطبة بن قتادة، وعلى ميسرتهم رجلًا من الأنصار يقال له: عُبابة بن مالك أو عبادة بن مالك.

۱- حـذوناها: جعلنا لها حـذاء وهو النعل: والصوان: حجارة ملس؛ واحـدتها: صوانـة. والسـبت: النعال التى تصـنع من الجلود المدبوغة. وأزل، أى أملس صـفحته ظـاهرة. والأديم: الجلـد، هـذا ما قاله أبوذر، فيما قال السـهيلى: أى حـذوناها نعالًا من حديـد، جعله سـبتا لها مجازاً، وصوان: من الصون، يصون حوافرها، أو أحقافها، إن أراد الأبل فقـد كانوا يجـذونها السـريح، وهو جلـد يصون أخفافها. وأظهر من هذا أن يكون أراد بالصوان يبيس الأرض، أى لا سبت لها إلّاذلك.

۲- معان بفتح الميم: موضع بالشام، والفترة: الضعف والسكون، والجموم: اجتماع القوّة والنشاط بعد الراحة.

۳- مسومات: مرسلات. والسموم: الريح الحارة.

۴- مآب: اسم مدينة فى طرف الشام من نواحى البلقاء. قال السهيلى: يجوز نصبه بفعل مقدر، أو مرفوع على الابتداء.

۵- البريم فى الأصـل: خيطـان مختلطـان أحمر وأبيض، تشـدّهما المرأة على وسـطها أو عضـدها. وكـل ما فيه لونان مختلطان فهو بريم أيضاً. يريـد مـا علاهـا من الغبار، فخالط لونه لونها. والـدمع المختلط بالإثمـد. وهـذا أقرب لمعنى البيت: أى أن دموع الخيل اختلطت بالتراب فصارت كالبريم.

۶- ذى لجب: أى جيش. واللجب: اختلاط الأصوات وكثرتها والبيض: ما يوضع على الرأس من الحديـد. والقوانس: جمع قونس، وهو أعلى البيضة.

۷- وتئيم: تبقى دون زوج، يقال: آمت المرأة إذا لم تتزوج.

ص: ۱۷۹

ثمّ التقی الناسُ واقتتلوا، فقاتل زید بن حارثة برایة رسول اللّه صلی الله علیه و آله حتی شاط

[أی سال دمه فهلک

] فی رماح القوم.

ثمّ أخذها جعفر فقاتل بها، حتی إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء

[أی رمی بنفسه عنها

] فعقرها، ثم قاتل حتی قُتل، فکان جعفر رضوان اللّه علیه أول رجل من المسلمین عَقَر فی الإسلام.

[وعلی فرض صحّة هذا الخبر، فقد یکون المبرر لعقرها هو خوفه من أن یأخذها العدو فیقاتل علیها المسلمین

] وقاتل حتی استشهد رضی اللّه عنه وهو ابن ثلاث وثلاثین سنة، فأثابه اللّه بذلک جناحین فی الجنة یطیر بهما حیث شاء بعد أن قطعن یداه فی المعرکة....

فلما استشهد جعفر أخذ عبداللّه بن رواحة الرایة، ثمّ تقدم بها، علی فرسه، فجعل یستنزل نفسه، ویتردد بعض التردد، ثمّ قال:

أقسمت یا نفس لتنزلنَّهْ لَتنزلِنَّ أو لَتُکرَهِنَّهْ

إن أجْلَب الناسُ وشدّوا الرَّنَّهْ مالی أراکِ تکرهین الجنَّهْ (۱)

قد طال ما قد کنتِ مطمئنهْ هل أنتِ إلّانُطفة فی شَنّهْ

وقال أیضاً:

یا نفسُ إلا تُقتلی تموتی هذا حِمام الموت قد صَلیتِ

وما تمنّیت فقد أُعطیتِ إن تفعلی فِعلهما هدیتِ

وإن تأخرتِ فقد شقیتِ

یرید بهذا صاحبیه اللذین استشهدا قبله: زیداً و جعفراً، وتقول الروایة: ثمّ نزل، فلما نزل أتاه ابن عم له بعَرقٍ لحم

[عظم علیه بعض لحم

] فقال: شدّ بهذا صُلبک، فإنک قد لقیت فی أیامک هذه مالقیت، فأخذه من یده ثمّ انتهس منه نهسة (۲).

۱- أجلب القوم: صاحوا واجتمعوا. والرنة: صوت فیه ترجیع شبه البکاء.

۲- نهس اللحم: أخذه بمقدّم الأسنان، والنهش: الأخذ بجمیعها. أنظر لسان العرب: نهس.

ص: ۱۸۰

ثمّ سمع الحطمة (۱) فی ناحیة الناس، فقال: وأنت فی الدنیا! ثمّ ألقاه من یده، ثمّ

أخذ سیفه فتقدّم...

وروی أنّ الرایة لما انتهت إلی عبداللَّه بن رواحة، جاءه الشیطان فرغبه فی الحیاة وکرّه إلیه الموت، ثمّ تذکر فصاح بأولئک النفر الذین

حضروا ذلک المجلس، الذی بعث إلیهم رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، فتلا علیهم:

«إنّ اللَّه یحب الذین یقاتلون فی سبیله صفاً کأنهم بنیان مرصوص» (۲)

أین ما کنتم عاهدتم اللَّه علیه، قد جاء

مصداقه، اصدقوا اللَّه بصدقکم.

فجاؤوه یَخبون کأنهم بقر نزعت من تحتها أولادها، فتقدموا بین یدیه، وأُتی ابن رواحة بلوح من ضلع وقد التاث (۳) جوعاً فردّه وقال:

هذا أدعه فیما أدعه من

الدنیا، فشدّ علیهم وشدّوا حتی شُدِخوا جمیعاً.

إذن، ما إن قتل جعفر بن أبی طالب حتی دعا الناس: یا عبداللَّه بن رواحة، یا عبداللَّه بن رواحة.

وکان فی جانب العسکر، ومعه ضلع حمل ینهسه، ولم یکن ذاق طعاماً قبل ذلک بثلاث، فرمی بالضلع ثمّ قال:

وأنت مع الدنیا!

ثمّ تقدم، فقاتل، فأصیبت إصبعه، فارتجز قائلًا:

هل أنتِ إلّااصبعٌ دُمیتِ

۱- الحطمة: زحام الناس، وحطم بعضهم بعضاً. اللسان: حطم.

۲- الصف: ۴.

۳- التاث فلان فی عمله: أبطأ، والمراد هنا: ضعف. أنظر اللسان: لوث.

ص: ۱۸۱

وفی سبیل اللّه ما لَقیتِ

یا نفسُ إلّاتُقتلی تموتی...

وواصل أرجوزته هذه وقد ذکرنا شیئاً منها هنا وشیئاً هناک.

ثم قال: یا نفس، إلی أیّ شیء تتوقین؟!

إلی فلانهٔ؟!

فهی طالق بالثلاثهٔ، وإلی فلان وفلان، غلمان له، وإلی معجف: حائط له، فهو للّه ولرسوله، ثمّ ارتجز:

یا نفسُ مالک تکرهین الجنهٔ

أُقسمُ باللّه لتنزلنّه

طائعهً أو لا لَتُکرَهنّه

فطالما قد کنتِ مطمئنهٔ

هل أنت إلّانطفهٌ فی شنّه

قد أجلبَ الناسُ وشدّوا الرّنّه

وفی خبر أنّ ابن رواحهٔ لما نزل للقتال طعن، فاستقبل الدم بیده فدلک به وجهه ثمّ صرع بین الصفین، فجعل یقول: یا معشر المسلمین، ذبّوا عن لحم أخیکم، فجعل المسلمون یحملون حتی یحوزوه، فلم یزالوا کذلک حتی مات مکانه.

ویصف الدکتور الجمیلی ما دار فی غزوهٔ مؤتهٔ بقوله: وفی غزوهٔ مؤتهٔ یواجه المسلمون فرسان الروم بأعداد کثیرهٔ لا تحصی تملأ السهل والجبل، ویستشرف المسلمون عدوهم المدجج بالسلاح، مسلحین بالیقین والتقوی، وتقابل الجمعان والتحم الفریقان، وسقط «زید بن حارثهٔ» أمیر جیش المسلمین، فاستلم مکانه «جعفر بن أبی طالب» وسرعان ما سعت إلیه الشهادهٔ وعوجل إلی ربّه، فکان عبداللّه بن رواحهٔ ثالث الأمراء الذین تولوا إمرهٔ جیش المسلمین، فضربوا أجناد هرقل من الروم، وأخذ یصول ویجول فی أحشائهم حتی أدرکته الشهادهٔ، وما هی إلّالحظات حتی یتناهی خبر الشهداء الثلاثهٔ إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله وما قدّموه من بطولات وفدائیهٔ، فترحم علیهم واستغفر لهم ثمّ

ص: ۱۸۲

أطرق قليلًا ثمّ قال:

«لقد رفعوا إلیّ فی الجنّة»

وفی خبر عن أنس: أنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله نعی إلی الناس- أو إلینا- جعفراً وابن رواحة وزیداً وعیناه تذرفان. ولما قتل جعفر بمؤتة أخذ الرایة بعده عبداللَّه بن رواحة فاستُشهد.

قال: ثمّ دخل الجنة معترضاً، فشقّ ذلک علی الأنصار فقالوا: یا رسول اللَّه، ما اعتراضه؟

قال: لما أصابته الجراح نکل فعاتب نفسه فَشَجُع فاستشهد فدخل الجنة، فسُرّیَ عن قومه.

وفی خبر آخر عن ابن إسحاق أنه قال: ولما أصیب القوم، قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، فیما بلغنی: أخذ الرایة زید بن حارثة فقاتل بها حتی قُتل شهیداً، ثمّ أخذها جعفر فقاتل بها حتی قتل شهیداً.

قال: ثمّ صمت رسول اللَّه صلی الله علیه و آله حتی تغیّرت وجوه الأنصار، وظنوا أنّه قد کان فی عبداللَّه بن رواحة بعض ما یکرهون، ثم قال: ثمّ أخذها عبداللَّه بن رواحة، فقاتل بها حتی قُتل شهیداً. ثم قال: لقد رفعوا إلیّ فی الجنة، فیما یری النائمُ، علی سرر من ذهب، فرأیت فی سریر عبداللَّه بن رواحة ازوراراً

[أی میلًا وعوجاً

] عن سریری صاحبیه، فقیل: عمّ هذا؟ فقیل لی: مضیا وتردّد عبداللَّه بعض التردّد، ثمّ مضی. وفی خبر أنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله صعد المنبر، وأمر فنودی:

الصلاة جامعة! فاجتمع الناس إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فقال: باب خیر، باب خیر، باب خیر! أخبرکم عن جیشکم هذا الغازی، إنهم انطلقوا فلقوا العدو، فقتل زید شهیداً واستغفر

ص: ۱۸۳

له، ثمّ أخذ اللواء جعفر، فشدّ على القوم حتى قتل شـهيداً، فشهد له بالشهادة واستغفر له، ثم أخذ اللواء عبداللَّه بن رواحة، فأثبت قدميه حتى قتل شهيداً، فاستغفر له...

وفى رواية قال النبىّ صلى الله عليه و آله: «مثلوا لى فى الجنة فى خيمة من درّة كلّ واحد منهم على سرير، فرأيت زيداً وابن رواحة فى أعناقهما صـدوراً، وأما جعفر فهو مستقيم ليس فيه صدور، قال: فسألت أو قال: قيل لى: إنهما حين يخشيهما الموت كأنهما أعرضا أو كأنهما صدّا بوجوهما، وأما جعفر فإنه لم يفعل».

وفى خبر عن أنس: أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله نعى إلى النـاس- أو إلينـا- جعفراً وابن رواحـة وزيـداً وعيناه تـذرفان. ولما قتل جعفر بمؤتة أخذ الراية بعده عبداللَّه بن رواحة فاستُشهد

قال ابن عيينة: فذلک حين يقول ابن رواحة:

أقسمت يا نفس لتنزلنه بطاعة منک أو لتکرهنه

فطالما قد کنت مطمئنة جعفر ما أطيب ريح الجنّة «۱»

ووقف حسان بن‌ثابت يوم مؤتة يبکى ويرثى جعفراً ولما انثنى من رثائه راح يرثى ويبکى زيد بن حارثة وعبداللَّه بن رواحة؛ وممّا قاله فى عبداللَّه بن رواحة:

ثمّ جُودى للخزرجىّ يدمع سيداً کان ثمّ غير نزور

قد أتانا من قتلهم ما کفانا فبحزن نبيت غير سرور

وله أيضاً:

فلا يبعدن اللَّه قتلى تتابعوا بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر

وزيد وعبداللَّه حين تتابعوا جميعاً وأسباب المنية تخطر

فيما هناک مرثية بحقهم ألقاها کعب بن مالک يوم وصول خبر استشهادهم رضوان اللَّه عليهم.

نام العيون ودمعُ عينک يهمل سحّاً کما وکفَ الطبابُ المخضلُ (۱)

فى ليلة وردت علىّ همومها طوراً أحنّ وتارةً أتململ

واعتادنى حزن فبت کأننى بينات نعش والسّماک موکّل

وکأنما بين الجوانح والحشى ممّا تأوبنى شهاب مُدخل

وجدا على النفر الذين تتابعوا يوماً بمؤتة أسندوا لم ينقلوا

صلّى الإله عليهم من فتيهٔ وسقى عظامهم الغمام المسبل

صبروا بمؤتة بلاله نفوسهم حذر الردى ومخافةً أن ينکلوا

فمضوا أمام المسلمين کأنهم فُنقُ عليهن الحديد المرفل (۲)

ثم يواصل رثاءه لجعفر بن أبى طالب رحمه اللَّه تعالى.

وقال شاعر آخر ممّن کان حاضراً غزوة مؤتة:

کفى حزناً أنّى رجعت وجعفر وزيد وعبداللَّه فى رمس أقبُرِ

قضوا نحبهم لما مضوا لسبيلهم وخُلفتُ للبلوى مع المتغيّر

ثلاثة رهط قُدّموا فتقدّموا إلى ورد مکروه من الموت أحمر

فسلام عليک يابن رواحة قرير العين بين الأبرار الذين صدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه (۳).

۱- الطبابة وهی سیر بین خرزتین فی المزادة، فإذا کان غیر محکم ولف منه الماء وقیل الضباب، والمخضل: السائل الندی.

۲- الفنق: الفحول من الإبل، الواحد: فنیق. المرفل: الذی تنجر أطرانه علی الأرض، یرید أن دروعهم سابقة.

۳- أنظر ترجمة حیاة هذا الصحابی الجلیل فیما تیسّر لی من مصادر، السیرة النبویة لابن هشام، وتاریخ الطبری، ومختصر تاریخ دمشق لابن منظور، والتاج الجامع للأصول للشیخ منصور علی ناصیف، وصحابة النبی صلی الله علیه و آله للدکتور الجمیلی...

ص: ۱۸۴

ص: ۱۸۵

من معالم التراث رسالتان و قصيدة

اشارة

تقديم: محمّد رضا الأنصارى

يتوجه المسلمون إلى الكعبة المشرفة والمسجد الحرام- زادهما اللَّه شرفاً وعزّاً- صباحاً و مساءً، لا بجباههم ووجوههم فحسب، وانّما يتوجّهون بقلوبهم، خاشعين للَّهسبحانه، ومتذكرين نِعمه السابقة، وآلاءه الوافرة عليهم، بأنْ مَنّ عليهم وبعث فيهم رسولًا من أنفسهم يتلو عليهم آياته، فالكعبة قبلة العاشقين الوالهين لذات اللَّه سبحانه، ومن ديدن العشاق التغزّل بصفات المعشوق، والتذكير بمحاسن جمال المحبوب، فكم من العُرفاء تغزّل بالكعبة المشرفة، فمدح أحجارها وأستارها وميزابها وأركانها وحِجْرها ومياه زمزمها، بل وتعدى بعضهم من ذلك، فتغزّل بالطائفات وبثيابهنّ البيضاء، وكذلك المدينة المنورة، منزل الحبيب- عليه وعلى آله الطيّبين الأطهار أفضل الصَّلوات والتحيات- ودار هجرته، ومهبط الوحى ومثوى جثمانه الطاهر.

ولعلّ المدينة أقرب الى قلوب العاشقين الوالهين من مكّة، لأنّ رسولاللَّه صلى الله عليه و آله باب اللَّه، والتذكّر بفضائله وفضائل آل بيته الكرام، يعدّ من أقرب القُربات الى اللَّه تعالى، وقد ورد فى الحديث الشريف التأكيد على تعطير المجالس بذكر محمّدٍ و آل بيته الكرام، هذا فضلًا عن أنّ المدينة فيها من الذكريات ما يثير فى نفس المؤمن الفرح والحزن، والسّرور والشّجن، فحينما يستعرض المرء سيرة الرسول صلى الله عليه و آله منذ

ص: ۱۸۶

حَلّ بهذه الرقعة من الأرض، واستقرّ بها وبنى فيها داره، وجاهد- منطلقاً منها- الكفار والمشركين، وثبّت أركان الإيمان فى جزيرة العرب، مع نفرٍ قليل من صحابته الكرام، وعلى رأسهم ابن عمّه وصهره، وأوّل مَنْ آمن به علىّ بن أبى طالب عليه السلام، ينتابه الفخر والسرور والفرح لهذا الجِدّ والعزم الّذى لولاهما لكان العالم لازال غارقاً فى جهالات الجاهلية الجهلاء، إذ بنوره وبهديه اهتدينا، وبأحكام شرعه الشريف على الصراط المستقيم سرنا.

لكن حينما يلاحظ ما حلّ بشريعته وبوصيته وبقرابته من أهل بيته، من غصب حقوقهم، وإبعادهم عن المناصب التى نصّبهم اللّه فيها، ومن نكرانهم لأجر الرسالة الوارد فى قوله تعالى:

«قُلْ لا أَسألُكُم أجراً إلّاالمَوَدّة فى الْقُرْبى»

، وإمعانهم فى الضرب والقتل والتشريد، وما إلى ذلك من المصائب التى أوردوها على آل الرسول صلى الله عليه و آله، يغمُره الحزن والأسى. ومن هذا المنطلق شاع فى فترة (ولعلها القرنين الثامن والتاسع للهجرة) هذا النمط من الرسائل، التى يتخيّل كاتبها إنسيّة هاتين المدينتين، فيأتى بالحجج والأدلة عن لسان كلّ واحدة منهما، فترى المدينتان المقدستان تتفاخران بما منحهما اللّه سبحانه وتعالى من المحاسن والمفاخر، وتتبارزان بما أودع فيهما من المآثر والمناقب، فكلّ مدينة ترى نفسها هى السَّباقة فى كسب المعالى من اختها، وأولى بالمدح من ضرّتها، وأجدر بأن تكون ممدوحة من نظيرتها، وفى سبيل بلوغ ذلك تبرز كلّ واحدة منهما ما فى خزانتها من الآيات الكريمة، والمأثورات النبويّة الشريفة الواردة فى حقّها، هذا فضلًا عن دلالات السيرة والتاريخ، ولا تكتفى بهذه الأدلة، بل تتمسك بشتى الوسائل لإقناع خصمها، وأخذ الإقرار منها على نفسها.

وتشتدّ المنازلة، ويحتدم الصراع، فترى الأدلة المبرزة تسقط وتدحض حينما تبرز الأخرى أدلتها، لكن سرعان ما تقيم الاخرى دليلًا آخر على صدق دعواها، وهكذا دواليك، حتى أنّ القارىء ليظنّ أنّ الصراع والنزال لا ينتهيان، إلّاحين

ص: ۱۸۷

زوال الدنيا وقيام الآخرة! لكن فی لحظةٍ من اللّحظات، وبقدرة القادر المتعال، يخرج الحَكَم العدل، فيهدّؤ روعهما ويسكّن فورتهما، ويعطی لكلّ منهما السَّبق والفضل والقدم، دون أنْ ينقص من الاخری شيئاً، وترضی كلّ واحدة منهما بما قسّم اللّه لها وقدّر، فيعود الوئام والسلام، وتتوادع المدينتان، وتعود كلّ واحدة منهما إلی موضعها بسلام وأمان، لتبقيا قبلة للطائفين والزائرين أعواماً وأعواماً، إلی أنْ يرث اللَّهُ الأرضَ ومَنْ عليها من الأنام.

وتعدّ مجموعتنا من هذا النمط من الرسائل، وهذه المجموعة المودعة فی خزانة (كتابخانه مجلس شورای اسلامی) برقم ۴۵۵۹ (فهرست كتابهای خطی كتابخانه مجلس شورای اسلامی ج ۱۲/ ص ۲۴۶) من ورق ۱۵۰ ب إلی ۱۵۶ ب، تحتوی علی رسالتين وقصيدة، واليك مواصفاتها:

-۱

الرسالة الأولی: وهی المسماة ب (المرور بين العلمين إلی مفاخرة الحرمين).

-۲

الرسالة الثانية: وهی أيضاً فی المفاخرة بين الحرمين الشريفين، أنشأها سراج الدين عمر بن رسلان البُلْقِينی، ولم يسمّها المصنف باسم خاص بها.

-۳

قصيدة طويلة من ۳۴ بيتاً، أنشدها ابن الخطيب الإربلی تعليقاً علی الرسالة الأولی سنة ۷۶۶ هجريّة.

أما الرسالة الأولی، فإنّ كاتبها هو علیّ بن يوسف بن الحسن الزرندی الأنصاری المدنی، وقد ترجمه ابن حَجَر فی

«الدرر الكامنة فی أعيان المائة الثامنة»

۳: ۲۱۶، بقوله: «علیّ بن عزّ الدين يوسف بن الحسن بن محمد بن محمود بن عبداللّه الأنصاری الزرندی، ثم المدنی الحنفی، نور الدين أبو الحسن ابن أبی المظفر بن الزرندی. ولد سنة عشر أو قبلها وقيّده بعضهم سنة ثمانٍ (أی ثمانٍ وسبعمائة)، وسمع من إسماعيل التفليسی، ومن ابن شاهد الجيّش، وكان قد حفظ ربع الوجيز فی الفقه علی مذهب الإمام الشافعی، ثم تحوّل حنفيّاً وتفقه علی مذهب الحنفيّة، ونظر فی الآداب، وشارك فی الفضائل، وطلب الحديث، وسمع

ص: ۱۸۸

بـدمشق والقاهرة وبغـداد، ودخل خوارزم وغیرها، وشارک فی الفضائل، وولی قضاء المدینـة والتدریس بها والحِسْـبة فی سـنة ۷۶۶ ه، وهو أول قضاة الحنفیّة بالمدینة...

قال ابن حبیب: وله مقامة بدیعة فی المفاخرة بین مکّة والمدینة. ومات بالمدینة فی سابع أو ثامن ذی الحجّة سنة ۷۷۲ ه».

أمّا کاتب الرسالة الثانیة، فهو سراج الدین البُلْقِینی، من أعلام القرن الثامن، حیث جاء وصفه فی بدایة الرسالة بأنّه:

«شیخ الاسلام، عَلَم العلماء، لسان المتکلمین، سیّد النظر»

، ولم أعثر علی ترجمته فی المصادر المتیسّرة، سوی ما ذکره ابن حَجَر فی

«الدُّرر الکامنة فی أعیان المائة الثامنة»

۴: ۲۲۳، فی سیاق ترجمته لابنه، حیث قال:

«محمّد بن عُمر بن رسـلان بن نصـیر بن صالح البُلْقِینی، بدر الدین بن شـیخنا سـراج الدین...»، حیث یستفاد منها أن سراج الدین کان من مشایخ ابن حَجَر العسـقلانی، وجاء فی سیاق الترجمة أنّ عمر بن رسلان وَلی قضاء الشام سنة ۷۶۹ ه، وقضاء العسکر قبل سنة ۷۸۹ ه، وأنّ ولده محمد بن عمر توفی قبله بأربعة عشرة سنة، أمّا الوالد فقد مات سنة ۸۰۵ ه.

أمّا ناظم القصـیدة، وهو المکنّی فی بدایة القصـیدة بابن الخطیب الإربلی، حیث نظم القصـیدة سـنة ۷۷۶ للهجرة، فلم أجـد له ذکراً فی المراجع المتیسّرة، وقد وصفه کاتب النسخة بقوله: «الإمام العلّامة الهمام، مقتدی أکابر الأنام، علّامة أئمة العلّام، ناظم جواهر البلاغة فی بساط أسالیبها، وناثر أزاهر البراعة علی بساط تراکیبها، مُظهر أسـرار المعانی من صـفاء معادنها، ومُبدر أقمار البیان فی سـماء محاسنها، بدر الملّة والدنیا والدین، شمس الإسلام ونجم المسلمین».

وبین یدی القارئ نقدّم هذه المجموعة ضمن الترتیب التالی:

ص: ۱۸۹

تصویر ۱؟؟؟

ص: ۱۹۰

تصویر ۲

ص: ۱۹۱

۱- المرور بين العَلَمين إلى مفاخرة الحَرمين

من تأليف العبد الفقير إلى اللَّه تعالى، علىّ بن يوسف بن الحسن الزرندى الأنصارى المدينىّ، المحدّث بالحرم الشريف النبوى، عامله اللَّه بلطفه.

بسم اللَّه الرحمن الرحيم، و به نستعين

من طريف المحاضرة، و ظريف المذاكرة، ما حُكى من مناظرة الحرمين، و مفاضلة المحلّين المعظّمين.

ذُكر أنّهما اجتمعا فى ميدان الفخر و من دونهما حجاز، و ليس معهما لغيرهما فى هذا المقام على الحقيقة مجاز، فَبَرز حرم المدينة الشريفة، و تسنّم شُرَفاً منَ الشّرف عال، واستفتح المقال،

و قال:

الحمدُ للَّهالّذى فضَّلنى على سائر البلاد، و جمع لى بين طريف الفضل والتلاد، (۱) و شرّفنى بحُلول خير العباد، و أشرف كلّ حاضرٍ و باد، وألبسنى

۱- التالد: المال القديم الأصيل.

ص: ١٩٢

ملابس الفخر الفاخرة، و أعلى مقامى فى الـدُّنيا و الآخرة، و جعل تُربتى شـفاءً من السّقام، و غبارى دواءً من الجُذام، فلى الشَّرفُ على كلّ إقليم، و الفضلُ فى الحديث و القديم، و باسمى يُفوّه كلّ خطيب، و عَرْفُ (١) تَربى أطيبُ مِنْ كلّ طِيب:

لا تَحسبِ المِسْكِ الّذكىّ كتُربِها هَيهاتَ أين المِسْك من ريّاها

فالمقامُ بى من المكاره جُنّة، إذ كانت فى روضةٍ من رياض الجنّة، (٢) و حسبى

فخراً المنبر التى عَلَتْ مراقيه، و حاز جميع الشَّرف برَاقِيه (٣)؛ فإلى مسجدى تُشدُّ

الرِّحال من كلّ قريةٍ وفلاة، و الصّلاة فيه- كما قد عُلِم- بألف صلاة؛ فلى السَّناء (۴)

البـاذخ، و العلاءُ الـذى هو بـأرض المجـد راسـخ، فلاـ غَرْو إنْ سـبقتُ فى هـذا المضـمار، و ركضتُ فى ميـدان الفخار، «فأحقّ الخيل بالرّكض المعار».

فلمّا سمع الحرم المكّى هذه العبارة، و فهم دلالة نصّها و الإشارة، قال:

كأنّكِ: «إيّاك أعنى و اسمعى يا جارة»!

أيّها المدينـة المسـكينة! عليـك السـكينة! أبى تُعرِّضـين، أم لى تتعرّضـين، أم علىَّ تسـتظهرين، أو مع وجودى تفتخرين؟! تاللّه ما سَال إليكِ إلّاما فاض منّى، و لا وَصَلكِ إلّاما فَضُل عنّى.

أما علمتِ أنّ بيّنتى أعظم البيّنات؟ أما سمعتِ قولهُ تعالى: [فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ (۵)؟]

ألكِ مثلُ الكعبةِ ذات السّتور، و البيتُ المقابل بالبيت المعمُور، الذّى هو عين الوجود، و مطلع السّعود؟!

١- العَرْفُ: الرّيح، طيّبة كانت أو خبيثة.

٢- اشارة إلى الحديث النّبوى المتواتر: «بين قبرى و منبرى روضةٌ من رياض الجنّة».

٣- الذى يصعد على المنبر و يركبه، و يقصد به رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

۴- السَّناء: بالمد، الرفعة.

۵- آل عمران: ٩٧.

ص: ۱۹۳

أفی صفاتک کالصَّفا، أم فی نعیمک کالتّنعیم؟! (۱)

أم هل قام لکِ مکانٌ مقام إبراهیم، و هل حدا حادی میاهک بمثل المصافی و زمزم؟!

أو تحقّقتْ علمُ کیمیاء السّعادهٔ، و ظفرت بالحَجَر المکرّم؛ الَّذی هو کالمُقلهٔ السوداء فی البیت، أو کمشکاهٍٔ فیها من الجنّهٔ زیت؟!

فاربعی (۲) علی نفسکِ، و إیّاک أن تترفّعی علی أبناء جِنْسکِ؛ فإن کانت

الصلاهٔ فی مسجدِکِ بألفٍ، فهی بمسجدی بمائهٔ ألف، و حول بیتی من الملائکهٔ الطّائفین و المصلّین کم من صفّ.

و إنْ فخرتِ بحلول الشفیع (۳)، ففیّ کان مسقط رأسه الرفیع:

بلادٌ بها نیطتْ علیّ تمائمی و أوّل أرضٍ مسّ جلدی تُرابُها

فأقلّی من هذا الفخر، فربّما ذُمّ الفخور، و المتشیع (۴) بمالم یؤتِ کلابس ثوبی

زور.

فلمّا سمعت المدینهٔ هذه المقالهٔ، اشتعلت (۵) اشتعال الذّبالهٔ، و بَرَزتْ بین

أنصارها و أعوانها کالبدر وسط الهالهٔ، و قالت:

یاللَّه العَجَبُ مِنْ دفع الحقّ و قد وجب! قولٌ و لا معنی، أسمعُ جعجعهً و لا أری طَحْناً، ما هذا الفعل الذی أتیتِ؟! لقد وَقَعتِ فیما أبیتِ، وارتکبتِ ما عنه نهیتِ:

لا تَنْه عَن خُلقٍ و تأتی مثله عارٌ عَلَیک إذا فَعَلْتَ عظیمُ

۱- الموضع المعروف بمکهٔ عند حدّ الحرم، والذی فیه مسجد العمرهٔ المشهورالتنعیم.

۲- الانطواء علی النفس.

۳- إشارهٔ إلی هجرهٔ النبی علیه السلام إلی المدینهٔ و سکناه فیها.

۴- فی الأصل: المقشع.

۵- فی الأصل: و لا اشتعال.

ص: ۱۹۴

ويكِ ارفعى ذيلَ إعجابكِ، و خفّفى فقد آذتكِ بعض أثوابكِ، هيهاتَ أين النجم مِن البدر، و القَطرُ من البحر، «و لكن اليوم خمرٌ و غداً أمر» (۱).

فإنْ كان فيكِ مقامُ الخليل؛ فعندى المقام الجليل، و إنْ كانت كعَبتُك بثينة الحَسَن؛ فحالى كلّه جميل، و إن فخرتِ بالبيت المقابل للبيت المعمور، فكلُّ بيتٍ من بيوتى بنُور الحبيبِ معمور، و إنْ أتيتِ بالصَّفا أتيتُ بالنبىّ المصطفى، وإنْ جئتِ بالتَّنعيم جئتُ بروضةٍ من جنّات النعيم، و إن نظرتِ إلىَّ من عين البيت وزمزم بالمقلة السّوداء، قابلتُكِ بالقُبّة الخضراء، و بهرتُكِ من بيت مال فخارى بالبيضاء و الصَّفراء، و نظرتُ إليكِ من عيونى بالعين الزَّرقاء، و إنْ كانَ بيتكِ عين الوجود، و ظفَرْتِ بالحَجَر المكرّم- و مثله لا يُضاهى و لا يُباهى- فعندى:

إنسانُ عين الكون سِرُّ كَماله ياسينُ اكسيرِ المَحامد طاها

وأمّا ما ذكرتِ من تضعيف صَلاتكِ و تكثير صِلاتك؛ فالتضعيف يحتاجُ إلى طبيبٍ حاذقٍ، فإنّه ضعيفٌ و لم يُسلّم سَنَده و لا متنه بأسنّةِ ألسنة النُقّاد مِنَ الطّعن و التجريح.

و أمّا حديث فضل مسجدى؛ فشائعٌ سائغٌ للشاربين منه المحض الصريح، فإنْ كان حولكِ من الملائكة صفوفٌ؛ ففىّ من صفوف الملائكة ألوف، أوَ ما بلغكِ أنّه ينزلُ فى كلّ يومٍ و ليلةٍ بعد صلاة الفجر و العصر، على الضَّريح الشريف، سبعونَ ألف ملكٍ، ثُمّ لا يعودون إليه آخرَ الدّهر.

و أمّا ما ذكرتِ من أنّ فيكِ كان مولد النّبىّ المعظّم، و بكِ كان مسقطُ رأسه الرفيع المكرّم؛ فصدقتِ، و لكن ولدتيهِ و ربيتهِ و أخرجتيهِ، و آويتُه و خذلتيه، ونصرتُه و عققتيه، وبررته، و كان بطنى و حجْرى فناءه، و كنتُ له امّاً شفيقة، وبه- و للّهالحمد- رفيقة، و ذلك كما قيل: بجدّى لا بكدّى، و بتوفيق اللّه كان سعدى.

۱- قولٌ منسوبٌ لامرء القيس.

ص: ۱۹۵

فدعی المکابرة، و أنصفی عند البحث و المناظرة، و إیّاکِ أنْ تأتی هذه الخِطة؛ فتقعی معی فی ورطة.

* فحین قَرَع سمعُ مکّة هذا الکلام، و قرّعت بما القی إلیها من المُلام، قامتْ و قعدَتْ، و أبرقتْ و أرعدتْ، و سَفَرتْ عن وجهها فضل نقابها، و کشفتْ ما کانت سَدَلتْ مِنْ حجابها، و دخلتْ إلی میادین المفاخرة من بابها، و نطقتْ بملء فیها، و أظهرتِ السَّرائر الّتی کانت تُخفیها، و قالت:

واعجباً کیف جَسَرَتْ علی الآساد فی آجامها الأرانب.

* لقد ذَلّ مَنْ بالتْ علیه الثَّعالبُ*

و لقد زاحمتِ الحَملان القُرّح (۱) فی المرعی، واستنت الفصال حتّی القرعی، یا

صفراء و یا بیضاء غُرّی غَیْری، ویحکِ تجوعُ الحُرَّة و لا تأکل بثدییها؛ فباللّه إلّاما نهنهتِ من کلامکِ، و تنبّهتِ من منامکِ، فما هلک امرءٌ عرف قدره، و لم یتعدّ طوره.

ألستُ امّ القری؟! ألیس أنّه أقام بی ثلاثاً و خمسین سنة سیّد الوری؟! و إنّما قام بکِ عَشْراً أو دون العشر، و إنْ لم یکن ذلک العشر فهو قریب من العشر، ألستُ أوّل بیت وُضِعَ للنّاس؟! ألیس أنّ الخلیل و الذبیحَ رفعا منّی البناء، و وضعا الأساس؟! و هاتِ خبرینی أفی کلّ یوم و لیلةٍ ینزلُ علیک مائة و عشرون رحمة، أم فی کلّ ساعةٍ تتوارد علیکِ نعمة إثر نعمة؟ أم فیکِ الأماکن التی الدّعاء فیها متحقّقُ الإجابة؟ أم بکِ مثل ذلک الحرم الرَّحبِ الّذی حفّته السَّعادة، و ملأت البرکة رحابه؟ أم لک کالمیزاب الذی تصبُّ النِّعمة منه صبّاً، و یغدو المشتاق إلیه مُغرماً و یروح صبّا؟! أفی أودیتکِ کوادی إبراهیم الّذی یجری بالخیر العمیم، و یأتی بالبرّ الجسیم؟! ألک کالأبطح و البطحاء؟ أم فی سائمة أنعام جبالک کثور و حرّاء؟ أم فی ثنایا ثغورک ککُدی و کُداء؟

۱- النعجة الکبیرة.

ص: ۱۹۶

کلّا واللّه، لا قائمة لکِ معی فی بیت الفخار، و لا قاعدة و لا بارقة لکِ فی سماء العُلاء و لا راعدة، فاقعدی فی بیتِ حبائکِ، و قوّی و عزّزی مَنْ هو أکبر منکِ و أقوی، و إیّاک ثمّ إیّاک فلا تحتقری و لا تُنقِّبی عمّا یعود علیک ضرره، و لا تنفرّی و أبصری مَنْ شأوکِ، و قصّری بعض خطوک، و قد دللتکِ طریق إخوان الصَّفا، و قد نصحتکِ فیما قلته و کفی.

* فقامت المدینة عند ذلک علی قدمیها، و نظرت بعینٍ حَمراء إلیها، و کشفتْ للحَرْب عن ساقیها، و أمسکتْ ملابس فخار ضَرَّتها مِنْ أطواقها، و قالت:

أنا ابنُ جَلّا و طلّاع الثنایا متی أضعُ العِمامة تعرفنی

تاللّه لقد وَضَح الصُّبح لذِی عینین، و لا یُطلَبُ أثرٌ بعد عین، ویحکِ ما هذا الافتخار مع الافتقار، والاستصغار لکُبری المقدار؟! و إنْ کنتِ تقولین: إنّی أصغرُ منکِ سنّاً فافهمی المعنی، فأشرفُ أعضاء الإنسان العین، و الإنسانُ أشرفَ الحدقة، و أنّ الذبابة لتدمی مقلة الأسد، و فی الشَّرارة ضعفٌ و هی محرقة، کیف و مقداری کبیر، و شرفی خطیر، فاحذری فمتی لاقی زهیرٌ شبابی تبرّم سنّکِ هرمه، و لم تبق لکِ بعد الهزیمة غیر قرع سنّک.

ویکِ! أمّا یکفیک أ نّکِ لا تعِین و لا تسمَعِین، ثمّ توبّخین و تقرعِین، فلا بالمواعظ تتّعِظین، و لا مِنْ عَطّ (۱) المُلام تمتعطین، فإن کنتِ امَّ القُری فَمن صنعتی،

أنّی القریة الّتی تأکلُ القُری، فجمیعُ البلاد جوفی، و کلُّ الصّید فی جوف الفراء.

أما تعلمین أنّ کلّ البلاد افتتحت بالسَّیف، و افتتحتُ بالقرآن؟!

أو ما بلغکِ أنّ منّی ظهر الدِّین، وانتشر الإیمان؟! فهل امتزتِ بهذه المزیّة، أم حَصَلَتْ لکِ هذه الخصوصیة؟! و علیَّ الحقیقة:

فأنا الذی فَتَحتُکِ، و منعتُ عنک الضَّیر، و بالخیر منحتُکِ، فما عرفتِ لی هذا

۱- الشِّدة.

ص: ۱۹۷

القدر، و لا رفعتِ منّی بذلک مِنَ القَدْر، لا یَشکُر اللَّه مَنْ لا یشکر النَاسا، و لکن:

مَنْ یفعل الخیر یُعدم مجازیه (۱) لا یذهبُ العُرف بین اللَّه و النّاس

و أمّا قولکِ: بأنّکِ خصصتِ مِنَ الإقامهٔ بالأکثر، و خصصتُ بالدّون؛ فذهلتُ عن المعنی، و أنّ یوماً عند ربّک کألف سنهٍ ممّا تعدّون، بل أقول لکِ:

اعکسی تُصیبی، فنصیبُکِ مِنْ ذلک کعُشرِ معشار نصیبی، فإنّه صلّی اللَّه علیه وآله و سلّم حیٌّ بمثواه، و لکنّه آوی إلی اللَّه فآواه اللَّه، و متی یطلَع بـدری مِنْ ثنیّات الوداع، لم یطلع لکِ معی نجمٌ، أوْ تبسّـمتْ ثنایا ثغور آکامی، بکتْ جفون تِلالکِ و کُـداکِ، و لم یبق لجسمها حجم، أو استمعتْ شیاطینُ حرابتکِ السَّمع من سماء سموّی، قابَلَتها ملائکهٔ السّکینهٔ مِنْ سُکّانی بالرّجم.

فإنْ فخرتِ بوادی إبراهیم، ففی کلّ واد من أودیتی قلبُ المحبّ یهیم.

و إنْ کان حَرّاء عندک جسمه و قلبه؛ فأُحدٌ جبلٌ یُحبّنا و نحبّه.

و أین العقیقُ من البطحاء، و الـدُّرّ من الحَصْـباء؟! بل أین الهباء من البهاء؟! و مع ذلک فلی فضلٌ سوی ما ذکرتِ، و شـرفٌ غیر ما إلیه أشـرت، و هو ما یبدو بأرجائی من الأنوار، و یظهر من معروفی جَلی التجلّیات، و سـرّی الأسـرار، و یکفیک من عِظَم خَطَری، و سـعادهٔ جدّی، أنّ البرکهٔ موجودهٔ متحقّقهٔ فی صاعی و مُدّی، فهل لکِ هذه المنقبهٔ، أم هل وصلتِ إلی هذه المرتبهٔ؟!

* فلمّا سَمِعَتْ مکّهٔ هذا القول، قالت:

اللّهم إنّی أبرأُ إلیک من القوّهٔ و الحول، و أسـتمدُّ منک الفضل و الطّول، لقـد آلتْ هـذه الفریضـهٔ إلی العول، ثمّ التفتتَ إلی صاحبتها التفاتَ الأسد الخادِر، و أتتْ مِنْ مفاخرها بالأوّل و الآخر، و قالت:

الآن حَمَی الوطیس، و زال التَّدلیس والتلبیس، أذکرتنی الطَّعن و کنتُ

۱- فی نسخهٔ: جوازیه.

ص: ۱۹۸

ناسياً، و يحكِ أتُسدّدين إلىَّ سهاماً أنا لكِ رشَّتها، و تُرسِلين إلىّ مِن افتخارك صباباً أنا الذى احترشتها، أظننتِ أنّكِ مثلى، أو أنّ كلامك يدخلُ اذنى، أو يقبله عقلى؟

أما عرفتِ مِنْ لفظى فضلى، أما تحقّقتِ أنّ ابنا لبونك لا يستطيعون صولة بزلى، فهل لعقدكِ نحرٌ كنحرى؟! أم قد غرقتْ سفينتكِ فى لجِّ بحرى؟! أما تخشين أن تحترقى إذا دنوتِ من تلك الجمرات؟ أما فى قلبكِ مِنْ محُسّر حَسَرات؟

بلى واللّه، و تذهِبَ عنك أنصاركِ، و يفترق الجمعُ حتّى قابلتكِ من مفردى بجمعٍ؛ فلو شاهدتِ من عرفة لعرفتِ مِنْ قدرك، و ظفرتِ ما عَظّمتِ مِنْ أمركِ، أتراكِ إذا خطرتِ بوادى الأراك، يخطُر ببالكِ أم ما ثَمّ سواك؟! و إنْ ذُكر نعمان هَل منعمٌ مالىء واديكِ، بل إذا اعيدَ حديث حُنينٍ سَكَن حنين نياق ناديكِ، فكم مخالفٍ لهواه ولى مخالِف، و كم مِنْ واقفٍ ببابى و عاكف، و كم مِنْ طائِفٍ بى و معتمر، فمرحبا بطوافٍ بفنائى،... أما عَلمتِ أنّ مِنْ صرف شراب المحبّة مشروبى؟ أما عرفتِ أنّه لا يزال معى محبوبى؟ أما كلّ من أتانى و قلبه سَليمٌ، يروح و هو من الوجد بى سليم، فأُقسِمُ من نجوم مياهى بالزّاهر، و مِنْ جيادها فى مصاف مصافها بالسّابق الماهر، لئن لم تُكَفْكِفى عنّى غَرْب سوانيك (۱)، و تُثنى عِنان ثنائِك على

۱- الغَرْب: الدلو، والسانيّة: البئر وأداته.

ص: ۱۹۹

مغانيك، لأُجرِّدن إليكِ مِنْ مفاخرى جيشاً ما لك به يدان، و لأفنيينَّ أنصاركِ بكلّ هاشمى خؤولته بنى عبدالمُدان، فقفى عند حدِّكِ، فكم تُرهبين بخرزكِ و مَدّكِ، وتكيلين بصاعك و مُدّكِ، و لا تكونى كالباحث عن حتفه بظُلفه، فمقتل المرء بين فكّيه، و رُبّما قُتل الإنسان بسيفه، و إيّاكِ و بأسى العتيد، و بطشى الشَّديد، وإن كان لسان فخركِ ذهباً أو فضّة، فلسانى حديد، و حَذارِ حَذار مِنْ شفار النفار، ونصال نضال النظّار و النُّقار، فقديماً قيل:

توقّ مُعاداة الرجال، فإنّها مكَدِّرةٌ للصَّفو مِنْ كلّ مشرب، و لا تستثر حوبا، وإنْ كنتَ واثقاً بشدّة بأس، أو بقوّة منكبٍ،

و لا يشربُ السُّم الذعاف أخو حَجى مُدلًا بدرياقٍ لديه مجرّبُ

ويكفيك من شرفى أنّ الجمهور يحكم لى عليك بالغلبة و الظهور.

* فلمّا سمعت المدينة كلامها، ضَرَبَتْ طبولها، و نَشَرتْ أعلامها، وبرزت بروز الأسد من غابه، والسَّيف من قِرابه، وقالت:

ويحكِ!! أتستصغرين قَدْرى، وتحتقرين أمرى، و أنا جذيلها المحكك، وعُذيقها المرجّب، و سنانها المدرّب، وفارسها المجرّب، فواعجباً! تستخفّين ثمّ تستخفين، و تستكفين و لا ـ تكفين، أما بلغكِ أنّ البادىءَ أظلم، و أنّ دفع الشرّ بالشرّ أحزم، أما سمعت قول الأوّل:

دَع الشرّ و انزل بالنَّجاة بمعزلِ إذا أنتَ لم يصبغك فى الشَرّ صابغُ

و لكن إذا ما الشرّ أرخى قِناعه عليك فجرّد دفع ما أنت دافع

و قول الآخر:

إذا أنتَ لم تنْصِف أخاك وجدته على طرف الهجران إن كان يعقلُ

ص: ۲۰۰

يركب حدّ السيف من أن يضيمه إذا لم يكن عن شفرة السيف مرحل

و عجبتُ منكِ كيفَ تَفتخرين بوادِيكِ و بَواديكِ، و ينادى مناديكِ بناديكِ، و هنا أقول:

ليس بعشّك فأدرجى، و لا بمقامكِ فاخرُجى، و حين وصلتِ إلى هذا المعترك، وحصلتِ فى الحبالة، و وقعتِ فى الشَّرك، وأمكنتِ الرّامى مِن الرَّمية، و أرخيته من هذه القضية؛ فمتى ذُكِر لسموك نسيمى العليل، صار قلبه بحرّه مريضاً أو كالمريض، أو عارض فضائى الواسع ما بين مأزميك، وقع معه فى الطويل و العريض، أو عاينت شجراتكِ مِنْ نخيلى تلك الثمرات، تقول قلوبها غمرات ثمّ تبخلين، و لكن لا تبخلى تلك الغمرات، أو شاهد واديكِ خلال أسحار وادى العتيق ظِلال تلك السَّمرات، يتلهّفُ أسفاً على ما فاته من ذلك، و يتلهّب بالزَّفرات، فلا جَرَم كان فى قلبه لـذلك جمرات، و مهما بـدتْ لك غابتى فررتِ من زئير آسادها، أو لاحتْ لكِ العوالى من جِنانى رُدّت سيوفُ فَخركِ إلى أغمادها.

أمّا سـمومكِ تذوبُ منه كلّ كبدٍ حرّى، و كلّما خلا وقتٌ فيك مرّ سريعاً، و أعقبَ مفارقه صبراً، فأنتِ من جبالك مع أرضى الواسعة فى ضـيق، فلتُسافر عين شِـعابكِ الضـيّقة فى فسـيح أرضـى و ليمرّ بى، فأنا على الطريق، و ما برحتْ تطيفُ من الأكباد برياضى البهيجة حرارها، فتطفئ بنسائمى الأرّجة نارها، و يخبو أوارها.

واعلمى أنّك متى قـابلتنى بنحرك، كففتُكِ بكفّ حُجّتى، ولم أدفع مقالتـكِ بصـدرى، أو تبـذلتِ فى حنينـكِ قابلتكِ من الجمال ببـدرى، و إنْ جَلَوتْ عروس كعبتـكِ، أتيتُ من الملىّ بالبهـاء والكمـال بالبرهان الجلىّ، أو افتخرتِ بطوافكِ و عُمركِ، افتخـذتُ من مقـام الجمـال و الجلال بِعَلِىّ، و إن أجريت ذِكْر زمزمكِ و مصافيك، أو مراعى شِـعابك و واديكِ؛ فاسـمعى ثمّ أنظرى، فليس الخبر كالعيان، ماءٌ و لا كصدا، (۱) و مرعى و لا كالسّعدان، (۲) و إن يكن عندكِ المشروب فعندى

الساقى، أو سليم المحبّة فلدىّ الصاعد، فى دَرْج المعالى و الراقى، و أراكِ تفخرين

۱- شدة العطش.

۲- سعدان نبت تأبى الدواب أكله.

ص: ۲۰۱

بوادى الأراك، و تحنن جيادكِ بين يديكِ و وراءك، فباللّه إلّاما تركتِ ما عراكِ مِنْ مراك؛ كما أنّ ساكنى سيّد العباد و لا فخر، و أقسمُ من غاباتى بالأسود، و من أكباد لأياتى بالحرار السود، و مِنْ أزهار رياضى بوشى البرود، و من أغصان نخيلى و أشجارى بكلّ قدّ المود، و من رياح بساتين بالعاليّة، و من سواقى جنان بكلّ ساقيةٍ جارية، و جاريةٍ ساقية، لئن لم تتركى بعض نفاركِ، و تلبسى ثوب وقارك، لأبعثنّ إلى مياهكِ مِنْ عيون نقّاد عيونى، مَنْ يُظهر زيف جيادها، و لأجردنّ إليها من معالمى جيشاً، يقلعُ خيام فخر جبالها بأوتادها!

وأمّا ما احتججتِ به من كلام الجمهور، وأنّ ذلك عندهم هو القول المشهور، فجوابك:

فرقٌ ما بين الدرهم و الدينار فى الصَّرف، و النّاس ألفٌ منهم كواحد و واحدٌ كالألف، و أن إذا حقّقتِ المآخذ و المدارك، تيقّنتِ كمالى فوق كمالكِ، و إذا أنعمتِ النظر حَقّ الإنعام، فمالكِ كمالكِ، و حَسْبُكِ مِنْ دحوض حُجّتكِ و الانقطاع، أن ما ضَمّ أعضاءهُ صلّى اللّه عليه و آله، أفضل الأرض بالإجماع، وهاك خُذى من الفضائل ما ليس مُثبتاً فى بطاقتكِ، ومن كُوى المفاخر ما يكون فوق طاقتكِ، أليس أنّ الطاعون لا يقربُ مقامى و لا يدخل، كما لا يدخُل الدجّال باباً من أبوابى؟! فهل لكِ فى هذه المسألة قولٌ أو عمل؟

كلّا واللّه، بل لا ناقة لكِ فى شرح هذه الخصوصيّة و لا جَمل، و ما برح سُكّانى يؤدّون من واصل من كلّ واصلٍ و واردٍ عليهم، و كذلك أيضاً يحبّون مَنْ هاجر إليهم و لا يستبدّون بشىء عن جارهم و لا يستأثرون،

[وَ لا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَ يُؤْثِرُونَ] (۱)

. فاسبُلى عليكِ أستار حُجبكِ، و أقلّى مِنْ تيهك و عُجْبِكِ، وارجعى مِنْ قريبٍ إلى ربّكِ.

۱- الحشر: ۹.

ص: ۲۰۲

فلمّا انتهى المقال بهما إلى هذا المقام، و بليتْ كلّ واحدٍ منهما بالدّاء العِقام، أقبلتْ مكّة عليها، و قالت:

دعينا مِنَ المرآء و الجدال، و كثرة القيل و القال، فإلى كم هذا النزاع و المصاع، وكيل الكلام بالمُدّ و الصّاع؟! ...

هذا آخر ما أردناه، و تمام الأمر الذى قصدناه و أوردناه، و نسأل العظيم أن يوفّقنا فى السَّداد فى القول و العمل، و يُعيذنا من الضَّلال و الزَّيغ و الزّلل، و يَعْصِمُنا فى الحركات و السَّكنات مِنَ الخطأ و الخطاء و الخَطَل، آمين، والحمد للَّهربّ العالمين و صلّى اللَّه على محمّدٍ و آله الطاهرين.

نُقِلت من نسخة سقيمة، إنْ قدّر اللَّه سوف تقابل و يُصحّح بصحيحه مستقيمة.

***

ص: ۲۰۳

۲-رسالهٔ فی المفاخرهٔ بین مکّهٔ والمدینهٔ

هذا صورهٔ خطّ الشیخ العلّامهٔ، شیخ الإسلام، علم العلماء، لسان المتکلّمین، سیّد النظر، سراج الدِّین البُلْقِینی، أدام اللَّه النفع بعلومه.

الحمدللَّه، و سلامٌ علی عباده الذین اصطفی.

وقفتُ علی عرفات ذات العَلَمین، و أفضتُ منها؛ فاستشعرتُ بإفاضتها مشاعر الحَرَمین.

فقالت النَّفسُ التائِقهٔ للتفضیل بالإجمال و التفصیل:

هل إلی المفاخرهٔ بینهما من سبیل؟

فقلت لها:

أیّتها النَّفس المسکینهٔ! الزمی الوقار و السکینهٔ، أتدخلین بلا أدبٍ بین مکّهٔ المشرّفهٔ، و الطیّبهٔ الأمینهٔ، هذا مقامٌ یتأدّب عنده الادباء، و رِحابٌ متّسعٌ بمقال النجباء، الّذین عظمت علیهم المنّهٔ باتّباع الکتاب و السنّهٔ، فی طرح ما لا یلیق بالبطحاء و العقیق، لم أرَ مَنْ قرّ بین عَلَمیه، و فاخَرَ من حرمیه بالمنثُور و المنظوم، و أشار فیه إلی السرّ المکتوم بالمنطوق و المفهوم، سوی مَنْ برع فی الآداب، و نَزَع إلی طریقهٔ اولی الألباب، و رَحَل فکان له فی الحدیث، و سُوقِ المعرفهٔ بالأدب حُسنُ البضاعهٔ، و قضی فی ذلک دون جماعهٔ الحرمین، و لا بِدَعَ أنْ یکون علی أقصی الجماعهٔ، فمروره بین العَلَمین ارتفع به عَلَمه، و مفاخرته بین الحَرمین انتصبَ علی تمییز ذلک کلّه، فیما أبحر إلیه جَزُم العِدی، و لقد جَری هذا الفارس بمیدانٍ عظیم المدی، و نحا نحو أبیاتِ العربِ العاربهٔ، فتفتن فی عیون حدائقها، و قضی مآربه، فعلی أفعل التفضیل انعطف واحد فی بیانه، نسقاً بما ائتلف و اختلف، فحَبِّذا صنیعه، و نِعْم بیان مَنْ ذا بدیعه، أغربَ و أعرب، فأرقص و أطرب، و لئن خبّر فی المحاورهٔ، و خبّر نحوه المحابرهٔ، و أومأ إلی ما دَفَع عنه

ص: ۲۰۴

المحاصـرة، فلیسَ المقصـودُ إلّاالإبـداع و التضـمیر، و ظهـور الإمکـان بـالتمکین، فمخاطبـة المدینـة بالمسـکینة، لیسَ واقعـاً علی جهة الاحتقـار، کمـا هو المتعـارف فی الافتخـار، لکن فیه إشـارة إلی التواضع المطلوب، و مـا أحلاه فی المحبوب، و قـد قیل: هو من جملة أسمائها، و التواضعُ رَفْعُ الشَّرف علی أرجائها، و قول مکّة للمدینة: «یعنی ما وَصَلکِ إلّاما فَضُل عَنّی»، یریدُ ما ظَهر فضله عن نسبته إلی مکانی، و خیرٌ لما تُدْلِین به إلی ذلک دعانی، ألاتری إلی قولها: «و إنْ فَخَرتِ بحلول الشـفیع، ففیّ کان مسقطُ رأسه الرَّفیع»، و لا غَیْب فیما أردتِ ممّا لا یعنی به المخاطب خصوصاً، بل هو الحکایة بقاعدةٍ أو حدیثٍ أسـند منصوصاً، أو ذاک مسـتعملٌ و هو علی الألسـنة یـدور، فلا حرج فی إیرادٍ، ربّما ذم الفخور، و المتشـیّع بما لم یؤت کلابس ثوبی زور، و ما یـذکر من التفاخر بعـد ذلک لعلّه بین أهل البلدین، و بذلک تزول الشبهة الدین.

«فأخرجتِیه و آویتُه، و خذلتِیه و نصرتُه، و عققتِیه و بررتُه»، یدلّ علی ذلک، و یتّضح به المسالک.

و أحسنُ سبیـلٍ یوضّـح علی ذلـک الـدلیل، مـا جـاء فی التنزیـل، فی کلاـم ربّنـا الجلیـل، فاسـمعه و کفّ عن المؤاخـذة الّتی لـذلک أحوجتک، إذ قال اللَّه تعالی:

[وَ کَأَیِّنْ مِنْ قَرْیَةٍ هِیَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْیَتِکَ الَّتِی أَخْرَجَتْکَ (۱)]

و لذلک أعاد

الضمیر لأهلها، الذین أضلّ أعمالهم، بقوله:

[أَهْلَکْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ].

و ممّا یُحقِّق هذا المقصود و یوضّـحه و یظهره و یُصحّحه، قول مکّة لمّا التفتت إلی صاحبتها التفات الأسد الخادر، و أتتْ من مفاخرها بالأوّل و الآخر:

«لأُجردنّ مِنْ مفاخرتی إلیک جیشاً مالک به یدان، و لألقیّن أنصارکِ بکلّ هاشمی خؤلته بنی عبدالمدان».

لیس بغریب بین أهل الحجاز، اسـتعمال الاسـتعارة و الکنایـة و المجاز، و لا تطریز نسـج هـذا المنوال، بیسـیر ما انطوی علیه مِنْ ضـرب الأمثال، فنقول لمن یعمّ

۱- محمد: ۱۳.

ص: ۲۰۵

الدليل على المقصود، و لم يأت بالشاهد على المشهود: «قولٌ و لا معنى، اسمعُ جَعْجَعةً و لا أرى طحناً».

و نقول:

مَنْ وُضِع فى غير مرتبته، و أنزل عن عظيم منزلته، و ربى عليه مَنْ هو دونه فى المنزلة أو ساواه، و بمجرّد دعواه ناواه: «واعجباً كيف جَرَتْ على الآساد فى آجامها الأرانب؟! باللَّه لقد ذلّ من بالتْ عليه الثعالب، و لقد زاحمتِ الحملان القُرَّح فى المرعى، و استَنَّتِ الفِصال حتّى القرعى».

كما يتمثّل المُعظِّم مُزِيلًا للأمر الملتبس: «لقد هَزلتْ حتّى بدى من هزالها كلاها، و حتّى استامها كلّ مفلّس، و لكن إليك عنّى أيّها الناظر بعين الحسد، أنتِ لا تزالِ فى كَمَد، هل رأيتِ أو سمعتِ بمحدّثٍ أديبٍ بتعريف هذا الجمع انفرد؟ و هل استشعر شاعرٌ فورد من موارد الصفا و العذيب ما ورد؟ فأقسم بمن خلق الإنسان فى كبد، لقد قال عَلىَّ على لسان هذا البلد، و هذا البلد ما يسمعه من أحدٍ، كأن لم يكن بين العُذيب إلى الصفا أديبٌ، و لم يشعر بمكّة شاعرٌ، فيا أيّها الادباء، الزموا

ص: ۲۰۶

أدباً، وأنظروا حَبْراً، قصد فی بحر قصیدته النون،

[وَ اتَّخَذَ سَبِیلَهُ فِی الْبَحْرِ عَجَباً (۱)،]

واسمع من سواقی عیون الحدائق طَرَباً، و أقلعُ هذا الزمانیّ فی بحر العرفان،

[وأتبَعَ سبباً]

، وسار للحرمین و رسی فیهما، و ألقی بالمقالید، و أخذ بکلتی یدیه الحدیث بالمتون و الأسانید، و استقرّتْ سفینته علی الجُودی، معدن الجود المشهود، مهاجر صاحب المقام المحمود، فأدرکَ عین الحیاة، و منزل النَّجاة، و جَعَلنا اللّه و إیّاه ممّن اتّبع أمر مولاه، و خالفَ نفسه الأمّارة بالسوء، و هداه، فَحَصَلَت الهدایة بالبدایة و النهایة. و سلامٌ علی المرسلین، و الحمدُ للّهربّ العالمین.

اللّهم صلِّ و سلِّم علی سیّدنا محمّد، و آله التابعین، حَسْبُنا اللّه و نعم الوکیل.

قال ذلک:

و کتبه الفقیر إلی عفو ربّه، عمر بن رسلان البُلْقِینیّ.

نُقِلت من نسخة سقیمة مصحّفة الکتابة.

***

۱- الکهف: ۶۳.

ص: ۲۰۷

۳- قصيدة ابن الخطيب الإربلىّ

هـذه قصيدةٌ نظّمها مولانا، الإمام العلّامة الهمام، مقتدى أكابر الأنام، علّامة أئمّة العلّام، ناظم جواهرِ البلاغة فى بساط أساليبها، و ناثر أزاهر البراعة على بساط تراكيبها، مُظهِر أسرار المعانى مِنْ صفاء معادنها، و مُبدِر أقمار البيان فى سماء محاسنها، بدر الملّة و الدُّنيا و الدِّين، شمس الإسلام، و نجم المسلمين،

ابن الخطيب الإربلىّ

، أنار اللَّه تعالى فى سراج العُلى بدوُر علوّه، و أدار على قُطب السّناء أفلاك مجده و سموّه، و ذلك لمّا وقف على المفاخرة بين مكّة و المدينة، التى أنشأها ذو الفضائل الغزيرة، و الفواضل المبينة، مولانا الإمام المعظّم، القدوة الهمام المكرّم، شيخ الفضلاء الأئمّة، سيّد عُلماء الامّة، باهر البُلغاء ببدائع بيانه، و مخبر النُّبلاء بصنائع بنانه، المرتقى معارج العُلى و قببه، و السالك مناهج الاعتلاء وسببه، نور الملّة والدِّين، بهاء الإسلام، وضياء المسلمين،

أبوالحسن الزرندى

، الُمحدّث بالحرم الشريف النبوى، على مشرّفه أفضل الصلاة والسلام، أعلى اللَّه جِدّه، وحَرَس مجده، وذلك فى شهر صفر المبارك، فى سنة ستّة وسبعين وسبعمائة، وكلّ قافيتين منها متجانسان خطاً، وبعضها لفظاً أيضاً، و عدد أبياتها ۳۴ و هى هذه:

أيا بحر علمٍ فاضَ من أشرف المُدن و سار على أبهى المناهج و السُّنَنْ

حوى مِنْ علوم المسلمين أجلّها لإحكام أحكام الفرائض و السُّننْ

شَهرت لإحياء الفضائل جاهداً وفارقتَ فى إحيائها لذّة الوَسَنْ

فجوزيت بالحُسنى و كلّ امرءٍ يرى جَزَاء لما قد أمّ مِنْ فعله وَسَنْ

ص: ۲۰۸

لقد أظهرت أفكارك الغُرّ مبدعاً مقلّد أعناق الأفاضل بالمِنَنْ

و أبدَعْت فی وضع المفاخرة التی كُتبتْ بفضلٍ كَلَّ عن حمله المِنَنْ

و جئت بمعنی لم یحط فكرةٌ به و لم یَبْتَذِل بین الأنام و لم یَهَنْ

تری كلّ قلب حیر قلبه سماعه بفهم معانیه البدیعة مُرتَهَنْ

فیا حَبَّذا قلبٌ وَعی حُسن لفظه و مُبدِعٌ معناه بباطِنه سَكَنْ

فكم نكتة حلّت... (۱). یحقق فقرّت و حبّات القلوب لَها سَكَنْ

نَزَلْتَ بما أبرزته فَلك العُلی و أنتَ بإحراز المزایا به قَمِنْ

و فی وصفه تحوی المحامد كلّها و إنْ لم تكُن أنتَ الملیّ بها فَمَنْ؟

و لمّا علوت النّاس فَضْلًا و أظهرتَ علومک ما بین الأفاضل مِنْ حَسَنْ

تسمّیتَ بالفضل الّذی تستحقه علیّاً، و قد كُنّیت فیهم أبا الحَسَنْ

و لُقّبت نُور الدِّین، إذ أنجُم الهُدی تلوح علی عَلیاك مِنْ أرفع الفَنَنْ

۱- كلمة غیر مقروءة.

ص: ۲۰۹

و أظهرتَ فَضْلًا فی المفاخرة التی کُتِبتْ کأثمار دوانٍ علی الفنَنْ

بوجهٍ غریب لم تطف فکرةٌ به و لا حَقَّقتْ معناه فی سالف الزَّمَنْ

کشفتَ الغطا عنه فأصبح واضحاً و لولاک نال الفهم فی قصده الزَّمنْ

فلو أنّ قُسّاً رام إیضاح ماله جمعتَ مِنَ الأمثال فیها لمّا فَطَنْ

و مَنْ یترجّی أن یقوم بمعجزٍ مُنِحتَ به، قد کَلَّ عن فهمه الفَطِنْ

و إنّ امرءاً یَسعی لإظهار فضله و نفعُ الوری فیما حواه لمؤتمن

و لیس لمن یسعی بإخلاص نیّةٍ لنفع الوری، إلّارضی اللَّه مِنْ ثمن

و مَنْ راقب الإخلاص فی کلّ طاعةٍ یقومُ بها فیما تَبدّا و ما بَطَنْ

یَنالُ مِنَ الرَّحمن فوق رجائه و یبلغُ مِنْ ألطافه فوق ما بَطَنْ

و لا غَرو أنْ یرقی لأرفع رُتبةٍ مِنَ الأجر و الإعجاز فی القول و اللّسن

لأنّک جارٌ للنبیّ الذی له فضائل لا یُحْصی تفاصیلها اللّسن

رسولٌ حَباه اللَّه مِنْ سِرّ غیبه بمستودعاتٍ فی سرائره خَزَن

ص: ۲۱۰

و مَنْ نال قُرباً مِنْ شريف جنابه فليس يخاف الدهر بؤساً و لا حَزَنْ

و يَسرى إليه مِنْ كمال جواره ضياءٌ يُحاكى مشرق الشمس فى العنن

و من يقبض الدُّنيا بقرب جنابه حقيقٌ بأن يعرى إلى الصبر و الغَبَن

فقُربك مَنْ مغناه حِصْنٌ و جُنّة تُردّ به الأحداث مِنْ أمنع الجُنن

و مَنْ لم يجد مِنْ قُرب حضرته هُدى فذاك كميّتٍ قد تضمّنه الجَنَن

فبُشراك نور الدين أنّك ماجدٌ على قُرب قبر المصطفى نفسه سَجَنْ

حقيقٌ بأن تحظى بكلّ فضيلةٍ تُرام، و تعطى كلّ ما رمت سَحَنْ

***

ص: ۲۱۱

مكة فى وُجدان شعراء ماقبل الإسلام

اشارة

د. الطيب على الشريف

المبحث الأول: الموقع والتسمية:

مكة: اسم يطلق على بقعة ضيقة من أرض الحجاز، بشبه جزيرة العرب (۱)

عُرف أمرُها، وذاع صيتها، منذ قدم إليها سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وبنى بها البيت العتيق بأمر من اللَّه جل جلاله (۲)، وتُعد مكة أشهر مدن العالم كله.

يرتفع موقعها على سطح البحر بنحو (۳۳۰) متراً، وهى على عرض (۳۱) درجة، و (۲۸) دقيقة، وطول (۴۰) درجة، و (۹) دقائق، وتمتد من الغرب إلى الشرق بمسافة نحو ثلاثة كيلومترات، طولًا، وما يقرب من نصف ذلك عرضاً، فى واد ضيق ممتد من الشمال إلى الجنوب، منحصر بين سلسلتى جبال تكادان تتصلان

۱- الحجاز: هى المنطقة الواقعة شمال غرب شبه جزيرة العرب، الممتدة على شاطىء البحر الأحمر، وسميتحجازاً: لأنها تحجز بين تهامة ونجد، أما شبه جزيرة العرب: فهى منطقة متصلة بقارة آسيا من الشمال ويحدها من الشمال: مصر والشام والفرات، ومن الجنوب: البحر الهندى، ومن المغرب: البحر الأحمر، ومن الشمال الشرقى خليج فارس، وأهم أجزائها: تهامة، الحجاز، نجد، العروض، اليمن، ينظر: ياقوت بن عبدالله الحمَوى، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، لا. ط. لا. ت. ۲: ۱۳۷ و ۲۱۸ وما بعدها، ومحمد الطاهر الكردى، التاريخ القويم لمكة، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ط: ۱، ۱۳۸۵ ه ۱: ۳۶.

۲- كانت رحلة إبراهيم عليه السلام إلى مكة، وبناؤه البيت، بعد طوفان نوح عليه السلام بحوالى ۴۰۰ سنة، وقيل غير ذلك، ينظر: التاريخ القويم: ۳: ۲۰ وما بعدها.

ص: ٢١٢

ببعضهما من جهة الشرق والغرب والجنوب، أى على أبواب مكة الثلاثة: (أعلى الوادى وأسفله وكداء)، ولذا فإن القادم عليها لا يشاهد أبنيتها إلا وهو على أبوابها (١)، وكل سفوح هذه الجبال عامرة بالسكان، والبيوت مدرَّجة عليها إلى

بطن الوادى، كما تشاهد على الحرم فى الوقت الحاضر.

ولمكة أسماء كثيرة وردت فى القرآن الكريم، وكتب التاريخ، بلغت فى مجموعها أكثر من ثلاثين اسماً، اقتضتها ضرورة الأوصاف، والأحوال المختلفة للموقع، وقد ورد ذكرها بالتفصيل فى بعض المصادر (٢)، ولكن المشهور

منها ما جاء به القرآن الكريم، إذ سماها: مكة، وبكة، وأم القرى، والبلد الأمين (٣)، ووردت تعليلات كثيرة فى سبب هذه التسميات، منها على سبيل المثال:

١- ينظر: السابق: ٢: ٧ وما بعدها، ومحمد فريد وجدى، دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة للطباعةوالنشر، بيروت، لبنان، ط. ٣، ١٩٧١ م، ٩: ٣٢٧ وما بعدها.

٢- ينظر: التاريخ القويم: ١: ٢٨، ومعجم البلدان: ٥: ١٨١ وما بعدها.

٣- وردت باسم مكة فى قوله تعالى: «وهو الذى كفَّ أيديَهم عنكم وأيديَكم عنهم ببطن مكة»، الفتح: ٢۴، ووردت باسم بكة فى قوله تعالى: «إن أول بيت وُضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين»، آل عمران: ٩۶، ووردت باسم أم القرى فى قوله تعالى: «وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها»، الشورى: ٧، ووردت باسم البلد الأمين فى قوله تعالى: «وطور سينين وهذا البلد الأمين»، التين: ٣.

ص: ۲۱۳

أنها سمیت مکهٔ: لأنها تَمُکُّ الجبارین، والماردین، المعتدین علیها، أی: تدکُّهم، وتحطمهم، وقیل: سمیت بذلک لازدحام الناس فیها، وقریب من هذا: تعلیل اسم بکهٔ، فهو من البَکِّ، أی: التهشیم، والتمزیق، والقهر، والإجهاد، وما جری مجراها، أما أم القری: فهی تحمل معانی: القیادهٔ، والزعامهٔ، والقداسهٔ، وما شابهها من معانی التعظیم والإکبار، ذلک لأنها أعلی مرتبهٔ من جمیع القری، وفی مقدمتها رفعهٔ وشرفاً، ولا یخفی معنی البلد الأمین، ویکفی تفسیراً له: أن من دخله أَمِنَ مادام بداخله ولو کان مجرماً (۱).

المبحث الثانی: مکانهٔ مکهٔ وشرفها:

لمکهٔ مکانهٔ روحیهٔ عالیهٔ لدی جمیع العرب، والمسلمین، وغیرهم من الأمم، والملل الأخری، مثل: الروم، والفرس، والیهود، والنصاری، والمجوس، والصابئهٔ، والجبارین، والمردهٔ، والعصاهٔ، والمجرمین، والصعالیک، ویلجأون إلیها عند الحاجهٔ والخوف، ویفدون علیها حجاجاً من کل بقاع الأرض، وفی القرآن الکریم، والآثار التاریخیهٔ دلائل لا تحصی علی هذه المنزلهٔ العظیمهٔ، والشرف العالی لمکهٔ المکرمهٔ، ومن الأمثلهٔ علی ذلک:

ما ورد فی القرآن الکریم من قوله تعالی:

«وَ ما کانَ رَبُّکَ مُهْلِکَ الْقُری حَتَّی یَبْعَثَ فِی أُمِّها رَسُولًا» (۲)

، وأم القری هی مکهٔ المکرمهٔ، ولا یخفی ما فی ذلک من

الشرف وعلو المنزلهٔ، وقوله أیضاً:

«وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُری وَمَنْ حَوْلَها» (۳)

، دلیل علی

فضلها علی سائر البلاد، إذ بدأ بها فی الذکر فی الحالتین معاً: الرحمهٔ، والإنذار.

ومما جاء فی المصادر التاریخیهٔ من أسباب تسمیهٔ زمزم: أن الأعاجم من یهود ومجوس وصابئهٔ، وغیرهم، کانوا یحجون البیت ویزمزمون علی بئر الماء، وأن

۱- ینظر: تفسیر الفخر الرازی، مفاتیح الغیب، دار الفکر، بیروت، لبنان، ط. ۱، ۱۴۰۱ ه ۱۹۸۱ م، ۶: ۱۰، ومحمد بن أحمد القرطبی، الجامع لأحکام القرآن، دار الشام للتراث، بیروت، لبنان، لا. ط. لا. ت: ۲۰- ۱۱۳.

۲- القصص: ۵۹.

۳- الأنعام: ۹۲.

ص: ۲۱۴

سابور الملک لما حج زمزم فیها، والزمزمة: کلام الأعاجم وقراءتهم فی صلاتهم، ودعاؤهم علی طعامهم، وتذکر المصادر أیضاً: أن الفرس تعتقد أنها من ولد إبراهیم الخلیل علیه السلام، وقد کانت أسلافهم تقصد البیت الحرام، وتطوف به، تمسکاً بشعائر جدهم، وهدیه، وحفاظاً علی أنسابهم، وکان آخر من حج منهم الملک: ساسان بن بابک، وکان إذا أتی البیت طاف به، وزمزم علی هذه البئر، وفی ذلک یقول شاعرهم:

زَمْزَمَت الفرسُ علی زمزم وذلک فی سالفها الأقدم (۱)

لمکة مکانة روحیة عالیة لدی جمیع العرب، والمسلمین، وغیرهم من الأمم، والملل الأخری، مثل: الروم، والفرس، والیهود، والنصاری، والمجوس، والصابئة، والجبارین، والمردة، والعصاة، والمجرمین، والصعالیک، ویلجأون إلیها عند الحاجة والخوف، ویفدون علیها حجاجاً من کل بقاع الأرض، وفی القرآن الکریم، والآثار التاریخیة دلائل لا تحصی علی هذه المنزلة العظیمة، والشرف العالی لمکة المکرمة

وافتخر بذلک أحد شعراء الفرس، فقال:

ومازلنا نحج البیت قِدْما ونُلْقی بالأباطح آمنینا

وساسان بن بابک سار حتی أتی البیت العتیق بأصیْدَینا

وطاف به وزمزم عند بئر لإسماعیل تُرْوِی الشاربینا (۲)

ومهما قیل فی هذا الشعر وصحته، فإنه یحمل فی طیاته معانی التعظیم والإکبار لمکة والبیت الحرام، وکافة المقدسات التابعة لهما.

۱- ینظر: معجم البلدان: ۳: ۱۴۸.

۲- المصدر السابق.

ص: ۲۱۵

ومن هـذا القبیل: ما جاء فی الشعر الجاهلی من مثل قول: سُبَیْعَـةٔ بنت الأَحَبِّ، من قیس عیلان، توصـی ابنها بتعظیم مکـۀ، وعدم البغی فیها، لأن عاقبته وخیمۀ، وذلک من أبیات طویلۀ کلها تعبیر عن تلک المکانۀ العالیۀ لمکۀ فی قلوب العرب، منها قولها:

أَبُنَیَّ لا یَظلِم بمکۀ لا الصغیر والکبیر

واحفظ محارمها بُنَیَّ ولا یَغُرَّنْک الغرور

أَبُنَیَّ من یَظلِم بمکۀ یلق أطراف الشرور (۱)

وقول الشاعر ابن الأسْلَت:

فقوموا فَصلُّوا ربَّکُمْ وتمسَّحوا بأرکان هذا البیت بین الأخَاشِب (۲)

وورد فی الآثار التاریخیـۀ: أنه وُجـد مکتوب علی حجر فی ربوع مکـۀ: «أنا اللَّه ذو بکۀ الحرام، وضـعتُها یوم وضـعتُ الشـمسَ والقمرَ، وخففتهـا بسبعۀ أملاک حُنَفاء، لا تزول حتی تزول أخْشَبَاها، مبارک لأهلها فی اللحم والماء»، وُجـد فی بعض الزبور: «أنا اللَّه ذو بکۀ جعلتها بین هذین الجبلین، فلیس یؤتی أهل مکۀ إلا من ثلاث طریق: أعلی الوادی، وأسـفله، وکداء، وبارکت لأهلها فی اللحم والماء» (۳).

ومنها: أنه یوجـد بمکـۀالبیت الحرام، ومن دخله کان آمناً، ومن أحدث فی غیره من البلدان حدثاً، ثم لجأ إلیه، فهو آمن إذا دخله، فإذا خرج منه أقیمت علیه الحدود، ومن فضلها وشرفها: أن أهلها علی مدی الدهور والأزمان آمنون،

۱- ینظر: عبدالملک بن هشام الحِمْیَری، السـیرۀ النبویۀ، تحقیق: مصطفی السقا وآخرین، مکتبۀ الباب الحلبی، القاهرۀ، ط. ۲، ۱۹۵۵ م، ۱: ۲۵- ۲۶.

۲- السابق: ۱: ۵۹، والأخاشب: جبال مکۀ، ومنها التعبیر بأخْشَبَا مکۀ، أی جبلاها.

۳- معجم البلدان: ۵: ۱۸۳.

ص: ۲۱۶

یغزون الناس ولا یُغزون، ویَسبون من البلدان الأخری ولا یُسبون، وقد ثبت أنه لم تُسب قرشیة قط، کما ثبت أن مکة لم تَدِن لدین الملوک، ولم یُؤد أهلها الجزیة، ولم یملکها ملک قط من خارجها، بل إن الملوک، والجبابرة، یحجون إلیها، ویعظمونها، کملوک: حِمْیر، وغسَّان، ولَخم، إذ یخضعون، ویَذلون عند قدومهم لمکة، فیدینون لقریش، ویرون تعظیمهم، والاقتداء بآثارهم فرضاً واجباً، وشرفاً کبیراً.

وقد أشاد الشعراء القدامی بهذه المکانة العظیمة، وذلک الشرف الرفیع، کقول أحدهم:

أبْوا دِین الملوک فهم لَقَاح إذا هِیجُوا إلی أجابوا

وقول آخر:

ولقد غزاها تُبَّع فکَسَا بَنِیَّتَها الحبیر

وأذَلَّ ربی ملکه فیها فَأوْفَی بالنذور (۱)

وبلغ من تعظیم العرب لمکة قبل الإسلام: أن الرجل منهم کان یحج البیت ویعتمر، ویطوف، فإذا أراد الانصراف عنها إلی بلده، أخذ حجراً من حجارة الحرم، فنحته علی صورة صنم من أصنام البیت، فیحتفی به فی طریقه، ثم ینصبه فی أحسن بقعة فی بیته، ویجعله قِبلة له ولأسرته، یطوفون حوله، ویتمسحون به، ویصلون له، تشبیهاً له بأصنام الکعبة، وبمرور الزمن اعتادوا ذلک وفشا فیهم، بل صاروا یأخذون معهم حجارة البیت دون نحت، یعبدونها ویقدسونها، ثم فشت فیهم الأصنام، وتعددت وتنوعت منذ أن أحضر عمرو بن لُحی الصنم (هُبَل) من العمالیق بأرض الشام (۲).

وقد کثر تناول الشعراء لظاهرة الأصنام هذه بین مادح وقادح.

۱- السیرة: ۱: ۲۶: والبَنِیَّة: الکعبة، وقیل مکة، والحَبیر: نوع من البرود الیمنیة الموشاة.

۲- ینظر السابق: ۱: ۷۷، والتاریخ القویم: ۲: ۲۱.

ص: ۲۱۷

حیث هجا شاعر من بنی ملْکان للصنم (سعد)، ورجمه بالحجارة، وکان أن أوقف إبله علیه یتبرک به، فنفرت منه فی البراری، فخرج فی طلبها حتی جمعها، فلما تجمعت له بعد تعبت، لعن ذلک الصنم، وقال فی ذمه:

أتینا إلی سعد لیجمع شملنا فشتتنا سعدٌ فلا نحن من سعد

وهل سعد إلّاصخرة بِتَنُوفَةٍ من الأرض لا تدعو لغیٍّ ولا رُشْد (۱)

ومن تعظیم العرب لمکة: أنهم کانوا یتسابقون لکسوتها، ویتفاخرون بذلک، وتذکر المصادر أن تبع الأصغر (۲) أول من کسا البیت، وأطعم الناس فی الجاهلیة،

علی الراجح (۳)، وهو القائل مفتخراً:

وکسَوْا البیتَ الذی حرَّم اللَّه مِلاءً مُعَضَّداً وبرودا (۴)

وأقمنا به من الشهر شهراًوجعلنا لبابه إقْلیدا (۵) وخرجنا منه نَؤُمّ سُهَیلًا

قد رفعنا لواءنا معقودا (۶)

وتطاول شاعر من العرب اسمه: أبو حبیب، علی أبی جهل، وتناول قریشاً بالهجاء، فردَّ علیه الزَّبْرقان بن بدر بقوله:

أتَدْرِی من هجوتَ أبا حبیب سلیل خَضَارِمة سکنوا البطاحا (۷)

۱- السیرة ۱: ۸۳.

۲- تُبَّع الأصغر: هو تبع بن حسان بن تبع بن کلیکرب بن تبع بن الأقرن، ینظر، عبداللَّه بن مسلم بن قتیبة، المعارف، تحقیق: د. ثروت عکاشة، دار المعارف، مصر، ط. ۲، لا. ت.: ۶۳۴، وقیل: إن أول من کسا البیت: إسماعیل بن إبراهیم علیهما السلام، وقیل: عدنان بن أُدَد، ینظر: التاریخ القویم: ۴: ۱۸۶.

۳- ینظر: السیرة: ۱: ۲۴- ۲۵.

۴- الملاء: ثیاب مُحبَّرة من عصب، ومُعَضَّد: مشدود محکم، والبرود، ثیاب یمنیة، ینظر التاریخ القویم: ۴: ۱۸۶.

۵- إقْلید: مفتاح، أی جعلنا للکعبة مفتاحاً، عن السابق.

۶- ینظر: معجم البلدان ۴: ۴۶۶- ۲۶۷، والتاریخ القویم ۴: ۱۸۶، والمعارف: ۶۳۵، وسهیل: نجم معروف فی السماء.

۷- الخُضَارِم: السَّیِّد، الجواد، المشهور، والجمع: خَضَارم، ینظر: مجمع اللغة العربیة، القاهرة، المعجم الوسیط، إشراف: أحمد حسن الزیات وآخرین، بدون معلومات نشر، مادة: خَضْرَمَ.

ص: ۲۱۸

أزَاد الركب تذكر أم هشاما وبيتَ اللّه والبلدَ اللَّقَاحا (۱)

فالزبرقـان يُبـدى تعجبه من جرأة الشـاعر على هجـاء قريش، على الرغم من هـذه المكانـة العاليـة التى ينعمون بها، ووجود أمثال هؤلاء الكرماء الشجعان بينهم.

المبحث الثالث: صفة مكة القديمة:

تقع مكـة «فى واد تحيـط به الجبـال، وتمتـد سـيولها فيه، وإذا عصـفت الرياح فى مرتفعات الجبال انـدفعت إلى بطن الوادى فيما يشـبه الدوَّامات... وجوّها حار جاف، تختلف حرارته بين (۱۸) درجة فى شهور الشتاء، و (۳۰) درجة فى شهور الصيف» (۲)، ومكة القديمة عموماً: قليلة الماء، قليلة الأشجار المثمرة، وعمرانها فى

عهد جُرهم وقَطُورة (۳) لم يزد على مضارب من الشعر، كانت تتلاصق أحياناً،

وتتباعد أحياناً أخرى فى سفوح الوادى، وفى عهد قريش صارت تختفى مضارب الشعر، وتحل محلها البيوت المرصوصة بالحجارة، أو المبنية بالطين والحجارة، حول المسجد، وعلى جوانب الوادى، وأول من بنى بيتاً بالحجارة بمكة: سعد بن عمرو الجهمى، وقد قال فيه شاعرهم:

وأول من بَوَّأ بمكة بيته وسَوَّر فيها مسكناً بأثافى (۴)

وكانت بيوتهم فى أول أمرها بدون أبواب، وأول من بوَّب بيته فى مكة:

حاطب بن أبى بلتعـة، وكانت الأبواب مقصورة على بعض الغرف التى بها أشـياؤهم الثمينـة، أما المـدخل والردهات فهى مفتوحة على استراحات كانوا يلحقونها ببيوتهم لُنُزل الحجاج والمعتمرين، وعلى هذا النحو نشط العمران فى عهد

۱- معجم البلدان: ۵: ۱۸۴.

۲- ينظر: التاريخ القويم: ۱: ۳۳.

۳- جُرْهم وقَطُورة: قبيلتان، أبناء عمومة، يرجعون فى نسـبهم إلى أرفخشد بن سام بن نوح، سـكنوا اليمن، ثمرحلوا إلى مكة واسـتقروا بها، ينظر: المعارف: ۲۷.

۴- التاريخ القويم: ۲: ۴۰.

ص: ۲۱۹

القرشيين، فقد ورد أن قُصى بن كِلاب خط للكعبة ساحة تكفى للطواف، وازدحام الحجاج، وأباح البناء خارج ذلك من الجهات الأربع، فتكاثر العَمار حول الكعبة، وكانوا قبل ذلك يتحاشون السكن بقربها، والمبيت بجانبها (۱).

ومن أشهر المتنزهات المكية فى العصر الجاهلى: متنزه اللِّيط أسفل مكة، يأوى إليه المكيون من كل الأحياء القريبة والبعيدة، وكانت به حديقة جميلة يجلسون حولها فى العشى، يلبسون أنواع الثياب الملونة، الزاهية، يعبق أريجهم على مسافات يعطر الجو، ويجدون فى ذلك المتنزه راحتهم، وسعادتهم، ومتنفسهم، يقول شاعرهم الحارث بن خالد:

من ذا يسأل عنا أين منزلنا فالأقحُوانة منا منزِل قَمِن

إذ نلبس العيش صفواً ما يكدره طعنُ الوشاة ولا يَنْبُو بنا الزمن (۲)

ومن متنزهاتهم أيضاً: شِِعب خُمْ، وهو فى أسفل الوادى، وكانت به عدة بساتين تتصل باللِّيط، كما كانت بساتين الحمام له متنزهاً، وهى بأعلى الوادى،

۱- المصدر السابق.

۲- المصدر السابق: ۲: ۴۳، والأقحوانة: بستان جميل باللِّيط.

ص: ۲۲۰

وفيها زروع ونخيل، بالإضافة إلى بساتين أخرى كثيرة على شواطىء الوادى، تمتد إلى مِنى، مثل: بساتين وادى طُوى، والحجون، وسواها.

وكانت مكة ذات مركز تجارى استراتيجى هام جداً، بحكم موقعها الرابط بين دول الشمال و دول الجنوب، فكانت أسواقها مزدحمة طول العام بالتجار، صاعدين إلى الشام شمالًا، أو هابطين إلى اليمن جنوباً، وكان القرشيون أسياداً فى هذه الأسواق التجارية، فمهروا فى التجارة، وأتقنوا فنونها، فاكتسبوا خبرة واسعة بمعاملة الناس، وكيفية إرضائهم، فتضخمت رؤوس أموالهم، وبلغت قوافلهم التجارية بالألف بعير أو يزيد، فى رحلتى: الشتاء والصيف، اللتين سَنَّهُما هاشم، وقد قال عبداللّه بن الزَّبَعْرَى يمدحه:

سُنَّتْ إليه الرحلتان كلاهما سَفَر الشتاء ورحلة الأصْيَاف «۱»(۱)

وفى الجانب الحضارى عموماً، سمَّى القرآن الكريم مكة: أم القرى، وفى ذلك دون شك ما يشير إلى تميزها عما حولها من البلدان فى جزيرة العرب كلها، وفى القرآن أيضاً ما يفيد هذا التميز، إذ تحدث عن كثير من المظاهر الحضارية، مثل:

المِشكاة، المصباح، الزجاج، المعارج إلى العليّات، وأنواع الطيب: كالكافور، والمسك، والزنجبيل، وألوان الثياب المُترفة: كالنمارق والزرابى، والسُّرر، والفرش المنضَّدة بالإستبرق والسندس، وأنواع الأوانى الفضية: كالقوارير، والأكواب، والكؤوس، وألوان الحلى: كالمرجان، والذهب، واللؤلؤ، وتحدث عن تعاملهم مع الفخار، والحديد، والنحاس، والقدور، والجفان، والصِّحاف، كما أشار إلى ثقافتهم عموماً: فذكر القراطيس، والكتب، والسجلات، والصحف، والأقلام، والمداد، وكانوا يعرفون الموازين والمكاييل، وأنواعها ومصطلحاتها، وقد لبسوا الثياب المرفهة، والقمصان، والسراويل، والنعال، وتختَّموا بالذهب والفضة،

۱- المصدر السابق: ۲: ۴۴، وينظر: د. جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ومكتبة النهضة، بغداد، ط. ۳، ۱۹۸۰ م، ۵: ۲۹۱.

ص: ۲۲۱

وفضَّصوا خواتمهم بحبّات اللؤلؤ، ولبست النساء القرشيات الخُمُر، والجلابيب، والخلاخل، والأساور واستعملن الطيب، وكان لمترفيهم مجالس للسمر، والقصص، والفكاهة، والتلذذ بالفواكه، والخمور، وسماع الغناء، وسواها من علائم التحضر والتمدن (۱).

ويفهم من ذلك كله: أن المكيين كانوا يعرفون جميع هذه المعانى الحضارية معرفة من اختلط بها، واندمج فيها، لأنه لا يخطر ببال عاقل أن يكون القرآن قد خاطبهم بما لا يفهمون، بل إن فى خطابه لهم بهذا الشكل ما ينطق بأنهم فى تلك الفترة قد أخذوا بأسباب الحضارة بالمفهوم السائد فى وقتهم، وليس فى ذلك ما يدعو إلى الاستغراب والدهشة، فالمكيون كانوا يضربون فى مناكب الأرض تجاراً:

بين الشام واليمن، والعراق، ومصر، والحبشة، وفارس، والهند، وغيرها من بلاد اللّه، يشاهدون المعالم الحضارية آنذاك فى كثير من أرقى حضارات العالم، فتناقلوا أخبارها، وحاولوا تقليدها، فظهر أثر هذا التقليد فى ملابسهم، وبيوتهم، وبدا واضحاً فى معاملاتهم ومختلف جوانب حياتهم، ومما يروى فى ذلك، على سبيل المثال فقط: أن عبداللّه بن جدعان زار العراق، فدخل بعض قصور الفرس، فأكل عندهم، وكان مما أكله (الفالوذج)، وهى نوع من الحلوى لم تكن معروفة عند العرب، تصنع من العسل والسمن، والبُر، ولب التمر، فتعجب منها ومن طيبها، فسأل عنها فوصفت له، فابتاع غلاماً يصنعها، وأخذه معه إلى مكة، وصار يصنع هذه الأكلة، ويؤكلها للناس فى حومة البيت، حتى اشتهر أمرها، وممن أكلها الشاعر أمية بن الصلْت، فقال مادحاً لها ولصاحبها:

له داعٍ بمكة مُشْتَعِلٌ وآخَرَ فوق دارته ينادى

إلى رُدُحٍ من الشَّيزَى مِلاءً لُبابَ البُر يفلْبَك بالشّهَاد (۲)

۱- ينظر: التاريخ القويم: ۲: ۴۴.

۲- ينظر: معجم البلدان: ۵: ۱۸۵، والمفصل فى تاريخ العرب: ۷- ۵۸۲، والرُّدُح، جمع رَدَاح: الجفنة العظيمة، والشِّيزى: خشب أسود تصنع منه الجفان والأمشاط، ينظر: المعجم الوسيط: مادتى: رَدَاح وشَيَّزَ.

ص: ۲۲۲

المبحث الرابع: حرمهٔ مکهٔ:

لمکـهٔ حرمـهٔ عظیمـهٔ، وبرکـهٔ ظاهرهٔ، فهی لا تُقِر طاغیاً جباراً علی فساده، وظلمه، ولا باغیاً علی بغیه، وقد ثبت تاریخیاً أنه لا مکان فیها لمن ظلم عبـاد اللَّه، أو بَغَی علیهم، فمن فعـل ذلک أخرجته من ربوعها، وطردته من جوارها، وفی ظلم جُرْهم، وبغیها بمکـهٔ، خیر مثال علی ذلـک: فقـد کـان هؤلاـء ولاـهٔ البیت، وسـکان مکـهٔ، وأربابهـا، فاسـتحلوا الحرام، وأکلوا مـال الکعبـهٔ، وظلموا من دخلها، فکانت تجاورهم قبیلـهٔ خزاعـهٔ، حلولًا حول مکهٔ، فظلموهم، واعتدوا علیهم بالقتال، فاقتتلوا، فجعل الحارث بن عمرو الجرهمی یُنشد، طالباً من ربه النصرهٔ علی الخزاعیین، مشجعاً بنی قومه علی الصمود، حاثاً لهم علی القتال:

لا هُمَّ إن جرهماً عبادُک الناس طُرْف وهمُ تِلادک (۱)

ولکن النصـر کـان حلیف خزاعـهٔ، فاسـتولت علی مکـهٔ، وطردت الجرهمیین عنهـا، وفی ذلک قال شاعرهم عمرو بن الحارث الأصـغر الجرهمی، مصوراً آثار الهزیمـهٔ علی نفوس بنی قومه، ومـدی الـذل والهوان والندامـهٔ التی لحقتهم، نتیجـهٔ ظلمهم لعباد اللَّه، وترویعهم لسکان البلد الأمین:

کأن لم یکن بین الحَجون إلی الصفا أنیسٌ ولم یَسمُر بمکهٔ سامر

ولم یتربَّع واسطاً فجنوبَه إلی السِّرِّ من وادی الأراکهٔ حاضر

بلی نحن کنا أهلَها فأبادنا صروفُ اللیالی والجدودُ العواثر

۱- ینظر معجم البلـدان: ۵: ۱۸۶، والمعارف: ۶۴۰، والطُّرْف: الطریف الحـادث، والتِّلاد: القـدیم، ینظر: المعجم الوسـیط، مادتی طَرَفَ وتَلَدَ.

ص: ۲۲۳

وأبدلنا ربى بها دار غربة بها الجوع بادٍ والعدو المحاصر

وكنا ولاة البيت من بعد نابت نطوف بباب البيت والخير ظاهر (۱)

فأخرجنا منها المليك بقدرة كذلك ما بالناس تجرى المقادر

فصرنا أحاديثاً وكنا بغبطة كذلك عضَّتنا السنينُ الغوابر (۲)

وبدلنا كعب بها منزل ذلة به الذئب يعوى والعدو المكاثر

فَسَحَّت دموعُ العين تجرى لبلدة بها حَرَم أمْن وفيها المشاعر (۳)

ومن الأمثلة الحية، التى لا تزال شاخصة للأبصار إلى يومنا هذا، على سوء مآل من يريد مكة بشر، ما صوره القرآن الكريم من قصة أبرهة الأشرم، وإقدامه على هدم الكعبة، فى سورة

[الفيل

[(۴)

، ذلك أن أبرهة، قائد الأحباش باليمن، كان

جباراً عنيداً، وقد بلغه أن العرب صاروا ينصرفون بتجارتهم عن اليمن إلى مكة، لمكانتها العظيمة عندهم، لوجود الكعبة فيها، فامتلأت نفسه غيظاً أن يترك الناس

۱- نابت: أكبر ولد إسماعيل، ولىَ أمر البيت بعد وفاة والده، ثم ولِىَ بعد وفاة نابت خاله مضاض بن عمرو الجرهمى، واستمرت ولاية الجرهميين للبيت الحرام دهراً طويلًا، حتى أخرجتهم منه خزاعة، ينظر: معجم البلدان: ۵: ۱۸۵.

۲- صوابها: أحاديث، لأنها ممنوعة من الصرف لصيغة منتهى الجموع.

۳- معجم البلدان ۵: ۱۸۶.

۴- هى قوله تعالى: «ألم تركيف فعل ربُّك بأصحاب الفيل* ألم يجعل كيدَهم فى تضليل* وأرسل عليهم طيراً أبابيل* ترميهم بحجارة من سجيل* فجعلهم كعصفٍ مأكول»، الفيل: ۱- ۵.

ص: ۲۲۴

اليمن بخيراتها، ويتجهون إلى ذلك المكان القفر، مع ما أوغر صدرَه من كلام المحيطين به، وإغرائهم له ببساطة هدم الكعبة، وتوجيه الناس إلى اليمن، فسار إليها في جيش عظيم، تتقدمه الفيلة، وما أن اقترب منها حتى أهلكه اللَّه، وجيشه وفيلتَه، بالطير الأبابيل، قبل الوصول إليها، بمكان اسمه: (المُغمّس) قرب مكة، على طريق الطائف (۱).

ومما سجل به الشعراء الجاهليون هذه الحادثة، قول عبدالمطلب بن هاشم مستنصراً ربه على الأحباش، وهو آخذ بحلْقة باب الكعبة:

يا رب لا أرجو لهم سواكا يا رب فامنع منهمُ حِماكا

إن عَدُوَّ البيت من عاداكا إنهمُ لن يقهروا قُواكا (۲)

ثم قال، حامداً ربه، بعد أن أهلك أبرهة وجيشه:

أن منعتَ الجَيْشَ والأفْيالا وقد رَعوْا بمكة الأجْبَالا

وقد خشِينا منهم القِتَالا وكل أمْرٍ منهم معْضالا

يا رب لا أرجو لهم سواكا (۳)

وقول شاعر يُدعى أبا أمية:

إن آياتِ ربَّنا بيناتٍ ما يُمَارِى بهن إلا كفور

غُلِبت الفيلُ بالمغمَّس حتى ظل يجفو كأنه مسحور

حوله من شباب كِندة فتيان ملاويت فى الحروب صقور

۱- فى حادثة الفيل كلام كثير، وتفصيلات منوعة، أوردتها مصادر عديدة، ينظر: على سبيل المثال فقط: تفسير القرطبى: ۲۰: ۱۸۷ وما بعدها، وتفسير الفخر الرازى: ۱۶: ۹۶ وما بعدها، والمفصل فى تاريخ العرب: ۳: ۵۰۷ وما بعدها، وغيرها.

۲- ينظر: المفصل فى تاريخ العرب: ۳: ۵۱۶، وتفسير القرطبى: ۲۰: ۱۹۱.

۳- تفسير القرطبى: ۲۰: ۱۹۶.

ص: ۲۲۵

واضِعٌ خلفَه الجِرار كما قطِّر صخر من جانب محرور (۱)

وقول شاهد عيان سلِم من الحادثة، وهو رجل من كنده اسمه: نُفَيْل بن حبيب، يصوِّر هوْل الواقعة، كما شاهدها، لامرأة يخاطبها:

فإنك لو رأيت ولم تَرَيْهِ لدى جَنْب المُغَمَّس ما لقينا

خَشيتُ اللَّه قد بَثَّ طيرا وظلَّ سحابة مرَّت علينا

وباتَتْ كلها تدعو بحق كأنَّ لها على الحُبْشَان دَيْنَا (۲)

وقريب من قصة أبرهة، ما أورده القِبطى فى أعلامه من قصة أسعد الحميرى (تبع)، وجبروته، واتساع ملكه، وكثرة وزرائه، وانتهائه إلى مكة فى جولة له فى أرجاء مملكته، معتقداً أن أهلها سيدينون له بالطاعة كما دان غيرهم، إلا أنهم لم يعترفوا به ملِكاً عليهم، ولم يعظموه، فأغضبه ذلك شديداً، وشكا إلى كبير وزرائه ما فعله به أهلُ مكة، فهوَّن عليه: بأنهم عرب لا ـ يعرفون شيئاً، وأن لهم بيتاً يقدسونه يسمى: (الكعبة)، وهممعجبون به، فأغاظهماسمع، فعسكر بجيشه ببطحاء مكة عازماً على هدم البيت، ناوياً لمكة وأهلها شراً، فأخذه صداع شديد، وتفجر منه ماء نَتِن، كان سبباً فى تفرق الناس عنه، ولما اشتد به الحال، خلا به أحدُ العلماء، وأفهمه: أن سبب ما هو من ضيق وشدة، ما نواه للبيت وأهله من سوء، فبادر الملك بالرجوع عن نيته، فشُفِى من ساعته، فكسا البيت، وأكرم العلماء (۳).

۱- التاريخ القويم: ۲: ۳۶، وشباب ملاويت: أقوياء، متمرسون بالحرب، كما فى المعجم الوسيط، مادة: لَاتَ، ووردت الأبيات فى معجم البلدان: ۵: ۱۶۱، مع اختلاف فى نصها، ونسبتها لقائلها، فقد وردت بالنص التالى، منسوبة لأمية بن أبى الصلت:

إن آياتِ ربِّنا ظاهرات ما يمارِى بهن إلا الكَفُور

حُبِس الفيلُ بالمغمَّس حتى هل يحبو كأنه معقور

كل دِينٍ يوم القيامة عند ال – له إلا دِين الحنيفة بور

۲- تفسير القرطبى ۲۰: ۱۹۹– ۲۰۰.

۳- ينظر: التاريخ القويم: ۴: ۱۸۷، والتتابعة الذين أرادوا هدم الكعبة أكثر من واحد، ينظر المصدر السابق: ۴: ۱۸۸ وما بعدها.

ص: ٢٢۶

المبحث الخامس: الاحتماء بمكة:

عُرفت بلاد مكة بحرمتها، وشرفها، وقدسيتها، وليس أدل على ذلك: من تشريف اللَّه لها، بوصفها بالبلد الأمين، والقَسَم بها، في قوله تعالى:

«وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ» (١)

، والراحة النفسية، والأمان، يشعر بهما كل من دخل مكة، منذ أن

خلق اللَّه الخلق وإلى الأبد، ومن هنا صارت ملاذ الخائف، والمظلوم، وذي الحاجة، ومن شابههم، حيث لجأوا إليها محتمين بها، معترفين بفضلها.

فممن احتموا بمكة والكعبة: رجل من بني عبداللَّه بن دارم، كان زوجاً لابنة زرارة بن عُدُس، اسمه سويد، وكان طلبة المنذر بن ماء السماء، لأنه قتل ابنه مالكاً، ومالك هذا غلام حدث كان المنذر قد أودعه عند زرارة، ثم إن الغلام خرج يوماً يتصيد فلم يُصِب شيئاً، فمرَّ بإبل لسويد، فأمر بناقة فنُحِرت له، فاشتوى، وكان سويد نائماً، فلما استيقظ شدَّ على الغلام فقتله، وخرج هارباً، فاحتمى بمكة، وحالف بني نوفل بن عبد مناف، وأقام عندهم، وقد طلبه المنذر لثأر ابنه، فقيل له:

إنه احتمى بمكة، فصرف النظر عن اللحاق به، وثأر من بنيه، وكانوا سبعة ووفَّى ثأره بقتل مائة رجل من قوم سويد (٢).

١- التين: ٣.

٢- ينظر: الخزانة: ۴: ۵٢۴ وما بعدها.

ص: ۲۲۷

وكانت طيىء تطلب عثرات زرارة وقومه لثارات بينهم، فاستغل شاعرهم عمرو بن ثعلبة الطائى هذه الحادثة وأغرى المنذر بزرارة، فقال:

من مُبْلغٌ عمراً بأ نَّ المرء لم يُخلق صُبارة (۱)

وحوادث الأيام لا يبقى لها إلا الحجارة

أنَّ ابنَ عُجْزَة أُمِّهِ بالفسح أسفل من أُوَارة (۲)

تسفِى الرياح خلال كَشْ- حيه وقد سلبوا إزاره

فاقتل زرارة لا أرى فى القوم أوفى من زرارة (۳)

وهذا النابغة الذبيانى يعتقد أن الطير تعوذ بمكة، لأنها تجد فيها الأمان، فأقسم للنعمان برب العائذات بالبيت وبمكة، أنه لم يرتكب فى حقه شيئاً مما سمعه من الوشاة، وأن ذلك كله كذب وافتراء، يقول معتذراً للنعمان:

والمؤمِنُ العائذات الطيرَ تمسحُها ركبان مكة بين الغَيْل والسند

ما قلتُ من سيِّىء مما أُتيتَ به إذن فلا رفعتْ صوتى إلى يدى

إلا مقالة أقوام شَقِيتُ بها كانت مقالتهم قرعاً على الكبد (۴)

وكان لحرب بن أمية حليفٌ من حضرموت قدم على مكة، فأراد أن ينزل خارجها، فلما سمع به حرب دعاه إلى دخول مكة، ليأمن على نفسه، وماله، من أعدائه، ومن اللصوص، واسم الحضرمى: أبو مطر، فقال حرب يخاطبه:

أبا مطر هلم إلى الصلاح فيكفيك النَّدامَى من قريش

۱- الصُيَبَارة: لعله من الصَّبَّار، ثمر شديد الحموضة، أو من الصَّبْرة، وهى الكومة من الحجارة ونحوها، أى لم يخلق بدون فائدة، ينظر: المعجم الوسيط، مادة: صَبَرَ.

۲- العُجْزة: آخر الرجل، يقال: هو ابن عُجْزة، ينظر السابق، مادة: عَجَزَ.

۳- الخزانة: ۶: ۵۲۴ وما بعدها.

۴- ينظر: ديوان النابغة الذبيانى، تقديم وشرح: فارس صويتى، مكتبة كرم، دمشق، دار الكتاب العربى، بيروت، لا. ط.، لا. ت.: ۶۸ وما بعدها.

ص: ۲۲۸

وتنزل بلدةً عزَّت قديماً وتأمن أن يزورك رب جيش

فتأمن وسطهم وتعيش فيهم أبا مطر هُديت بخير عيش (۱)

وفی فترة من فترات الجاهلیـة، کثُرت الزعامات فی قریش، فحصل بینهم تغالبٌ وتجاذبٌ، لم یکُفَّهم عنه سـلطان، وبلغ الأمر أن حـدث من بعضهم تعدّ علی حقوق الآخرین، کان مدعاة لهم إلی التحالف علی رد المظالم، وإنصاف المظلوم، ومن ذلک مثلًا:

أنَّ رجلًا من الیمن قدم مکهٔ معتمراً، ومعه بضاعهٔ عرضها، فاشتراها منه رجل من بنی سهم، فغَمَطه حقه، فقام الیمنی علی الحِجْر، وأنشد بأعلی صوته:

یالَ قصی لمظلوم بضاعته ببطن مکهٔ، نائی الدار والنفر

وأشعث مُحرِمٍ لم تُقضَ حرمته بین المقام وبین الحِجْر والحَجَر

أقائم من بنی سهم بذمتهم أو ذاهب فی ضلال مال معتمر (۲)

فلما سمعته قریش ردَّت علیه ماله.

وأنَّ قیس بن شیبهٔ السُّلَمی باع متاعاً له بمکهٔ لأبی بن خلف، فأنکره حقه، فاستجار برجل من بنی جُمح، فلم یُجره، فاستصرخ القرشیین قائلًا:

یال قصی کیف هذا فی الحرَمْ وحرمهٔ البیت وأحلاف الکرم

أظلم لا یمنع عنی من ظلم (۳)

وهو الآخر وَجَد من قریش إنصافاً.

۱- معجم البلدان: ۵: ۱۸۴.

۲- المفصل فی تاریخ العرب: ۲: ۵۰۲.

۳- المصدر السابق.

ص: ۲۲۹

وعلى هذا النحو تبدو مكة، قبل الإسلام، بلداً آمناً، يأوى إليه المظلومون، والخائفون، ومن فى حكمهم، لاعتقادهم فى أمنها، وبركتها، وقد خلّد الشعراء القدامى هذه المشاعر النبيلة نحو مكة، وأمنها، واستقرارها.

المبحث السادس: الحَلِفُ ومقدَّسَاتها:

كثُر حَلِف العرب الجاهليين بالأماكن المقدسة، ولا سيما مكة والبيت الحرام، بصيغ مختلفة مثل: ورب مكة، واللّه، والبيت الحرام، وبيت اللّه، وما شابهها، وليس لذلك معنى إلا تلك المكانة الروحية الكبيرة لمكة فى وجدان العرب، ويمكن الوقوف على أمثلة مما ورد فى الشعر الجاهلى بالخصوص، من ذلك:

قول عَدِىّ بن زيد العبادِى، معاتباً النعمان بن المنذر على حبسه، وأخذ رأى الوشاة فيه، مقسماً برب الكعبة أنه وشاية الأعداء:

سعى الأعداء لا يَأْلُون شراً عليك ورب مكة والصليب (۱)

وقول الشاعر قيس بن الخطيم فى تصوير بياض لون حبيبته، إذ شبهها بالدرة المجْلُوة، مقسماً باللّه أنه يهواها:

كأنها درة أحاط بها ال – غواص يجلو عن وجهها الصُّدف

واللّه ذى المسجدِ الحرام وما جُلِّل من يُمنة لها خُنُف

إنى لأهواكِ غير ذى كذب قد شَفَّ منى الأحشاء والشغف (۲)

وفى قصيدة له أخرى فى حرب شبَّت بين قومه وأبناء عمومتهم من الأوس،

۱– السابق: ۶: ۶۶۵.

۲– ديوان قيس بن الخطيم برواية ابن السِّكِّيت، تحقيق: ناصر الدين الأسد، دار العروبة، القاهرة، ط. ۱، ۱۹۶۲ م: ۶۰ وما بعدها، وعبداللّه بن قريب، الأصمعيات، تحقيق: أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، دار المعارف، مصر، ط. ۳، لا. ت.: ۱۹۷، واليُمْنَة: ضرب من بُرود اليمن، والخُنُف جمع خَنِيف: الكتان الأبيض الغليظ، وشفَّ: رق، والشغف: درجة متقدمة من الحب، ينظر: المصدر السابق، والمعجم الوسيط: مواد: يَمَنَ وخَنَفَ وشَفَّ وشَغَفَ.

ص: ۲۳۰

يُظهر تعظيمه للبيت، فيقول:

أقسمت لولا الذى زعمتُ وما خَبَّرْتُ قوماً عن مجدهم كذباً

وقد أضعت الذى حفظتُ من ال - وُدِّ لقدَّمتُ مِدْحَةً عَجَباً

الحمد للّهذى البَنِيَّة إذ أمستْ دُحَيٌّ قد أُثْخِنت غَلَبَا (۱)

كثُر حَلِف العرب الجاهليين بالأماكن المقدسة، ولا سيما مكة والبيت الحرام، بصيغ مختلفة مثل: ورب مكة، واللّه، والبيت الحرام، وبيت اللّه، وما شابهها، وليس لذلك معنى إلا تلك المكانة الروحية الكبيرة لمكة فى وجدان العرب

ويقسم النابغة الذبيانى للنعمان بن المنذر، باللّه رب الكعبة أنه لم يرتكب فى حقه سوءاً وإثماً، وإنما هى الوشاية من المنخل اليشكرى، فيقول:

فلا لعمر الذى قد زرتُه حِجَجاً وما هُرِيق على الأنصاب من جسد

ما إن أتيتُ بشيء أنت تكرِهه إذن فلا رفعتْ صوتى إلى يدى (۲)

ومما نُسب للنابغة أيضاً: قوله فى تبرئة نفسه أمام النعمان، مقسماً بالأماكن المقدسة:

حلفتُ بمن تُساق له الهدايا على التَّأْديب يعصمها الدَّرين

برب الرافعات بكل شُهب بشُعثِ القوم موعدها الحَجون (۳)

ولمكانة هذه المقدسات عندهم، كان للحلف أهمية كبيرة فى نفوسهم.

۱- ديوان قيس بن الخطيم: ۱۱۴- ۱۱۵.

۲- ديوان النابغة: ۶۸، وينظر: الخزانة ۵: ۷۳.

۳- ديوان النابغة: ۱۵۰.

ص: ۲۳۱

وفي المعنى ذاته: توجد للشاعر عامر بن الطفيل قصيدة يخاطب فيها زيد الخيل، ويمدح نفسه، مقسماً برب المقدسات أنه قليل أمثاله في بني عامر، يقول:

إنني والذي يحج له النا س قليل في عامر أمثالي (۱)

ومن هذا القبيل: البيت التالي، لشاعر جاهلي:

فأقسم بالذي حجت قريش وموقف ذي الحجيج إلى إلَال (۲)

وعلى النحو السابق: تذكر المصادر للشاعر عوف بن الأحوص أبياتاً في تعظيم البيت، والحلف بالمقدسات أن يظل وفياً، وذلك من قصيدة طويلة له في طلب النَّصَفَة والتحكيم بين قومه: بني جعفر، وأبناء عمومتهم: بني أبي‌بكر، وكان نفر من بني جعفر قد اعتدوا على رجل من بني أبي‌بكر، وأهانوه، فطلب هؤلاء التحكيم والنصَفَة من قوم الشاعر، فرفضوا، غير أن رفضهم لم يُرْض الشاعر، فقال- يحثهم على محاولة استرضاء بني عمومتهم، تفادياً للحرب، وإبقاء على الوُدِّ القديم بينهم-:

هُدِّمت الحياضُ فلم يغادَر لحوضٍ من نَصَائبه إزاء

لخولة إذ همُ مغْنىً وأهلي وأهلك ساكنون معاً رِثاء

فَلأْياً ما تَبِينُ رسوم دار وما أبقَى من الحَطَب الصِّلاء

وإني والذي حجت قريشٌ محارمَه، وما جمعتْ حراء

وشهر بني أميةوالهدايا إذا حُبِست مُضَرَّجها الدماء

أذمك ما ترقرق ماء عيني عليَّ إذا من اللَّه العفاء

أمُر بحكمكم مادمت حياً وألزمه ورن بلغ الفناء

۱- ديوان عامر بن الطفيل برواية الأنباري عن ثعلب، دار صادر، ودار بيروت، لا. ط. ۱۹۶۳ م: ۱۰۲.

۲- المفصل في تاريخ العرب: ۶: ۴۳۰.

ص: ۲۳۲

فلا تتعوَّجوا فی الحکم عمداً کما یتعوّج العود السِّرَاء

فإنک والحکومة یابن کلبٍ عَلیَّ وأن تُکفنی سواء (۱)

ویقسم زهیر بن أبی سُلمی بالبیت، ویعظمه، علی أن الحارث بن عوف، وهرم بن سنان من أحسن العرب مکانة، وأکثرهم کرماً، فی کل الأحوال: فی الشدة والرخاء، والیسر والعسر، لإنهائهما الحرب الضروس بین عبس وذبیان، التی دامت زمناً طویلًا، وأفنت الکثیر من الرجال، والأموال، بسبب سعیهما فی الصلح، عن طریق دفع دیات القتلی من أموالهما، وذلک فی معلقته المشهورة: (أمِنْ أمِّ أوْفَی)، التی منها قوله:

سعَی ساعیاً غیض بن مرة بعدما تبزَّل ما بین العشیرة بالدم

فأقسمت بالبیت الذی طاف حوله رجالٌ بَنَوْه من قریش وجرهم

یمیناً لنعم السَّیدان وُجدتُما علی کل حال من سَحِیل ومُبْرَم

تدارکتُما عبساً وذبیان بعدما تفانَوْا ودقُوا بینهم عطر منشم (۲)

والشعر القدیم فی هذا المنحی کثیر، ولعل فیما أوردناه من الأمثلة توضیح کافٍ علی مدی تعلق العرب جمیعاً بمکة المکرمة والبیت الحرام، وغیرها من المقدسات، قبل الإسلام.

المبحث السابع: مکانة قریش عند العرب:

تُعد قریش قلب العرب، وصفوتهم، وقبلتهم منذ القدم، وهی تُدعی فی أول أمرها: النضر بن کنانة، وکانت أحیاء متفرقة فی بنی کنانة، فجمعهم قُصی بن

۱- ینظر: المفضل بن محمد الضبی، المفضلیات، تحقیق: أحمد شاکر، عبدالسلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط. ۳، ۱۹۶۳ م: ۱۷۳- ۱۷۴.

۲- أحمد بن یحیی ثعلب، شرح دیوان زهیر بن أبی سُلمی، الدار القومیة للطباعة والنشر، القاهرة، ط. ۱، ۱۹۶۴ م: ۱۴- ۱۵.

ص: ۲۳۳

كلاب، (الجد الرابع للنبى صلى الله عليه و آله)، من كل ناحية فسُمُّوا قريشاً لذلک (۱)، وسُمى قصى:

مُجمِّعاً، لأنه جمعهم، وجعلهم قبيلة واحدة، وفى هذا المعنى قال شاعرهم:

إننى والذى يحج له النا س قليل فى عامر أمثالى (۲)

ولمكانة قصى من البيت الحرام، ومنزلة القرشيين من قصى، صار لهم مع مرور الزمن شأن عظيم بين العرب، حتى إنهم كانوا يسمونهم:

آل اللّه، وجيران اللّه، وسكان اللّه، وما شابه ذلک، وفى المعنى يقول عبدالمطلب بن هاشم:

نحن آل اللّه فى ذمته لم نزل فيها على عهد قدم

إن للبيت لرباً مانعاً من يُرِد فيه بإثم يُختَرَم

لم تزل للّهفينا حرمة يدفع اللّه بها عنا النقم (۳)

۱- سُمُّوا قريشاً من التَّقْريش، أى: التجميع بعد التفرق، أو بسبب كونهم تجاراً يجمعون بين الأشياء المتفرقة، وليس لهم أبٌ ينسبون إليه يسمى قريشاً، وفى سبب التسمية هذه آراء متعددة، ينظر: تفسير الرازى: ۱۶: ۱۰۷- ۱۰۶، وتفسير القرطبى ۲۰: ۲۰۳، والتاريخ القويم: ۲: ۴۶ و ۳: ۱۴۵، والسيرة: ۱: ۹۳ وما بعدها.

۲- التاريخ القويم: ۳: ۱۴۵.

۳- المصدر السابق، وينظر: المفصل فى تاريخ العرب: ۴: ۲۴.

ص: ۲۳۴

وقول أبي طالب يرثي أبا أمية بن المغيرة، زوج أخته عاتكة بنت عبدالمطلب، وكان خرج في تجارة إلى الشام، فمات في الطريق، ومما قاله في رثائه:

تنادَوْا بأنْ لا سيِّد الحيِّ فيهم وقد فُجع الحيان: كعب وعامر

فكان إذا يَأْتي من الشام قافلًا بمقدمه تسعى إلينا البشائر

فيصبحُ أهلُ اللّه بيضاً كأنما كستهم حَبِيراً رَبْدَة ومَعَافر (۱)

وهكذا تبدو مكانة قريش بين العرب الجاهليين، كما صورها شعراؤهم قبل الإسلام، وقد حفظوا لهم هذا الشرف منذ القدم، فكانوا يقصدونهم من أقاصي شبه الجزيرة العربية لإقامة مناسك الحج والعمرة، وللبيع والشراء، وعقد معاهدات الصلح، والحرب، والتحالف، وللمشورة والتحكيم، وما شابه ذلك، وهذه المكانة العظيمة للقرشيين لم تأت مصادفة، أو لمجرد مجاورتهم للبيت، وسكنهم في مكة، وكونهم من أصل شريف، فقط، بل أيضاً لأنهم كانوا أصحاب فصاحة وبلاغة لا تُضاهي، كما شُهروا برجاحة العقل، وسعة الأفق، وعمق التجربة، وقد نضجت فيهم الحياة العقلية بصفة عامة، نضجاً لمسه العرب دون شك في سعة تفكيرهم، وسداد معاملاتهم، وحسن آرائهم، من خلال احتكاكهم بهم في المعاملات التجارية، داخل مكة وخارجها، كما عرفوهم من خلال خططهم الحربية، وأسواقهم العامرة بصنوف القول، إلى جانب صنوف التجارة، وحكمتهم العميقة الموشِّحة لأشعارهم، وأمثالهم، وهي دون شك تنم عن عقل راجح، وتفكير قويم، من مثل: الجهل شرُّ الأصحاب، حسْبك من شرٍّ سماعه، من خان هان، عند الصباح يحمد القوم السّرَى، وغدَرَك من دلَّك على الإساءة، وما شابه ذلك (۲).

۱- الخزانة: ۸: ۱۴۷.

۲- ينظر: التاريخ القويم: ۲: ۴۶.

ص: ۲۳۵

وبما أن الشعر من الأمور المهمة لدى العرب الجاهليين، فإنهم كانوا يحتكمون فيه لهذه القبيل، فكان الشعراء يقدُمُون على مكة فی موسم الحج لأداء المناسك، وعرض أشعارهم على القرشيين فما قبلوه، واستحسنوه، قُبل، وسار بين العرب قاطبة، وما رفضوه رُفض، ومن ذلك أنه قدِم عليهم علقمة الفحل، فأنشدهم قصيدته التی يقول فيها:

هل ما علمتَ وما استودعتَ مكتوم أم حبلها إذ نأتْك اليوم مصروم

فقالوا: هذا سِمْط الدهر، ثم عاد إليهم فی العام المقبل فأنشدهم:

طَحَا بكَ قلب فی الحسان طَروُب بُعَيْد الشبابِ عصْرَ مَشيب

فقالوا: هاتان سِمْطا الدهر (۱).

وكان الشاعر يقول الشعر فی قبيلته، أو فی غيرها من الأماكن خارج مكة، فلا يُعبأ به، ولا يأخذه عنه أحد، حتى يأتی مكة فی الموسم، فيعرضه على أندية قريش، فإن استحسنوه، اهتموا به، وعُلِّق على الكعبة، واستنشده الناس، وسارت به الركبان، وكان فخراً لصاحبه، وإن لم يستحسنوه: طُرح ورُدَّ عليه، وأول من عُلّق شعره فی الكعبة: امرؤ القيس، وبعده عَلَّقت الشعراء، والشعر الذی يُعلق على الكعبة يسمى: المعلقات، ومن الاحتفاء به أن كانت القصائد الجيدة تُكتب بماء الذهب على القَبَاطِیِّ، وتعلق على ركن من أركان الكعبة، وتسمى:

المُذَهَّبَات (۲)، ولا غرو، فالشعر الذی يصل إلی هذه المنزلة لابد أن يكون مرَّ

بمراحل من التنقيح، والتنقية، والاختيار، ما أوصله إلی قمة النضج: فصاحةً، وبلاغةً، وحكمةً، وعمقاً فی التفكير، ولاشك أن القرشيين فی مستوى هذه المرحلة الناضجة من حسن الاختيار، إذ لا تزال مختاراتهم مثار إعجاب، وقدرة، إلی

۱- السِّمط: الخيط مادام منظوماً فيه الخرز القلادة، ينظر: المعجم الوسيط، مادة: سَمَطَ، والمقصود: الشیء الثمين، الرفيع المكانة.

۲- ينظر: الأعلم الشنتمری، شرح ديوان علقمة الفحل، لطفی الصقال ودرية الخطيب، دار الكتاب العربی، حلب، سوريا، ط. ۱، ۱۹۶۹ م: ۹، والمذهبات: كتبت بماء الذهب وعلّقت على الكعبة، ينظر: الخزانة: ۱: ۱۲۶.

ص: ۲۳۶

يومنا هذا.

ولأن مكة قِبْلَة العرب، والقرشيين ساداتهم، كان العرب يهرعون إلى مكة والقرشيين كلما حَزب بهم أمر، أو ضاقت بهم سبل، أو ألجأتهم حاجة كائنة ما كانت، فقد هرع إليهم قيس بن زهير العبسى طارداً إبلًا لابن عمه: الربيع بن زياد العبسى، فى شحناء بينهما، سبق بها زياد، إذ خَدَع قيساً فى درع له ساومه فيه، وهو على ظهر فرسه، ثم أخذ الدرع لينظر فيه، فهرب به ولم يرده، فاغتاظ زهير، واستاق إبلًا للربيع واحتمى بالقرشيين، وباع الإبل مقايضة بأدراع وأسياف من عبداللّه بن جدعان، وقيل: من حرب بن أمية وهشام بن المغيرة، ثم جاور بن قُشير، وفى ذلك يقول:

ألم يأتيك والأنباءُ تَنْمِى بما لاقت لبون بنى زياد (۱)

ومَحبَسُها على القرشى تُشْرَىبأدراع وأسياف حداد أُطوّف ما أُطوّف ثم آوى

إلى جارٍ كجار أبى دؤاد (۲)

كفانى ما أخاف أبو هلال ربيعة، فانتهتْ عنى الأعادى (۳)

كأنى إذا أنخْتُ إلى ابن قرط أنختُ إلى يَلَمْلَم أو نَضَاد (۴)

ومن اتجاه العرب لقريش: أنه وقعت حرب ضروس بين الأوس والخزرج، انتصر فيها الخزرج، ثم إنهم استنصروا اليهود تحسباً لرد الثأر، فلما رأت الأوس

۱- فى هذا البيت شاهد نحوى فى يأتيك بإثبات الياء مع الجازم، ينظر: الخزانة: ۸: ۳۶۱ وما بعدها.

۲- هو أبو دؤاد الإيادى، عاش فى الجاهلية، جاور الحارث بن هَمَّام بن مرة الشيبانى، وكان لأبى دؤاد هذا ابن خرج يلعب مع الصبيان فى غدير ماء، فغمسوه فيه، فقتلوه، وكان عددهم تسعة، أو عشرة، فحكم الحارث بإغراقهم جميعاً، أو تُدفع دية عن كل واحد منهم، فَوُدِى ابن أبى دؤاد بتسع ديات أو عشر، ينظر: الخزانة: ۸: ۳۷۰- ۳۷۱.

۳- ربيعة: هو ربيعة بن قرط بن سلمة بن قُشير، ويسمى: ربيعة الخير، ويكنى: أبا هلال، وقيل غيره، ينظر: المصدر السابق ۸: ۳۷۰.

۴- الخزانة: ۸: ۳۶۵ وما بعدها، ويَلَمْلَم: جبل على بعد ليلتين من مكة، وقيل: وادٍ، ونَضَاد: جبل بالعالية، ينظر: معجم البلدان: ۵: ۴۴۱ و ۲۹۰.

ص: ۲۳۷

ذلک التحالف خافت سوء العاقبة، فسارعت تطلب النصرة من قریش، وفی ذلک یقول شاعرهم قیس بن الخطیم:

تقول صنیعتی لما استقلت أتترک ما جمعْتَ صَرِیم سَحْر (۱)

فقلت لها ذرینی إن مالییروح إذا غلبْتُهُم ویَسْری وتحمل حربَهم عنا قریشٌ

کأن بنانَهم فریکُ بُسْر (۲)ونُدرِک فی الخزارج کل وتر

بذمّ الکاهنین وذمّ عمرو (۳)

والقصیدة طویلة.

وفی العصر الجاهلی، کان یلجأ إلی القرشیین الفاتکون، وقاطعو الطرق، والخارجون عن قبائلهم باحثین عن الأمان والاستقرار، فهذا الحارث بن ظالم، یفتک بخالد بن جعفر بن کلاب، وکان جاراً للنعمان بن المنذر، وفی رعایته، ویخاف الحارث أن تَطاله ید النعمان، فیحتمی بقریش، ویمدحهم، فیجد فیهم الأمن والأمان، فینتسب إلیهم، ویعاشر فیهم، ویقلع عن النهب، والسلب، والقتل، وهو القائل فی المعنی:

وإنی یوم غَمْرَة غیر فخر ترکتُ النهبَ والأسْرَ الرّغابا (۴)

فلست بشاتم أبداً قریشاً مصیباً رُغم ذلک من أصابا

فما قومی بثعلبة بن سعد ولا بفزارة الشِّعْرَی رقابا

وقومی إن سألتُ بنی لؤی بمکة علَّموا الناس الضِّرابا

۱- صَرِیم سَحْر: میت، منته، لا فائدة منه، فالسَّحْر والسُّحْر والسَّحارة: کل ما تعلق بالحُلْقوم من قلب ورئة، ینظر: المعجم الوسیط، مادة: سَحَرَ، والصَّریم: المنصرم، وإذا انصرمت الأحشاء مات صاحبها.

۲- کأن بنانَهم تفریک بُبسر: کنایة عن الشجاعة، وطول التجربة الحربیة.

۳- دیوان قیس بن الخطیم: ۱۲۰- ۱۲۱، والکاهنان: قُریظة والنَّضیر، یقال: إنهم بنو الکاهن بن هارون النبی علیه السلام، وعمرو: لعله یقصد بنی عمرو بن عوف الأوسی، ینظر المصدر السابق: ۲۰ و ۱۲۱.

۴- غَمْرة: قیل: جبل، وقیل: موضع ماء بمکة، ینظر: معجم البلدان: ۴: ۲۱۲، ویوم غمرة: هو الیوم الذی ترک فیه السلب والنهب.

ص: ۲۳۸

فما غطفان لی بأب ولكن لؤیٌّ والدی قولًا صوابا

فلما أن رأیتُ بنی لؤی عرفتُ الوُد والنسب القرابا (۱)

ویسمع بأبیات الحارث هذه، الحُصَیْنُ بن الحُمَام المُرّی، أحد سادات بنی مُرَّة، وشاعرهم، فلم یعجبه، فینتقد الحارث نقداً لاذعاً، فیه مسٌّ بقریش، وذلک فی قوله:

أَلَا لستُم منَّا ولسْنَا إلیكمُ برِئْنا إلیكم من لُؤَیّ بنِ غالب

أَقَمْنَا علی عِزّ الحجاز وأنتمُ بمُعْتَلَج البطحاء بین الأخاشب (۲)

ویقصد بمُعْتَلَج البطحاء: بطحاء مكة، أی سهولها حیث یعتلج القوم، ویتصارعون، وهو یعنی قریشاً، غیر أنه لم یلبث أن نَدِم ندماً شدیداً علی ما بدر منه، فأكذب نفسه صراحة، وعاد فمدح قریشاً، وانتمی إلیهم، فقال:

نَدِمتُ علی قول مضی كنتُ قلتُه تَبَیَّنْتُ فیه أنه قولُ كاذبِ

فلیت لسانی كان نصفین منهما بَكِیمٌ ونِصْفٌ عند مجْرَی الكواكبِ

أبُونا كِنانِیٌ بمكة قبرُه بمعْتَلَج البطحاء بین الأخاشب

لنا الرُّبْع من بیت الحَرَام ورِاثَةً وربع البطاح عند دار ابن حاطب (۳)

وما حمل الحُصین علی ما فعل، مع ما له من العزة والسیادة فی قومه، إلا تلك المكانة العالیة لقریش فی نفسه.

ومن تبجیل العرب لقریش: الاعتراف لهم بالسبق، والفضل، علی الأهل والقرابة، كما فعل عوف بن الأحوص فی وصفه للحرب التی انتصرت فیها قریش علی بنی قومه، فهو یعترف لقریش بالقوة، وحسن النظام، والغلبة، فی قوله:

۱- المفضلیات: ۳۱۴.

۲- مكرر- السیرة: ۱: ۱۰۰.

۳- المصدر السابق.

ص: ۲۳۹

لمَّا دَنَوْنَا للقِباب وأهلها أُتِيحَ لنا ذئب مع الليل فاجر

أُتِيحَتْ لنا بكر وتحت لوائها كتائب يرضاها العزيز المفاخر

وجاءت قريش حافلين بجمعهم وكان لهم فى أول الدهر ناصر

وكانت قريش لو ظهرنا عليهمُ شفاء لما فى الصدر والبغض ظاهر

حَبَتْ دونهم بكر فلم نستطعْهُمُ كأنهم بالمشرفية سامر

وما برحت بكر تثوب وتدعى ويلحق منهم أولون وآخر

لدن غُدْوَةً حتى أتى الليل وان - جَلَتْ غمامةُ يوم شره متظاهر

ومازال ذاك الدَّأْبُ حتى تخاذلت هوازن فارفضَّت سليمٌ وعامر

وكانت قريش يَفلِقُ الصخرَ حدُّها إذا أُوْهنَ الناسَ الجدودُ العواثرُ (۱)

كما يظهر من الأبيات: فإن الشاعر لا ـ يُخفى إعجابه بقريش، ومقدرتها الحربية، فهى وإن كانت هزيمتها، وحلفائها تُرضى غرور المُفاخر، وتَشفى ما فى الصدور من الغيظ والحنق، لو انتصرت عليهم هوازن، إلا أن تصميم قريش على النصر ظاهر، يؤكده ما جمعته من حشود حافلة، وعزم قويٍّ يفلقُ الصخرَ، فغلب حظُّها على حظوظ سليم وعامر، فانتصرت عليهم، فتخاذلوا، وكَبَا بهم جَدُّهم.

وتحمل أبيات الأعشى التالية، معانى الفخر بقريش، والاعتراف لهم بعلو المنزلة، وسمو المكانة، يقول من قصيدة طويلة فى هجاء عُمَيْر بن عبدالله بن عِيدان:

فما أنت من أهل الجَحُون ولا الصَّفا ولا لك حق الشّرْب من ماء زمزم

ولا جعل الرحمنُ بيتَك فى العُلا بأجْيَادَ غربِىَّ الصفا والُمحَرَّم (۲)

وهكذا تبدو مكانة القرشيين عند العرب القدامى كما صورها الشعراء فى شعر كثير منوع.

۱- المفضليات: ۳۶۵- ۳۶۶.

۲- ديوان الأعشى ميمون بن قيس، دار صادر، بيروت، لبنان، لا. ط.، ۱۹۹۴ م: ۱۸۳، وينظر: معجم البلدان: ۱: ۱۰۴.

ص: ۲۴۰

المبحث الثامن: قريش قُدوة العرب:

مما زاد فی فضل مكـة، وفضل أهلها، مباينتهم للعرب بشـكل واضح: أنهم كانوا متآلفين، متمسـكين بكثير من شـعائر دين إبراهيم عليه السـلام، آخذين بأسـباب التحضـر والتمدن فی وقتهم، ولم يكونوا كالأعراب الجفاة الأجلاف، ولا كمن لا يوقِّره دين، ولا يزينه أدب، ولاـ يهـذبه خلق، فكـانوا يحجون البيت، ويقيمون المناسـك، ويردُّون المظـالم، ويختنون أولاـدهم، ويكفّنون موتـاهم، ويغتسـلون من الجنابة، وحرموا نكاح المحارم، وزوجوا بناتهم بالصداق والشـهود، وتطليقهم كان ثلاثاً، قال ابن عباس، جواباً عن سؤال طلاق العرب: «كان الرجل يطلق امرأته تطليقـة، ثم هو أحق بها، فإن طلقها ثنتين فهو أحق بها أيضاً، فإن طلقها ثلاثاً فلا سبيل له إليها» (۱)، ومما ورد للأعشى فی ذلک:

أيا جارتی بِينِی فإنک طالقة كذاک أمور الناس غاد وطارقة

وبِينِی فقد فارقتِ غير ذميمة وَمَوْمُوقَةً منا كما أنت وامقة

وبِينِی فإن البين خير من العصا وأن لا تُرَى لی فوق رأسِكِ بارقة (۲)

ومما ميزهم أيضاً: أَنَفَتُهم، وشـعورهم بالسـيادة، والتفرد، فكانوا يتزوجون فی أی القبائل شاءوا ولا شـرط عليهم، ولا يزوجون أحداً إلا بشرط أن يكون

۱- ينظر المصدر السابق ۵: ۱۸۴.

۲- المصدر السابق، وينظر: التاريخ القويم: ۲: ۴۴.

ص: ۲۴۱

متحمساً (۱) على دينهم، ولا يتنازلون عن هذا الشرط أبداً، لأنه- في رأيهم-

يوجبه المحافظة على الدين، والشرف، قال شاعرهم مسافر بن أبي عمرو مفتخراً:

ورثنا المجد من أبا ئنا فَنَما بنا صُعُدا

ألم نسقِ الحجيج ونن - حر الدَّلَّافَة الرفدا

ونُلْفَى عند تصريف ال - منايا شُدَّداً رفدا

فإن نَهل فلم نُمْلَك ومن ذا خالد أبدا

وزمزم في أُرُومتنا ونفْقَأُ عينَ من حسدا (۲)

مما زاد في فضل مكـة، وفضل أهلها، مباينتهم للعرب بشـكل واضح: أنهم كانوا متآلفين، متمسـكين بكثير من شـعائر دين إبراهيم عليه السلام، آخذين بأسباب التحضر والتمدن في وقتهم، ولم يكونوا كالأعراب الجفاة الأجلاف

وإلى جـانب ذلـك: تفرَّدت قريش بكـثرة الألقـاب الدالـة على فضـلهم وجودهم، وتميزهم عن العرب، مثـل: أهـل اللّه، أزواد الركب، المطيبين، الأحلاف، الهاشميين، وما شابهها من صفات الكرم، والشجاعة، والمروءة، ومن غير شك

۱- الحُمُس والتَّحمُّس: التشدد في الدين، والأحْمَس: الشجاع، ومن يستطيع أن يفرض على الآخرين ما يريد، وقد استطاع القرشيون أن يفرضوا على العرب سـنناً ابتدعوها مغالاة في الدين، فسنوا الوقوف بالمزدلفة والإفاضة منها، بدلًا من عرفات، و فرضوا على الحجاج أن يتخلوا عن كل ما يأتون به معهم عند دخول الحرم، وأن يسـتبدلوا بثياب الحِل ثياب الحرم: شِرىً أو عارية أو هبة، فإن لم يجدوا ذلك طـافوا بالبيت عرايا: الرجال في النهار، والنساء في الليل، وبلغ من تشـددهم في الـدين: أن الرجل إذا أحرم بالحـج أو بالعمرة لا يـدخل داراً، ولا خيمـة، ولا بسـتاناً، وقـد تعِنُّ له حاجة في بيته فلا يدخله، وإنما ينادي أهله ليخرجوا له ما أرادوا، كما منعوا على أنفسـهم بعد الإحرام: السـمن، واللبن، والزبـدة، ولبس الوبر، والاسـتظلال بالشـعر، وغزله، ونسـجه، ولبسه، وما شابه ذلك من المبالغـة في التشديـد، ينظر: التاريخ القويم: ۲: ۴۳ وما بعدها، والمفصل في تاريخ العرب: ۶- ۳۶۲.

۲- السيرة: ۱: ۱۵۱.

ص: ۲۴۲

فإنه توجد مبررات لكل هذه التسميات (۱) كتلقيبهم بالهاشميين، لأن جدهم عمرو

هشم الخبز، وصنع موائد الثريد للفقراء فى أيام القحط والجوع، فسمى: هاشماً، وفيه قال الشاعر مادحاً:

عمرو العلى هَشَم الثريد لقومه ورجال مكة مُسنِتُون عجاف (۲)

ومما سجلته العرب فى شعرهم لقريش: ابتداعهم للمكرمات، والفضائل، والأعمال الخيرة، التى تنم عن عقل كبير، وفكر مستنير، فعلى سبيل المثال: أول من صنع الحريرة (۳) سُويد بن هَرْمَى، وقد قال فيه شاعرهم مخاطباً بنى‌مخزوم:

وعُلِّمتُم أكلَ الحرير وأنتمُ أعْلَى عداة الدهر جدُّ صلاب (۴)

فهو يمدح القرشيين بطيب مآكلهم، ورفاهية عيشهم، ويعيّر بنى مخزوم بخشونة مآكلهم، وشظفهم.

۱- كانت العرب تُسمى قريشاً: أهل اللّه، لمجاورتهم الحرم، وتأكدت هذه التسمية، وانتشرت بين العرب، بعدحادثة الفيل، حيث قالوا: إن اللّه دافع عنهم، فهم أهله، تفسير الرازى ۱۶: ۱۰۴، وتفسير القرطبى ۲۰: ۲۰۰ وما بعدها، أما أزواد الركب فهم فى الجاهلية ثلاثة نفر، أولهم: مسافر بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس، والثانى: زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، والثالث: أبو أمية بن المغيرة بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم، وسُمى كل واحد منهم زاد الركب: لأنه إذا سافر مع قافلة كفاهم مؤونة الطريق فلا يتزود معه أحد بشىء، ولم يُسَم بذلك غيرهم، الخزانة: ۸: ۱۴۷، أما المُطيّبون: فهم بنو عبد مناف و من تابعهم من قريش، وإنما سُموا بذلك: لأنهم فى تصالحهم مع بنى عبد الدار على ولاية شؤون البيت، أخرجوا جفنة مملوءة طيباً، وغمسوا فيها أيديهم، ومسحوا بها الكعبة، تأكيداً للصلح، وأما الأحلاف: فهم بنو عبد الدار ومن تابعهم، وسموا بالأحلاف: لأنهم فى الصلح المشار إليه أعلاه أخرجوا جفنة مملوءة دماً، فغمسوا فيها أيديهم، ومسحوا بها الكعبة، إمضاء للعهد الذى أبرموه مع بنى عبد مناف، والمطيبون والأحلاف أبناء عمومة، فكلهم يرجعون بنسبهم إلى قصى بن كلاب، ينظر: السيرة: ۱: ۱۳۰ وما بعدها، ومعجم البلدان: ۵: ۱۸۷.

۲- معجم البلدان: ۵: ۱۸۵.

۳- الحَريرة: لحم يقطَّع صغيراً قريشاً، ويطبخ فى ماء كثير، وعند نضجه يُذَر عليه الدقيق، فإذا لم يكن لحم فهى عصيدة، ينظر المصدر السابق.

۴- المصدر السابق.

ص: ٢٤٣

وكانت قريش لا تُربِّع أسطح منازلها، ولا تعلِّيها، ابتعاداً عن التشبه بالكعبة المربعة بالشكل، كراهية مضاهاة بيت اللّه في شيء، احتراماً له وتقديساً، وخوفاً من عاقبة التطاول عليه، وظل الحال على ذلك حتى ربَّع حُميد بن زهير بيتاً له بمكة، فأثار دهشة القرشيين، واستغرابهم، وخوفهم عليه من سوء العاقبة، إلى درجة أن رُجَّازهم كانوا يرتجزون، والبيت يُبنَى:

اليوم يُبنى لحُميد بيتُه إمَّا حياتُه وإمَّا موتُه

فلما تمَّ البناء، ولم تنزل بحُميد عقوبة، تبعته قريش، فربَّعت منازلها (١).

وكانت قريش لا تُربِّع أسطح منازلها، ولا تعلِّيها، ابتعاداً عن التشبه بالكعبة المربعة بالشكل، كراهية مضاهاة بيت اللّه في شيء، احتراماً له وتقديساً، وخوفاً من عاقبة التطاول عليه

وأول من سنَّ بين العرب، قبل الإسلام، دية المقتول مائة من الإبل كان من قريش، وهو عبدالمطلب بن هاشم، فأخذت به قريش والعرب جميعاً، وأقره الإسلام، و أول من خلع نعليه عند دخول الكعبة في الجاهلية، الوليد بن المغيرة، فخلع الناس، وصارت سنة إلى اليوم في دخول المساجد، والأماكن المقدسة، وهو نفسه أول من قضى بقطع السارق، وبالقسامة (٢)، في الجاهلية، فأخذ بها العرب، وأقرها الإسلام (٣).

ومما تفرد به القرشيون: دار الندوة، التي شهُر أمرها بين العرب جميعاً،

١- المفصل في تاريخ العرب: ۴: ۵۱، وينظر: ديوان قيس بن الخطيم: ١٩٧.

٢- القَسَامة: أن يوجد قتيل بين حيين لا يُعرف قاتله، فتُحمَّل ديته على الحيين بالتساوي، أو أن يُقْسِم خمسونمن أولياء الدم على متَّهَم بعينه لإثبات حقهم، فإن رفضوا أقسم المتهم لتبرئة نفسه، ينظر: المفصل في تاريخ العرب: ۵: ۵۲۴.

٣- ينظر: المعارف: ۵۵۱ وما بعدها.

ص: ۲۴۴

وهی منتـدی بناه قصـی بن کلاب لقریش، تنطلق منه لکـل شؤون حیاتهـا، فلاـ یُعقـد لواء، ولا تتم مشورة، ولا تزوَّج امرأة، ولا یختَن صبی، إلّافیها، وسموها دار الندوة (۱): لأنهم کانوا یتنادون فیها للخیر والشر معاً، وهی مفخرة لهم،

کما أنها تُعد- بلا ریب- مظهراً حضاریاً آنذاک، لا یوجد شبیه له فی العرب.

ومن تکـاتف القرشـیین، وتماسـکهم، وتعـاونهم: قبـولهم للرِّفَادة، وهی خَراج فی أمـوالهم فرضه علیهم جـدهم قصـی، لتـوفیر الطعـام والشـراب للحجاج أیام الموسم، ومع دار النـدوة والرفادة هذه، صارت لقریش السـقایة، والحجابة، واللواء (۲)، فجمعوا المجد من کل أطرافه، وقد قال شاعرهم، الزبیر بن

عبدالمطلب، مفتخراً:

فلولا نحن لم یَلْبَس رجال ثیابَ أعِزَّة حتی یموتوا

ثیابهم سِمَال أو طُمَار بها وَدَکٌ کما دَسَم الحَمِیت

۱- ینظر: التاریخ القویم: ۲: ۷۷ وما بعدها.

۲- اللِّواء: الإجازة بالناس من عرفـة، والـدعاء بهم، ولعله سـمی بذلک: لأن الذی یتقدم الناس ویدعو بهم یحمل‌لواء فی یده، أو علامة دالة علیه، وکان أمره فی قبیلة من جرهم اسمها: صُوفَة، وهم الذین یقول فیهم زهیر بن أبی سلمی:

ولا یَرِیمُون فی التعریف موقعهم حتی یُقال أجیزوا آل صفوانا

دیوان زهیر: ۶۰

ثم غلبت خزاعـة علی جرهم فأخـذته منهم، ثم انتزعته من خزاعـة قبیلـة بنی عدوان بن عمرو، فصار إلی رجل منهم یُدعی: أبو سـیَّارة، وهو الذی یقول فیه الراجز:

خَلُّوا السبیل عن أبی سَیَّارة وعن موالیه بنی فزارة

حتی یُجیز سالماً حماره مستقبل الکعبة یدعو جاره

المصدر السابق

وکانت صورة الإجازة: أن یتقدم أبو سـیارة الناس علی حماره، ثم یخطب فیهم قائلًا: «اللهم أصـلح بین نسائنا، وعاد بین رعائنا، واجعل المال فی سُمحائنا، وأوفوا بعهدکم، وأکرموا جارکم، وأقْروا ضیفکم، أشْرِق ثَبیر کیما نُغیر»، ثم ینْفُذ، ویتبعه الناس، وبقی اللواء فی ید أبی سیارة حتی اغتصبه منه قصی، فصار له ولأولاده من بعده.. ینظر: دیوان زهیر: ۶۰، ومعجم البلدان: ۵: ۱۸۵.

ص: ۲۴۵

ولكنَّا خُلقنا إذ خُلقنا لنا الحَبَرَات والمِسْك الفَتِيت (۱)

وقال مطرود بن كعب الخزاعى فى رثاء عبدالمطلب، مشيداً بقريش:

يا أيها الرجل المحوّل رحلَه ألا نزلتَ بآل عبد مناف

هَبِلَتْك أمُّك لو نزلتَ عليهمُ ضَمِنوك من جوع ومن إقْراف

الآخذون العهد من آفاقها والراحلون لرحلة الإيلاف

والمطعمون إذا الرياح تَنَاوَحت ورجال مكة مُسْنِتُون عِجَاف

والمُفْضِلون إذا الُمحُول ترادفت والقائلون هلمَّ للأضياف

والخالطون غنيهم بفقيرهم حتى يكون فقيرُهُم كالكافى (۲)

ومن مآثر المكيين: كثرة آبار السَّقى التى احتفروها بمكة، وتنافُسهم فى ذلك، وقد خلد الشعراء هذه المآثر فى شعر كثير، نقف عند نماذج منه على النحو التالى:

ورد فى المصادر: أن أول سقاية بمكة، كانت بئراً اسمها: (العَجُول)، احتفرها قصى بن كلاب، فى دار أم هانىء بنت أبى طالب، وكان العرب إذا استقوا منها ارتجزوا مادحين قُصياً بقولهم:

نَرْوى على العَجُول ثم ننطلق إن قُصيّاً قد وَفَّى وقد صدق

بالشِّبْعِ للحاج وَرِيٍّ مُنْطَبِق (۳)

وفى المعنى نفسه: قال شاعرهم حذيفة بن غانم، مفتخراً بمآثر القرشيين:

وساقِى الحجيج ثم للخير هاشم وعبد مناف ذلك السيد الفهرى

طَوَى زمزما عند المقام فأصبحت سقايته فخراً على كل ذى فخر (۴)

۱- المفصل فى تاريخ العرب: ۹: ۷۱۰.

۲- المصدر السابق ۶: ۳۶۹.

۳- السيرة: ۱: ۱۴۷، وينظر: معجم البلدان: ۴: ۸۸.

۴- السيرة: ۱: ۱۵۱، وينظر: معجم البلدان: ۳: ۱۴۹.

ص: ۲۴۶

ومما جاء فی بئر اسمها: (الغَمْر)، وهی لبنی سهم، قول شاعرهم:

نحن حفرنا الغَمْر للجمیع تَثُجُّ ماء أيَّمَا ثَجیج (۱)

وقالت سُبَیعهٔ بنت عبد شمس مفتخرهٔ ببئر احتفرها أهلُها، اسمها: (الطَّوِیُّ):

إن الطَّوِیَّ إذا ذکرتم ماءها صَوْبُ السحاب عذوبهٔ وصفاء (۲)

وللشاعرهٔ خالـدهٔ بنت هاشم بن عبـد مناف شـعر فی بئر اسـمها: (سَجْلَهٔ)، احتفرها أبوها هاشم، ثم وهبها ابنه أسـد لعَدِی بن نوفل، ولم یکن لأسد عقب، منه قولها:

نحن وهبنا لعَدِیّ سَجْلَهْ تُروِی الحجیج زُغْلَهْ فزُغْلهْ (۳)

وغیرها کثیر.

وعلی هـذا النحو عبّر شـعراء ماقبـل الإسـلام عن تلـک المکانـهٔ العظیمـهٔ لمکـهٔ ولمقـدساتها، ولأهلها، فی قلوب العرب جمیعاً، وإن ما أوردناه فی هـذا العجالـهٔ لا یعـدو أن یکون أمثلـهٔ مختارهٔ من شـعر کثیر قیل فی الموضوع، وهو فی جملته واضـح الدلالهٔ علی أن مکهٔ المکرمهٔ کانت قبل الإسـلام محوراً أدبیاً مهماً، یلتقی عنده الشعراء، والأدباء عموماً، فی أوقات الشدهٔ والرخاء، والیسر والعسر، علی حد سواء، کمـا یبـدو هـذا الشـعر أیضـاً معبراً عمـا یکنه العرب لمکـهٔ والأمـاکن المقدسـهٔ، وساکنیهـا، من تقـدیر واحترام یصل إلی درجهٔ التقدیس

۱- السیرهٔ: ۱: ۱۴۸، وینظر: معجم البلدان: ۴: ۲۱۱.

۲- المصدر السابق، وینظر: معجم البلدان ۴: ۵۱.

۳- المصدر السابق، وینظر: معجم البلدان ۴: ۱۹۳.

ص: ۲۴۷

والعبادة.

الخاتمة:

وختامُ هذا البحث: استخلاص لأهم النتائج التی توصل إلیها فی نقاط مختصرة، علی النحو التالی:

۱- إجماع العرب قبل الإسلام علی احترام مکة، وکافة المقدسات بها.

۲- لمکة هیبة عظیمة فی قلوب الجبابرة والعصاة والمردة ومن فی حکمهم.

۳- کثرة الحِلف باللَّه والبیت والکعبة وما شابهها من المقدسات.

۴- الاحتماء بمکة عند الشدائد، وفی حالات الخوف، وما شابه ذلک.

۵- لا مکان فی مکة لباغ أو سیء النیة نحو مکة ومقدساتها.

۶- لقریش مکانة رفیعة عند العرب بصفة عامة.

۷- تمیز القرشیون بکثیر من الذکاء والحکمة والعقل والمروءة والکرم، مما جعلهم فی مکان الصدارة من العرب جمیعاً، یلجأون إلیهم کلما حزب بهم أمر، أو حدث بینهم شقاق، أو طلبوا الشهرة، وما شابه ذلک من أمور.

۸- مکة سوق تجاریة مشهورة، والمکیون أسیاد هذا السوق.

۹- کثرة آبار السَّقی بمکة القدیمة، وتنافس المکیین فی إقامتها، وإشاعتها للجمیع، وتفاخرهم بذلک.

۱۰- مکة محور مهم للشعر والأدب عموماً منذ القدم.

ص: ۲۴۸

أثر مكة والحج فى ثقافة وأدب شبه القارة الهندية

(۱) مكانة مكة المكرمة فى قلوب مسلمى شبه القارة الهندية

د. سمير عبدالحميد إبراهيم

مكـة المكرمـة، المدينـة المقدسـة، مكرمة بالبيت، مقدسة بالبيت، الذى هو أول بيت وضع للناس، البيت الحرام، بيت الإنسانية من لدن آدم إلى قيام الساعة، لقد كرم اللَّه مكة فجعلها مكاناً لهذا البيت.. «

إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة»

.. مكـة المكرمة نالت العزة والفخر، ونالت مكانتها وثروتها بدعاء خليل اللَّه، فظلت بلداً آمناً، وظل رب الخلق يرزق أهله من الثمرات، فأهله هم أهل اللَّه، وهم مطعمون من جوع وآمنون من خوف.. فمنذ أذّن الخليل بالحج، انطلقت دعوته عبر الزمن من لحظة وقف على جبل أبى قبيس إلى أن تقوم الساعـة.. وما من لحظة فى ليل أو نهار إلا وهناك متجه إلى هذا البيت، أو من يسـتعد للقدوم إليه، أو من يتوجه إليه راكعاً وساجداً.

كم من صـفحات كتبت عن فضائل هـذا البلـد! وكم من عالم كتب عن فضائل هذا البلد! ناهيك عما كتب عن البيت الحرام وعن كل ما حوله:

عن مقام إبراهيم، وعن الحطيم، وعن الميزاب، وعن زمزم، وعن غيرها.

اهتم علماء الهند بتشجيع

ص: ۲۴۹

المسلمين على أداء فريضة الحج، وأكثر من هذا قاموا بتشجيعهم على الهجرة إلى مكة المكرمة طلباً للعلم، بل طلباً للموت والدفن فى ترابها، وهكذا كتبوا المؤلفات الكثيرة عن فضل السكنى بمكة، وحب الرسول إياها (۱)

وهكذا اهتم العلماء والأدباء فى شبه القارة بمكة وبالأماكن المأثورة فيها، وحرصوا على زيارتها والكتابة عنها وبيان مشاعرهم وأحاسيسهم، فقد كان مولد الرسول الأمين فى شعب أبى طالب المعروف اليوم بشعب على، والذى تحول إلى مكتبة مكة، وهناك بيت السيدة خديجة الذى تحول إلى مدرسة البنات

لقد شجع العلماء فى الهند المسلمين الهنود على الذهاب إلى مكة المكرمة، البلدة التى هى خير بلدة على وجه الأرض، وأحبها إلى اللّه ورسوله، والتى يكتب لمن يصلى فيها ركعة واحدة مائة ألف صلاة، والتى يكتب لمن صام رمضان فيها مائة ألف شهر رمضان، والتى يكتب لمن تصدّق فيها بدرهم واحد مائة ألف ما يكتب لمن تصدّق فى غيرها، والتى فيها شراب الأبرار وطعام طُعم..

وهكذا اهتم العلماء والأدباء فى شبه القارة بمكة وبالأماكن المأثورة فيها، وحرصوا على زيارتها والكتابة عنها وبيان مشاعرهم وأحاسيسهم، فقد كان مولد الرسول الأمين فى شعب أبى طالب المعروف اليوم بشعب على، والذى تحول إلى مكتبة مكة، وهناك بيت السيدة خديجة الذى تحول إلى مدرسة البنات، وهناك غار حراء، وقمة جبل حراء، ومسجد الجن، ومسجد الشجرة، وغار ثور، ومسجد العقبة، ومسجد الفتح، ومسجد التنعيم، ومسجد ذى‌طوى فى جرول، ومسجد النور، ومسجد الراية وغيرها (۲).

۱- ذكر عطاء بن كثير حديثاً رفعه إلى النبى صلى الله عليه و آله «المقام بمكة سعادة والخروج منها شقوة» الأرزقى ۲: ۲۲ وعن الزهرى قال: إن النبى صلى الله عليه و آله قال لمكة: «إنى لأعلم أنك حرم اللّه وأمنه وأحب البلدان إلى اللّه تعالى» الفاكهى ۲: ۲۶۱ وفضل الموت بمكة وفضل مقبرتها قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «من قُبر بمكة جاء آمناً يوم القيامة، ومن قبر بالمدينة كنت عليه شهيداً وله شافعاً» الفاكهى ۳: ۶۸.

۲- أنظر: عاتق بن غيث البلادى، فضائل مكة وحرمة البيت الحرام: ۲۳۲، دار مكة للنشر والتوزيع ط أولى ۱۴۱۰ ه، ۱۹۸۹ م.

ص: ۲۵۰

(۲) أثر مكة المكرمة على سلاطين شبه القارة وعلمائها:

غياث الدين أعظم شاه البنغالى:

كان بين الهند وأرض الحرمين علاقات خاصة ومتميزة، فقد كانت قلوب أهل الهند- حكاماً ومحكومين- تتوق إلى أرض الحرمين، كما كانوا يأملون فى نيل الثواب من اللّه بإكرامهم للمدينة المقدسة وأهلها، فها هو غياث الدين أعظم شاه، وهو من أعظم سلاطين ألياس شاه فى البنغال وأشهرهم (۱)يرسل الهبات والهدايا إلى

مكة المكرمة والمدينة المنورة، وأهم من هذه الهبات والهدايا إرساله بمال لعمارة مدرستين: مدرسة بمكة ومدرسة بالمدينة وشراء عقار يوقف عليهما، وقد ذكر ذلك كثير من المؤرخين، وعلى رأسهم قطب الدين النهروالى (الذى سنذكره فيما بعد) فى كتابه تاريخ مكة الذى سماه: الإعلام بأعلام بيت الحرام، لكنه اشتهر باسم تاريخ قطبى أو تاريخ مكة (۲).

ومما ورد فى تاريخ مكة: أن السلطان غياث الدين أعظم شاه قام بتأسيس مدرسة فى مكة المكرمة وأقام رباطاً للمسافرين، كما جعل هناك وقفاً لأعمال الخير والرعاية (۳)

وقد ذكر على آزاد بلكرامى أيضاً- نقلًا عن تاريخ مكة- فى كتابه (خزانة عامرة) المدرسة التى أقامها السلطان غياث الدين ولخص العبارة الأصلية هكذا:

«أقام المدرسة واشترى الأملاك غير المنقولة فى وادى مُر مع أحد الأنهار والممتلكات وجعلها وقفاً على المدرسة».

أما قاضى القضاة تقى الدين الفاسى (متوفى ۸۳۲ ه/ ۱۴۲۸ م) فى كتابه شفاء الغرام فى أخبار البلد الحرام، فقد ذكر السلطان غياث الدين أيضاً (۴).

وعلى كل حال، «كان ابتداء عمارة المدرسة بمكة المكرمة فى شهر

۱- حكم مدة ۲۲ سنة ۷۹۲ ه- ۸۱۳ ه/ ۱۳۹۰ م- ۱۴۱۰ م وكان له إسهامات عظيمة فى نشر الإسلام وتعاليمه، وتطبيق الشريعة الإسلامية وخاصة فى المحاكم والقضاء- حاشية أنظر مهر على تاريخ المسلمين فى البنغال المجلد الأول أ ص ۱۴۲، جامعة الإمام ۱۴۰۶ ه، ۱۹۸۵ م.

۲- وقد قام ابن أخيه عبدالكريم بن مجد الدين متوفى ۱۰۱۴ ه، ۱۶۰۵ م باختصار تاريخ قطبى.وللكتاب أكثر من طبعة واحدة فى مصر، وأخرى فى سنة ۱۳۷۰ ه، ۱۹۵۰ م وهناك طبعة ألمانية فى لايبزغ قديمة ترجع إلى عام ۱۸۵۷ م باهتمام المستشرق فردينند أو ستن فيلد- أنظر مقال للدكتور محمد إسحاق محاضر بقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة دهاكه.

۳- مهر على، المصدر السابق: ۱۹۸- ۲۰۰.

۴- مقال الدكتور إسحاق ص ۱۲۷- ۱۲۸.

ص: ۲۵۱

رمضان سنة ثلاث عشرة وثمانمائة، ولم تنقض هذه السنة حتی فرغ من عمارة سفلها وغالب علوها، وكملت عمارتها فی النصف الأول من سنة أربع عشرة وثمانمائة، وفی جمادی الآخرة منها ابتدأ فیها التدریس فی المذاهب الأربعة، وكان وقفها فی الحرم من هذه

كان بین الهند وأرض الحرمین علاقات خاصة ومتمیزة، فقد كانت قلوب أهل الهند- حكاماً ومحكومین- تتوق إلی أرض الحرمین، كما كانوا یأملون فی نیل الثواب من اللَّه بإكرامهم للمدینة المقدسة وأهلها

السنة، وكان شراء الوقف و موضع المدرسة باثنی عشر ألف مثقال ذهباً، وكان المتولی لشراء هذا الوقف والمدرسة خادم السلطان المذكور برقوق الحبشی، وهو الذی تولی تفرقة صدقة السلطان بمكة فی سنة ثلاث عشرة و ثمانمائة، ووقف المذكور علی مصالح مكة داراً مقابلة لها اشتراها بخمسمائة مثقال وعمّرها فی سنة أربع عشرة...» (۱).

وتذكر المصادر التاریخیة (غلام علی آزاد بلكرامی فی خزانه عامره) أن السلطان أرسل مع یاقوت المذكور ثلاثین ألف مثقال ذهباً لإصلاح مجری میاه «عرفة»، وتسلم شریف مكة حسین بن عجلان المبلغ، لكنه استخدمه فی إصلاح نهر آخر (نهر بازان) وخزانین للمیاه فی مكة.

السلطان محمود شاه الگجراتی:

یعد السلطان محمود شاه، الذی تولی الحكم سنة ۸۶۳ ه- ۱۴۵۸ م وحكم خمسة وخمسین عاماً، من أشهر حكام الأسرة الحاكمة فی الگجرات (۲)، كان مسلماً ورعاً، أقام

صناعات كثیرة وازدهرت البلاد فی عهده، قدم علیه أبوالقاسم بن أحمد المكی المعروف بابن فهد ومعه فتح الباری بخط أبیه وعمه، وقدّمه إلیه فأكرمه (۳)، وكان بینه وبین السلطان

قانصوه الغوری علاقات سیاسیة وعسكریة، وقد تولی من بعده ابنه مظفر الحلیم الگجراتی، وكان من حفظة القرآن ومن المحدثین الفقهاء

۱- أنظر النص فی مهر علی مصدر سابق ص ۱۴۳- ۱۴۴.

۲- تقع الگجرات شمال ولایة بومبای، وجنوبها یطل علی بحر البحر، وأشهر مدنها أحمد آباد العاصمة التی أسسها أحمد شاه توفی ۸۴۵ ه- ۱۴۴۲ م، كانت لها صلات تجاریة وثقافیة فی الماضی مع البلاد العربیة.

۳- أنظر د. عبدالمنعم النمر، تاریخ الإسلام فی الهند: ۲۰۷، ط دار النشر للجامعات، بیروت.

ص: ۲۵۲

وماهراً فی فن الخط بجمیع أنواعه فکتب مصحفین بیده، وأرسلهما إلی الحرمین الشریفین (۱)، وقد کتبهما بالخط الثلث بماء الذهب، وخص بهما إمام الحنفیة، وجعل لهما وقفاً یصرف لمن یقوم علی حفظهما، ومن یدعو له عند ختمهما، وللسقاء الذی یسقی القراء وللفراش کذلک، وکان محافظاً علی الوضوء والصلاة فی جماعة (۲).

ومن برّه لأهل الحرمین، أنه کان یرسل لهم العطایا والأقمشة، کما أنشأ فی مکة رباطاً ومدرسة وسبیلًا للماء، وجعل لهما وقفاً یرسل إلی مکة ینفق علی المدرّسین والطلبة ومن یقیم فی الرباط (۳).

السلطان شیر شاه السوری:

ومن حکام الهند أیضاً شیر شاه السوری الذی جلس علی عرش آکرا (بکاف فارسیة) فی رجب ۹۴۷ ه- ۱۵۴۰ م (۴)، وقد قام شیر شاه السوری بتخصیص سفینتین کبیرتین لنقل الحجاج کل عام مجاناً، وکان بیت المال یتحمل تکالیف سفر أولئک الحجاج (۵)، کما کان حریصاً

علی تأمین طریق الحج فقد قال: «لو ساعدنی الزمان أبعث برسالة إلی عظیم الروم (یقصد السلطان العثمانی) وأسأله أن یرکب بعساکره إلی بلاد الفرس، ونرکب نحن من هنا إلی تلک البلاد، فندفع بمساعدة ملک الروم شر الأوباش الذین یقطعون طریق الحجاج، ونحدث شارعاً آمناً إلی مکة المبارکة»، لکن الأجل لم یمهله فمات قبل أن یحقق أمله (۶).

الامبراطور جلال الدین أکبر:

وهکذا یفهم أن الأوربیین کانوا یعرقلون سفر الحجاج الهنود إلی مکة المکرمة، مما دفع الحکام المسلمین إلی التصدی لهم، ومن أمثلة هذه الحوادث ماقام به الامبراطور جلال الدین أکبر حین زحف علی منطقة الگجرات سنة ۹۸۰ ه/ ۱۵۷۲ م، ووصل إلی مدینة «سورت» (۷)،

حیث أسس البرتغالیون بها مرکزاً لتجارتهم وحامیةً من الجند تحمیهم، وقد تصالح هؤلاء معه و عقدوا

۱- المصدر نفسه: ۲۰۸.

۲- هکذا ذکر الآصفی فی تاریخه، أنظر نزهة الخواطر ۴: ۳۵۶.

۳- النمر، مصدر سابق: ۲۱۱.

۴- تمکن من حکم البلاد وهو کبیر السن لکنه مع هذا قام بتطویر البلاد وتحدیثها وشق الطریق وحفر القنوات، وأقام أربطة ومساجد علی الطرق، وغرس الأشجار المثمرة للمسافرین، ولا یزال بعضها قائماً حتی الیوم.

۵- عبد الحی: نزهة الخواطر ۴: ۱۵۵.

۶- النمر: ۲۵۲.

۷- جاء فی دائرة المعارف الإسلامیة بالأردیة أنّ سورت تعرف باسم باب مکة، اسم مدینة أطلق علی عاصمةالمدیریة وتقع عند مصب نهر بلتی عند الطرف الجنوبی للنهر علی مسافة عشرة أمیال من المصب، ذکرها الجغرافی الشهر بطلیموس مات ۱۵۰ م، ویعتقد أن

المدينة الحالية أسست فى بداية القرن ۱۶ م، دائرة المعارف ۱۱: ۴۴۸.

ص: ۲۵۳

معاهدة تعهدوا فیها بتیسیر الحج إلی مکة، وعدم‌التعرض فی‌البحر للحجاج المسلمین، وکانت مدینة «سورت» میناء یبحر منه الحجاج، ولا یزال فیها للآن شارع یسمی «باب مکة» (۱).

أما الامبراطور بهادر شاه ظفر- وکان أدیباً وشاعراً- فهو آخر ملوک الدولة المغولیة (البابریة) فی شبه القارة، فقد نفاه الإنجلیز من الهند إلی بورما بعد أن أحضروا إلیه رؤوس أولاده داخل أطباق علی صینیة الطعام، فقد ظل یناجی ربه، ویبث ألمه إلی رسول اللَّه شعراً:

«یا رسول اللَّه! ماکانت أمنیتی إلا أن یکون بیتی هناک بجوارک..

لکنه أصبح فی رنکون، وبقیت أمنیاتی مدفونة فی صدری..

یا رسول اللَّه!

کانت أمنیتی أن أمرغ عینی فی تراب أعتابک..

ولکن ها أنا أتمرغ فی تراب رنکون..

وبدلًا من أن أشرب من ماء زمزم ..

بقیت هنا أشرب الدموع الدامیة ..

فهل تنجدنی یا رسول اللَّه!

ولم یبق فی حیاتی سوی أیام معدودات».

وإذا ما ترکنا الحکام إلی العلماء والدعاة، لاحظنا أن مکة المکرمة، کانت تبعث بعلمائها إلی شبه القارة، وکانت شبه القارة تعیدهم إلیها تارة، أو ترد بإرسال علمائها إلی مکة تارة أخری، ونسوق هنا مثالین أو أکثر:

أسرة مولانا أبی الکلام آزاد بین مکة والهند:

أبو الکلام آزاد هو محی الدین أحمد، وآزاد هو تخلّصه أو اسمه الأدبی، أسرته من الهند والحجاز، فجده هو مولانا محمد هادی من أسرة کلها علم وورع وتقوی، ووالدة آزاد هی ابنة أخت الشیخ محمد بن طاهر مفتی المدینة المنورة، وکان والده مولانا خیر الدین قد قدم إلی مکة المکرمة وعاش فیها، ثم تزوج من ابنة هذه الأسرة التی تنتمی إلی

۱- النمر، د. عبدالمنعم تاریخ الإسلام فی الهند، بیروت، المؤسسة الجامعیة ۱۴۰۱ ه- ۱۹۸۱ م ص ۲۶۸.

ص: ۲۵۴

المدينة المنورة.

ويُذكر أنه حين توفى جد مولانا آزاد لأبيه، وترك ابنه «خير الدين» والد آزاد صغيراً، كفله جده لأمه ورباه تربية دينية، لكن الجد لم يطق المقام فى دهلى وهو يرى أشلاء الدولة الإسلامية تتمزق، والإنجليز يتحكمون فى كل شيء فاستقر رأيه على الهجرة بأسرته إلى مكة المكرمة، ليقضى فيها بقية حياته بجوار البيت الحرام.. وحين وصل إلى بهوبال فى وسط الهند متجهاً إلى بومباى ليستقل الباخرة إلى جدة، استوقفته أميرة بهوبال «سكندر جهان بيغم» (۱)

استوقفته وأبقته نحو سنتين، لكنه توفى فى بومباى، فواصل حفيده- ابن بنته والد آزاد- الرحلة إلى مكة المكرمة مع الأسرة، وكان فى الخامسة والعشرين، وفى مكة بنى له داراً وتزوج- كما يذكر آزاد فى مذكراته- من ابنة أحد علماء المدينة المعروفين وهو الشيخ محمد طاهر الوطرى (۲)،

وفى سنة ۱۳۰۶ ه- ۱۸۸۸ م ولد أبو الكلام آزاد الذى سماه أبواه محى الدين فى محلة «قدوه» المتصلة بباب السلام بالحرم المكى، وكان أصغر أخوته وأخواته الخمس.

وهكذا ولد آزاد من أم حجازية وأب هندى تعرّب، فقد مكث والده فى مكة نحو ثلاثين عاماً (۳)، وكان

عالماً جليلًا ورجلًا تقياً ورعاً، له أثره وشهرته فى مكة المكرمة وفى الهند وغيرها، وقد جاء فى دائرة المعارف الإسلامية الأردية (۴) أنه كان له

مريدون فى بومباى وكلكتا ورنكون، وأنّه كان يسافر كثيراً إلى الهند.

۱- وهى إحدى أربع أميرات تولين الحكم فى هذه الإمارة، وتولت الحكم بعدها شاهجهان بيغم التى تزوجت من العالم المعروف صديق حسن خان، وقد كتبت سكندر بيغم عن رحلتها للحج كتاباً بالأردية، ترجم إلى الإنجليزية، وكتب عنه الدكتور أحمد عبد الرحيم نصر أستاذ بقسم الاجتماع الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ورقة قدمها فى ندوة حج العام الماضى بعنوان «كتابات ورحلات النساء للحج دراسة فى رحلة حج نواب اسكندر بيجوم بهوبهال ۱۲۲۰ ه/ ۱۸۶۴ م».

۲- أنظر كتاب، الصفحات الأولى.

۳- الدكتور عبدالمنعم النمر أبو الكلام آزاد: ۶۳.

۴- دائرة المعارف الإسلامية بالأردية، المجلد الأول: ۹۹.

ص: ۲۵۵

اشتهر مولانا خير الدين بجهوده فى جمع الأموال التى أسهمت فى ترميم نهر زبيدة سنة ۱۲۹۵ ه/ ۱۸۷۸ م (۱).

فصّل إبراهيم باشا فى رحلته «مرآة الحرمين» الحديث عن نهر زبيدة، كما كتب عنه مولانا عبد المعبود فى كتابه تاريخ مكة المكرمة (بالأردية)، ويذكر أبوالكلام آزاد «أن أباه حين كان فى مكة لم تكن المياه تأتى أبداً فى نهر زبيدة، ولو حدث وجرت فهى قليلة جداً، وكان عسكر شريف مكة يجلسون عليه يبيعون الماء بأسعار غالية، وفى تلك السنة انقطعت المياه تماماً فى الحج وهلك آلاف الناس، وقد رأى والدى هذا المنظر بنفسه وقرر أن يصلح من شأن هذا الأمر من أجل موسم الحج القادم، وكان قد لفت نظر سلطان تركيا لهذا الأمر لكنه لم يجد منه أذناً صاغيةً، ولهذا بدأ يخاطب الناس فى الهند، فطلب من صديقين له هما شهبندر التجار حاجى عبد الواحد وحاجى زكريا العون، فقدّما آلاف الروبيات، وقدم نواب الهند ورؤساؤها أيضاً المعونات، ومن حسن الحظ أن نواب كلب على خان ونواب عبدالغنى كانا ذاهبين للحج فى تلك السنة، فذهب الوالد إليهم فتبرعا بأموال كثيرة.. كان هذا سنة ۱۲۸۹ ه./ ۱۸۷۳ م، وقام الوالد بطبع نشرات بالعربية والأردية أرسلها إلى مصر والهند.. ولم تمض عدة أشهر حتى قدم المهندسون الهنود (عددهم ۸)، كما انتبهت الحكومة التركية وأرسلت مهندسين مصريين..».

وهكذا بدأ العمل فى تطهير نهر زبيدة بعد أن شكل مولانا خير الدين لجنة من سبعة أشخاص تعمل تحت إشراف شريف مكة، وتم إصلاح جزء كبير من النهر لدرجة أن مشكلة المياه انتهت سنة ۱۹۰۵ م، وقد منحت الحكومة التركية مولانا خير الدين وساماً (الدمغة المجيدى من الدرجة الأولى).

وبينما تذكر دائرة المعارف الإسلامية الأردية أن أبا الكلام آزاد سافر وعمره عشر سنوات مع والديه

۱- أنظر تفصيل ذلك فى مقال الطاف على قريشى بعنوان نهر زبيدة، فكر ونظر، اكتوبر- ديسمبر ۱۹۸۲ م، محرم ربيع الأول ۱۴۰۶ ه، إدارة تحقيق اسلامى إسلام آباد، وأنظر أيضاً ما جاء فى كتاب الدكتور النمر أبو الكلام آزاد: ۱۴۲ وما بعدها، وهذا ملخص ما ورد فى المصدرين السابقين.

ص: ۲۵۶

إلی کلکتـا، التی ذهب إلیها أبوه بناءً علی رغبـهٔ مریـدیه وأحبابه، حیث توفی هناک عام ۱۹۰۷ م، وکـان أبو الکلام آزاد وقتها یتکلم الأردیـهٔ «المکسـرهٔ»، فقد توفیت والدته بعد وصوله کلکتا بسـنهٔ واحدهٔ... یذکر الدکتور النمر أنه عاد إلی الهند بعد سـنتین من ولادته، مستشـهداً بما جاء فی کتاب «الهند تکسب حریتها» لآزاد، وأشار الدکتور النمر نفسه إلی أن بعض المراجع الهندیهٔ الرسـمیهٔ، تشیر إلی أنه غادر مکهٔ مع والده عام ۱۸۹۸ م (۱).

کما ینقل الـدکتور النمر عن آزاد قوله: «وکان الـداعی إلی عودته (أی والـده) أنه سـقط مرهٔ فی «جـدهٔ» فانکسـرت ساقه ولم یجد من یرجعها إلی استقامتها، فأشار علیه أصدقاؤه بأن أطباء کلکتا یستطیعون علاجه..

فسافر للعلاج وکان عازماً علی الرجوع إلی مکهٔ بعد الانتهاء منه، لکن أتباعه ومریدیه ألحوا علیه بالبقاء، ولم یدعوه یرجع إلی مکهٔ..

وتوفیت والدتی بعد قدومنا کلکتا بسنهٔ (أی عام ۱۸۹۱ م) ودفنت فی ترابها» (۲).

صبی مکهٔ یطوّر لغهٔ صحافهٔ الهند:

درس أبو الکلام آزاد علی یـد أبیه مختصـرات فی کل علم، وبدأ قول الشـعر وهو فی الحادیهٔ عشـر من عمره، ثم بدأ فی نشـر مقالات نثریهٔ، وفی سنهٔ ۱۹۰۳ م أصـدر مجلـهٔ شـهریهٔ بعنوان «لسان الصدق»، وقد ألقی أول خطاب وعمره اثنا عشـر عاماً، وقد ألقی خطاباً فی جمعیهٔ حمایهٔ الإسلام بلاهور سنهٔ ۱۹۰۴ م نال استـحسان الجمیع، وتعجب مولانا شبلی النعمانی وأدیب الأردیهٔ حالی، حین التقیا بهذا الفتی الذی هو مدیر تحریر لسان الصدق... لقد شکلت نشأته فی مکهٔ المکرمهٔ شخصیته العظیمهٔ.

أصدر بعد ذلک مجلهٔ الهلال الأسبوعیهٔ، فصارت مجلهٔ فریدهٔ فی عموم الهند، ویذکر مولانا عبد الماجد الدریابادی أن الهلال «طلعت فی سماء کلکتا سنهٔ ۱۹۱۲ م فی الغالب حین استقر آزاد فی کلکتا، لقد بدل آزاد

۱- أنظر د. النمر، أبو الکلام آزاد: ۶۳.

۲- المصدر نفسه: ۶۳.

ص: ۲۵۷

دنيا الصحافة، قلباً وقالباً، شكلًا ومضموناً، فاختلفت صحافته عن صحافة معاصريه، بإصدار هذه الصحيفة الأسبوعية التى سماها الهلال، وبالإضافة إلى الأسلوب، فقد جعلها صحيفة حيّة، مطبوعة على ورق جميل، ومحلاة بالصور الرائعة، وفى صفحة الغلاف الملونة كتب اسم المحرّر وهكذا: أحمد المكنى بأبى الكلام الدهلوى «ويذكر مولانا عبد الماجد أنهم ظلوا يبحثون فى المعاجم والقواميس عن النطق الصحيح لكلمة المكنى وعن معناها أيضاً» (۱).

كانت نشأة آزاد فى مكة المكرمة وتعلقه بلغة أمه اللغة العربية ذا أثر واضح على أسلوبه منذ البداية، وهكذا بدأ يدخل فى لغة الصحافة التراكيب والتعبيرات العربية، ويجبر غيره على فهمها ومحاولة استخدامها، مما أثرى اللغة الأردية بتراكيب جديدة، فبدلًا من اديتر (اللفظ الإنجليزى) استخدم مدير مسؤول، كما استخدم محرر خصوصى، ورئيس قلم تحرير، واستخدم كلمة مجلة بدلًا من جريدة، واستخدم التركيب «بريد افرنك» بدلًا من «ولايتى داك» وهو التركيب الأردى المفهوم، واستخدم التركيب «محير العقول» بدلًا من التركيب الفارسى «حيرت‌انگيز»..

ويذكر مولانا عبد الماجد أن أبا الكلام كان يطلع على القراء كل أسبوع بتعبيرات جديدة ومصطلحات لم يسمعوا عنها، وبتشبيهات وتراكيب جديدة، والعجيب أنّها كانت تظهر على صفحات جريدته، فتصبح على الفور عملة رائجة بين جميع الأدباء.. لقد اعترف الجميع بعد ظهور الهلال بأن أبا الكلام آزاد هو الآن مولانا أبو الكلام آزاد، فقد صار كل بيت يلهث وراء الحصول على نسخة من الهلال (۲).

شارك مولانا آزاد فى حركة تحرير الهند وفى حركة الخلافة وكان رئيساً لها، وألقى خطبة عن «مسألة الخلافة وجزيرة العرب»، وتعرض للسجن، ودافع عن نفسه فى بيان عرف باسم: القول الفيصل، نشر فى

۱- آئينة أبو الكلام آزاد، مجموعة مقالات رتبها عتيق صديقى، انجمن ترقى اردو هند فرع دهلى، ط أولى نوفمبر ۱۹۷۶ م، مقال مولانا عبد الماجد بعنوان مولانا آزاد، جند يادين، أى بعض الذكريات عن مولانا آزاد: ۵۰، وما بعدها.

۲- المصدر السابق: ۵۱.

ص: ۲۵۸

مطبعهٔ المنار عام ۱۳۴۱ هجریهٔ باسم ثورهٔ الهند السیاسیهٔ، وأصدر– ولعدهٔ أشهر (إبریل ۱۹۲۳ م– یونیو ۱۹۲۴ م)– باللغهٔ العربیهٔ «الجامعهٔ» مجلهٔ نصف شهریهٔ، ومن مؤلفاته المرأهٔ المسلمهٔ، ومسألهٔ خلافت وجزیرهٔ العرب، وجامع الشواهد عن دخول غیر المسلمین المساجد، وترجمان القرآن ۳ مجلدات، وغبار خاطر، ومکاتیب، والهند تکسب حریتها وغیرها (۱).

عبد اللّه السندی فی مکهٔ:

یصعب حصر علماء شبه القارهٔ الذین جذبتهم مکهٔ المکرمهٔ إلی أرضها، لهذا نکتفی بالإشارهٔ إلی بعض من ذاعت شهرتهم، وهناک کثیرون لا یسمح المجال لذکرهم أیضاً، ولا یقلل هذا من قدرهم، فعبد اللّه السندی ولد فی أسرهٔ سیخیهٔ فی قریهٔ جیاتوالی بالجیم المثلثهٔ مدیریهٔ سیالکوت فی إقلیم البنجاب (باکستان) فی محرم عام ۱۲۸۹ ه/ مارس ۱۸۷۲ م، کفله أعمامه بعد وفاهٔ أبیه قبل مولده بأربعهٔ أشهر، وکانوا یعیشون فی جام بور مرکز دیره غازی خان (باکستان)، وهناک طالع کتاباً بقلم راهب هندوسی أسلم حدیثاً بعنوان «تحفهٔ الهند»، فشرح اللّه قلبه للإسلام، فودع أهله ووصل إلی إقلیم السند حیث أعلن إسلامه علی ید أحد شیوخ السند الکبار (حافظ محمّد صدیقی) وتسمی بعبد اللّه، وقد کتب سیرهٔ حیاته بنفسه، بعد أن هاجر إلی مکهٔ المکرمهٔ، وأثناء إقامته فیها، وذکر أنه اعتبر شیخه والده، والسند موطنه، ولهذا سمی نفسه بالسندی.

درس عبد اللّه السندی فی دیوبند، وبناء علی طلب من شیخ الهند مولانا محمود الحسم عمل فی دیوبند لأربع سنوات منذ سنهٔ ۱۳۲۷ ه، ۱۹۰۹ م وانتقل بعدها إلی دهلی حیث أسس نظارهٔ المعارف، ثم سافر إلی کابول، ومنها إلی ترکیا حیث قضی ثلاث سنوات، وقدم إلی مکهٔ المکرمهٔ سنهٔ ۱۳۴۵ ه، ۱۹۲۶ م، وظل فی مکهٔ نحو اثنا عشر عاماً، فقد عاد سنهٔ ۱۹۳۸ م لینهمک فی العمل

۱– أنظر أبو سعید بزمی، مولانا آزاد اقبال اکیدمی لاهور مکایب شبلی جلد ۱– ۲ اعظم کره ۱۹۲۷، وآئینهٔ أبوالکلام، آزاد، رتبها عتیق صدیقی، ط أولی، دهلی ۱۹۶۷ م، وبالعربیهٔ سمیر عبدالحمید، الأدب الأردی الإسلامی، والنمر، أبو الکلام آزاد، ط القاهرهٔ.

ص: ۲۵۹

السیاسی إلی أن وافته المنیهٔ سنهٔ ۱۹۴۴ م، ودفن فی خان بور بالبنجاب.

ویذکر أنه فی مکهٔ المکرمهٔ قام بالإشراف علی طباعهٔ کتاب شاه ولی اللّه «المستوی من أحادیث الموطأ»، وفی مکهٔ المکرمهٔ أیضاً قام بکتابهٔ التفسیر الذی أملاه علیه العالم الروسی الترکی اللاجیء إلی مکهٔ موسی جار اللّه (۱۸۷۰ م- ۱۹۴۹ م) وهو تفسیر القرآن، باللغهٔ العربیهٔ، فقد کتب عبد اللّه السندی:

«ما کان یقوله بالعربیهٔ، کنت أقوم بکتابته، فقمت بکتابهٔ ألف وأربعمائهٔ صفحهٔ فی مائهٔ وخمسین یوماً» (۱).

ومن مؤلفات عبد اللّه السندی العربیهٔ: التمهید لأئمهٔ التجوید، وهو یتضمن أقوال شاه ولی اللّه الدهلوی وأولاده وأحفاده من بعده (۲).

محمد یوسف الکاندهلوی فی مکهٔ:

هذا عالم آخر یدعی الشیخ محمد یوسف بن الشیخ محمد إلیاس، ولد فی دهلی فی جمادی سنهٔ ۱۳۳۵ ه. مارس ۱۹۱۷ م، وهو ینسب إلی «کانده» التی تقع فی غربی الولایهٔ الشمالیهٔ بمدیریهٔ مظفر آباد بالهند، حفظ القرآن وهو فی العاشرهٔ من عمره، وأتم دراسهٔ الحدیث فی مدرسهٔ مظاهر العلوم بسهارنبور.

استخلف الشیخ محمد إلیاس ولده الشیخ محمد یوسف وفوض إلیه أمر الدعوهٔ والتبلیغ فی رجب ۱۳۶۲ هجریهٔ، والشیخ محمد إلیاس هو مؤسس جماعهٔ التبلیغ، وقد حرص الشیخ محمد یوسف علی أن یری عمل الدعوهٔ والتبلیغ ینتشر فی مهد الإسلام، مکهٔ المکرمهٔ، وینال من أهلها إقبالًا وعنایهً، وکان یری أن هذه الدعوهٔ إذا تأصلت جذورها فی هذه الأرض المقدسهٔ، تستطیع أن تنتشر فی العالم کله عن طریق المسلمین الذین یجتمعون فیها من جمیع أنحاء العالم، لتأدیهٔ فریضهٔ الحج کل عام، ولهذا هاجر إلی مکهٔ وبدأ عمله فی الحجاج القادمین إلی مکهٔ من بومبای وکراتشی، حیث رافقهم،

۱- ماهنامه الرحیم حیدر آباد، نوفمبر ۱۹۶۴ م، نقلًا عن دائرهٔ المعارف الإسلامیهٔ الأردیهٔ ۱۲: ۹۸۴.

۲- أنظر محمد سرور، مولانا عبد اللّه السندی، لاهور ۱۹۴۲ م، وأیضاً عبدالرشید ارشد، بیس بری مسلمان: ۴۰۲- ۴۱۲، لاهور ۱۹۶۹ م، وأیضاً خطبات ومقالات مولانا عبد اللّه السندی، رتبه محمد سرور، لاهور ۱۹۷۰ م.

ص: ۲۶۰

ووصل إلى مكـة المكرمة، وهنا أخذ يزور الحجاج ويبعث العلماء فيهم، وهكذا أسـست جماعات التبليغ، وأقيمت حلقات فى الحرمين الشريفين.

وقد قدم للحج ثلاث مرات، قدم مع والده سـنة ۱۳۵۶ هجرية، ومع الشـيخ حسين أحمد مدنى سنة ۱۳۷۴ هجرية، وجاء قبل وفاته بعام سنة ۱۳۸۳ هجرية (۱۹۶۴ م) حين ورد إلى مكـة مع جماعـة كبيرة، وطاف مكة المكرمة وما حولها من قرى، وقد نفخ فى عبادة الحج روحاً جديدة، وجعلها وسيلة الدعوة والتبليغ، وعقد اجتماعات كبرى حاشدة بين الناس.

وكان يرى أن المحاضرات ودراسة الكتب لا تكفيان وحدهما إذ لابد من تغيير الباطن وتزكية الأخلاق والأعمال.

من مؤلفاته: حياة الصحابة، وقد طبع فى بيروت، دار صعب، وهو يدل على مقدار تبحره فى السيرة النبوية وأحوال الصحابة، وهو ذخيرة نادرة (۱).

قطب الدين النهروالى:

سبقت الإشارة إليه من قبل، ونـذكره هنا رغم تقـدمه على من ذكرنا تاريخياً، وهو المفتى قطب الـدين محمد بن رحمة النهروالى، ولد سنة ۹۱۷ ه/ ۱۵۱۲ م فى لاهور، إلا أن أجداده كانوا من مركز «نهرواله» بمحافظة الگجرات، ولهذا يقال له: «النهروالى» نسبة إلى موطن أجـداده، وكان قـد قدم إلى مكة المكرمة مع والده وهو طفل، فتتلمذ على يد العلماء المشـهورين فى مكة آنذاك، ونال من المعارف والعلوم أكثرها، وبرع فى الأدب العربى والحديث والفقه والتفسير والتاريخ والبلاغة، ودليل ذلك كتابه البرق اليمانى فى فتح العثمانى، عينه السـلطان العثمانى ناظراً لشـعبة الأمور الدينيـة فى مكة المكرمة، ثم صار مفتياً للبلد الحرام ومدرساً للمدرسة السـليمانية، وقد توفى فى ربيع الثانى ۹۹۰ ه/ ۱۵۸۲ م وكان قد أكمل كتابه تاريخ مكة سنة ۹۸۵ هجرية كما ذكرنا من قبل (۲).

۱- أنظر سيرة مولانا محمد يوسف لمحمد الثانى الحسنى، نقله إلى العربية سعيد الأعظمى الندوى.

۲- أنظر مقال دكتور محمد إسحاق: ۱۱۸.

ص: ۲۶۱

حکیم مولوی إرادت حسین:

حج للمرة الثانیة سنة ۱۲۸۱ هجریة، وظل مقیماً فی مکة ثلاث عشرة سنة، قدم خلالها خدمات جلیلة لأهل مکة وللحجاج، وقد ذکر مولانا أبو الفتح محمد عبدالرحیم الزبیری الهاشمی الصادقبوری (متوفی ۱۳۴۱ هجریة) فی کتابه «الدر المنثور» المعروف باسم تذکرة صادقة «أن حکیم مولوی إرادت حسین جمع من الحجاج التبرعات، وطهّر نهر مصر، کما قام بتوسیع الطریق المجاور لرمی الجمرات فی منی وکان ضیقاً، ولم یکن هناک طریق للخروج بعد الرمی مما کان یسبب مشاکل أثناء عودتهم، وبخاصة للضعفاء والعجزة، فقام مولوی إرادت حسین وجمع التبرعات من الباشاوات والشرفاء، وحفر الهضاب هناک، وقام بتوسیع الشارع، وشق طریقاً خلف الجمرات حتی یأتی الناس من ناحیة، فیرمون الجمار، ثم یمضون من ناحیة أخری، ولا یحدث الزحام فی العودة» (۱).

مکة وحرکة الإصلاح الدینی فی شبه القارة:

۱- حرکة تیتو میر.

۲- الحرکة الفرائضیة.

۳- جماعة المجاهدین.

حرکة تیتو میر الإصلاحیة فی البنغال:

قام أحد علماء البنغال ویدعی میر نثار علی الذی اشتهر باسم تیتو میر بحرکة إصلاحیة فی البنغال، للتخلص من ظلم الإقطاع الغربی والهندوسی، وکانت هذه الحرکة الإصلاحیة قصیرة ما بین ۱۸۲۷ م وسنة ۱۸۳۱ م (۲).

وأهمیة الإشارة إلی هذه الحرکة فی بحثنا هذا ترجع إلی ارتباط صاحبها بمکة المکرمة، فقد عقد العزم علی القدوم إلی مکة للحج والاستزادة من التعلیم الإسلامی، وربما وصل مکة سنة ۱۸۲۳ م (۳)، ویذکر الدکتور

مهر علی أن المصادر تذکر أن تیتو میر وصل إلی مکة المکرمة بعد سنة واحدة من وصول سید أحمد شهید

۱- الکتاب المذکور: ۱۸۰، نقلًا عن الدکتور مقتدی حسن أزهری فی مقال له بعنوان الدر المنثور، کاروان أدب، العدد الخامس، إبریل ۱۹۹۵ م.

۲- أنظر مقال الدکتور معین الدین، ترجمة ثروت صولت إلی الأردیة فی مجلة فکر ونظر، عدد ۸ مجلد ۷ ذی الحجة ۱۳۸۹ ه- فبرایر ۱۹۷۰ م، إدارة تحقیقات اسلامی إسلام آباد، بعنوان فرائضی تحریک، أی الحرکة الفرائضیة.

۳- أنظر مهر علی، مجلد ۲ من تاریخ المسلمین فی البنغال: ۲۵۰.

ص: ۲۶۲

بريلوى زعيم حركة المجاهدين فى الهند.

وقد عاد تيتو مير إلى كلكتا ربما سنة ۱۸۲۷ م واستقر فى «حيدر بور» فى مقاطعة «باراسات»، وبعد فترة قصيرة بدأ حركته الإصلاحية بين مسلمى المنطقة، فدعاهم إلى التمسك بالتوحيد والبعد عن الشرك والبدعة (۱)، والبعد عن التفرقة بين الناس داخل المجتمع طبقاً لمكانتهم العائلية، كذا عارض أيضاً ظلم ملاك الأراضى للفلاحين ودعا إلى رفض دفع الضرائب (۲).

الحركة الفرائضية لحاجى شريعت‌اللّه:

والحركة الفرائضية- أو كما تطلق عليها الموسوعة الإسلامية الأردية الجماعة الفرائضية- جماعة مسلمة فى البنغال أسسها حاجى شريعت‌اللّه (۳)، ولد سنة ۱۷۸۱ م فى قرية تابعة لمركز مادارى بور بديرية فريد بور، درس القرآن الكريم وعلوم الدين على يد أستاذه الأول مولانا بشارت على، وقد كانت سنة ۱۷۹۹ م نقطة تحول فى حياته، حين رافق أستاذه مولانا بشارت على إلى مكة (۴)، وتشير دائرة المعارف الإسلامية الأردية أنه قدم لأداء مناسك الحج حين كان عمره ۱۷ سنة، حيث اشترك فى حلقة الشيخ طاهر السنبل الشافعى المكى، وأقام بمكة حوالى عشرين عاماً، وطبقاً لبعض الروايات، سافر إلى وطنه مرة أو مرتين خلال تلك المدة، بينما يذكر الدكتور مهر على أنه عاش ما يقرب من ۱۶ سنة (۱۸۰۰ م- ۱۸۱۵ م) دارساً للقرآن والحديث والفقه

۱- المصدر نفسه: ۲۵۲.

۲- لمزيد من التفاصيل أنظر ما كتبه الدكتور مهر على: ۲۷۱، وما بعدها.

۳- مجلد ۱۲ المادة المذكورة.

۴- مهر على ۲: ۴۰۵.

ص: ۲۶۳

والعلوم الإسلامية الأخرى التی كانت تدرس فی الحرمين الشريفين، وبرع فی العربية وعلومها، وأنه درس على يد مولانا مراد البنغالى لمدة سنتين ثم بقى بعد ذلک تحت إشراف طاهر سنبل، أستاذ الحنفية، ومن أتباع الطريقة القادرية.

قبل عودته إلى موطنه زار القاهرة، حيث قضى هناک سنتين يدرس العلوم الإسلامية فی جامعة الأزهر، ثم عاد إلى مسقط رأسه «فريد بور» سنة ۱۸۱۸ م، بينما تذكر دائرة المعارف الإسلامية أنه عاد سنة ۱۸۲۰ م.

وهكذا قضى شبابه والجزء المؤثر من حياته فی مكة والمدينة مهد الإسلام ومركز الإسلام،... وحين رجع إلى موطنه نال شهرة كبيرة كعالم وتقى، ويحكى أنه تعرّض مرة لقطاع الطرق الذين سلبوه كل شیء بما فی ذلک بعض الأشياء التی حملها معه من مكة، وكانت عزيزة عليه، ومنها كتب ورسائل مهمة، إلا أن سلوكه الطيب جعل قطاع الطرق يتأثرون به، فيتوبون، ويتبعونه فی عمل الخير.

وقد بدأ حاجی شريعت اللّه بالتدريس وبالنصح والإرشاد فی قرى بلاده فی صمت لعدة سنوات، فی فترة كان المزارعون المسلمون يعانون من سطوة ملاک الأراضی، والتجار الهندوس والإنجليز، كما لم يكن لهم نصيب من تعاليم الإسلام الصحيحة، فقد خلطوا دينهم الإسلامی بخرافات الهندوسية وبدعها، بحيث يصعب التمييز بين المسلم والهندوسی، فقام حاجی شريعت اللّه بإيضاح مبادیء الإسلام الصحيحة لهم، وبين لهم ما دخل الإسلام من شوائب وعقائد غير صحيحة، وبين لهم أن سوء حالهم إنما هو بسبب بعدهم عن التعاليم الصحيحة للإسلام.

لم تلق دعوته فی البداية أذناً صاغية، فلم يكن من السهل على هؤلاء الناس ترک تلک التقاليد التی تغلغلت فی نفوسهم منذ قرون، فقد كانوا يظنون أنها تقاليد الإسلام وتعاليمه ولهذا خالفوه مخالفة شديدة، وتعرض الرجل للسب والشتم (۱)،

۱- دائرة المعارف الإسلامية الأردية مجلد ۱۲.

ص: ۲۶۴

فشعر حاجی شریعت اللّه أنه بحاجهٔ إلی العودهٔ إلی مکهٔ المکرمهٔ لاستشارهٔ أستاذه، والحصول منه علی إذن بالبدء علانیهٔ فی حرکته الإصلاحیهٔ (۱).

وهکذا عاد إلی مکهٔ سنهٔ ۱۸۱۹ م- ۱۸۲۰ م کما یقول الدکتور مهر علی، وکان قبل عودته إلی مکهٔ قد تزوج وأنجب ولده محمد محسن (۱۸۱۹ م).

ویذکر الدکتور معین الدین أنّ هدفه من هذه الرحلهٔ الخاصّهٔ کان استشارهٔ أستاذه فیما یقوم به من إصلاحات (۲).

وعلی کل حال عاد حاجی شریعت اللّه لیبدأ حرکته الإصلاحیهٔ التی عرفت باسم «الحرکهٔ الفرائضیهٔ»، لأنه رکز کثیراً علی أداء فرائض الإسلام، وأمر بالقضاء علی ما یسمی بالشیخ والمرید، ورأی أن تکون العلاقهٔ فی مثل هذه الحالهٔ کالعلاقهٔ بین الأستاذ والتلمیذ، وقد وجدت لحرکته قبولًا بین الناس وبدأت تتسع، وتتخذ طابعاً اجتماعیاً وسیاسیاً، فقد أوجدت تعالیم الإسلام الداعیهٔ إلی المساواهٔ والأخوهٔ والجرأهٔ والشجاعهٔ صدی فی نفوس المزارعین البنغالیین، فی وقت أعلن فیه حاجی شریعهٔ اللّه أن الهند دار حرب، وأن بها حکومهٔ تقوم بإیقاع الظلم بالمسلمین ولهذا لا یجوز صلاهٔ العیدین والجمعهٔ هنا (۳)، وذکرت

وثائق شرکهٔ الهند الشرقیهٔ أن الهندوس والإنجلیز کانوا یشعرون بالرعب من أتباع الحرکهٔ الفرائضیهٔ.

وفی سنهٔ ۱۸۳۱ م اتخذ الصراع شکلًا منظماً، مما دفع الحکومهٔ إلی القبض علی عدد کبیر من أتباع الجماعهٔ، ووجهت التهمهٔ إلی حاجی شریعت اللّه لکن صدر الحکم ببراءته، بعدها فضل الشیخ الانزواء فی قریته والاستمرار فی عملیهٔ الدعوهٔ والتبلیغ إلی أن توفی سنهٔ ۱۸۴۰ م عن عمر یناهز التاسعهٔ والخمسین (۴).

تولی قیادهٔ الحرکهٔ من بعده ابنه محمد محسن أو محسن الدین أحمد الذی اشتهر باسم دودهو میان، ورغم أنه کان فی العشرین أو الثانیهٔ والعشرین من عمره إلا أنه حقق مکانهٔ بین أتباع الحرکهٔ بسرعهٔ،

۱- مهر علی ص ۳۰۷.

۲- د. معین الدین، فرائضی تحریک، ترجمهٔ ثروت صولت، فکر ونظر، العدد ۹، المجلّد ۷، مارس ۱۹۷۰ م.

۳- مهر علی: ۳۱۴.

۴- د. معین، فرائضی تحریک.

ص: ۲۶۵

فالحرکة التی اقتصرت فی حیاة والده علی عدة مدیریات ومراکز انتشرت الآن فی جمیع مناطق البنغال الشرقیة.

وقد تعلم دودهو میان علی ید والده الذی أرسله عندما کان فی الثانیة عشرة من عمره إلی مکة المکرمة للمزید من التعلیم الإسلامی، فقضی الابن فی مکة خمس سنوات، عاد بعدها إلی موطنه سنة ۱۸۳۷ م، بعد أن استدعاه والده لتقدّمه فی السن (۱)، وقد فصل الدکتور مهر علی

کیفیة تنظیمه للحرکة بعد وفاة والده (۲) وصراعه مع ملاک

الأراضی (۳)، ویذکر أن دودهو میان

عاد مرة أخری إلی مکة، وأثناء غیابه فی بدایة عام ۱۸۴۳ م بدأت الحکومة تهاجم أتباع الحرکة للقضاء علیها (۴).

وقد شعر الإنجلیز أن أتباع الحرکة الفرائضیة یریدون إخراج الإنجلیز من البنغال بعد أن جند دودهو میان ثمانین ألف ناشط من أتباعه، ولهذا صدر الحکم ضد أتباع الحرکة والقبض علی دودهو میان حین اندلعت حرب التحریر سنة ۱۸۵۷ م بعد مرضه الشدید، وتوفی فی سبتمبر ۱۸۶۲ م عن عمر یناهز الثانیة أو الثالثة والأربعین.

ومما یذکر أن الحرکة الفرائضیة ترکت تأثیرها الواضح علی مسلمی البنغال، فقد بدؤا یعتمدون علی أنفسهم، وبث فیهم الحمیة الدینیة وأوجدت بداخلهم عاطفة الجهاد ضد الظلم من أجل الحصول علی حقوقهم السیاسیة والاقتصادیة والاجتماعیة، وهکذا ظهرت فی البنغال یقظة عامة لا یمکن لأحد أن ینکرها أو یغفل عن ذکرها (۵).

سید أحمد شهید وجماعة المجاهدین:

ولد سید أحمد شهید بن سید محمد عرفان فی صفر سنة ۱۲۰۱ ه./ نوفمبر ۱۷۸۶ م فی رای بریلی (أوده)، ویقال: إن نسبه یصل إلی علی علیه السلام، اشتهر بقوته الجسدیة غیر العادیة، بدأ بخدمة أهل الحی والجیران، ثم بدأ فی خدمة الفقراء والمساکین، تعلم علی ید

۱- المصدر نفسه: ۶۷۳.

۲- مهر علی: ۳۲۴.

۳- مهر علی: ۳۴۸، وما بعدها.

۴- مهر علی: ۳۳۵- ۳۶۰.

۵- أنظر عبد اللَّه ملک بنکالی، مسلمانون کی صد سال جد وجهد آزادی، ۱۷۵۷ م- ۱۸۵۷ م، لاهور ۱۹۶۷ م.

ص: ۲۶۶

شاه عبد العزیز المحدث المشهور فی دهلی، ثم أرسله شاه عبد العزیز إلی أخیه شاه عبد القادر (۱).

نظراً لسیطرة الإفرنج علی الطرق البحریة أفتی بعض علماء الهند بسقوط فریضة الحج، لکن علماء الحق عارضوا الفتوی، وهکذا أعد سید أحمد شهید العدة مع أربعمائة من رفاقه للسفر إلی مکة، فی شوال ۱۲۳۶ ه/ یولیو ۱۸۲۱ م وقد انضم إلیه عدد کبیر، ووصل عدد القافلة نحو ۷۰۰ حاج، وقد کتب رسائل إلی جماعته فی دهلی، وسهارنبور وغیرها، جاء فیها: (نحن ذاهبون لأداء فریضة الحج، فعلی من ینوی الحج أن یرافقنا، لکن لیعلم الجمیع أننا لا نملک مالًا ولا متاعاً، لکننا متوکلون علی اللَّه وحده، نعتمد علی اللَّه، وعلی جهدنا وما نکسب من عمل نؤجر علیه، أما النساء والضعفاء فیکفلهم القادرون منا».

بدأت الرحلة إلی مکة من کلکتا، ومنها إلی بومبای، وصولًا إلی جدة.

وکان سید أحمد شهید یفکر فی الهجرة من الهند «دار الحرب» والذهاب إلی مکة المکرمة والبقاء فی الحرمین الشریفین دون عودة، إلا أنه فکر فی الواجب المقدس، وهو رفع کلمة اللَّه، وتطبیق السنة النبویة والقضاء علی البدعة وأنواع الشرک المختلفة.

ویری معظم الباحثین أن سید أحمد شهید قد طور اتجاهه غیر السیاسی أو المفهوم غیر السیاسی للجهاد حین کان فی مکة یؤدی فریضة الحج.

فقد تشجع من خلال النجاح المشهود المتمثل فی اصطحاب مئات الناس إلی الحج، فعرض علیهم الجهاد مثلما عرض علیهم الحج من زاویة دینیة خالصة، مؤکداً علی الاعتماد الکامل علی اللَّه.

والحقیقة أن سید أحمد شهید کان قد بدأ ما أطلق علیه البعض «الطریقة المحمدیة» وذلک سنة ۱۸۱۸ م من دهلی، بمبارکة شاه عبد العزیز، وکانت بدایتها عملیة إصلاح

۱- دائرة المعارف الإسلامیة الأردیة، المجلد ۲: ۱۳۷.

ص: ۲۶۷

دینی تحولت فیما بعـد إلی حرکـة اجتماعیـة سیاسـیة، تحولت بعـد حین وبعـد العودة من مکـة المکرمة إلی حرکة جهاد ضد السیخ، ولهـذا أطلق علیها حرکـة الجهاد «تحریک مجاهـدین»، بینما أطلقت الإرادة البریطانیة فی الهند والکتّاب الأوروبیون علیها اسم الحرکة الوهابیة الهندیة:

، نظراً لشکهم فی نوایاها السیاسیة من ناحیة، ولوجود تماثل بینها، وبین حرکة الشیخ محمد بن عبد الوهاب من ناحیة أخری (۱).

وصلت القافلة بالقرب من مکة فی ۲۹ شعبان ۱۲۳۷ ه، فدخلت من طریق أعلی مکة عملًا بسنة النبی، ثم دخلت الحرم من باب السلام، وقد نزلت القافلة بالقرب من باب العمرة فی بیوت اسـتأجروها، وکان الإمام مع رفاقه من العلماء یجتمعون بعلماء مکة وشـیوخها.. وفی یوم العید التقوا من علماء مکة بالشـیخ المحدث عمر عبد الرسول الحنفی، ووفد عدد کبیر من العلماء والشیوخ علی الإمام، ومن هؤلاء الشـیخ مصـطفی إمام الحنفیة وخواجه ألماس الهندی، وخواجه سرا شیخ الدین والشیخ شمس الدین شطا، وأحمد باشا، وحسن أفندی نائب سـلطان مصـر، وکذلک أحد کبار مسـلمی البلغار (یمتلک مطبعة فی بلغاریا) والشـیخ عبد اللّه سـراج المکی، وکذا وزیر سلطان المغرب ویدعی سید محمد الذی اشتهر بحفظه لصحیح البخاری مع شرح القسطلانی، وکذا الشیخ إدریس ومحمد علی الهندی، وملا بخاری، بالإضافة إلی مفتی الشافعیة الشیخ صالح الشافعی ومفتی الحنفیة وواعظها الشیخ علی.

وبناء علی رجاء من الشـیخ حسن أفندی قام مولانا عبدالحی ومولانا محمد إسماعیل بترجمة کتاب الإمام «الصراط المستقیم» إلی اللغة العربیة، وحصل علی نسخ منه العلماء الذین وفدوا علی مقر إقامة الإمام (۲).

وقد حل رمضان علی القافلة للمرة الثانی وهی فی مکة فقضت

۱- أنظر: ۳۲۴ بحث ل:

Islamic Research Inst .Pakistan .against the Sikhs .Islamic Studies vol .VII Dec .۳۶۹۱ no ۴ Journal of Muin ud din Ahmad Khan ,Sayyid Ahmed Shahid ,s Campanion

۲- أنظر معین الـدین أحمـد خـان، مقـال فی ۱۹۶۷، Islamic Studies Review No ۴، بعنوان الطریقـة المحمدیة، دراسـة تحلیلیة: ۳۷۵.

ص: ۲۶۸

القافلة رمضان فى مكة، وفى منتصف شوال استعدت القافلة لرحلة العودة إلى الهند، وفى غرة ذى القعدة سنة ۱۲۳۸ ه/ العاشر من يوليو ۱۸۲۳ م طاف سيد أحمد شهيد مع رفاقه طواف الوداع.. لتتجه القافلة بعد ذلك إلى الهند حيث بدأ الشيخ برنامجه الذى فكر فيه طويلًا، برنامج الجهاد وذلك لتأسيس حكم إسلامى فى شبه القارة يتفق والمبادىء الإسلامية.

وفى نهاية ۱۲۴۳ ه/ ۱۸۲۶ م بدأ الجهاد الفعلى ضد السيخ فى منطقة البنجاب، وقد انضم إليه عدد كبير جداً من كبار علماء الهند من بينهم مولانا شاه إسماعيل شهيد حفيد شاه ولى اللّه محدث الدهلوى (۱)، وقد

استشهد فى ذى القعدة ۱۲۴۶ ه- مايو ۱۸۳۱ م فى معركة بالاكوت، وكان قد قدم للحج أواخر شوال ۱۲۳۶ ه. (مع والدته وأخته) واستمر بأرض الحرمين حتى أواخر شعبان ۱۲۳۹ ه.

وكان برفقة سيد أحمد شهيد، ومنهم أيضاً مولوى عبدالحى الذى اشترك مع شاه إسماعيل فى الجهاد وفى تأليف كتاب صراط مستقيم بالفارسية، وقام بترجمته إلى العربية أثناء الإقامة فى مكة المكرمة، ومن الأدباء شاعر الأردية حكيم مؤمن الذى نظم الكثير من الأشعار بالفارسية والأردية عن جهاد سيد أحمد شهيد ورفاقه (مثنوى جهادية)، والأديب محمد جعفر تهانسيرى الذى أرخ لحركة الجهاد.

مكة المكرمة فى أدب شبه القارة:

أ. فى النثر الفنى.

ب. فى الشعر.

ج. الرمزية والدلالات الشعرية.

لا شك أن أدباء شبه القارة الهندية عبروا عن مشاعرهم الجياشة، أثناء زيارتهم للأراضى المقدسة، ووجودهم فى المدينة المقدسة حيث بيت اللّه، ومهبط الوحى ومركز النور الذى أضاء ظلام الجهل، وقد زخرت مادة كتبهم ورحلاتهم بخاصة بالعناصر الأدبية فهى تصاغ بلغة أدبية فى معظمها، ولغتهم فى تناولهم للمدينة المقدسة، لغة رقيقة

۱- دائرة المعارف الإسلامية بالأردية ۲: ۷۴۹.

ص: ۲۶۹

المستوى عظيمة التأثير والإمتاع، على مستوى عال من الفن، والصياغة الأدبية، وكان للحج أثره فى التأثير على أدباء شبه القارة الذين كتبوا مئات الكتب عن رحلاتهم إلى المدينة المقدسة وبلاد الحرمين (۱) وأسهمت هى الكتب فى تطوير الأدب الأردى، وتنمية اللغة الأردية نفسها (۲).

ومن الملاحظ أن أسلوب وصف الأحداث حتى لا يخلو من الإبداع الأدبى، عن طريق استخدام اللغة الجميلة المعبرة، وروح الدعابة، فالكاتب مفتاح الدين ظفر يصف منظر رمى الجمرات فى رحلته المسماة «سفر مقدس» (۳) أى الرحلة المقدسة هكذا:

«حين بدأت أرمى بأول جمرة قائلًا: اللّه أكبر.. إذا بحشد من الناس يدفعنى فيلقى بى فى الخلف.. بعيداً..

ووجدتنى أذهب بعيداً جداً..

فتشجعت.. وتقدمت إلى الأمام، لكن الجمرات كانت تنهمر من عدد كبير من الحجاج، فأصابتنى حصاة كبيرة الحجم، سقطت على رأسى، وبدت الحصوات كنجوم الليل، تتراقص أمام عينى، وبينما كنت أرمى بالجمرة الرابعة أو الخامسة إذا بحبشى ضخم الجثة، يضربنى على رأسى بكوعه، وكأنه يدقنى فى الأرض، فتسمرت فى مكانى وأنا أتأوه من الألم...!».

والأديب الصحافى ألطاف حسين قريشى يصف فى رحلته «ومضت قافلة القلب» تجربته فى حج عام ۱۳۸۶ ه/ ۱۹۶۷ م (۴)، وأسلوبه الوصفى فيه إبداع أدبى مؤثر:

۱- انظر قائمة أعدها ملحقاً لبحثه الذى قدمه فى ندوة حج العام الماضى عن أدب الرحلة فى شبه القارة الهندية.

۲- سمير نوح، الجزيرة العربية فى أدب الرحلة الأردى: ۱۲۱ وما بعدها.

۳- مكتبة رشيدية لاهور سنة ۱۹۶۶ م: ۱۹۲.

۴- نشرها فى حلقات فى مجلته الأدبيّة اردو دائجست، يونيو ۱۹۶۷ م، وما بعدها.

ص: ۲۷۰

«خلفنـا وراءنـا مدینـة الأمـل، ودخلنا فی ظل الجبال الوعرة، التی کانت أشـعة الشـمس الفضـیة الهادئـة تنعکس علیها... لا أدری لماذا تخشی الظلمةُ النور؟! فلو انطلقت شرارة واحدة، تری الظلمة انقشعت من حولها مضطربة..».

«.. کان فی الخیمة عشـرون أو أکثر، سلمت علیهم وجلست فی ناحیة من الخیمة کانت هناک سجادة من النوع الثمین، وکانت الوجوه الوردیـة تبـدو ملامحهـا وسـط الضوء الخـافت.. کـان هنـاک حـاج یجلس فی الجانب الشـمالی مسـتغرقاً فی قراءة کتاب. کان عـذب الصوت.. وأمامه جلس رجلان یسـتمعان إلیه وینصـتان بکل حواسـهما، ثم رقـدا بالقرب منه، أما بقیـة الناس فقد انشـغلوا بأمور لاهیة.. وکـانت ضـحکاتهم، وقهقهـاتهم تسـمع من بعیـد، کـانت فی ضـحکاتهم قوة الحیـاة لکنهـا فتقت جراح روحی وکأنهـا ضـرب سـیاط مستمر...».

والوصف العادی لمکة المکرمة، یتخذ لوناً آخر عند أدباء شبه القارة ففی کتاب الحج والزیارة لمحمد صابر جاء ما یلی:

«حین انبعث صـدی الأـذان من الحرم الشـریف خرج النـاس من کـل صوب متجهین لأداء الصـلاة، فتری الطرقات الواصـلة بین البیوت والحرم وقـد غصت بالناس، وبـدا الجمیع أمامک وکأنهم یهرولون.. فی مکـة لایشـعر الإنسان بـذرة من غربـة، فالقلب یأنس الحواری والطرقات، وکأنه سکن هنا منذ سنوات..» (۱).

ومن رحلات الحج التی وصل مسـتواها إلی مسـتوی أدبی رفیع رحلة سـید أبی الخیر کشفی بعنوان «من الوطن إلی الوطن»، وهی کما قال الناقد والباحث أنور سدید (۲)، دعاء

طویل ظل یخرج من أعماق قلب یبحث عن مرهم لمـداواة صدمـة أصابت الجسـد الترابی، والأسـلوب الأدبی یعبر عن مشاعر المؤلف فی الدیار المقدسة:

«هذا الطواف حول الکعبة کان سنة إبراهیمیة.. کانت حلقة

۱- سمیر نوح، الجزیرة العربیة فی أدب الرحلة الأردیة: ۱۴۳.

۲- أنور سدید، اردو أدب مین سفرنامه: ۵۳۵.

ص: ۲۷۱

السلاسل التی تقیدنی تتحطم مع کل خطوة أخطوها، وحین کنت متوجهاً إلی حرم الکعبة کان نداء لبیک..

لبیک.. یرن فی داخلی، کأنه یعلن عن میلادی ووجودی، وشعرت کأننی تلمیذجئتلأسجل حضوری هنا ...».

النثر الفنی الممزوج بالشعر:

فی رحلة الأدیب الصحافی ماهر القادری (۱) بعنوان قافلة الحجاز (۲)،

نلاحظ روعة الأسلوب الأدبی، وقوة النثر الفنی و تمازجه بشعر عدد من کبار الشعراء فضلًا عن شعر الأدیب نفسه، فماهر القادری شاعر تهتز مشاعره، فینطلق لسانه بالشعر (۳).

یقول مخاطباً قلبه:

«یا قلب! تمالک.. وتمسک!

نحن مقبلون علی مهبط الوحی

فتمالک وتمسک!

یا قلبی الضعیف! افرح واسعد

فرب العالمین یعرف أنک مکلوم

تمالک وتمسک

وأنظر سحب الرحمة تلوح فی الأفق

ستسقط أمطارها فی یوم معلوم

فتمالک وتمسک!»

ثم یودع مکة المکرمة فیقول:

«جاء بی إلی الحفل أمنیة رؤیة الحبیب

ها أنا أترک الحفل

وأحمل بداخلی

أمنیة العودة

لرؤیة الحبیب».

«... کنت أقف.. أتطلع بعیون کلها حسرات إلی أرض الجزیرة العربیة، أرض الحرمین الشریفین.. و تذکرت ذنوبی و تقصیری، و تذکرت غفلتی و خجلت کثیراً، حاولت فی أرض الحرمین أن أستجمع کل مشاعری لکن القلب فی هوس یظل یصطنع صوراً فی الخفاء.. ورحت أنا المسکین أتذکر قول من ناجوا ربهم «ما عبدناک حق عبادتک» و أحاول أن أجد لنفسی موضعاً بین هؤلاء، لکن هیهات..

الوداع یا أرض جزیرة العرب الطاهرة

ذراتک حافظة للرفعة والرشاد

۱- كان ينشر مقالاته فى مجلة فاران الأردية.

۲- طبعت سنة ۱۳۷۴ ه./ ۱۹۵۵ م، وأعيد طباعتها سنة ۱۳۷۵ ه. وسنة ۱۳۸۵ ه./ ۱۹۶۵ م.

۳- سمير نوح، الجزيرة فى أدب الرحلة الأردى: ۳۱۸.

ص: ۲۷۲

الوداع یا أرض الذکر والصلاة

الوداع یا موطن العفو و النجاة

الوداع أیتها الأرض بلا زرع، بلا ماء

الوداع یا جنة العین والفؤاد

ها قد افترقنا عن جبل بو قبیس وجبل الصفا

الوداع یا غار ثور.. ویا غار حراء

الوداع یا مقام إبراهیم

الوداعأیها المطاف والرکن الیمانی

والحطیم..

الوداع یا حمام الحمی؛ حمام الحرم

الوداع یا أهل التقوی.. أهل الحرم، أهل الکرم

الوداع یا جوار بیت اللّه

الوداع یا ملجأ الضعفاء

الوداع یا بئر زمزم

یا سبیل اللّه للعطشی

الوداع یا ذکری إسماعیل

الوداع یا أرض الحرم

بارک اللّه فیک

ففی ترابک للوفاء ضمیر

فالوداع.. الوداع

یا أرض الضمیر الطاهر».

وهکذا ودع الأدیب ماهر القادری الأرض المقدسة وهو یشعر بأنه قد حمل زاداً روحیاً ومعنویاً یکفیه طوال حیاته فأنشد یقول:

«قال نسیم السحر وهو یمضی من الخمیلة:

لا حاجة لنا بزاد الطریق فی الرحلة الطویلة».

أما الأدیب النیبالی عبد الرؤوف رحمانی جهندانکری فکتب عن رحلته للحج عام ۱۳۷۸ ه. کتاباً بعنوان «سفرنامه حجاز»، مزج فیه أیضاً بین النثر الفنی والشعر.

کتب یقول: وذات لیلة نمت فی مکتب المعلم عبدالهادی سکندر، وحین حان وقت صلاة الفجر سمعت صوت رجل سعودی ینادی:

«یا أیها النائم

هذا وقت الغنائم

صلوا الصلاة دائم..»

وکنت کلما نمت فی مکتب المعلم أسمع النداء وقت الفجر، وکأنی أسمع

ص: ٢٧٣

ترجمة أشعار الشيخ فريد الدين شكر كنج (١).

وقت السحر وقت المناجاة

فانهض فى هذا الوقت

ففيه تنال البركات

واستمع لنصيحتى

هيهات أن تضيع العمر هباء

هيهات.. هيهات!» (٢).

وهذا أديب آخر هو حافظ لدهيانوى (٣) الذى كتب عن رحلته

إلى الحج كتاباً بعنوان «جمال الحرمين» جاء فيه:

«لم تطلع على حياتى شمس أجمل من شمس ذلك اليوم، ولم تمر علىّ لمحة سعيدة أبداً كتلك اللمحة، لم ولن تسمع أذنى خبراً أطيب من ذلك الخبر الذى سمعته اليوم، فاليوم حلت بى اللحظة المباركة وكانت قدرى، حين سمعت أن طلبى للذهاب إلى مكة قد ووفق عليه.. كان هذا اليوم السعيد ثمرة دعاء مستمر وأمنية عمرى كلّه ورغبة حياتى» (٤)..

وهكذا نجد أنفسنا أمام أديب يختلف فى بيان مشاعره، فهو يركز على وصف المشاعر الإنسانية، كما يمزج وصفه لها بوصفه للطبيعة: «راحت الليالى المقمرة تبارك لنا سعادتنا، والفضاء اللبنى يُسمعنا أصواته العذبة، والوادى كله بدا مملوءاً بذكرى المصطفى، وتحولت جميع الكائنات إلى بقعة من نور وفرشت الطرق كلها بكل ما هو لطيف، وراحت حبات دموع السرور والسعادة تتناثر كالنجوم اللامعات على صفحة الأرض المقدسة وتحول الطريق كله إلى نور حتى صار كدرب التبانة، وشعرنا كأن سفرنا هذا فوق السماء لا على الأرض» (٥)..

الرمزية فى النثر الفنى عند أدباء شبه القارة:

اتبع الأدباء فى شبه القارة أسلوباً رمزياً للتعبير عن أفكارهم وعواطفهم ومشاعرهم، فى حالات خاصة، وهنا يكتفى الباحث بنموذجين اثنين لأديبين أولهما للدكتور عبدالرحمن خالد (۶) الذى

كتب كتاباً بعنوان «حج أعجمى» وهو

١- هو حضرت بابا فريد شكر كنج، توفى سنة ۶۶۴ ه/ ١٢۶۵ م، عاش فى البنجاب فى عهد الدولة المملوكية الهندية، اشتهرت أقواله وأشعاره فى عموم الهند، وتمثل أشعاره النماذج الأولى للأدب الأردى حين كان يطلق غ/ على الأردية اسم ريخته، وله أشعار بالبنجابية أيضاً، أنظر حامد حسن قادرى، داستان تاريخ اردو، اردو اكيدمى سنده كراتشى، ط الثالثة، ١٩۶۶ م عن الطبعة الأولى ١٩۴١ م..

٢- سمير نوح، الجزيرة العربية: ۶٠٨- ۶٠٩.

٣- ولد فى لدهيانه عام ١٣٣٩ ه/ ١٩٢١ م، حفظ القرآن وبرع فى قول الشعر متبعاً أسلوب الشعراء الكلاسيكيين: ۴٣٩، الجزيرة العربية

فى أدب الرحلة الأردى.

۴- الرحلة: ۴۰.

۵- الرحلة: ۸۹.

۶- اشتغل بالصحافة فى جريدة نداء الأمة التى كانت تصدر من لاهور، ولما تم دمجها بصحيفة نوائى وقت استمربالعمل الصحفى، ثم انتقل إلى جريدة امروز، وبعدها انضم لهيئة التدريس بقسم الصحافة بجامعة البنجاب، سافر للحج مع والدته سنة ۱۴۰۶ ه./ ۱۹۸۵ م.

ص: ۲۷۴

یقصد العنوان ومعناه ومغزاه، وقد أشار بین سطور کتابه إلی ما یعانیه المسلم فی شبه القارهٔ من بعض الوعاظ والمرشدین، وأشار إلی ذلک بأسلوب رمزی، یفهمه من یقف علی مجریات الأمور هناک:

وعلی کل حال دخلنا من باب السلام الذی لا یزال اسمه باب السلام وکأننا خالفنا نصیحهٔ الشیخ لأنه قال بأن اسمه الیوم باب الفتح!

«کان الشیخ قد أخافنا کثیراً من أن ینزل علینا غضب اللّه، لهذا رحت أحتاط فی کل خطوهٔ أخطوها، أو حرکهٔ آتی بها، ثم اقتربت اللحظات المنتظرهٔ، وظهر الحرم الشریف أمام أعیننا، کان علینا أن ندخل من باب السلام الذی یطلق علیه الآن اسماً جدیداً هو باب الفتح، کان الشیخ قد نصحنا بالدخول من هذا الباب، لکنا أخطأنا أو هی مشیئهٔ اللّه، الذی أراد لنا ذلک، لأن الأعاجم یردون کل شیء إلی مشیئهٔ اللّه أو مرضاهٔ اللّه، ویقولون دائماً هذا قدر من عند اللّه، بینما یعتبرون کل نجاح لهم ناتج عن فراستهم وجهدهم وتدبیرهم!... ربما کان السبب هو أننا لم نطلع علی تعالیم القرآن.. وعلی کل حال دخلنا من باب السلام الذی لا یزال اسمه باب السلام وکأننا خالفنا نصیحهٔ الشیخ لأنه قال بأن اسمه الیوم باب الفتح!

کان الدرس الثانی هو أن ننطلق بالدعاء فوراً إذا ما وقع نظرنا علی الکعبهٔ، وأن نفتح أعیننا حتی لا تنغلق رغماً عنا.. وقع نظری علی الکعبهٔ، بیت اللّه... والکعبهٔ أمامی الآن وهذه لحظات سعدی وفرحی إلا أن الوسوسهٔ والقلق أصابانی قبل أن تحین هذه اللحظات السعیدهٔ، فقد نسیت جمیع الأدعیهٔ التی حفظنی إیاها الشیخ.. کانت حالتی تختلف عن حالهٔ الطالب الذی حفظ خطبهً سیرددها فی حفل التخرج وحین دق الجرس أدار وجهه ونسی کل شیء وراح یردد فقرهٔ واحدهٔ مرهٔ تلو أخری لعله یتذکر الفقرهٔ التی تلیها.. إن وضعی یختلف تماماً.. أنا لم أته وسط الأدعیهٔ، کما أننی لم أتذکر دعاءً واحداً، ولا یوجد

ص: ۲۷۵

هنا جرس يـدق فينبهنى إلى انتهاء الوقت، إن كل انتباهى موجه إلى الكعبـة المشـرفة لا أتذكر الشـيخ ولا الأدعية التى لقننى إياها، ولا أفكر ولا أخشى أن تنغلق عيناى، ثم أجلس لتضيع منى هذه اللحظة الثمينة الغالية..

وكنت أعجمياً!! كـانت عينـاى مفتوحتين بـل وصـلت هناك وأمام بيت اللَّه بعينين مفتوحتين، فعيناى هما مترجمى الفورى فمن عيوبنا نحن الأعاجم القصور عن إلباس الألفاظ معانيها، والتعبير عما تحويه هذه الألفاظ عن معان تدور بخلدنا..

وهكذا ستظل عيناى مفتوحتين بأمر اللَّه!!».

وفى مكة يتذكر الكاتب بلاده ويتحدث عنها أيضاً وعن مشاعره رمزاً دون تصريح أو توضيح:

«أمام الكعبـة أخـذت أدعو اللَّه بهـذا الـدعاء مخاطباً رب الكعبة: يا إلهى مثلما أخافنى الشـيخ منك فإن حكام بلادى ورجال السياسـة والصـحفيين فى بلادى جميعهم أخـافونى، وأقلقونى على مسـتقبل بلادى، لم أسـمع منهم منـذ أن وعيت هـذه الحيـاة خبراً طيباً حتى أصابنى الوهم وأنا أسـتمع دائماً إلى الأخبار السيئة المشئومة عن باكستان حتى ابتلتنى هذه الأخبار بالخوف والهلع والدوار.. ورغم كل هـذا فلا بأس فى أن نلوذ برحمـةاللَّه الواحد القهار، ليس فى قلبى همة ولا توجد فى فؤادى مشاعر الأمل، وربما كان السـبب فى ذلك أيضاً أن الشيخ وضع كل همه فى إخافتنا منك يا إلهى.. لكنك يا إلهى رحيم كريم ستار...» (۱).

والنموذج الثانى كتاب الأديب ممتاز مفتى الذى توفى منذ سنوات (۲)،

وهو يسـعى دائماً إلى التعبير عن داخل الإنسان وبيان تأثير المرئيات على مشاعره، ويصور المشاعر بصورة تكاد تكون محسوسة، وهذه سطور يصور فيها مشاعره ومشاعر من حوله فى وقفه يوم عرفة من عام ۱۳۸۷ ه./ ۱۹۶۸ م:

«فى هذا اليوم.. فى وادى عرفة، لا نشاهد الوادى ولا نشاهد زحام الزائرين.. فقط كل ما هناك خيام فى

۱- أنظر النص كاملًا فى الجزيرة العربية: ۶۲۶.

۲- ممتـاز مفتى أديب و روائى وصـحافى معروف، له مكـانته فى الأدب الأردى، توفى منـذ عـدة سـنوات، أنظر منالأدب الباكسـتانى تفاهم المجلس الأعلى للثقافة بمصر، ترجمة سمير عبدالحميد، ۲۰۰۲ م.

ص: ۲۷۶

خيام.. كان الزائرون التابعون لفندق الكعكي مقيدين في خيامهم، كان بعضهم يجلس في صمت تحت مظلات مفتوحة، الأصابع تحرك المسابح والشفاه تلهج بالتسبيح والتحميد، وعلى الوجوه سكون ممزوج بالأسى، والأكتاف محنية كأن شيئاً سقط عليها فراح أصحابها يتحملون هذا العبء بصبر وشكر..

كان هدوء الناس وسكونهم هذا مدعاة لقلقي الشديد، فصحيح أنهم كانوا جميعاً منشغلين بذكراللّه، لكنّ الانشغال بذكر اللّه يكون أيضاً في البيت، وإذا كان التسبيح هو الهدف فهل كان من الضروري أن يقطعوا الأميال ليصلوا إلى ميدان عرفات؟!

لا.. لا.. نهضت من هناك، واعترتني رغبة قلبية عارمة في أن أنطلق إلى وادي عرفة، وأن أثير الغبار شأني في ذلك شأن قيس في بادية نجد..

قبل أن أخرج من الخيمة فكرت في أن أخبر رفيقي «قدرت» بأني ذاهب.. ذاهب إلى أين؟ ذاهب لأي شيء؟ لكني ذاهب حتى لا يقلق بحثاً عني..

أدخلت رأسي في الخيمة فوجدته والدكتور عاطف غارقين في أداء الصلاة.. حين شاهدت «قدرت» وهو يصلي النفل لم أتأكد من أنه هو «قدرت» بدا لي إنساناً آخر، لم يكن هو كما عهدت أن أراه.. بدا وجهه

ص: ۲۷۷

بالنسبة لی كأنك ضربت علی كوب من زجاج فصار قطعاً صغيرة..

فتاتـاً.. لكن هـذه القطع متماسـكة مع بعضـها البعض لم تتحطم تمامـاً.. تحول وجهه إلی فتـات متماسـك وانحنی كتفاه كأنهما تحطما ووصلا إلی مستوی الأرض، وامتلأت كل ذرة من ذرات جسده بالاهتزاز واللجاجة والملامة والاضطراب..

وفكرت أن أتقدم.. لكن كيف؟

كيف أخبر هـذا الإنسان الـذی لا يـدری شـيئاً عن نفسه عن حالی؟! وهكـذا غادرت خيام فنـدق الكعكی... وما هی إلا خطوات حتی وجدت نفسـی داخل سوق كان هذا سوق الخيام التی كنا نقيم فيها وهناك محلات لبيع جميع أنواع الأطعمة، و... وانهمك الناس فی الـبيع والشـراء.. وبـدا أنهم فريق ممن يؤدون فريضـة الحـج بالإضافـة إلی أعمـال البيت.. فراحوا يكسـبون مكـاسب دنيويـة ودينيـة فی عرفات...

هل تكمن فی «الأرزاق» هذه الطاقة الكبيرة حتی إنها شـكلت الجو العام هنا؟.. هل يتحول «كسب الأموال» إلی رغبة جامحة لدرجة أن الحاج جعل من قيام عرفات وسـيلة للكسب المادی أيضاً؟.. هل للمادة هذه القوة بحيث لا يستطيع الناس مواجهتها؟ شعرت كأن إبليساً أقام هذه السوق حتی يشغل الحجاج، ويغرقهم فی دوامة الطعام وكسب الأموال...

خرجت من السوق، فانتهی ما بی من ضـيق.. وتراءت لی من بعيد قمة جبل الرحمة، وكأن جيشاً من النمل يعتلی قطعة من السـكر، فقد كان الكثير من الناس قد صعدوا جبل الرحمة..

لا... لن أذهب وسط هذا الزحام، فأنا مريض لا أستطيع أن ألتقط أنفاسی فی الزحام.. فی ذلك الوقت طرأ علیّ نوع من الجنون لا اسم له، وبـداخلی أخـذت أمواج بحر السـرور تتلاطم بشدة، كان سـروراً ناتجاً عن الإحساس النابع عن وجودی فی عرفات.. كنت أريد أن أمضی وحدی أتمتع بمشاعر السعادة

ص: ۲۷۸

التی تملكتنی.. أمضـی وحـدی أنتشـی وأطرب، أدق طبول قلوب الزائرین، الـذین وصل عددهم إلی سبعمائة ألف زائر لأخرجهم من الخیام المجنونـة، لیلقوا بعیـداً بمسابحهم، ولیأتوا هنا، لنمضـی معاً علی طریق النبی صـلی الله علیه و آله، نتلمس خطواته المباركة ونتبع أحكامه التی بلغنا إیاها، نطبقها بتمامها وكمالها، وكأنه یراقبنا ونحن نمضی علی سنته المباركة ونهجه النبوی القویم..» (۱).

مكة والحج والشعر فی شبه القارة:

كان لمكـة المكرمة والحج أثر كبیر علی شـعراء شـبه القارة، فقد نظموا أشـعارهم معبرین عن أحاسیسـهم تجاه المدینة المقدسة، كما نظم بعضـهم رحلة حجه شـعراً، بعد أن كتبها نثراً، والأمر الأهم هواسـتخدام المدینة المقدسة بكل ملامحها وجغرافیتها استخداماً رمزیاً فی الشعر الأردی، وهذا ما سنعرض له فی الصفحات التالیة لتكون ختام هذا البحث المتواضع.

كان لمكـة أثر كبیر علی قلوب الحجاج الذین قدموا مع سـید أحمد شـهید، فقد نالوا غذاءً روحیاً جعل الشاعر الشـیخ سـید أبوالحسـن وهو أحد من خلفوا سید أحمد شهید بعد استشهاده فی معارك الجهاد ضد السیخ یقول فی قصیدته یصف القافلة العائدة من مكة:

«عادت القافلة إلی داخل البلاد

بعد أن شرفت بأداء حج مبرور

كل فرد فیها ولی عارف

سمح الطلعة علی وجهه

بهاء ونور

كل فرد فیها من رجال اللَّه آمر بالمعروف

مجاهد قامع للبدعة

ناصح وناه لمن ینكر الأصول

كل فرد فیها یزیل من القلوب الكفر

كل فرد فیها وحید أوانه، حافظ للقرآن

عالم، سخی، بهی الطلعة جسور» (۲).

وهناك شاعر مشهور هو حفیظ

۱- أنظر النص كاملًا فی الجزیرة العربیة: ۶۱۷- ۶۲۲.

۲- أنظر نماذج أخری فی سمیر عبدالحمید، الأدب الإسلامی: ۳۵۱ وما بعدها.

ص: ۲۷۹

جالندهرى الذى نظم شاهنامة الإسلام فى أربعة مجلدات، يصف انقشاع الظلمة فى مكة بظهور نور البعثة المحمدية، بل ويصف ما حدث فى مكة قبل ذلك من وصول الخليل وولادة إسماعيل، وتعمير الكعبة، ويستمر فى عرضه للتاريخ شعراً حتى يصل إلى حملة أبرهة على الكعبة، وينتقل إلى ولادة النبى، والبعثة وغزوات الرسول (۱).

كان لمكة المكرمة والحج أثر كبير على شعراء شبه القارة، فقد نظموا أشعارهم معبرين عن أحاسيسهم تجاه المدينة المقدسة، كما نظم بعضهم رحلة حجه شعراً، بعد أن كتبها نثراً، والأمر الأهم هواستخدام المدينة المقدسة بكل ملامحها وجغرافيتها استخداماً رمزياً فى الشعر الأردى

ومن الأدباء الذين نظموا رحلتهم إلى الحج شعراً الأديب خطيب قادر بادشاه، وقد ركز على مشاعره الدينية، ووصف قدومه إلى مكة، ووصوله إلى الكعبة، ووقوفه على عرفات، واستخدم فى شعره بحوراً وقوافى تتناسب مع كل مناسبة:

«نمضى هذه الأيام

صوب الكعبة المشرفة

نلبى دعوة الحق

أين نحن من هذه النعمة العظمى..

ما أسعدنا بحظنا

وما أسعدنا بنصيبنا»

أما الشاعر ضياء الدين القادرى البدايونى فيقول:

«يا إلهى!

ها هو عبدك يودع

بيتك بعد أن حسنت نيتى

أين لى بعد ذلك

طواف الكعبة

أين لى بعد ذلك

رؤية الحرم

أتطلع إلى البيت الحرام

بعيون الفراق

ويعتصرنى الحزن والألم

فقد انتهى العناق

۱- المصدر السابق: ۷۰۲- ۷۱۳.

ص: ۲۸۰

کان ذهابی

وکانت عودتی

کلاهما

وقفاً علی کرمک

یا إلهی!

أنت مولای

تفعل ما تشاء!»

ومن الرحلات الشعریة رحلة بعنوان «کاروان حرم» أی قافلة الحرم للأدیب المعاصر ع س مسلم عن حجه سنة ۱۴۰۴ ه./ ۱۹۸۳ م جاء فیها:

«هنا تلفحت برداء الإحرام کفناً

هنا مزقت حجاب «الأنا» الخادع

قطعة.. قطعة!

وانطلق من داخلی طوفان العاطفة

النائم..

ورحت أنظم مشاعر الندامة

الفیاضة..

فلتسمّها رحلة القلب الشریعة

أو سمّها حکایة النداء

والدعاء فی البریة» (۱).

مکة والحرم والرمز الشعری

الشاعر محمد إقبال نموذجاً

مکة المکرمة لها مکانة فی قلوب الأدباء والشعراء، وکل ذراتها لها فی قلوبهم مکان، وهکذا وجدناها فی قلب الشاعر ووجدانه، فهو دائماً متجه إلیها، وإقبال یناجی ربه قائلًا:

«فی ذلک البحر الذی لیس له ساحل

لا یوجد سواک دلیلًا للعشاق

لقد أمرتنی أن أتجه صوب البطحاء

رغم أنه لا یوجد سواک منزلًا!» (۲).

وهکذا مضی إقبال یذکر مکة والحرم وهو فی موطنه، وفی خارج موطنه، حین کان فی الأندلس، وحین کان فی باریس، وفی لندن وحتی وهو یمضی فی البحر بجوار جزیرة صقلیة، وهو فی فلسطین، وفی أفغانستان وغیرها، وإقبال یذکر أن أرکان الأمة الإسلامیة التوحید والرسالة وأن حیاة الأمة تقتضی مرکزاً محسوساً، ومرکز الأمة الإسلامیة هو الحرم فی

۱- لمزید من النماذج الشعریة، أنظر الجزیرة العربیة: ۶۴۳ ومابعدها.

۲- أنظر أرمغان حجاز إلی الحق، الرباعیة ۱۱۲، سمیر عبدالحمید، المکتبة العلمیة، لاهور باکستان.

ص: ٢٨١

مكة المكرمة، واجتماع الأمة الحقيقى لا يكون إلا بقصد، يُقصد إليه، ومقصد الأمة هو حفظ التوحيد ونشره.

وإقبال- مثله مثل شعراء شبه القارة- يستعمل الرمز، فشعراء شبه القارة يستعملون الرمز بكثرة حتى قبل أن تصبح الحركة الرمزية عامة فى أوروبا، وإقبال أعطى الرمزية فى الأردية والفارسية- وهما اللغتان اللتان نظم بهما دواوينه الشعرية- اتجاهات جديدة وقوة حتى إنه يمكن القول بأن الحركة الرمزية هى من الملامح البارزة الجلية فى فن إقبال.

حاول إقبال أن يوجد- بمساعدة رمزيته- خيالًا مرئياً للعالم غير المرئى، ورمزية إقبال لا تعطى شكلًا أو جوهراً، إلا أن امتزاج الحياة وتفتحها واضح فيها، فهى لا تسمى الأشياء بل تشكل غلافها الجو أو ظلالها، ويكمن جمال رمزية إقبال أساساً فى حقيقة أنها تختلف تركيباً عن تلك التى استخدمها الشعراء الآخرون فى الأردية أو الفارسية، فالرمزية عند إقبال نراها فى:

إبراهيم والنمرود، موسى وفرعون، حسين ويزيد فهذه قصص تراجيدية عرضية للاجتهاد الدينى فى تاريخ البشرية، لكنها عند إقبال تدل على النضال الأبدى بين الخير والشر.

وبالمثل نجدها فى محمود وأياز فهى تدل- تاريخياً- على العلاقة بين الملك وخادمه، لكنها عند إقبال تدل على العلاقة بين العاصمة وعمالها، وبين الراعى والرعية، وهكذا يستخدم:

كليسا وحرم (أى الكنيسة والحرم) للتعبير عن المسلم وغيره أو دير وحرم وغيرها من تعبيرات رمزية، مثل (پيران حرم) أى شيوخ الحرم، أو (پير حرم) أى شيخ الحرم، وحتى كلمة حرم فهى عند إقبال بمعنى مسجد تارة، وبمعناها المعروف أى الحرم المكى تارة أخرى.

فحين أنشئ مسجد فى باريس رأى إقبال أن هذا نوع من المكر والخداع، فالذين أسهموا فى بنائه هم الذين خربوا الشام والبلاد الإسلامية الأخرى، وهو يطلق على مسجد

ص: ۲۸۲

باريس كلمـة الحرم، و يميزه أولا بالعنوان الـذى وضـعه، وهو (بيرســس كى مسـجد) أى مسـجد باريس، ثم بكلمة المغرب فى النص الشعرى يقول فى ديوانه «ضرب الكليم» بعنوان مسجد باريس:

يا نظرى لا يخدعنك فنه للزور هذا الحرم المغرب

وليس هذا حرما لكنه عن - د الفرنج للغرام ملعب

قد أخفت الإفرنج روح موثن فى صورة من حرم تكذب

إن الذى شيّد هذا موثنا دمشق من عدوانه تخرب (۱)

وإقبال لا يستخدم كلمة شيخ العربية مع الحرم لكنه يستخدمها هكذا شيخ كليسا أى راعى الكنيسة، ويستخدم أيضاً أمير قافلة ويعنى به النبى صـلى الله عليه و آله، ويسـتخدم أيضاً مير كاروان بنفس المعنى السابق، كما يسـتخدم نشاط رحيل أى حركة الاسـتعداد لمضـى القافلة، كما يستخدم أيضا كلمة حج وأذان، وسجود، وقيس وليلى، والمحفل وغيرها استخداماً رمزياً.

فالمؤمن والمسـلم عنـد إقبال يعنيان الإنسان المثالى، أو الكامل، بينما الكعبة والحرم و (أحياناً الدير) تعنى الهدف، والكعبة أيضاً تعنى تعاليم الإسلام، أما السجود فيعنى الجهد العنيف، والصلاة تعنى الرغبة المحرقة، أما الأذان فيعنى الدعوة إلى الجهاد والعمل (۲).

وإقبال لا يستخدم كلمة شيخ العربية مع الحرم لكنه يستخدمها هكذا شيخ كليسا أى راعى الكنيسة، ويستخدم أيضاً أمير قافلة ويعنى به النبى صـلى الله عليه و آله، ويسـتخدم أيضاً مير كاروان بنفس المعنى السابق، كما يسـتخدم نشاط رحيل أى حركة الاسـتعداد لمضـى القافلة، كما يستخدم أيضا كلمة حج وأذان، وسجود، وقيس وليلى، والمحفل وغيرها استخداماً رمزياً

وقد قلب إقبال معانى الكثير من الألفاظ التى شاعت فى المدرسة الأدبية الكلاسيكية واستخدمها

۱- عبدالوهاب عزام ترجمة ضرب الكليم: ۷۴.

۲- أنظر بال جبريل، ترجمه عن الفرنسية عبدالمعين ملوحى، دار طلاس للنشر، ط أولى ۱۹۸۷ م.

ص: ۲۸۳

استخدامات رمزية، وعلى سبيل المثال كلمة خودى الفارسية كانت تعنى الإنطواء، فصار معناها احترام الذات أو الذاتية، وكلمة الفقر استعملها إقبال يرمز بها إلى السيطرة الأخلاقية وهكذا (۱).

وقد أثار عدم فهم شعر إقبال وبخاصة ما ترجم منه إلى اللغات المختلفة اختلاف الآراء حوله، فإذا ما تكلم عن الحرم فهم الجميع أنه يقصد الحرم المكى، وإذا ذكر الملا بمعنى الشيخ، أساء البعض فهم قصده، رغم أن إقبالًا كان يرمز إلى الوضع السىء للمسلمين فى الهند ومعظم بلدان العالم الإسلامى وإقبال يقصد بالحرم المسجد، ويقصد بشيخ الحرم أولئك الذين غرقوا فى التصوف والدروشة وجمع النذور، وأخذوا يشجعون الناس على ترك العمل والسعى، ويردون كل مصيبة إلى التقدير دون تفكير فى اتباع سنة رسول اللّه وإطاعة أوامر اللّه وهكذا يقول:

«أيها المسلم سل قلبك، ولا تسأل الملا:

لماذا خلا الحرم من رجال اللّه؟»

ويقول عن الدراويش المتصوفة:

«نالوا بالوراثة كراسى الأولياء

استولت الغربان على أوكار النسور

شيخ الحرم هو الذى يأكل الثمن سراً

ثمن الأثواب المسروقة،

غطاء أبى‌ذر، وكساء أويس المرقع

۱- نفسه: ۳۳.

ص: ٢٨۴

ووشاح فاطمة الزهراء».

وهذه أشعار تعبر بدقة عن دهشة الشاعر من أحوال المسلمين الذين غفلوا عن أصول دينهم، مستخدماً الرمز فى شعره:

«أليس أدهى من نهاية العالم

أن ترى أهل الصين يلبسون ملابس الإحرام

بينما أهل مكة ينامون فى البلد الحرام؟»

وإقبال هنا لا يقصد أهل مكة بل يشير بهذا التعبير للمسلمين، وهكذا يقول:

«لقد رأيت «سيد الحرم»

عمله ليس فيه حرارة

وكلامه ليس فيه تفكير»

فسيد الحرم رمز لإمام كل مسجد

والحقيقة أن كمال شعر إقبال- كما يذكر الدكتور يوسف حسين (١)- كان

فى رمزيته حيث تكون «الكنايـة أبلغ من التصـريح» فهو لم يتخذ طريق الرمزية الغربية، ولم يتجه فى كلامه إلى الغموض والألغاز، ومع هذا فأدبه لا يمكن أن يفهم منفصلًا عن الحياة أو بعيداً عنها، وكان إقبال يحاول بدوره أن يبين ويشرح بأسلوب بيانى جميل الإيماءات والإشارات، فقـدرته على أداء مطلبه بالاسـتعارة والكنايـة قـدرة خارقـة، وهو لم يترك الأسـلوب الأدبى التقليـدى، لكنه بأسـلوبه أظهر نشاط الحياة وحركتها فى الأسلوب القديم أو فى التراكيب القديمة للغة التى كادت أن تضيع من ذاكرة الناس.

ويقول عن الدراويش المتصوفة:

«نالوا بالوراثة كراسى الأولياء

استولت الغربان على أوكار النسور

شيخ الحرم هو الذى يأكل الثمن سراً

ثمن الأثواب المسروقة،

غطاء أبى‌ذر، وكساء أويس المرقع

ووشاح فاطمة الزهراء».

وهذه أشعار تعبر بدقة عن دهشة الشاعر من أحوال المسلمين الذين غفلوا عن أصول دينهم، مستخدماً الرمز فى شعره:

«أليس أدهى من نهاية العالم

أن ترى أهل الصين يلبسون ملابس الإحرام

بينما أهل مكة ينامون فى البلد الحرام؟»

وبينما يرى الدكتور سـيد عبدالواحد أن النزعة العامة فى إقبال هى الرمزية، يرى الدكتور يوسف حسـين أنها فى الرومانسية التى كانت فى الأصل رد فعل للفلسفة العقلية،

١- دكتور يوسف حسين، إقبال، بالأردية، طبعة ١٩۴۴ م: ١٣٨.

ص: ۲۸۵

وأن إقبالًا مثل جوته مزج بین الرومانسیة والکلاسیکیة، بینما یری الأستاذ مجتبی مینوی (۱) أن إقبالًا من أصحاب الألم الرومانسیین، یحرک ویثیر الشوق والرغبة فی قلوب الآخرین، لکن إقبالًا لم یکن رومانسیاً فی معانیه، تلک المعانی التی أشاعها کل من هیجل وشوبنهاور ونیتشه وغیرهم من أصحاب المذهب الرومانسی.

لا ـ شک أن إقبالًا استفاد فی رمزیته من الأدب العربی مستفیداً من شعر الشعراء ومن القرآن الکریم والحدیث النبوی، فرمزیته هذه تجعلک تحس بالقوافل تمضی فی الصحراء متجهةً إلی الحرمین، وتشعرک بقیظ الرمال، وبمناظر النخیل فی منازل الطریق، والرمزیة واضحة فی استخدامه لألفاظ مثل زمزم، وحراء، وکعبة، وحرم، ولات، ومنات، وطواف، وعرفات وغیرها، وقد ابتکر إقبال بعض التراکیب مستخدماً هذه الألفاظ، لیعبر عن أفکاره، واستخرج البعض من القدیم المنسی، وجعله فی حالة جدیدة، وتراکیبه الرمزیة هذه تمثل حجر الأساس لقنطرة الإلهام الشعری عنده، فلا یمکن استبدال لفظة بأخری، لأن هذا سیؤدی إلی انهیار القنطرة، وبعبارة أوضح انهیار التعبیر الفنی، لأن التعبیر بالنسبة للتجربة الشعریة یعتمد علی الألفاظ والتراکیب، أو المصطلحات التی تشکل جوهر الفکرة ذاتها.

لا ـ شک أن إقبالًا استفاد فی رمزیته من الأدب العربی مستفیداً من شعر الشعراء ومن القرآن الکریم والحدیث النبوی، فرمزیته هذه تجعلک تحس بالقوافل تمضی فی الصحراء متجهةً إلی الحرمین

فإقبال یخاطب شیخ الحرم أکثر من مرة وفی أکثر من دیوان، یقول فی دیوانه بال جبریل حین کان فیزیارة لأفغانستان ووقف عام ۱۹۳۲ م یقرأ الفاتحة علی قبر الحکیم الشاعر سنائی الغزنوی (۲):

۱– مجتبی مینوی، إقبال لاهوری، بالفارسیة، ط لاهور: ۳۲.

۲– کلیات إقبال: ۳۱۵.

ص: ۲۸۶

«فی الشرق وفی الغرب تلمست الحانات

لأخفف عن قلبی آلام الأشواق

لکننی فی المشرق لم أظفر بالساقی

وسلافة أوروبا تنکرها الأذواق

کم عزت ملتنا فی الدنیا بفقیر

یرتاع له کسری ویدین له قیصر

هو للحق سلاح هو للشعب ضمیر

ما عادت تشهده إیران ولا کشغر

الحرم القدسی به شیخ المحراب

کعبته الأموال وقبلته الدخلاء

ویلاه لقد باع لهم دلق أویس

وبساط أبی‌ذر وخمار الزهراء

إسرافیل شکانی للحی القیوم

ما الحیلهٔ فی شعر نغمته إرعاد

قد أحدث زلزالًا وأثار الأحرار

وتحدی بالمحشر من قبل المیعاد

قال: أنظر وتأمل أحداثاً وخطوباً

کالمحشر أهوالًا فی دنیا الإسلام

للبیت المعمور سعت کل الأقطار

وبمکهٔأقوامفی البطحاء نیام» (۱).

وفی دیوان ضرب الکلیم وبعنوان (ای پیر حرم) أی «یا شیخ الحرم» یرمز لعلماء الإسلام والصوفیهٔ المسلمین (۲) یذکرهم بواجبهم الدینی

وهنا یرمز إقبال لمفهوم رسالته بطریقهٔ الخانقاه (الزوایا والتکایا) أو حیاهٔ الدعهٔ والخمول التی جعلت المسلمین یخضعون للاحتلال والعبودیهٔ، وجعلتهم یخافون الموت و یرتعدون من تصور الجهاد.

«یا شیخ الحرم!

اترک التقالید البالیهٔ

واترک طریق الخانقاه

وافهم مغزی أغنیهٔ أسحاری (افهم رسالتی)

یحفظک اللّه! احفظ شباب الأمهٔ

علمه درس العزهٔ (أی أطلعه علی حقائق الإسلام)

حتی یتمکن من إصلاح عیوبه، ویحفظ ذاتیته.

لقد جعله التعلیم الغربی یلهث خلف الدعهٔ

وخلف الراحة، بل جعله مثل المرأة

۱- ترجمة الصاوى شعلان: ۱۹۲ فى أيوان إقبال، ط القاهرة اللجنة الباكستانية المصرية ۱۹۷۷ م، وأنظر ترجمة عبدالمعين ملوحى عن الفرنسية: ۱۰۲.

۲- پروفيسور سليم جشتى، شرح ضرب كليم، ط لاهور: ۱۷۳.

ص: ۲۸۷

تطالع طول الوقت فى المرآة للتزين

فعليك يا شيخ الحرم أن توجد فيه صفات الرجولة

وأن تجعله يميل إلى العمل والجد والاجتهاد.

لأن شبابنا ابتلى بالاحتلال منذ قرنين من الزمان

لهذا صاروا مكسورى الخاطر أذلاء

فعالجوهم بالقرآن والحديث

أسمعوهم أوامر اللَّه ورسالة نبيه

أخبروهم بأنهم إن نصروا اللَّه نصرهم اللَّه.

لقد تأثرت بعاطفة محبة الأمة

فأوضحت مكانتكم ومقامكم،

فقابلوا عاطفتى هذه بجميل من عندكم

واخرجوا من جحوركم، إلى ميدان العمل».

وهكذا يتضح من هذه الأشعار أن إقبالًا كان يقصد بشيخ الحرم علماء الإسلام والصوفية، وبخاصة علماء الهند ومتصوفة الهند، فهو يصرح قائلًا، بأن الاحتلال يجثم على صدورهم منذ قرنين، وهناك من ظهر يدعو لإبطال الجهاد والخضوع للذل، ولهذا خاطبهم إقبال بالأبيات السابقة.

لقد وهب اللَّه إقبالًا قوى تخيلية سواء فى ابتداع المعانى أو الخواطر، فالخيال عنده متنوع مما يخدم فى تقوية التأثير العاطفى، والخيال التفسيرى مثلًا عند إقبال نابع من أن الشاعر يدرك القيمة أو المغزى الروحى فيقدم موضوعه عن طريق صفات تكمن فيها القيمة الروحية، فشعره الذى يتضمن كلمة الحجاز و زمزم يلقى بظلال أخرى فى ذهن القارىء فالحجاز أو زمزم تثير فى الإنسان الأحاسيس التى تجعله يستخرج الشحنة الإيمانية التى تمتزج مع وصف إقبال بعالم الدين الذى لا يفيد الأمة، ولنقرأ هذا الشعرالرمزى بتشبيهاته الجميلة:

«إن عالم الدين هذا لا يحمل همّاً

عينه بصيرة لكنها جافة لا تدمع

لقد زهدت فى صحبته

لأنه عالم ولا هم

ص: ۲۸۸

وأرض مقدسة ليس بها زمزم» (۱).

إن النماذج الشعرية فى دواوين إقبال الأردية والفارسية كثيرة جداً، ففى دواوينه الأردية مثلًا استخدم الحرم فى أكثر من ۴۵ موضعاً، والكعبة فى أكثر من ۱۵ موضعاً، والحجاز فى أكثر من ۲۵ موضعاً، وفى دواوينه الفارسيّة استخدم الحرم فى أكثر من ۶۹ موضعاً والبيت الحرام أو بيت الحرام أو بيت اللّه فى موضعين، واستخدم الكعبة فى أكثر من ۲۹ موضوعاً.

ثم استخدم إقبال أيضاً زمزم مرة أخرى، يقول فى ديوانه (بانک درا) أى صليل الجرس كلاماً يقول عنه البروفيسور سليم جشتى- شارح دواوين إقبال- إن إقبالًا يتندر على الحجاج الذين يعودون من الحج وقد حملوا معهم فقط ماء زمزم وتمر الحجاز، بينما كان يجب عليهم أن يعودوا حاملين هدية التقوى والطهر، وكان يجب عليهم بعد عودتهم أن يعيشوا حياة تجعل قلوب الآخرين بعد رؤية هؤلاء العائدين من الحج تشعر بعظمة الإسلام.

وهذا شعر من ديوان (بانک درا) من مقطوعة بعنوان (شمع اور شاعر) (۲) منها:

إن النماذج الشعرية فى دواوين إقبال الأردية والفارسية كثيرة جداً، ففى دواوينه الأردية مثلًا استخدم الحرم فى أكثر من ۴۵ موضعاً، والكعبة فى أكثر من ۱۵ موضعاً، والحجاز فى أكثر من ۲۵ موضعاً، وفى دواوينه الفارسيّة استخدم الحرم فى أكثر من ۶۹ موضعاً والبيت الحرام أو بيت الحرام أو بيت اللّه فى موضعين، واستخدم الكعبة فى أكثر من ۲۹ موضوعاً.

«اسم الكعبة على لسانک

لكن فى قلبک رغبة فى بيت الأصنام (لندن)

أنا لا أرى فى عاطفة الحب (الشوق) لديک أى معقولية

إذا لا يوجد فى قلبک رغبة فى الرقى

۱- سمير عبدالحميد، بحث بعنوان إقبال والعرب، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد ۵، محرم ۱۴۱۲ ه: ۳۷۴.

۲- أنظر كليات إقبال: ۱۸۳، وسليم جشتى، الشرح: ۳۵۰.

ص: ٢٨٩

(هنا الشمع تخاطب قادة الأمة)

وقلبك خال من عاطفة حب الرسول

فكيف يمكن أن يظهر فى‌الأمة قيس؟!

(أى عاشقون أو فراشات)

أيها المسلم أيها اللؤلؤ المتلألىء

يا من تربيت فى حضن الإسلام

كم هو مؤسف أن يخلو قلبك تماماً من عشق الرسول

يا إقبال! قومك نيام!

روضتك خربت!

من يسمع الآن نداءك أغنيتك

فلا محل لها الآن (أى أنها غير مناسبة)

ورسالتك لا معنى لها رسالتك بلا عنوان» (١).

وفى ديوان الأسرار والرموز- وهو بالفارسية- صور جميلة استخدم فيها إقبال الرمز كثيراً منها:

«كم يريك العشق من صهبائه فترى التقليد من أسمائه

أحكم العشق بتقليد الحبيب لتنال القرب من رب مجيب

فى حراء القلب فاقعد خالياً وإلى الحق فهاجر راضياً».

والشاعر يقصد بالتقليد تقليد الرسول صلى الله عليه و آله واتباع سنته المباركة (٢).

وفى نفس الديوان يخاطب إقبال المسلم ويشير إليه بالغزال، نفر من سواد الكعبة فخرج من الحرم فتمكن منه الصياد، أى خرج عن تعاليم الإسلام، ويرى أن الإنسان ينبغى أن يثبت فى نفسه و أخلاقه وسننه، ولا ينسى مركزه فهو كالوردة ينتشر عرفها ويلتئم ورقها فإذا تفرق الورق فنيت، ونحن مسلمون، ولكن فى أنفسنا وثنية من عبادة الهوى والخضوع لغيرنا، ويقصد بالدمى (جمع دمية) الإنجليز وما عندهم من مال ومناصب (٣).

وفى قصيدة مهداة إلى الأمة الإسلامية، وهى القصيدة الأولى فى ديوانه نفى الذات (بالفارسية) يقول:

«ختم اللّه إليك الأمما بك حقاً كل بدء ختماً

كم تقى فيك كالرسل منيب وجريح القلب رفاء القلوب

١- سليم جشتى: ٣٥۶.

٢- ترجمة عزام: ٢٢، ط المكتبة العلمية، تحقيق سمير عبدالحميد.

٣- المصدر نفسه: ۶٢.

ص: ۲۹۰

لک طرف بالنصاری سحراً وعن الکعبهٔ أبعدت السری»

ویقصد أهل أوروبا الذین سیطروا علی الهند وغیرها (۱).

وبالفارسیهٔ أیضاً، لکن فی دیوانه الأخیر أرمغان حجاز أی هدیهٔ الحجاز یقول إقبال:

«لیس الحرم سوی قبلهٔ القلب والنظر

وطوفه لیس طواف السطح والباب

فبیننا وبین بیت اللَّه سر

لا یعرفه أیضاً جبریل الأمین»

وإقبال هنا یقصد أن الإیمان لیس بالحرکات الظاهرهٔ إنما هو أیضاً شیء داخلی ذاتی.

وفی قصیدهٔ لإقبال بعنوان (طلوع إسلام) یخاطب فیها فتی الإسلام ویرمز إلیه بطائر الحرم فیقول وما أجمل قوله:

«أعد یا طائر الحرم المفدی نشید الحب للأقوام طراً

وحلق فی فضاء الکون واجعل جناحک من غبار اللون حرّاً» (۲).

ولا ینسی إقبال الحدیث عن غار حراء: یقول فی دیوانه (جاویدنامه) بالفارسیهٔ:

مدهٔ فی الغار ظل المصطفی غیر آثار لذات ما اقتفی

وعودهٔ إلی الحرم، والحرم هنا بمعنی مکهٔ، یقول إقبال فی دیوانه (بال جبریل) أی جناح جبریل:

«فی اللهب العربی ألحان فارس

سر الحرم (أی مکهٔ) وحدهٔ الشعوب

فکرهٔ الوحدانیهٔ غائبهٔ عن فکر الغرب

ذلک أن حضارهٔ أوروبا لیس لها حرم»

ومکهٔ عنده لها مکانهٔ فهی رمز للإسلام وتعالیمه جملهٔ وتفصیلًا، ولهذا کتب نظماً نختم به هذه النماذج بعنوان (مکه اور جنیوا) «مکهٔ وجنیف» جاء فیه إشارهٔ إلی الحکمهٔ القرآنیهٔ والحکمهٔ الغربیهٔ أو حکمهٔ الفرنج، لیقدم للعالم وجههٔ نظر الإسلام فیقول:

فی هذا العصر رغم أن أفراد الأمم المختلفهٔ صاروا یتلاقون

۱- المصدر نفسه: ۷۷.

۲- الصاوی شعلان، أیوان إقبال: ۱۰۸.

ص: ۲۹۱

ويتجمعون أكثر من ذى قبل، لكن رغم هذا لم يمكن لهذا الأمر أن يحقق الوحدة الإنسانية، (فلا تزال وحدة البشر خافية عن الأنظار).

انتبهوا! إن هـدف الحكمـة الغربيـة (الإفرنجيـة) هو (إقامة عالم يضم أمماً متفرقة) وإشاعة الفرقة بين الأمم والإبقاء على هذه الفرقة عن طريق تقسيم الأمم إلى شعوب متقدمة وأخرى نامية.

وعلى العكس من هـذا، فإن هدف الحكمة الإسـلامية هو القضاء على جميع أوجه الاختلاف بين الأمم وإقامة مجتمع الأخوة الإنسانية، فكل البشر من أب واحد ولهذا فهم سواسية (هدف الإسلام إقامة أمة آدم).

فتعاليم الإسـلام تعنى أنه لا فضل لأحد على الآخر إلا بمعيار واحد هو التقوى، ولهذا فقد بلغت مكة المكرمة أى الإسـلام هذه الرسالة إلى جنيف أى أمم الغرب، والرسالة هى أن جمعية آدم أفضل كثيراً من جمعية الأمم..

يريـد إقبال أن يقول: فإن أردتم حقاً خير البشـرية، خير بنى آدم فأسـسوا بـدلًا من جمعيـة الأمم جمعية آدم، أى حاولوا أن تقضوا على جميع الامتيازات التى وضـعت للتفريق بين البشـر وبين الشـعوب وبين الأمم المختلفة، وأقيموا المساواة فى العالم، وهو ما يضمن الأمن والأمان وفلاح البشـرية وسـعادتها، وإقبال هنا يشير إلى عصبة الأمم التى تم تأسيسها بعد الحرب العالمية الأولى، فالهدف يبدو طيباً فى الظاهر، لكن الهدف الأصلى كان استعباد الأمم الضعيفة والسيطرة عليها، وقد عبر إقبال عن هذا أصدق

ص: ۲۹۲

تعبير حين قال عام ۱۹۳۳ م:

«لا أعلم عن هذه العصبة الأممية

سوى أنهم جماعة من لصوص القبور

أقاموا جمعية لتقسيم القبور».

وصدق ما قاله إقبال، فلم تتمكن لا عصبة الأمم ولا هيئة الأمم من تحقيق الأمن والسلام فى العالم، ذلك لأن أعضاءها لا يعترفون بالمساواة بين الأمم، وهو الأمر الذى يقوم عليه أمن العالم (۱).

هكذا عبر الشاعر عن تجاربه الداخلية، وأوضح عن مكنونات نفسه عن طريق الرمز والكناية، وفى حالة الوجد الأدبى يكون الرمز والكناية أبلغ ما يمكن لبيان التسلسل النطقى لأفكار أديب فيلسوف مثل محمد إقبال.

«لا أعلم عن هذه العصبة الأممية

سوى أنهم جماعة من لصوص القبور

أقاموا جمعية لتقسيم القبور».

وصدق ما قاله إقبال، فلم تتمكن لا عصبة الأمم ولا هيئة الأمم من تحقيق الأمن والسلام فى العالم، ذلك لأن أعضاءها لا يعترفون بالمساواة بين الأمم، وهو الأمر الذى يقوم عليه أمن العالم

الهوامش:

۱- أنظر كليات إقبال، ضرب كليم: ۵۲۰- ۵۹۱.

ص: ٢٩٣

ص: ۲۹۴

ص: ۲۹۵

ص: ۲۹۶

ص: ۲۹۷

معجم ما كتب فى الحجّ و الزيارة (۱۶)

۲۷۵۳- نداءات الإمام الخمينى إلى حجاج بيت اللَّه الحرام

طهران: وزارة الإرشاد الإسلامى، ط ۱، ۱۳۶۰ ش.

۲۷۵۴- نداءات الباعة فى مكة المكرمة

عبد العزيز الرفاعى

المنهل (جدة) مج ۴۱: ج ۲- ۳ (۳/ ۱۴۰۰ ه/ ۱۲- ۱/ ۷۹- ۱۹۸۰ م) ص ۱۶۹- ۱۷۰.

ج ۴- ۵ (۴- ۵/ ۱۴۰۰ ه/ ۴- ۵/ ۱۹۸۰ م) ص ۲۸۹- ۲۹۲.

۲۷۵۵- ندوة الحج المبرور

عبد الملك سيد

التصوف الإسلامى (القاهرة) س ۱۲:

ع ۶ (۶/ ۱۹۹۰ م) ص ۳۴- ۳۹.

۲۷۵۶- نزهة الأبصار فى عدم صحة نسب الخمسة البيوت المنسوبين إلى الأنصار

عبد الرحمن الأنصارى (۱۱۹۵ ه)

ظ: تحفة المحبين والأصحاب ۱۰۵.

۲۷۵۷- النزهة الثمينة فى أخبار المدينة

محب الدين البغدادى

خ: جتربتى

ظ: المورد مج ۴: ع ۱، ص ۲۲۴،

العرب. س ۳۱: ج ۷، ۸ (۱، ۲/ ۱۴۱۷ ه) ص ۴۷۱.

ص: ۲۹۸

۲۷۵۸- نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس: مع الموسوى المكى فى رحلته

حمد الجاسر

الفيصل (الرياض) ع ۲۲۳ (۱/ ۱۴۱۶ ه- ۶/ ۱۹۹۵ م)

ص ۳۵- ۳۷، ع ۲۲۴ (۲/ ۱۴۱۶ ه- ۷/ ۱۹۹۵ م)

ص ۳۵- ۳۷، ع ۲۲۵ (۳/ ۱۴۱۶ ه- ۸/ ۱۹۹۵ م)

ص ۳۵- ۳۷، ع ۲۲۶ (۴/ ۱۴۱۶ ه- ۹/ ۱۹۹۵ م)

ص ۳۵- ۳۷، ع ۲۲۷ (۵/ ۱۴۱۶ ه- ۱۰/ ۱۹۹۵ م)

ص ۳۵- ۳۷، ع ۲۲۸ (۶/ ۱۴۱۶ ه- ۱۱/ ۱۹۹۵ م)

ص ۳۵- ۳۷.

۲۷۵۹- نزهة ذوى الأحلام بأخبار الخطباء والأئمة وقضاة بلد اللَّه الحرام

عبد العزيز بن فهد

ظ:

فهرس الفهارس والاثبات ۷۵۵.

۲۷۶۰- نزهة الكرام فى مدح طيبة والبلد الحرام

شعبان بن محمد قرشى الآثارى ت ۸۲۸ ه

ظ:

كشف الظنون ۱۹۴۶،

معجم ما ألّف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ۹۷.

۲۷۶۱- نزهة الناظرين فى تاريخ مسجد سيد الأولين والآخرين

جعفر بن إسماعيل المدنى ت ۱۳۱۷ ه، فرغ منه سنة ۱۲۸۷ ه

مكة المكرمة: ۱۳۰۳ ه.

القاهرة: مطبعة الجمالية، ۱۳۳۲ ه/ ۱۹۱۴ م، ۱۲۰ ص

بيروت: دار صعب، ۱۹۷۵ م، ۱۲۴ ص.

۲۷۶۲- نزهة الورى فى أخبار أم‌القرى

ابن النجار محمد بن محمود ت ۶۴۳ ه

ظ:

كشف الظنون ۱۹۵۰،

معجم ما ألّف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ۱۹.

۲۷۶۳- نسب الأنصار

أبو محمد القداح الأنصارى، كان حياً سنة ۲۳۵ ه

ص: ۲۹۹

ظ:

العرب. س ۳۱: ج ۷، ۸ (۱، ۲/ ۱۴۱۷ ه) ص ۴۷۱.

۲۷۶۴- نسب حرب، قبيلة حرب (أنسابها، فروعها، تاريخها وديارها)

عاتق بن غيث البلادى

مكة المكرمة: دار مكة، ط ۳، ۱۴۰۴ ه، ۳۸۳ ص، ۲۴ سم.

۲۷۶۵- نسب قريش

مصعب بن عبد اللَّه الزبيرى ۱۵۶- ۲۳۶ ه، نشرهُ نشرة نقدية: ليفى بروفنسال

القاهرة: دار المعارف، ۱۹۵۳ م، ۱۰۲+ ۴۷۵+ ۱۱ ص (ذخائر العرب، ۱۱).

القاهرة: ط ۲، ۱۹۷۶ م.

مجلة: مجمع اللغة العربية بدمشق: مج ۲۹ (۱۹۵۴ م) ص ۵۹۳- ۶۰۳ (عز الدين التنوخى)

المورد: مج ۱: ع ۱ (۱۹۸۱ م) ص ۳۱.

(ليفى بروفنسال)

۲۷۶۶- نسب قريش

هشام بن محمد الكلبى ت ۲۰۴ ه

ظ:

الفهرست لابن النديم ۱۱۰،

معجم ما ألف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ۴۸.

۲۷۶۷- نسب قريش وأخبارها

على بن محمد المدائنى ت ۲۲۵ ه

ظ:

الفهرست لابن النديم ۱۱۴.

معجم ما ألّف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ۴۸.

۲۷۶۸- نسبة الأعمال وخلاصة الأفعال فى تاريخ مكة والمدينة

سعد الدين الاسفرائينى ت ۵۸۱ ه

خ:

خزانة الحرم المكى/ ۲.

ظ:

المنهل (جدة) س ۵۶: ع ۴۷۵ (۳- ۴/ ۱۴۱۰ ه/ ۱۰- ۱۱/ ۱۹۸۹ م) ص ۲۰۸.

۲۷۶۹- نشأة الحياة العلمية فى الحجاز

عبد الجبار الرفاعى

ميقات الحج. س ۳: ع ۶ (۱۴۱۷ ه) ص ۱۲۳- ۱۶۷.

۲۷۷۰- نشأة المدينة المنورة وقيام المساجد فيها

محمد محمود الغريب

ص: ٣٠٠

المنهل (جدة) مج ٣۶: ج ٨ (٨/ ١٩٧۵ م) ص ۵۶٩- ۵٧٢.

٢٧٧١- نشاط الحركة الدينيّة فى الحجاز

عبد اللّه خياط

المنهل (جدة) مج ١۴: ج ٢ (٢/ ١٣٧٣ ه/ ١٠- ١١/ ١٩۵٣ م) ص ١۵۴- ١۵٩، ج ۶ (۶/ ١٣٧۴ ه/ ٢/ ١٩۵۴ م) ص ٣٩٠- ٣٩۶.

٢٧٧٢- نشان كعبه، ره‌آورد حج

(بالفارسية)

م. قندهارى

١٣۵۶ ش، ٢٣٣ ص، مصور.

٢٧٧٣- نشر ألوية التشريف بالإعلام والتعريف بمن له ولاية عمارة ما سقط من البيت الحرام

محمد على المعروف بابن علان المكى.

ظ:

المنهل (جدة) س ۵۶: ع ۴٧۵ (٣- ۴/ ١۴١٠ ه/ ١٠- ١١/ ١٩٨٩ م) ص ٢٠٩.

٢٧٧۴- نشر الأنفاس فى فضائل زمزم وسقاية العباس

خليفة بن أبى الفرج الزمزمى ت ١٠۶٠ ه

ظ:

المنهل (جدة) س ۵۶: ع ۴٧۵ (٣- ۴/ ١۴١٠ ه/ ١٠- ١١/ ١٩٨٩ م) ص ٢٠٩.

٢٧٧۵- نشر النور والزهر فى تراجم أفاضل أهل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر

أو الدرّ المكنون (الميمون) فى تراجم أهل الخمسة قرون

عبد اللّه بن أحمد بن ميرداد ١٣۴٣ ه (خطيب المسجد الحرام)

خ: الدهلوى بخزانة الحرم المكى، فى مجلد ضخم.

ظ:

المنهل (جدة) س ۵۶: ع ۴٧۵ (٣- ۴/ ١۴١٠ ه/ ١٠- ١١/ ١٩٨٩ م) ص ١٩۶ وص ٢٠٨.

٢٧٧۶- نشستى با رئيس سازمان حج وزيارت

(بالفارسية)

ميقات حج: ع ٢۴ (تابستان ١٣٧٧ ش) ص ١٣٢- ١۴٠.

٢٧٧٧- النصارى فى مكة قُبيل الهجرة

هنرى لامنس

ص: ۳۰۱

المشرق مج ۳۵ (۱۹۳۷ م) ص ۶۹- ۹۶، ص ۲۶۴- ۲۸۶.

۲۷۷۸- نصح ملوک الإسلام بالتعريف بما يجب عليهم من حقوق إلی البيت الحرام

عبد اللَّه محمد بن غالب أحمد المكناسی الشهير بابن الكاک ت ۸۰۷ ه

ظ:

المنهل (جدة) س ۵۶: ع ۴۷۵ (۳- ۴/ ۱۴۱۰ ه/ ۱۰- ۱۱/ ۱۹۸۹ م) ص ۲۰۸.

۲۷۷۹- نصوص من كتاب أخبار المدينة لأبی زيد عمر بن شبة النميری البصری

عبد الحفيظ قاری

العرب مج ۳: ج ۸ (ربيع الأول ۱۳۸۹ ه) ص ۷۵۴- ۷۵۹.

۲۷۸۰- نصيحة لحجاج بيت اللَّه الحرام ومن يطلع عليها من المسلمين

(مكة المكرمة)

عبد العزيز بن عبد اللَّه بن باز

الرابطة س ۲۸: ع ۳۰۵ (۷/ ۱۹۹۰) ص ۶- ۱۰.

۲۷۸۱- نصيحة المشاور وتعزية المجاور

(يشتمل علی تراجم جماعة من أهل المدينة)

بدر الدين عبد اللَّه بن محمد بن فرحون (۶۹۱- ۷۶۹ ه)

خ: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

تحقيق: بنيدر مقبل الحيسونی لنيل درجة الدكتوراه

ظ:

العرب. س ۳۱: ج ۷، ۸ (۱، ۲/ ۱۴۱۷ ه) ص ۴۷۲.

۲۷۸۲- النصيحة الواجبة القبول فی بيان موضع منبر الرسول صلی الله عليه و آله

السمهودی ت ۹۱۱ ه

ظ:

وفاء الوفا ۱۷۴، رسائل فی تاريخ المدينة ۳۶، معجم ما ألّف عن رسول اللَّه صلی الله عليه و آله ۹۷، ۱۷۴.

۲۷۸۳- النظام الاجتماعی عند العرب قبل الإسلاموفی صدر الإسلام

جليلة تاجی الهاشمی.

المجلة التاريخية (القاهرة) ع ۱ (آب ۱۹۷۰ م) ص ۲۱۶- ۲۲۴.

ص: ۳۰۲

۲۷۸۴- نظام جدید للمطوفین فی البیت الحرام

محمد طنطاوی

العربی (الکویت) ع ۸۴ (۱۱/ ۱۹۶۵ م) ص ۳۱.

۲۷۸۵- نظرات فی العروبة والحج وفی مستقبل هذه البلاد

محمد إسحق الحسینی

المنهل (جدة) مج ۱۱: ج ۹- ۱۰ (۱۱- ۱۲/ ۱۳۷۰ ه/ ۸- ۹/ ۱۹۵۱ م) ص ۳۶۷- ۳۶۹.

۲۷۸۶- نظرة بعض الرحّالة المسلمین وبعض الرحّالة الغربیین عند زیارتهم لمنطقة الحجاز

حسین أمین

دراسات تاریخ الجزیرة العربیة: ج ۱ (۱۹۷۹ م) ص ۳۸۵- ۴۰۲.

۲۷۸۷- نظرة علی تاریخ مدینة جدة

إبراهیم الشریفی

المنهل (جدة) مج ۲۴: ج ۱۱ (۱۱/ ۱۳۸۳ ه/ ۳- ۴/ ۱۹۶۴ م) ص ۶۷۳.

۲۷۸۸- نظری به مساله اقامت غیر مسلمان در حجاز

(بالفارسیة)

یعقوب جعفری

تحقیقات اسلامی س ۵: ع ۱، ۲ (۱۳۶۹ ش) ص ۱۱۴- ۱۲۲.

۲۷۸۹- نظم تاریخ مکة للأزرقی

عبدالملک المصری الشافعی الأرمنتی ت ۶۳۲ ه

ظ:

المنهل (جدة) س ۵۶: ع ۴۷۵ (۳- ۴/ ۱۴۱۰ ه/ ۱۰- ۱۱/ ۱۹۸۹ م) ص ۲۰۹.

۲۷۹۰- نظم الدرر فی اختصار نشر النور والزهر فی تراجم علماء مکة وأفاضلها من القرن العاشر الی الرابع عشر.

عبداللَّه بن محمّد غازی الهندی.

خ:

مکتبة نصیف بجدة.

ظ:

المنهل (جدة) س ۵۶: ع ۴۷۵ (۳- ۴/ ۱۴۱۰ ه/ ۱۰- ۱۱/ ۱۹۸۹ م) ص ۲۰۸.

۲۷۹۱- نعم وُلِد صلی الله علیه و آله فی مکة المکرمة

العرب س ۲۰: ص ۵۷۷.

۲۷۹۲- نغمات الرضا والقبول فی زیارة المدینة وسیدنا الرسول صلی الله علیه و آله

أحمد الحضراوی المکی ت ۱۳۳۶ ه.

ص: ٣٠٣

ظ: معجم المؤلفين ٢/ ۶۴، المدينة المنورة فى التاريخ ٢٠٩.

٢٧٩٣- نفح العود فى أيام الشريف حمود (وهو فى تاريخ مكة)

عبدالرحمن بن أحمد البهكلى الصمدى القاضى المولود سنة ١١٨٠ ه.

ظ:

إيضاح المكنون للبغدادى ٢/ ۶۶٧.

٢٧٩۴- النفح الفرجى فى الفتح الجته جى لعبداللّه باشا (فى رحلات الحج)

جعفر بن حسن البرزنجى

العرب. س ١٢: ع ۵- ۶ (١١، ١٢/ ١٣٩٧ ه/ ١١، ١٢/ ١٩٧٧ م) ص ٣۵٣- ٣٩۶

(حمد الجاسر).

٢٧٩۵- نفحات الرضا والقبول فى فضائل المدينة وزيارة الرسول صلى الله عليه و آله

أحمد بن محمد بن أحمد الخضراوى ت ١٣٢٧ ه

مكة المكرمة: المطبعة الميرية، ١٣١۴ ه، ٩۶ ص، ٢٨ سم (على هامش: العقد الثمين فى فضل البلد الأمين).

ظ:

إيضاح المكنون ٢/ ۶۶۴، معجم المطبوعات لسركيس ٨٢۵.

٢٧٩۶- النفحة المسكية فى الرحلة المكية

أبوالبركاتعبد اللّه بن حسين البغدادى

الدارة س ١: ع ٢ (٩/ ١٩٨۴ م) ص ٨٨- ٩۶ (عرض: فاضل عباس الغراوى).

٢٧٩٧- النفط فى حصار مكة

العرب س ١٨: ص ١١٢۶.

٢٧٩٨- نفوذ اسلام در يثرب

(بالفارسية)

رسول جعفريان

ميقات حج س ٢: ع ۶ (زمستان ١٣٧٣ ش)، ص ٩١- ١١٠، ع ٧ (بهار ١٣٧٣ ش) ص ١١۴- ١٢۵.

٢٧٩٩- نقد كتاب محمد صلى الله عليه و آله در مكه و مدينه- نقد و بررسى كتاب «محمد فى مكة» و «محمد فى المدينة»

Montegomory Watt

تعريب: شعبان بركات

(بالفارسية)

نقد: محمد ثقفى

كيهان انديشه ع ۴٧ (فروردين- ارديبهشت ١٣٧٢ ش)، ص ١۴۴- ١۵٠.

ص: ٣٠۴

٢٨٠٠- نقد معاجم الأمكنة بجزيرة العرب

حمد الجاسر

المنهل (جدة) مج ۶: ج ١ (١/ ١٣۶۵ ه/ ١٢/ ١٩۴۵ م) ص ١۵- ١٩.

ج ٢ (٢/ ١٣۶۵ ه/ ١/ ١٩۴۶ م) ص ۶٩- ٧٣.

٢٨٠١- نقش ايرانيان در حرمين شريفين

(بالفارسية)

محمد جواد طبسى

ميقات حج. س ۴: ع ١١ (بهار ١٣٧۴ ش) ص ١٠۶- ١٢۴.

٢٨٠٢- نقش حج درتحولات دينى غرب آفريقا

(بالفارسية)

محمد على سلطانى

ميقات حج. س ٣: ع ١٠ (زمستان ١٣٧٣ ش) ص ۵٠- ۶٠.

٢٨٠٣- نقشان تذكاريان بمسجد الإجابة بمكة

هشام عجيمى

عالم المخطوطات والنوادر (الرياض) ع ١ (١۴١٧ ه).

٢٨٠۴- نقشه راهنماى مكه مكرمه و مدينه منوره

(بالفارسية)

إعداد: گيتا شناسى

مؤسسة جغرافيايى وكارتوگرافى سحاب، ط ١، ١٣۶۵ ش.

٢٨٠۵- نقشه كعبه: نقش كعبه

(فى تحديد الأركان والمحاريب للكعبة، بالفارسية)

مجهول المؤلف

ظ:

مجلس ١٠/ ١٣٨٢، فهرستواره منزوى ١/ ٢۵٨.

٢٨٠۶- النقوش والآثار فى صخور الحجاز

أحمد شطا

وضعه: عثمان رفقى رستم

ترجمة: السيد أحمد شطا

المنهل (جدة) مج ١١: ج ٣ (٣/ ١٣٧٠ ش/ ١٢- ١/ ١٩۵٠- ١٩۵١ م) ص ١- ١۶.

٢٨٠٧- نكاتى در رابطه با سفر حج

(بالفارسية)

محمد صادق نجمى

ص: ۳۰۵

قم: ط ۱، ۱۳۶۵ ش.

۲۸۰۸- نگاهی بر آثار اسلامی حرمین شریفین

(بالفارسیة)

اصغر قائدان

پیام انقلاب س ۱۴: ع ۳۰۷ (تیر ۱۳۷۲ ش)، ص ۱۴- ۱۶، س ۱۴: ع ۳۰۸ (تیر ۱۳۷۲ ش) ص ۱۴- ۱۶.

۲۸۰۹- نگاهی به اسرار حج

(بالفارسیة)

وهبة الزحیلی

ترجمة وتحقیق: محمد تقی رهبر

میقات حج. س ۳: ع ۱۰ (زمستان ۱۳۷۳ ش) ص ۱۹- ۳۶.

۲۸۱۰- نگاهی به چند کتاب: الحج فیالقرآن، حج الأنبیاء والأئمة، الحج فی السنة

(بالفارسیة)

محمد علی مهدوی راد

میقات حج: ع ۱۸ (زمستان ۱۳۷۵ ش) ص ۱۷۶- ۱۸۴.

۲۸۱۱- نگاهی به حکمت پارهای از مناسك حج

(بالفارسیة)

محمد باقر حجتی

فی کتاب المؤلف:

چهارده مقاله و گفتار، ص ۲۳۷- ۲۵۷

طهران: پیام قرآن، ط ۱، ۱۳۶۱ ش (کلیات قرآن شناسی، ۴).

میقات حج س ۲، ع ۲ (تابستان ۱۳۷۲ ش) ص ۱۵- ۳۸.

۲۸۱۲- نگاهی به وجوب عمره همراه با حج افراد وقران و ...

(بالفارسیة)

محمد رحمانی

میقات حج: ع ۲۲ (زمستان ۱۳۷۶ ش) ص ۵۰- ۶۴.

۲۸۱۳- نگرشی اجتماعی به کعبه و حج

(بالفارسیة)

محمد حسین کشکوئیه

طهران: أمیر کبیر، ط ۱، ۱۳۷۲ ش، ۳۲۴ ص، ۲۱ سم.

۲۸۱۴- نگرشی بر اسرار معنوی حج

(بالفارسیة)

محمد تقی رهبر

میقات حج: ع ١٣ (پاییز ١٣٧۴ ش)

ص: ٣٠۶

ص ٣٩- ۵٠.

٢٨١۵- نگرشى بر عرفات

(بالفارسية)

محمد أمين پور امينى

ميقات حج. س ٣: ع ١٢ (تابستان ١٣٧۴ ش) ص ١۶۴- ١٧٣.

٢٨١۶- نگرشى به بعد تبليغى در آينه حج

(بالفارسية)

أحمد بهشتى

ميقات حج س ٢: ع ۴ (زمستان ١٣٧٢ ش) ص ٢٩- ۴٣.

٢٨١٧- نگرشى تازه به رمى جمرات

(بالفارسية)

مهدى مهريزى

ميقات حج: ع ٢۶ (زمستان ١٣٧٧ ش) ص ۴۴- ۵۵.

٢٨١٨- نگرشى كوتاه به تبيين «حج»

(بالفارسية)

محمد جواد حجتى كرمانى

مسجد س ١: ع ٣ (خرداد ١٣٧١ ش) ص ١٣- ١٧

(ميقات حج س ١: ع ١ (پائيز ١٣٧١ ش) ص ١٠٨- ٨٩، ع ۵ (شهريور، مهر ١٣٧١ ش) ص ٣٣- ٣٩.

٢٨١٩- نگرشى نو به ميقات

(بالفارسية)

محمد فاضل لنكرانى

ترجمة: معينى زاده

ميقات حج س ٢: ع ۴ (تابستان ١٣٧٢ ش) ص ٧۵- ٨۴.

٢٨٢٠- نمى از يم سفرنامه حج

(بالفارسية)

محمد تقى فرجى

طهران: ط ١، ١٣٧٢ ش، ۴٢ ص.

٢٨٢١- نهج البيان فى مناسك النسوان

أبوالفتح محمد بن عثمان الكراجكى ت ۴۴٩ ه

ظ:

الذريعة ٢٢/ ٢٧۶، ٢۴/ ۴١۵.

٢٨٢٢- نهج الحجج فى مناسك الحاج

باقر بن إسماعيل الواعظ الكجورى ت ۱۳۱۳ ه

ظ:

الذريعة ۲۴/ ۴۱۵.

ص: ۳۰۷

۲۸۲۳- نهج المسالک إلی معرفة المناسک

سليمان بن الحسن... تلميذ الشيخ الطوسی وصاحب «إصباح الشيعة»

ظ:

هدية العارفين ۱/ ۳۹۷، الذريعة ۲۲/ ۲۷۶، ۲۴/ ۴۲۴.

۲۸۲۴- نواب الرسول علی المدينة

عبدالرزاق أسود

الرسالة الإسلامية (بغداد) ع ۵۱ (۱۳۹۲ ه) ص ۱۶- ۱۸.

۲۸۲۵- نواب الرسول علی المدينة

مکی حسين الکبيسی

الرسالة الإسلامية (بغداد) ع ۵۶ و ۵۷ (۱۳۹۲ ه) ص ۹۴- ۹۵.

۲۸۲۶- النواحی العمرانية لمکة المکرمة علی مر العصور

عباس المهاجر

ميقات الحج ع ۲ (۱۴۱۵ ه) ص ۲۳۹- ۲۶۱.

۲۸۲۷- نوادر المدنيين

الزبير بن بکار، ت ۲۵۶ ه

ظ: فهرست النديم ۱۲۳.

۲۸۲۸- نور المحجة فی أعمال شهر ذی الحجة

النجف الأشرف: مطبعة النعمان، ۱۹۷۳ م، ۱۶ ص.

۲۸۲۹- النور الوهاج فی إيضاح مناسک الحج

هاشم عبدالسلام الظاهر

الموصل: مط الهدف، ۱۹۵۵ م، ۳۲ ص.

۲۸۳۰- نيّات الحج والعمرة

الشهيد الثانی زين الدين العاملی ت ۹۶۵ ه

تحقيق: فارس حسّون کريم

ميقات الحج ع ۲ (۱۴۱۵ ه) ص ۸۰- ۹۶.

۲۸۳۱- نيايش حسين عليه السلام در صحرای عرفات

(بالفارسية)

محمد تقی رهبر

طهران: ولی عصر، ۱۳۶۱ ش.

۲۸۳۲- نيل المرام فی فضل بيت الله الحرام

محمد بن ظافر المکی.

ظ:

المنهل (جدة) س ۵۶: ع ۴۷۵

ص: ۳۰۸

(۳- ۴/ ۱۴۱۰ ه/ ۱۰- ۱۱/ ۱۹۸۹ م) ص ۲۰۸.

۲۸۳۳- الهادية فى زيارة النبى والأئمة الطاهرين

ظ:

الذريعة ۵/ ۱۵۵- ۱۵۶.

۲۸۳۴- الهجرة إلى المدينة وبناء المجتمع الجديد

لطفى شاكر عجينة

منبر الإسلام س ۴۷: ع ۱ (۸/ ۱۹۸۸ م) ص ۲۶- ۲۹.

۲۸۳۵- هجرة الرسول إلى المدينة المنورة

حسين أمين

فى: موسوعة العتبات المقدسة ج ۳:

قسم المدينة، ص ۱۲۹- ۱۷۰.

بيروت: مؤسسة الأعلمى، ط ۲، ۱۴۰۷ ه/ ۱۹۸۷ م.

۲۸۳۶- الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها

أحمد شلبى

القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ۱۹۸۵ م، ۳۹ ص (المكتبة الإسلامية لكل الأعمار)

۲۸۳۷- الهجرة والنموذج للمدينة الإسلامية

سر الختم عبدالكريم

رسالة المسجد س ۸: ع ۸۳ (۷/ ۱۹۸۸ م) ص ۲۰- ۲۲.

۲۸۳۸- هدايا الكعبة وآثارها ومعاليقها قبل الإسلام

عبدالقدوس الأنصارى

المنهل (جدة) مج ۵۱: ع ۴۷۵ (۳- ۴/ ۱۴۱۰ ه) ص ۸۶- ۸۸.

۲۸۳۹- هدايت السبيل و كفاية الدليل

(رحلة إلى مكة فى سنة ۱۳۷۲ ه، بالفارسية)

فرهاد بن عباس قاجار ت ۱۳۰۵ ه

ظ:

نسخه‌ها ۶/ ۴۰۵۶، الذريعة ۱۲/ ۱۸۹ (سفرنامه) و ۲۵/ ۱۷۷ (هدايه)،

استورى ۱۱۵۷ الرقم ۱۶۲۴، برگل ۲/ ۸۶۳ و ۸۶۴

مشار ۵/ ۵۴۶۰، مشار مؤلفين ۴/ ۸۲۰،

آستان قدس ۳/ ۱۵۵، فيلمها ۱/ ۱۲۱، ملى تبريز ۱/ ۱۸۴،

ص: ۳۰۹

نشريه ۳/ ۱۴۱ و ۲۵۲، آصفيه هندليست ۳/ ۳۵۰، رقم ۹۶،

فهرستواره منزوى ۱/ ۱۵۷.

۲۸۴۰- هداية الأمّة إلى زيارت الأئمة

(ترجمة كتاب الستر والأستار عن وجه زيارت الزوّار، بالفارسية).

مرتضى خسرو شاهى

ترجمة: عبدالّله بن عباد الله الحسينى

مشهد: ۱۳۲۳ ش، ۵۶ ص.

۲۸۴۱- هداية الأمة فى زيارة الأئمة

(بالفارسية)

محمد جعفر بن سيف الدين

شريعتمدار استرآبادى ت ۱۲۶۳ ه

خ: السيد المرعشى برقم ۳۰۷۷، ۲۴۲ ورقة، ۱۲۶۱ ه،

ظ: فهرس المرعشى ۸/ ۳۰۱، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت صلوات الله عليهم ۱۰/ ۱۶۹.

۲۸۴۲- هداية الثقلين فى فضل الحرمين

محمد بن على عبدالرحمن بن عراق الصمدانى (۸۷۸- ۹۳۳ ه)

ظ: الكواكب السيارة ۱/ ۶۵،

المنهل (جدة) س ۵۶: ع ۴۷۵ (۳- ۴/ ۱۴۱۰ ه/ ۱۰- ۱۱/ ۱۹۸۹ م) ص ۲۰۹، العرب. س ۳۱: ج ۷، ۸ (۱، ۲/ ۱۴۱۷ ه) ص ۴۷۲.

۲۸۴۳- هداية الحاج

على الموسوى البهبهانى

اصفهان: ط ۵، ۱۳۹۵ ه.

۲۸۴۴- هداية الزائرين إلى زيارة المعصومين

(بالفارسية)

محمد ربيع بن عبدالنبى

خ: جلال الدين الأرموى بطهران.

ظ: الذريعة ۲۵/ ۱۷۶، معجم ماكتب عن الرسول وأهل البيت صلوات الله عليهم ۱۰/ ۱۶۹- ۱۷۰.

۲۸۴۵- هداية السالكين من الأنام إلى حج بيت الله الحرام

مشكور بن محمد الحولاوى النجفى ۱۳۷۲ ه

ظ:

الذريعة ۲۲/ ۲۷۶، ۲۵/ ۱۷۶.

۲۸۴۶- هداية القاصدين للحج والعمرة وزيارة سيد المرسلين

عبدالفتاح على هندام

راجعه وصحّحه: محمود حسن ربيع



ص: ٣١٠

القاهرة: مطبعة دار الأنوار، ١٣۵٨ ه، ١٩۶ ص.

٢٨۴٧- هداية المشتاق المستهام إلى رؤية النبى عليه الصلاة والسلام

زين العابدين المرصفى

خ: عارف حكمت برقم ٢٢٧ مجاميع

ظ:

إيضاح المكنون ٢/ ٧٢٣، معجم ماألف عن رسول الله صلى الله عليه و آله ٣۴۶.

٢٨۴٨- هداية الناسك إلى أهم المناسك

عبدالله بن محمد بن حميد

مؤسسة مكة للطباعة والإعلام، ط ۴، ١٣٩۵ ه، ١٠٧ ص، ١٧ سم.

٢٨۴٩- هداية الناسكين من الحجاج والمعتمرين

محمد حسن بن محمد باقر صاحب «جواهر الكلام»

ظ: الذريعة ٢۵/ ١٩٨.

٢٨۵٠- هدى الحرمين

محيى الدين محمد محى الأدونه (ت ١٠١۴ ه)

ظ:

المنهل (جدة) س ۵۶: ع ۴٧۵ (٣- ۴/ ١۴١٠/ ١٠- ١١/ ١٩٨٩ م) ص ٢٠٩.

٢٨۵١- هديّه زائرين

(بالفارسية)

حسين صديقى

مشهد: ١٣۴٩ ش، ٩٩ ص، ١٩ سم.

٢٨۵٢- هدية الزائرين

عباس جليان

مشهد: ١٣٨٣ ه، ٩٩ ص، ١٩ سم.

٢٨۵٣- هدية الزائرين (مجموعة زيارات المدينة المنورة)

محمد حسن النائينى

الكويت: ط ۵، ١٣٨٨ ه، ٩٨ ص، ١٧ سم.

٢٨۵۴- هدية الزائرين: شامل ادعيه و زيارات در مكه معظمه و مدينه منوره

مشهد: انتشارات هجرت، ط ١، ١٣٧٠ ش، ١٠٢ ص.

٢٨۵۵- هدية الزائرين فى الزيارات

محمد بن محمد حسين المرعشى الشهرستانى الحائرى

ظ: الذريعة ٢۵/ ٢٠٩، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت صلوات الله

ص: ٣١١

عليهم ١٠/ ١٧٠.

٢٨۵۶- هدية الزائرين وبهجة الناظرين

عباس القمى

تبريز: ١٣۴٣ ه، ۵۵٩ ص: حجرية.

طهران: ١٣٢۴ ه، ۵۵٩ ص، حجرية.

٢٨۵٧- هدية الزمن فى أخبار ملوك الحج وعدن

أحمد فضل بن على محسن العبدلى

بيروت: دار العودة، ط ٢، ١۴٠٠ ه، ٣١٩ ص، ٢۴ سم.

٢٨۵٨- هذه هى مكة: أم القرى وأم المدن.

مصطفى نبيل

العربى: ع ٢٣٧ (١٩٧٨ م) ص ۶٨.

٢٨۵٩- هشت بهشت فى المزار

(بالفارسية)

عبدالكريم بن جواد الموسوى الجزائرى

ظ: الذريعة ٢۵/ ٢٢٣، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت صلوات الله عليهم ١٠/ ١٧١.

٢٨۶٠- هكذا حج رسول الله صلى الله عليه و آله

محمد مهدى الحسينى الشيرازى

النجف الأشرف: ١٩۶٨ م.

٢٨۶١- هكذا حج رسول الله صلى الله عليه و آله أيام التشريق

محمد عبده يمانى

الإسلام وطن س ۵: ع ۵٢ (٧/ ١٩٩١ م) ص ١٨- ١٩.

٢٨۶٢- هل تريد الحج؟

محمد مهدى الحسينى الشيرازى

النجف: مطبعة النعمان، ١٣٨٠ ه، ١۶ ص (سلسلة الفرائض الإسلامية، ۵)

النجف: ط ٢، ١٩۶۴ م.

٢٨۶٣- هل طاف النبى صلى الله عليه و آله حول الأصنام فى عمرة القضاء؟

محمد هادى اليوسفى

ميقات الحج. س ٣: ع ۵ (١۴١٧ ه) ص ١٧١- ١٨١.

٢٨۶۴- هل يحق لغير المسلم أن يسكن جزيرة العرب؟

يعقوب جعفرى

ميقات الحج ع ١ (١۴١۵ ه) ص ٢١٣- ٢٢٢.

٢٨۶۵- هلال المحرم وجبل الثور

أحمد على

المنهل (جدة) مج ۳۱: ج ۱ (۱/ ۱۳۹۰ ه

ص: ۳۱۲

/ ۳/ ۱۹۷۰ م) ص ۲۱- ۲۲.

۲۸۶۶- همراه با زائران خانه خدا

(بالفارسية)

محمد تقى رهبر

طهران: مشعر، ط ۲، ۱۳۷۵ ش، ۱۴۴ ص، ۲۱ سم.

۲۸۶۷- همراه با سپيد جامگان

(بالفارسية)

على قاضى عسكر

ميقات حج: ع ۱۷ (پاييز ۱۳۷۵ ش) ص ۲۳۳- ۲۵۴.

۲۸۶۸- همه با هم بسوى خانه خدا

(بالفارسية)

حسين رزازى

طهران: ۱۳۵۳ ش، ۱۷۸ ص.

۲۸۶۹- هيئة التوعيهٔ الإسلامية فى الحج بدأت منذ عام ۱۳۹۴ فى بيت الله الحرام

الرابطة (مكهٔ المكرمهٔ) س ۲۶: ع ۲۸۱ (۷/ ۱۹۸۸ م) ص ۳۱- ۳۲.

۲۸۷۰- وأذّن فى الناس بالحج

عبدالسلام عزام

المنهل (جدهٔ) مج ۹: ج ۱ (۱۳۸۶ ه/ ۱۱/ ۱۹۴۸ م) ص ۲- ۵.

۲۸۷۱- وادى القرى: المفهوم والمسمى (حول مكهٔ المكرمهٔ)

أحمد عبداللَّه عبدالكريم

الدارهٔ س ۹: ع ۱ (يوليو ۱۹۸۳ م) ص ۲۹- ۴۷.

۲۸۷۲- واقعات سفر حجاز

(رحلهٔ إلى الحجاز، بالفارسيهٔ)

شيخ عبدوس (من الهند)

ظ:

نسخه‌ها ۶/ ۴۰۵۴،

الذريعهٔ ۲۵/ ۲۱،

داكا ۱/ ۳۶۱،

فهرستواره منزوى ۱/ ۱۵۵.

۲۸۷۳- واليان مكه (از صدر اسلام تاكنون)

(بالفارسيهٔ)

تأليف و تحقيق: هادى أمينى

ترجمة: محسن آخوندی

میقات حج س ١: ع ٢ (زمستان ١٣٧١ ش) ص ١٨۵- ٢٠٣.

٢٨٧۴- الوثائق السیاسیة الإداریة العائدة للجزیرة العربیة

دراسة ونصوص: محمد ماهر حمادة

بیروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٧ م، ٣٧٢ ص.

ص: ۳۱۳

۲۸۷۵- وثائق مخصصات الحرمین الشریفین فی مصر أبان العهد العثمانی

مصطفی محمد رمضان

دراسات تاریخ الجزیرة العربیة: ج ۱ (۱۹۷۹ م) ص ۲۵۹- ۲۷۴.

۲۸۷۶- الوثائق المکتوبة باللغات الأوربیة والمتعلقة بالجزیرة العربیة فی الجزر البریطانیة

بقلم: ج. د. بیرسون

فی: الندوة العالمیة الأولی لدراسات تاریخ الجزیرة العربیة (الریاض:

۵/ ۱۳۹۷ ه/ ۴/ ۱۹۷۷ م).

۲۸۷۷- وثائق الوقف علی الأماکن المقدسة

عبداللطیف إبراهیم

دراسات تاریخ الجزیرة العربیة: ج ۱ (۱۹۷۹ م) ص ۲۵۱- ۲۵۷.

۲۸۷۸- الوثائق والمخطوطات العربیة لتاریخ الجزیرة العربیة

رشاد الإمام

المؤرخ العربی: ع ۱۳، ص ۱۸۹- ۱۹۸.

۲۸۷۹- وثیقة إنشاء الدولة الإسلامیة فی المدینة

جعفر عبدالسلام علی

الفکر الإسلامی س ۱۷: ع ۸ (۸/ ۱۹۸۸ م) ص ۴۷- ۵۰.

۲۸۸۰- وجوب الإحرام من المیقات

عبدالعزیز بن باز

مجلة التوحید (القاهرة) س ۱۶: ع ۱۱ (۷/ ۱۹۸۸ م) ص ۴۰- ۴۳.

۲۸۸۱- وجوب طواف البیت علی الأنام ولوکان بعد الانهدام

مجهول المؤلف

ظ:

إیضاح المکنون ۴/ ۷۰۱.

۲۸۸۲- الوجیز فی الحج مع الإشارة إلی الدلیل

محمد علی فاضل

الموصل: مط الجمهور، ۱۹۷۶ م، ۳۵.

۲۸۸۳- الوجیز فی مناسک الحج

محمد تقی المدرسی

طهران: ۱۴۱۵ ه.

۲۸۸۴- الوجیزة فی تعریف المدینة

(بالفارسیة)

(رحلة إلی المدینة فی سنة ۱۲۹۴ ه)

محمد ميرزا مهندس

تحقيق: رسول جعفريان

[د. م]: نشر مشعر، ط ١، ١٣٧٣ ش

ص: ۳۱۴

(مع: به سوی ام القری، وغيره).

۲۸۸۵- الوجيزة فی الزيارات

محمود بن علی بن محمد بن إبراهيم الحسينی الموسوی التبريزی ت ۱۳۳۸ ه.

طبع مع سلامة المرصاد للنوری

ظ: الذريعة ۲۵/ ۵۲، ۱۲/ ۲۱۳، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت صلوات الله عليهم ۱۰/ ۱۷۴.

۲۸۸۶- وحدت اسلامی به ضميمه كتاب الحج

(بالفارسية)

مجتبی ذاكری

مشهد: المؤلف، ط ۱، ۱۳۶۴ ش، ۱۸۴ ص، ۲۴ سم.

۲۸۸۷- وسيلة الزائرين

نظام الدين رفيع الدين البربری

طبع عام ۱۳۱۵ ه

ظ: الذريعة ۲۵/ ۷۸، معجم ما كتب عن الرسول و أهل البيت عليهم السلام ۱۰/ ۱۷۶.

۲۸۸۸- وسيلة القبول فی الصلوة علی آل الرسول

خ: مجلس الشوری بطهران

ظ: فهرس المجلس ۹/ ۴۵، معجم ما كتب عن الرسول و أهل البيت صلوات الله عليهم ۱۰/ ۱۷۶.

۲۸۸۹- وصف لمدينتی مكة والمدينة

مجهول المؤلف

خ: لوثر

ظ: المورد ۴۳، ص ۲۶۱، المنهل (جدة) س ۵۶: ع ۴۷۵ (۳- ۴/ ۱۴۱۰ ه/ ۱۰- ۱۱/ ۱۹۸۹ م) ص ۲۰۹، العرب س ۳۱: ج ۷، ۸ (۱، ۲/ ۱۴۱۷ ه) ص ۴۷۳.

۲۸۹۰- وصف المدينة المنورة فی سنة ۱۳۰۳ ه/ ۱۸۸۵ م.

علی بن موسی الأفندی

العرب. س ۶: ملحق ع ۴ (۱۰/ ۱۳۹۱ ه/ ۱۲/ ۱۹۷۱) ص ۱۰- ۲۶.

ملحق ع ۶ (۱۲/ ۱۳۹۱ ه/ ۲/ ۱۹۷۲ م) ص ۲۸- ۵۴ (حمد الجاسر).

۲۸۹۱- وصف مشاهد مكة والمدينة

محمد بن عمر الواقدی ت ۲۰۷ ه

ظ:

العرب. س ۳۱: ۷، ۸ (۱، ۲/ ۱۴۱۷ ه) ص ۴۷۳.

ص: ۳۱۵

۲۸۹۲- وصف مكة شرفها الله وعظمها ووصف المدينة الطيبة كرمهاالله ووصف بيت المقدس المبارک وماحوله

محمد بن أبى بكر التلمسانى

العرب مج ۸: ج ۵، ۶ (۱۱- ۱۲/ ۱۳۹۳ ه) ص ۳۲۴- ۳۵۷ (حمد الجاسر).

۲۸۹۳- الوصول والمنى فى فضل منى

الفيروزآبادى

ظ:

المنهل (جدة) س ۵۶: ع ۴۷۵ (۳- ۴/ ۱۴۱۰ ه/ ۱۰- ۱۱/ ۱۹۸۹ م) ص ۲۰۹.

۲۸۹۴- الوضع الاجتماعى فى الجزيرة العربية

أحمد الواسطى

ميقات الحج: ع ۱۰ (۱۴۱۹ ه) ص ۲۶۴- ۲۸۳.

۲۸۹۵- الوضع الاقتصادى فى الجزيرة العربية

كاظم النصيرى

ميقات الحج: ع ۹ (۱۴۱۹ ه) ص ۲۵۰- ۲۶۶.

۲۸۹۶- وضع الهلال فوق القبة ومنائر الحرم المدنى

مجهول المؤلف

نشر ضمن كتاب (رسائل فى تاريخ المدينة) (تقديم وإشراف: حمد الجاسر).

۲۸۹۷- وظايف أخلاقى حاجيان

(بالفارسية)

عبدالهادى مسعودى

ميقات حج: ع ۲۳ (بهار ۱۳۷۷ ش) ص ۱۵۶- ۱۷۰.

۲۸۹۸- وظايف هسته‌هاى امر به معروف در حج

(بالفارسية)

محمد محمدى رى شهرى

ميقات حج: ع ۲۲ (زمستان ۱۳۷۶ ش) ص ۱۴۴- ۱۵۱.

۲۸۹۹- وظيفة الحجاج فى مستحبات الأعمال للحجاج فى مكة والمدينة ومزارات الشام

أحمد بن كربلايى بابا أردبيلى

مطبوع سنة ۱۳۴۴ ه

۲۹۰۰- وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى

أبوالحسن محمد بن عبداللّه بن أحمد

ص: ۳۱۶

السمهودى

(وهو مختصر كتابه: اقتضاء الوفا)

القاهرة: (بعناية محمد محيى الدين عبدالحميد)

القاهرة: ۱۳۲۶ ه، ۲ ج فى ۱ مج

مطبعة الآداب والمؤيد، ۱۳۲۶ ه

بيروت: دار إحياء التراث العربى، ۱۳۷۴ ه، ۷۷۶+ ۶۵۹، ۲۵* ۱۷، ۴ ج فى ۲ مج

الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ۱۳۹۲ ه/ ۱۹۷۲ م، ص ۹۵- ۱۷۹ (ضمن رسائل فى تاريخ المدينة قدم لها وأشرف على طبعها: حمد الجاسر (نصوص وأبحاث جغرافية وتاريخية عن جزيرة العرب، ۱۶).

۲۹۰۱- وفود القبائل على الرسول وانتشار الإسلام فى جزيرة العرب (يعرض الكتاب لوفود القبائل العربية على الرسول صلى الله عليه و آله من شتى أنحاء الجزيرة العربية ويذكر معبوداتهم السابقة ومعتقداتهم)

حسن جبر المالكى

الكويت: وزارة الإعلام، ط ۱، ۱۹۸۷ م، ۳۲۹ ص، ۲۴ سم (دراسات فى التراث العربى، ۱۰) الوعى الإسلامى: ع ۲۹۰ (۲/ ۱۴۰۹ ه/ ۱۰/ ۱۹۸۸ م) ص ۹۲- ۱۰۵ (فهمى الإمام).

۲۹۰۲- وفور الأثر فى التوسل إلى سيد البشر

محمد رضا أسداللّٰه شاهى الاصفهانى

اصفهان: ط ۲، ۱۳۲۶ ه، ۱۲۸ ص.

ظ:

الذريعة ۵/ ۱۲۲.

۲۹۰۳- وقائع الندوة الإسلامية السنوية الكبرى لموسم حج ۱۴۰۸

محمد بهى الدين سالم

منبر الإسلام س ۴۷: ع ۱ (۸/ ۱۹۸۸ م) ص ۱۰۳- ۱۱۹.

۲۹۰۴- وقفة شاعر بوادى العقيق

المنهل (جدة) مج ۱: ج ۱۱- ۱۲ (۱۰- ۱۱/ ۱۳۵۶ ه/ ۱۲/ ۱۹۳۷- ۱/ ۱۹۳۸ م) ص ۵۷- ۵۹.

۲۹۰۵- وقفة فاحصة عند لفظة: «فلا جناح عليه»

محمد هادى معرفة

ميقات الحج ع ۱ (۱۴۱۵ ه) ص ۱۰۰- ۱۰۷.

ص: ۳۱۷

۲۹۰۶- ولاة مكة

ابن فهد النجم عمر

خ: مدراس بالهند.

مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، (نسخة مصوّرة).

۲۹۰۷- ولاة مكة بعد الفاسى

عبدالستار الدهلوى

(رسالة)

(طُبعت بمصر سنة ۱۹۵۶ م مع شفاء الغرام)

ظ:

المنهل (جدة) س ۵۶: ع ۴۷۵ (۳- ۴/ ۱۴۱۰ ه/ ۱۰- ۱۱/ ۱۹۸۹ م) ص ۲۰۹.

۲۹۰۸- الولاية على أرض الحرمين الشريفين فى الإسلام والقانون الدولى

محمد الخطيب

منبر الإسلام (القاهرة) س ۷۴: ع ۱۲ (۷/ ۱۹۸۹ م) ص ۳۰- ۳۴.

۲۹۰۹- ويژگيهاى حج ابراهيمى از ديدگاه حضرت امام خمينى- رضوان الله تعالى عليه-

(بالفارسية)

ميقات حج س ۱: ع ۱ (پائيز ۱۳۷۱ ش)، ص ۱۶- ۹،

س ۱: ع ۲ (زمستان ۱۳۷۱ ش)، ص ۹- ۱۱،

س ۲: ع ۴ (تابستان ۱۳۷۲ ش)، ص ۷- ۸،

س ۲: ع ۵ (پائيز ۱۳۷۲ ش)، ص ۷- ۹،

س ۲: ع ۴ (زمستان ۱۳۷۲ ش)، ص ۷- ۹،

س ۲: ع ۷ (بهار ۱۳۷۳ ش)، ص ۷- ۹،

س ۲: ع ۸ (زمستان ۱۳۷۲ ش)، ص ۷- ۸،

س ۳: ع ۹ (پائيز ۱۳۷۳ ش)، ص ۹- ۱۱،

۲۹۱۰- ويژگيهاى حج سال ۱۳۷۱ ش

(بالفارسية)

محمد محمدى رى شهرى

ميقات حج س ۱: ع ۱ (پائيز ۱۳۷۱ ش) ص ۵۳- ۴۷.

۲۹۱۱- يا إله الحجيج

ضياء الدين رجب

المنهل (جدة) مج ۳۳: ج ۲ (۲/ ۱۳۹۲ ه/ ۳- ۴/ ۱۹۷۲ م) ص ۲۳۶- ۲۳۹.

ص: ۳۱۸

۲۹۱۲- یادی از سفر پر شکوه حج

(بالفارسية)

صدر الدین افتخاری

میقات حج. س ۳: ع ۱۰ (زمستان ۱۳۷۳ ش) ص ۱۹۳- ۱۹۸.

۲۹۱۳- یار کجاست (سفرنامه حج)

(بالفارسية)

رحیم مخدومی

طهران: حوزه هنری سازمان تبلیغات اسلامی، ط ۱، ۱۳۷۳ ش، ۱۸۴ ص.

۲۹۱۴- یثرب شهر یادها و یادگارها

(بالفارسية)

رضا رهگذر

طهران: انتشارات پیام آزادی، ط ۲، ۱۳۶۸ ش، ۱۱۰ ص، ۲۴ سم.

۲۹۱۵- يثرب قبل الإسلام

محمد أحمد الوكيل

جدة: دار المجتمع للنشر والتوزيع، ط ۲، ۱۴۰۹ ه، ۲۲۰ ص.

۲۹۱۶- یک کتاب در یک مقاله

(بالفارسية)

عرض كتاب الحج و العمرة فى الكتاب والسنة لمحمدى الرى الشهرى

محمد رحمانی

میقات الحج: ع ۲۴ (تابستان ۱۳۷۷ ش) ص ۱۴۲- ۱۶۴.

۲۹۱۷- يلمْلَم

عبدالهادى الفضلى

میقات الحج: ع ۹ (۱۴۱۹ ه) ص ۴۴- ۶۴.

۲۹۱۸- یلملم

(بالفارسية)

عبدالهادى الفضلى

ترجمة: مهدی پیشوایی

میقات حج: ع ۱۹ (بهار ۱۳۷۶ ش) ص ۱۰۱- ۱۱۷.

۲۹۱۹- يهفو إلى البيت قلبى

فؤاد شاكر

المنهل (جدة) مج ۳۳: ج ۲ (۲/ ۱۳۹۲ ه/ ۳- ۴/ ۱۹۷۲ م) ص ۲۴۰- ۲۴۱.

۲۹۲۰- يهود الحجاز فى العصر النبوى

رفيق التميمى

الزهراء (القاهرة) مج ۲: ج ۷ (رجب ۱۳۴۴ ه/ ۱۹۲۵ م) ص ۳۹۰- ۴۰۰.

۲۹۲۱- اليهود فى الجزيرة العربية

أحمد الواسطى

ميقات الحج ع ۲ (۱۴۱۵ ه)

ص: ۳۱۹

ص ۲۲۰- ۲۳۸.

۲۹۲۲- الیهود والدعوة الإسلامیة فی الحجاز فی فترة الرسول صلی الله علیه و آله

فتحی أحمد محمود

جامعة الموصل: کلیة الآداب، ۱۹۸۲ م (رسالة ماجستیر، بإشراف: هاشم الملّاح).

۲۹۲۳- یهود یثرب و خیبر: الغزوات والصراع

ناصر السید

بیروت: المکتبة الثقافیة، ط ۱، ۱۹۹۲ م، ۱۵۰ ص، ۲۴ سم.

۲۹۲۴- یوم الحجّ الأکبر

علی قاضی عسکر

میقات الحج ع ۱ (۱۴۱۵ ه) ص ۱۶۹- ۱۸۶.

۲۹۲۵- یوم الحج الأکبر: الإعلان بآداب الحج إلی البیت الحرام

إبراهیم العدوی

منبر الإسلام (القاهرة) س ۴۸: ع ۱۲ (۷/ ۱۹۹۰ م) ص ۱۴- ۱۷.

۲۹۲۶- یوم فتح مکة

خلیل هنداوی

بیروت: دار العلم للملایین، د. ت، ۱۱۹ ص (أیام العرب، ۶).

بیروت: دار العلم للملایین، ۱۹۷۴ م، ۱۲۴ ص.

تعریف مرکز

بسم الله الرحمن الرحیم

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنَادِرُ البِحَار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – "رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَبَّع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأَدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِقِ و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَةِ

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.